الباب الثانى

مداخــل إلــى الأركــان

obeikan.com

obeikan.com

ـ ٢ ـ

تغييب مصر ـ رسائل تجاه المستقبل

« ارفـع رأسـك يـا أخـى ! »

[جمال عبد الناصر ، ٢٣ يوليو ١٩٥٢]

(...) إن إله مصر لقوى ، وهو من القوة بحيث لا يسمح لهؤلاء البرابرة بالاقتراب من طريقه ، أدعوك يا أبى آمون ، إنى الآن وسط أعداء لا تحصى من البرابرة الذين لا أعرفهم ، وقد تحالفت جميع البلدان ضدى ، وأنا الآن بمفردى ، ولا أحد معى (...). وها أنذا أصلى لك من أعماق أرض البرابرة (...).

ـ (آمون) تقدم ، تقدم ، إنى معك ، إنى أبوك. ويدى معك ، وسأناصرك وأشد من أزرك بأقوى من مئات الألوف. وإنى هنا لرب الانتصار ، وإنى لأعجب بالشجاعة.

ـ (رمسيس) ها هى شجاعتى تعود إلىَّ من جديد. وها هى الفرحة تدخل قلبى. وكل ما أتصدى إليه يكتب له النجاح. وها أنا مثل « مُنتو » أطلق السهام عن يمينى وآخذ الأسرى عن يسارى. وإنى الآن أواجههم ، مثل « بعل » عندما تحين ساعته.

[من صلاة رمسيس الثانى فى معركة قادش ١٢٧٠ قبل الميلاد]

إن ٢٦ مارس ١٩٧٩ يمثل ــ أولاً وقبل كل شىء ــ « التأسيس الثانى لدولة إسرائيل » ، ونهاية « الرفض العربى » ، على حد تعبير اثنين من كبار المفكرين الصهاينة التقدميين الليبراليين. إذ هو يضفى الشرعية على الدولة العنصرية ، ويكسب قدسية وحرمة لسيطرتها العسكرية على أرض فلسطين ، وأراضى عدة أقطار عربية ، ومعناه إنكار كامل لمجرى التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية.

ويمثل يوم ٢٦ مارس ١٩٧٩ ـ فى المقام الثانى ـ إنشاء حلف عسكرى جديد تحت

obeikan.com

السيطرة الرسمية للإمپريالية الأمريكية، والهيمنة الفعالة لقيادة الإمپريالية الصهيونية العنصرية ـ فى وقت يتداعى فيه الحلف المركزى (سنتو) تحت ضربات الثورة الوطنية الإيرانية، وحلف جنوب شرق آسيا الذى تفكك إثر انتصار الاشتراكية فى الصين وفيتنام ـ ولا يعكس هذا اليوم واقعًا للسلام لدى الأمة العربية بحال من الأحوال.

إذ أن الفلسطينيين أصبحوا الآن ـ أكثر من أى وقت مضى ـ محرومين من وطنهم، وأصبحت سوريا والأردن محرومتين من أجزاء كبيرة من أراضيهما الوطنية، وباتت الأمة العربية ممزقة جغرافيًّا، وصارت جامعة دولها دون فاعليه، وأصبح قلبها عند سيناء والحدود الشمالية لمصر مفككًا ومفتوحًا على مصراعيه أمام الغزوات عبر الطريق التاريخى. وعلى الصعيد الأوسع، تقف جبهة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية، وجبهة القارات الثلاث، ومجموعة دول عدم الانحياز فى موقف يتميز بالعنف الشديد، وأصبحت الأراضى الإفريقية أشبه بفريسة مقدمة إلى حلبة الصراعات المتزايدة بين الدولتين الأعظم، مع استمرار بقايا آسيا ـ التى يمثل سكانها ٥٧ فى المائة من الجنس البشرى ـ بعيدة عن دائرة الصراع. إنها عملية تؤدى إلى تمزق أوصال الدائرة العربية الوطنية المباشرة، وتهدد الدائرتين المحيطيتين ـ إفريقيا والإسلام ـ فقد تنشئ فى الوقت نفسه عداء مع مجموعة البلدان الأوروپية الاشتراكية المتحالفة مع القوى العظمى الثانية فى العالم والاشتراكية: الاتحاد السوڤييتى.

وما من أحد يختار زمانه عبر التاريخ.

وزماننا ـ أى المرحلة الحالية من زمان جيلنا عبر التاريخ[1] ـ هو ـ بلا شك ـ زمان احتجاب مصر.

---

(١) حول «الجيل الذى على موعد مع التاريخ»، انظر:

Anouar Abdel-Malek, Fgypte: société militaire (Paris: Edition du Seuil, 1962).

ومن الأفضل مراجعة الطبعة الثانية الموثوقة، أنور عبد الملك، **المجتمع المصرى والجيش**، ط٢، ترجمة محمود حداد، وميخائيل خورى (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤) وعلى المدى الأطول:

Anouar Abdel-Malek, Idéologie et renaissance nationale: L' Egypte moderne: (Paris: Editions Anthropos, 1969)

أفضل تاريخ موثوق لحروب مصر هو ذلك الذى جرى بحثه ونشره من قبل: حسن البدرى، **الحرب فى أرض السلام: الجولة العربية الإسرائيلية الأولى ١٩٤٧ ــ ١٩٤٩** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦)؛ وحسن البدرى، طه المجذوب، وضياء الدين زهدى، **الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة، أكتوبر ١٩٧٣**، ط٤، معدلة ومزيدة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥).

obeikan.com

أولاً: الجدلية الاجتماعية: الدائرة الخارجية

لقد فقدت الچيوبوليتيك مكانتها لدى الغرب خلال فترة ١٩٢٩ ـ ١٩٤٥، كما فقدت مكانتها أيضًا لدى جيلين من المفكرين ومقررى السياسة العرب ـ باستثناء جمال عبد الناصر وجمال حمدان(١). ومع ذلك، فإن الجغرافية السياسية هى وحدها التى تقدم مفتاح الإجابة عن السؤال لماذا حدث؟ ولماذا هنا؟ ولماذا الآن؟

يسود أحدث موجات التفكير العربى نوع من النزعة الأيديولوچية. فهناك تساؤلات مثل: ما هى علاقة ڤيتنام بنضالنا من أجل التحرير الوطنى؟ وهل يمكننا السير فى هذا الطريق على نحو ما؟ وهناك تساؤلات أخرى من بينها إدراج أبعاد مثل «الجيفارية»، فضلاً عن الأوهام المستمرة للدولية الذاتية، لا تزال تحدث مفعولها بشىء من القوة لدى بعض القطاعات التقدمية الراديكالية من مثقفينا(٢)؛ وذلك لأن إعطاء الأولوية للتأثير السياسى والمحورى للچيوبوليتيك، كما يحددها «عمق مجالنا التاريخى»، معناه التخلى عن الذاتية، أى عن إعطاء الأولوية للمعالجة الأيديولوچية لمشكلة القوة. ومن ثم لا يبقى مجال كبير أمام المفكرين ـ حسب هذا الرأى ـ ناسين أن الطريق العظيم الذى اختطه أفلاطون وماو تسى تونج وآخرون، يمثل الربط بين الثقافة والقوة، بين الفكر والفعل، بين عالم الأفكار والطريق الصعب للسياسة الواقعية.

لقد اجتمعت النزعة الأيديولوچية من جميع الأشكال فى عصرنا الحديث على تزييف وتشويه وضع مشكلتنا القومية. فحتى «يالطا» وما بعدها ــ ومنذ الجزء

---

(١) خاصة العمل الرائع لـ: جمال حمدان، **شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان** (القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٦٠)؛ جمال حمدان، ٦ أكتوبر فى الإستراتيچية العالمية (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٤)؛
Anouar Abdel-Malak, **«Geopolitics and National Movements: Essay on the Dialectics of Imperialism.»** Antipode. Vol. 9. no 1. pp. 23-36, and Anouar Abdel-Malek, **«The Civilizational Significance of the Arab National Liberation War.»** in: Nasser Aruri, *Middle East Crucible: Studies on the Arab-Israeli War of October 1973* (Wilmette. III: Medina University Press. 1975). Pp. 347-365.

(٢) فى أعمال المرحوم ياسين الحافظ، وبخاصة التحليل الواعى لأحمد بهاء الدين فى افتتاحيته فى المستقبل عام ١٩٧٩.

الأخير من القرن التاسع ـ كان ينظر دائمًا إلى وضع مشكلة العرب فى التاريخ فى ضوء الديالكتيك بين مختلف الحضارات فى الشرق والغرب. وقد كان ذلك هو معنى الحملة الحضارية المضادة للصليبيين ـ لعشرة قرون ـ ولمملكة القدس التى أنشئت فى قلب المشرق العربى لمنع أى إمكانية لتوحيد أراضيه حول مصر فى عهد صلاح الدين. وقد كان ذلك ـ ولا يزال ـ هو معنى الاستعمار والإمبريالية التقليدية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والإمبريالية الأمريكية المهيمنة فى عصرنا، وهذا ـ قبل كل شىء ـ هو معنى الإمبريالية الصهيونية، العنصرية والتوسعية والعسكرية فى منطقتنا، وفى أيامنا هذه. ويمكن القول ـ بالطبع ـ إن «الإمبريالية» باعتبارها مقولة نظرية، ترتبط بالتجارب الحياتية لمجتمعات دول مثل ڤيتنام وموزامبيق وشيلى والبرازيل بطريقة مماثلة. وهى ترتبط دون شك، وفى كثير من النواحى، ولكن فى إطار نظرى بحت. والمهم هو قراءة تاريخ تحول العالم منذ نزوع الغرب إلى السيطرة فى القرن الخامس عشر إلى أيامنا هذه، بالأبعاد العامة والواسعة لهذا التحول، ومن ثم يصبح من الأيسر ـ دون شك ـ فهم وإدراك دلالة المنطقة الحضارية العربية ـ الإسلامية فى ديالكتيك الحضارة، باعتبارها عملية ديالكتيكية مستمرة ذات أبعاد تاريخية وشاملة، وقد تكون صاحبة التأثير التشكيلى الأقوى فى تركيب ميزان القوى فى المدى الطويل لعصرنا الحديث.

إن وضع المشكلة، المشكلة العربية فى عصرنا، ينظر إليه بالتالى مثلما نظر إليه محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر، أى كيف يمكن إنهاء الانحطاط؟ وكيف يمكن تحقيق النهضة؟ وهذه التحديات كانت إجاباته عنها بوضوح عبر توحيد أراضى العرب والإسلام حول دولة واحدة حديثة وقوية، وتقدمية، أى حول مصر تحت حكمه، ومن ثم الإمساك بمفاتيح الشرعية التاريخية، (ثم الشرعية التاريخية الإسلامية). وبهذه الطريقة وحدها، يمكن للمنطقة القومية ـ الحضارية العربية ـ الإسلامية أن تحقق النهضة، وأن تواجه هجمات الغرب وتخترق مجال تأثيره الناجم عن الجهود المشتركة للثورة الصناعية والثورات الديمقراطية ـ البرجوازية، والتحالف الوثيق بين الدول الأوروپية الحديثة. وقد دخلت دول أوروپا جميعًا دون استثناء فى تحالف إستراتيچى بعد سقوط نابليون لمواجهة التحديات التى تمثلها مصر فى عهد محمد على،

وذلك لمحاصرة هذا المركز الناشئ من مراكز القوى العالمية. وكانت معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ ، وتدمير الأسطول المصرى فى نافارين ، والإنذار الموجه إلى الجيوش المصرية فى قونية ونصيبين على أبواب إسطنبول هى الخطوات المباشرة التى أدت إلى انكسار مصر فى حوالى عام ١٨٤٠ ، ومن ثم إمكانية التهام الأرضى العربية والإسلامية بسهولة ، وهى الأراضى التى كانت مرتبطة فى ذلك الوقت فى إطار واهٍ بالإمبراطورية العثمانية المتحللة.

وعليه ، فإن «بداية المراحل المعاصرة للتاريخ الدولى» كانت ضد القوة الصاعدة للأمة العربية ، قبل ستين سنة من التدخل الجماعى للدوله الأوروپية ضد ثورة «البوكسر» فى الصين عام ١٩٠٠.

وبعد مرور حوالى قرن أو أكثر بقليل ، حطمت مصر من جديد أغلال التبعية : وأصبحت الثورة الوطنية بقيادة جمال عبد الناصر من ٢٣ تموز / يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٨ أيلول / سپتمبر ١٩٧٠ مركز اقتلاع جذور الإمپريالية فى مصر وفى معظم الأقطار العربية ، وبداية الوحدة العربية الأولى ، وإعادة توجيه الحركة الوطنية العربية نحو الاشتراكية ، ضمن إطار مشروع ناصر الدولى الكبير ، أى إعادة توجية المسار الدولى لمصر وللأمة العربية نحو الشرق ، والدوائر الثلاث للهوية (العربية والأفريقية والإسلامية) وحركة التضامن الأفريقية الآسيوية التى أرسيت أسسها فى باندونج مع شو إن لاى ونهرو وسوكارنو عام ١٩٥٤ ، وحركة القارات الثلاث. وقد حدثت هذه الانتفاضة الهائلة لمصر فى الأيام الخطرة للحرب الباردة ، وكان مقدرًا لها أن تستمر حتى بداية المرحلة الثانية ــ مرحلة «التعايش السلمى» ــ من العلاقات الدولية بين الدولتين الأعظم فيما بعد «يالطا». وكان هذا يعنى ـ بالضرورة ـ أنه من غير المتوقع أن يلقى ذلك قدرًا كبيرًا من التعاطف من جانب الأوساط الدولية ، بل على العكس قوبل بهجوم عدوانى ممتد : وكان لحرب ١٩٤٨ و١٩٥٦ ـ وخاصة حرب ١٩٦٧ ــ أن تلعب ذات الدور الذى لعبته العمليات العسكرية والسياسية ضد محمد على بين عامى ١٨٣٢ و١٨٤٠. لولا إعادة تنشيط الإمكانات الديناميكية القومية العربية ، وخصوصًا الثورة الجزائرية مقرونه بالتطورات التى حدثت فى أعقاب حرب اليمن ، وبروز المقاومة الفلسطينية ـ لكان قد تم حصار مصر الناصرية والقضاء عليها فى الأيام الحالكة من

يونيو ١٩٦٧ ـ عندما هب الشعب المصرى كله «كبيت من لحم» (يوسف إدريس) لإبقاء «الرئيس».

هذه هى الظروف السيكولوچيه التى أدت بقطاعات كبيرة من المثقفين والرأى العام على السواء إلى قبول مشكلة الحركة الوطنية العربية على نحو باطل. وبدلاً من إدراك أن عصرنا هو عصر المرحلة المعاصرة من المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب ـ والتى تتخذ الآن شكل الأمة العربية والدولة الصهيونية ـ اتجهت المعالجة نحو الوضع الأيديولوچى للمشكلة: بدءًا من تسمية الصراع العربى ـ الصهيونى بأنه «مشكلة الشرق الأوسط» أو «صراع الشرق الأوسط»، إلى التركيز المحورى الأسطورى لهذا الصراع الإقليمى حول عامل واحد يسمى «الثورة» الفلسطينية ـ ثورة وليست حركة تحرير وطنى أو مقاومة ـ مثلما كانت الحال فى الجزائر وڤيتنام على سبيل المثال. وابتداء من ذلك فتح الباب على مصراعيه لمهاجمة سلبية التجربة المصرية[1]، وتجاهل الطابع المحورى للحركة الوطنية العربية فى عصرنا حول مصر، وفهم الصراع على أنه مشكله دبلوماسية مقرونة بالأعمال العدوانية، يمكن معالجتها بالطرق الدبلوماسية الواعدة، والدولية الذاتية، والأيديولوچية الانفعالية.

وأدى هذا السلوك بقطاع كبير من طبقة السياسيين العرب إلى أن يسمحوا لأنفسهم بأن يستحوذ عليهم الوضع الأيديولوچى للمشكلة.

وهكذا بدأت عملية احتجاب مصر لدى عدة أوساط من طبقة السياسيين والمثقفين العرب. ومن ثم أمكن تنفيذ هذا الاحتجاب بيننا طبقًا للمقدمات الموضوعية التى تم وضعها. وعندما قال كيسنجر: «نحن نحاول التوصل إلى تسوية فى الشرق الأوسط على نحو يدعم النظم المعتدلة لا النظم الراديكالية»، فسر ذلك ـ من خلال النهج الأيديولوچى ـ على أنه دعوى للمحللين العرب إلى حساب مدى «اعتدال» أو «راديكالية» النظم العربية ـ كانت فترة ازدهار لنظرية المعرفة (ما معنى مفهوم «التقدمية»؟ ما هى «الأمة» ... الخ)، ـ وللتحليل الوظيفى الكمى (يجمع بين المعالجات

(١) إن متابعة الصحافة فى المشرق العربى على اختلاف اتجاهاتها ـ من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٣ مثلاً ـ تكون مفيدة فى هذا الشأن، والجزائر، من ناحية، وتونس والكويت من ناحية أخرى توفر مناخًا صحيًّا لتقييم الفترة.

الأساسية للناتج القومى الإجمالى و «أسلوب الإنتاج» ... الخ ـ كما لو كنا نعيش فى أرض بلا صاحب وعلينا أن ننظر إلى عمليتنا التاريخية من خلال المنظار المشترك للنزعة الأيديولوچية والصهيونية. ومن الممكن أن تستمر المناقشات الأيديولوچية ـ حسب هذه النظرة ـ حول درجة الاعتدال فى مقابلة الراديكالية فى مصر الناصرية، ويجرى حساب دلالتها التاريخية على أنها «النسبة المئوية» للمتغيرات التقدمية والمحافظة فى التحليل الجارى.

ويتمثل البعد الثانى ـ لهذه الدائرة الخارجية للديالكتيك الاجتماعى لأمتنا العربية ـ فى تركيب النظام العالمى وتطوره المعقد منذ «يالطا».

وهنا أيضًا نجد أن القلب التاريخى لقطاعات كبيرة من القطاعات المحدثة ـ وذات الاتجاه الغربى أساسًا ـ من صفوة المثقفين والسياسيين العرب ـ قد تشكل خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، وما بعدها مباشرة، مع ارتداء الاتحاد السوفييتى صورة الدولة الكبرى المناهضة للفاشية، والعنصر الأكثر تقدمية من عناصر التحالف ضد الهتلرية الألمانية وشركائها. وقد عزز هذا الموقف الموضوعى الاعتقاد القائل بأن الإستراتيچية اللينينية ـ أى التحالف العالمى بين حركات الطبقة العاملة فى الغرب وحركات التحرير الوطنى فى الشرق ـ ما زالت نافذة المفعول بالكامل.

وقليلون هم الذين لا حظوا، واهتموا بتقويم حقيقة أن تقسيم فلسطين قد تم تدبيره من خلال اقتراح مشترك تقدم به الاتحاد السوفييتى وبريطانيا العظمى إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٧. وتفننت قطاعات كبيرة من اليسار التقدمى فى الوطن العربى ـ أغلبية من الأحزاب الشيوعية مفضية إلى انقسام الحركة الشيوعية فى مصر ـ فى تقديم مبرراتها فى ضوء «الحقائق الموضوعية للنضال الدولى» لابتكار شروط مسبقة من أجل «الاعتراف بكيانات وطنية ثنائية» ... الخ... وأدرك قليلون ـ فى ذلك الوقت ـ أن هذه المواءمة المبسطة بين الحركات السياسية التقدمية الوطنية العربية المسئولة، وبين السياسة الرسمية للاتحاد السوفييتى قد انطوت على فقدان قوة الدفع للشيوعية كقوة أساسية فى حركة تحرير الوطن العربى وعمليات الوحدة الوطنية من ناحية، وعلى العمليات المعترف بها الآن من ناحية أخرى، حيث أصبح عدد من كبار أعضاء اليسار العربى فى مصر ـ بعد عام ١٩٦٧ بصفة خاصة ـ المفاوضين مع الدولة

الصهيونية من خلال وسطاء معروفين فى غرب أوروپا[1]. وقليلون هم الذين قبلوا إعادة تقويم تحليلات للسياسات العالمية عند هذا المنعطف.

إلا أن الموجات الصاعدة للصراعات والحروب ــ مقرونه بالثورات الوطنية والاجتماعية ـ بدأت تجتاح المناطق الإسلامية العربية وفى غربى آسيا، بدءًا من عام ١٩٤٦ وما بعده، فشهدنا فترة مملوءة بالإنجازات غير المتوقعة، ثم فقدان قوة الدفع، وبعد ذلك نهضة قوية، وظهور الائتلاف الجديد بين الإسلام السياسى والتيارات الراديكالية الوطنية، الذى أصبح مهد الناصرية فى قلب التوجهات العربية المعاصرة.

وكان النظام العالمى الذى أدى إلى ذروة الهيمنة الغربية على العالم فى «يالطا» عام ١٩٤٥ يدخل بسرعة مرحلة إعادة تقويم حرجة. ففى مواجهة القوة العسكرية السوڤييتية، والسياسة الواقعية المتقدمة لستالين فى تقسيم أوروپا من حيث الأمر الواقع وإنشاء منظومة من الدول الاشتراكية حول موسكو، اختارت الولايات المتحدة إعادة بناء أوروپا الغربية من خلال مشروع مارشال، وتقوية جبهة الدول الرأسمالية الاستعمارية السابقة فى غربى أوروپا تحت قيادتها خلال حلف الأطلنطى، ومنظماته السياسية والعسكرية. وهكذا بدأت المرحلة الأولى بعد «يالطا»، وهى مرحلة الحرب الباردة من عام ١٩٤٧ إلى أيام السويس عام ١٩٥٦، وهى فترة شهدت قيام أكبر ثورة فى التاريخ فى الصين بقيادة ماو تسى تونج والشيوعية الوطنية، وشهدت الحرب الصعبة فى كوريا، والحرب الڤيتناميه الأولى، وقيام الثورة الوطنية فى مصر وسورية والعراق، بالتوازن مع ثورة التحرير الوطنى فى الجزائر، ومع ابتعاد كوبا عن الهيمنة

---

(١) انظر السياقات المتكررة فى *Le Nouvel Observateur* والصحافة الصهيونية اليسارية، التى تأكدت الآن فى منشور أخير، والمقال المسموم لـ:

Joseph Kraft. **«A Divided Opposition to Sadat,»** *International Herald Tribune*. 11/4/1979

وثمة دراسة اجتماعية ـ تاريخية جيدة لـ: أحمد محمد غنيم وأحمد أبو كف، **اليهود والحركة الصهيونية فى مصر، ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧**. تقديم أحمد بهاء الدين (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٩).

فى حين يقدم عبد الوهاب المسيرى رؤية تفصيلية مصرية ـ عربية متطورة فى كتابه: **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية** (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيچية بالأهرام، ١٩٧٥)

وقد نشير من جبهة أخرى إلى عرض ثقافى لتاريخ اليسارية المصرية تختلف معه تمامًا، فى: رفعت السيد، **تاريخ المنظمات اليسارية المصرية، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠** (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧).

الأمريكية. وقد فسِّر الانتقال من الحرب الباردة إلى التعايش السلمى فى الغرب على أنه نتيجة الإستراتيچية السياسية التى رسمها خروشوف وبريجنيف للحاق ـ بالسرعة الممكنة ـ بالمستوى الأمريكى للإنتاج والاستهلاك، مع تعويض النزف الرهيب الناجم عن حرب التحرير الوطنية العظمى. وهذا عامل جوهرى دون شك. غير أن هناك عاملا أكثر أهمية ـ كما يعتقد الآن ـ هو بزوغ قارتى أفريقية وآسيا ـ الشرق ـ نحو المعاصرة، ومن بعدها أمريكا اللاتينية، أى بروز الشرق الحضارى من جديد، مزاوجًا بين التحرير الوطنى والثورة الاشتراكية ـ فى كثير من الأنماط ـ نحو النهضة الحضارية. وهذه الدفعة القوية الهائلة ـ حول محوريها الرئيسيين الصين ومصر ـ أخذت تدريجيًّا تلزم كل قطاعى الغرب بالتكيف مع الواقع وتخفيف مستوى المواجهة العسكرية والسياسية، مخافة أن يؤدى نشر الصراعات والتوترات المتصاعدة على نحو غير متوقع أو موضوعى ـ بسبب نهوض الشرق على وجه التحديد ـ إلى مواجهة بين الدولتين الأعظم.

وهكذا نعتقد أن التعايش السلمى باعتباره خطوة نحو الرشد السياسى يدين إلى تأثير حركات التحرير الوطنى ـ وإلى نهوض الشرق ـ أكثر مما يدين إلى مجرد تحليل سياسى لتجنب المواجهة النووية، وإعادة تكييف المواقف المتعارضة للدولتين الأعظم فى إطار الردع النووى.

غير أن المحللين بدءوا تدريجيًّا يدركون أن التحدى الكبير لنظم الهيمنة الغربية الثنائية القطب بعد «يالطا» إنما يأتى من الصين. وقد أدى قرار الاتحاد السوڤييتى بإخضاع ماو تسى تونج والقيادة الصينية وإرغام الصين على اتباع الطريق السوڤييتى للتنمية إلى سلسلة من السياسات التى قدر لها أن تحطم الحلقات الأخيرة من التقليد، والارتباط الموضوعى: وهذا هو معنى «القفزة الكبرى إلى الأمام» وفترة «المائة زهرة» والمرحلة الأولى من «الثورة الثقافية» وهذا هو معنى «التحديثات الأربعة» التى نادى بها شو إن لاى، لأن جعل الصين دولة اشتراكية قوية حديثة فى نهاية القرن العشرين لا يمكن أن يعنى إلا تغيير كل نسق القوى العالمى بنيويًّا، ولأول مرة منذ القرن الخامس عشر بمساعدة ديناميكا من اليابان ـ الدولة الثانية فى النظام الرأسمالى من حيث التقدم الصناعى والتكنولوچى، وهى خطوة تتمثل فى معاهدة السلام والصداقة الموقعة بين الصين واليابان فى أغسطس ١٩٧٨ والتى تمثل فتحًا لعصر جديد.

وقبل ذلك، اقتربت القوة المتزايدة لزخم حركة الوحدة الوطنية العربية ـ بشكل خطير ـ من تحقيق حلم صلاح الدين ومحمد على وجمال عبد الناصر، ولم يكن ذلك خلال الفترة القصيرة من حياة الجمهورية العربية المتحدة فقط، ولكن ربما أكثر من ذلك عقب الأيام الرهيبة من حرب يونيو ١٩٦٧. وذلك لأن الرئيس عبد الناصر كان قد بدأ يعيد صوغ سياساته الوحدوية العربية بشكل كونفدرالى وشعبى وواقعى، وعلى نحو يجعلها أكثر قبولاً لدى مجموعات واسعة من المصالح والاتجاهات والقوى السياسية فى الوطن العربى عامة. ونحن نعلم الآن القصة الحقيقية للعلاقات بين الاتحاد السوفييتى وكل من جمال عبد الناصر وحركات الوحدة العربية فى ذلك الوقت، من خلال وثائق مدعومة بالأدلة، من فترة تجربة الوحدة العربية الأولى حتى الأيام الحرجة فى حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣. وتدل تلك الوثائق بشكل قاطع على أن السياسات الرسمية للاتحاد السوفييتى لا يمكنها أن توطن نفسها بأى طريقة ملموسة على قبول قيام دولة عربية حديثة وموحدة وقوية ومتقدمة بزعامة مصر، فى منطقة يعتبرها الاتحاد السوفييتى حساسة لأمنه القومى. فقيام دولة عربية موحدة وحديثة وقوية وتقدمية حول عاصمتها القاهرة، يمكن أن تسيطر على الولاءات العاطفية والسياسية لمجموعة المنطقة الإفريقية الآسيوية: إذ أن المنطقة الإسلامية ـ الممتدة من الغرب حتى الفيلبين ـ تقع على حدود الاتحاد السوفييتى والهند والصين، فضلاً عن حقيقة أن المنطقة الغنية بالنفط على نحو فريد فى السعودية وإيران يمكن أن تمزق التوازن الواهى للانفراج الدولى الثنائى القطب من خلال هذه القوة العظمى الصاعدة[1]. ومن ثم بذلت الجهود كلها لتطويق هذه العملية، وإن كان ذلك بأسلوب يختلف تمامًا عن الإمبريالية الأمريكية. إذ هى عملية تطويق وليست عملية تدمير. والتطويق معناه التحييد والحد من فعالية هذه العملية وإمكاناتها الهائلة، مع البقاء دائمًا فى تحالف مع القطاعات

---

(١) القصة الكاملة ترى الآن من جديد وتدعمها وثائق مفصله ومحققة بدقة فى: قضايا الخلاف فى الحزب الشيوعى السورى (بيروت: دار ابن خلدون: ١٩٧٢)، وفى مذكرات سكرتير الرئيس عبد الناصر، عبد المجيد فريد فى: الدستور ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

Muhammed H. Heikal, ***The Sphinx and the Commissar: The Rise and Fall of Soviet Influence in the Middle East*** (London: Colins, 1978).

وفى: سعد الدين الشاذلى، «**أين أخطأت موسكو وأين أصابت**»، الفصل ٥، القسم ٤، «الحلقة الرابعة عشرة من مذكرات الفريق الشاذلى»، الوطن العربى، ٦/ ٤/ ١٩٧٩، ص ٤٦ ـ ٤٩.

الراديكالية العربية، دون إعطائها ـ فى أى وقت وتحت أى ذريعة ـ الوسائل الكفيلة باتخاذ عمل رئيس لتغيير ميزان القوى فى هذه المنطقة. وكان معنى التطويق أيضًا التصرف فى كل مكان حول هذه المنطقة الرئيسية على نحو يتيح تحييد منطقة النفط العربى ـ الإيرانى بعد جمال عبد الناصر مثلما حدث فى أفغانستان وإثيوبيا وأنغولا وموزامبيق والعمليات الجارية فى روديسيا والقطاعات الأخرى من إفريقيا. وهى حملة عالمية إستراتيجية متقدمة ومعدة بإتقان، وتساعد ـ موضوعيًّا ـ القضايا التقدمية فى كثير من الحالات، وتخلق فى أغلب الأحيان توترات رهيبة بين البلدان الشقيقة لدرجة إلحاق الضرر الشديد بالمصالح الوطنية لبعض هذه الدول (إريتريا، الصومال فى أوجادين) إنها عملية ذات أبعاد عالمية، تواصلت وأصبحت ممكنة عن طريق السيطرة على المحيطات خلال الأسطول السوفييتى الجبار، بقيادة وهندسة الأميرال جورشكوف، وبمساعدة كافة القيادات السوفيتية وإلهامها من ستالين إلى خروشوف[(١)].

وبالنسبة للأمة العربية، فإن مثل هذا الموقف ينذر بالخطر، خاصة بعد وصول دعاة الحرب الباردة الجديدة والأجهزة الصهيونية إلى السلطة عقب ووترجيت (الرئاسة الأمريكية حول اللجنة الثلاثية، وبريجنسكى). هذا التطور كان معناه أن أيام الانفراج الدولى تتلاشى تدريجيًّا. حتى مع توقيع اتفاقية سالت ـ ٢ كأمر حتمى لأسباب إستراتيجية. وقد ظهرت سريعًا مرحلة جديدة من المواجهات السياسية فى الوقت الحالى. وقد يكون ذلك مرحلة جديدة فى فترة ما بعد «يالطا»؟ لقد أصبح الموقف بالغ الخطورة بالنسبة للحركة الوطنية العربية فى كل مكان. وسرعان ما بات من الصعب

---

(١) انظر العمل المهم لـ:
Serge Georgievich Gorshkov, ed., ***Atlas of the Oceans*** (Oxford: Pergamon Press, 1976).
والذى لا يقل أهمية عن أعمال كلاوزفيتز. وتفيد الحقائق المستمدة من التاريخ القريب أن: «إضافة حاملة الطائرات «مينسك» والسفن المرافقة لها يزيد من قوة البحرية السوفييتية فى منطقة المحيط الهندى مؤقتًا على الأقل، إلى نحو ٢٤ سفينة، ولدى البحرية الأمريكية التى احتفظت بقوة بحرية فى منطقة المحيط الهندى ـ بحر العرب منذ نوفمبر، نحو ١١ سفينة الآن هناك. وتكمن قوة حاملة الطائرات الأمريكية «كونستلشن» من المقاتلات فى طائراتها التى يبلغ عددها قرابة ٨٠ من المقاتلات من طراز إف ـ ١٤ والقاذفات من طراز إيه ـ ٧ وإيه ـ ٦. وكل من الحاملة «مينسك» و«كييف» مزودة بأسلحة متعددة الاستعمالات بدرجة أكبر من تلك الموجودة على متن الحاملات الأمريكية، بما فى ذلك الصواريخ البعيدة المدى المضادة للسفن. كما أن الحاملات السوفييتية هى أيضًا بمثابة السفن الأم للطائرات النفاثة من طراز «ياك» التى ترتفع وتهبط عموديًا».
International Herald Tribune. 13/4/1979.

تحمله بسبب انفجار الثورة الإيرانية وما أحدثته من آثار ، وانهيار النموذج الهش المصطنع للنظم الحديثة الموالية للغرب ، ووصول الإسلام السياسى[1] إلى السلطة فى الدولة النفطية الثانية فى العالم (بعيدًا عن الاتحاد السوڤييتى والولايات المتحدة) ، والتى حدث أن كانت إحدى أقدم ثلاث أمم فى التاريخ إلى جانب مصر والصين. لقد أصبحت الظروف مناسبة لتحقيق الوضع المثالى الذى من خلاله يمكن للدولة الصهيونية العنصرية الإمپريالية أن تضرب وأن تؤكد سيطرتها على المنطقة العربية. فمن ناحية ، هناك الهجوم المضاد الأمريكى والغربى العالمى الإستراتيچى الحضارى ضد نهوض منطقة النفط العربية ــ الإسلامية بعد حرب أكتوبر. ومن ناحية أخرى ، هناك القرار السوڤييتى بكسب الوقت ، وتجنب المواجهة فى هذا التحدى القياسى ، مع انتهاج سياسة متقدمة للحصار والاحتواء ، تعطى الاتحاد السوڤييتى ميزة إستراتيچية فى المدى الطويل ، وتحدث فى هذه الأثناء مجموعة من المشاكل ذات أبعاد غير منضبطة.

ومن الواضح أن العالم يتحرك الآن ، ومفتاح الحرب والسلام لا يكمن ــ كما قد يستفاد من النهج الأيديولوچى ـ فى الاشتباكات المسلحة فى جنوب شرقى آسيا ، أو تدخل كوبا فى إفريقيا ، أو اكتشاف النفط فى المكسيك أو فى أى مكان آخر. بل يكمن ـ وسيظل يكمن فترة تاريخية طويلة ـ حيث يمكن دائمًا فى اللحظات التى يصل فيها الديالكتيك بين الحضارات إلى مستوى المواجهة : فى المنطقة العربية ـ الإسلامية ، حلقة الربط بين الشرق والغرب ، نقطة التحول بين القارات الثلاث : أوروپا ، وآسيا وإفريقيا ، موضع القرارات بين الدول الكبرى والمذاهب العالمية فى التاريخ.

---

(١) لقد عملنا على تحديد هذه الفكرة فى :
Anouar Abdel-Malek, « **Introduction à la pensée arabe contemporaine** », in Anouar Abdel-malek, ***Anthologie de la literature arabe contemporaine*, pref**. Jacque Berque (Paris: Editions du Seuit, [1964])

(الكتاب المطبوع لرسالة الدكتوراه التى قدمناها عام ١٩٦٤ فى علم الاجتماع) ؛ مرورًا بـ :
Anouar Abdel-Malek, *La Pensée politique arabe contemporaine* (Paris: Editions du Seuil. 1970): Anouar Abdel-Malek, « **Islam et marxisme** », « I problemi di Ulisse? » ***L'Islam*** vol. 14 (July 1977) pp. 114 - 122: Anouar Abdel-Malek, « **Political Islam-Positions,** » In: Socialism in the World, Third Round Table Conference. Cavtat. 1978 (Un Pubilshed).

وأنور عبد الملك ، «**المد الإسلامى هو الرد العربى**» ، النهار العربى الدولى ، ١٥ / ٢ / ١٩٧٢ ، ص ٥.

obeikan.com

إن العرض السابق ، والسريع جدًّا للعناصر التحليلية يمكن أن يساعد فى الإجابة عن الأسئلة التى تدور حول التساؤل الرئيسى : لماذا حدث؟ لماذا حدث يوم ٢٦ آذار / مارس ١٩٧٩ ؟ لماذا قبلت مصر عزل نفسها ـ فترة من الوقت ـ عن الأمة العربية التى تشكل إطارها الأوسع[١]؟. لماذا أمكن حدوث احتجاب مصر التى ابتعدت عن مركز القرار فى قلب الأمة العربية؟

هذا عرض عام جدًّا للدائرة الخارجية. ومع ذلك لا يشكل بحال من الأحوال الإجابة عن السؤال ، أو تفسير مناسبًا للتراچيديا التاريخية التى تشهدها حاليًّا.

ثانيًا: الجدلية الاجتماعية: الدائرة الداخلية

العودة إلى ابن خلدون

المستوى الثانى ـ لسؤالنا ـ لماذا أمكن حدوث هذا الاحتجاب؟ يؤدى إلى العوامل التالية ، التى ترتبط ارتباطًا عضويًّا بالعوامل المبينة فى القسم الأول :

إن فهم الانقسام المفروض على الدولة والمجتمع فى مصر بعد عام ١٩٧٠ يعتبر أمرًا محوريًّا فى تحليلنا. وتبين الدراسة المقارنة المتبعة لمختلف قوالب الإنتاج وسلطة الدولة فى المجتمع المصرى ـ منذ بدايته حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ـ أن هناك استمرارًا ملحوظًا فى خصوصية العلاقة بين الدول والمجتمع. فقد تولدت فى مصر ـ وهى أكثر المجتمعات القائمة على الرى تماسكًا ـ أقدم دولة مركزية فى تاريخ البشرية ، وذات تاريخ متصل استمر نحو سبعين قرنًا ، فضلاً عن القرون السابقة. وكان من شأن الوحدة المركبة : التحكم فى المياه والتحكم فى السلطة من خلال الجيش الوطنى ، والتحكم فى الكيان الأيديولوچى ـ اللاهوتى ، أن بات للقطر المصرى وزنه الفريد فى عمليات المجتمع ، مما جعل الدارسين المصريين يتساءلون باستمرار عما إذا كان تاريخهم يعتبر نقمة أو نعمة.

---

(١) من الأهمية بمكان فى هذا الشأن تعريفًا «للأمة ذات المستويين التوأم» :

Anouar Abdel-Malek, « **Introduction a la pensee arabe contemporaine,**» in La Pensée politique arabe contemparaine, pp. 23-25.

أنور عبد الملك، **دراسات فى الثقافة الوطنية** (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٧)، أنور عبد الملك، **الفكر العربى فى معركة النهضة** ، ترجمة وإعداد بدر الدين عروكى (بيروت : دار الآداب ، ١٩٧٤).

obeikan.com

وعلى طول التاريخ أقامت الدولة ـ على رأس المجتمع المصرى ـ سلطتها على فائض القيمة، وكان مستمدًّا من السيطرة على مياه النيل واستخدامها فى الرى والصرف، وبناء السدود، وفى توزيع أنصبة الحياة من إنتاج الغذاء، والتكاثر البشرى، والرفاهية. وهذا التركيب الخاص للأساس المادى الموضوعى لسلطة الدولة المصرية أعطاها طابعًا مستمرًّا وفريدًا باعتبارها دولة الأمة، وإن كان ذلك تحت هيمنة الطبقات القيادية ومجموعات السلطة فى البلاد، حول المثلث المكّون من ملاك الأرض ـ قادة الجيش ـ القادة الدينيين والأيديولوچيين. ولا بد من الاعتراف فى أغلب الأحيان ـ عن خطأ أو صواب ـ بأنه من أجل الحفاظ على مصر كأمة عمدت الدولة القومية فى مصر إلى توحيد المصالح الطبقية المحدودة لقيادتها مع مصالح الوجود القومى عامة: ذلك هو تاريخ الجيش المصرى من سوقنن رع إلى عبد المنعم رياض وسعد الدين الشاذلى، وتاريخ الدولة المصرية فى مركز دائرة نفوذها، من رمسيس وتحتمس، حتى جمال عبد الناصر، والمهندسون وخبراء الرى، والرياضيون، والأطباء ذوو التقاليد العريقة، منذ عهد الأهرامات حتى القصر العينى، وأهمية الزعماء الدينيين وقيادة الفكر فى الحياة السياسية الوطنية حتى يومنا هذا.

وبقدر ما حافظ هذا الهرم المشيد على تماسكة، استنادًا إلى اقتصاد وطنى موحد، لم يكن من الممكن فى الواقع القيام بأى شىء من الداخل.

وبالتالى، فإن الهجمة الحضارية الإستراتيچية الشاملة المضادة للإمپريالية والصهيونية استهدفت تفكيك هذه الوحدة الراسخة عن طريق هجوم مشترك عبر خطين رئيسيين:

١ـ أولاً وقبل كل شىء، استخدام عائدات النفط، البترودولارات، بطريقة مكثفة، وموضوعية لإقامة قطاع مواز للاقتصاد الوطنى المصرى التقليدى، حول قطاعه العام الناصرى، قطاع جديد به كثير من الموارد والوفرة، (حيث يمكن لسكرتيرة تجيد لغتين أن تحصل على مرتب وزير) ـ وأدى هذا تدريجيًّا إلى إنشاء اقتصاد موازٍ كومبرادورى، من القاعدة إلى القمة، هرم مقلوب. وقد استخدم الاقتصاد الموازى لإضعاف قاعدة الاقتصاد الوطنى، وإفساد كوادره الذين اجتذبتهم الامتيازات الهائلة، ولإضعاف معنويات البيروقراطية المصرية التى استمرت آلاف السنين، والتى تهتم

اهتمامًا أصيلاً بالحفاظ على مصر واستقرارها وسيادتها، كما تشهد بذلك مقاومتها لما يعرف بسياسة الانفتاح ـ وبعبارة موجزة، كان الهدف إحداث نزيف من الداخل ظهرت خطواته عند هذا المنعطف.

٢ـ واقترن ذلك بإفقار مصر، وخاصة بعد الحروب الأربع والضغوط الهائلة على الاقتصاد الذى لا يستند إلى موارد نفطية. (وتلك حقيقة مذهلة، من وجهة النظر الچيومورفولوچية، إذا عمد المرء إلى التدقيق فى دراسة الخريطة النفطية من شرق المغرب إلى إيران، والتى تكشف وجود فراغ لا تفسير له من السلوم حتى السويس)، فى وقت أصبح النفط فيه سلاحًا، بسبب قرار مصر وسورية، الدولتين العربيتين المحرومتين من النفط، خوض الحرب فى ٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣، بعدما كان مجرد سلعة مهمة تكمن فى باطن الأرض تنتظر من يشتريها بأسعار تافهة، حتى الساعة الواحدة والدقيقة ٥٩ من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣... وقد اقترن النزف الداخلى بالهجرة الجماعية لمئات الألوف من خيرة كوادر المجتمع المصرى ـ من تيار المهندسين وعلماء الفيزياء إلى خيرة الصناع ـ سعيًا وراء موارد كافية للتغلب على التضخم المحيق فى وطنهم، وحتى يستطيعوا بعد سنوات من العمل فى الخارج تأمين شقة متواضعة لأسرهم وأطفالهم.

وكان الهدف ثابتًا وهو عدم السماح على الإطلاق بحرب تشرين الأول / أكتوبر جديدة، وعدم السماح على الإطلاق بإعادة تشكيل الوحدة المقدسة للجبهة الوطنية المتحدة حول الجماهير الشعبية، والجيش الوطنى. ويومًا بعد يوم، تشهد بذلك كل القرائن والأدلة، أصبحت مشاكل الوجود بالنسبة لرجال مصر ونسائها أمرًا لا يطاق تدريجيًا. فقد تكالبت مشاكل النقل والمواصلات والتليفونات والمجارى، مقترنة فى الأغلب مع مصاعب فى توفير الغذاء، بحيث أصبحت الحياة غير محتملة بالنسبة للغالبية الساحقة من المجتمع المصرى، باستثناء المجتمع الكومبرادورى الموازى. ويومًا بعد يوم أدى النزف المزدوج إلى إثارة القطاعات العريضة من الشعب، وبدأت الدعاية الذكية تحدث أثرها عن سوء استخدام أصحاب الملايين العرب لمواردهم النفطية، وإنكار المساعدات الضخمة الموازية والمقدمة إلى مصر من جانب أشقائها العرب فى الأقطار الغنية بالنفط.

وهكذا وضع الأساس للبدء فى سياسات نحو السعى إلى ترتيبات منفصلة مع الدولة الصهيونية، حلم القيادة الكومبرادورية فى مصر، التى أدركت ـ أفضل من البرجوازيات الوطنية، والقوى الشعبية، الإسلامية والاشتراكية على السواء ـ آثار الوفاق. وذلك لأنه إذا كان الاتحاد السوڤييتى أمكنه أن يحصل على تكنولوچيا الحاسبات الإلكترونية المتقدمة من الولايات المتحدة، فليس بوسعة أن يفعل ذلك إلا بالتغلب على اعتراض الجهاز الصهيونى المسيطر فى قلب الكونجرس الأمريكى. وينتج عن ذلك منطقيًّا أنه ما دام من غير المنتظر حدوث أى تدخل مباشر من الاتحاد السوڤييتى فى هذه المرحلة من التاريخ، فإن الطريق الوحيد للوصول إلى المعجزة الأمريكية هو الإذعان للإمپريالية الأمريكية، بل بصفتها القوى المنافسة الصاعدة داخل الجبهة العالمية للإمپريالية الغربية، والتى تنزع نحو تركيز القيادة فى يديها ولحسابها. ومن شأن عقد سلام منفصل أن يدخر فترة راحة للجماهير المصرية المتعبة وتهدئتها وحملها على الاعتقاد بأنها سوف تحصل سريعًا على «دجاجة لطعام الإفطار»، وهذا السلام المنفصل سيلقى الاستحسان الواسع لدى الرأى العام الغربى، ويتيح للمجموعات الغنية الانضمام إلى الشرائح الكومبرادورية، وشراكة كاملة فى نادى الأغنياء ـ على حساب عزلة مصر داخل قالبها الوطنى.

وقد لعبت تجربة أول محاولة لتوفير إطار موحد للأمة العربية ـ ولا تزال تلعب، فى العمق ـ دورًا قويًّا فى العمليات وردود الأفعال المستمرة. ولم تكن الدعوة إلى الوحدة العربية دعوة مصرية بالذات. وما من شك أن حزب الوفد هو الذى دشن جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، انطلاقًا من توجهات القيادة القوية لمجموعة بنك مصر الملتفة حول طلعت حرب، والموالية للعرب. ولكن الدعوة إلى الوحدة العربية ظلت امتيازًا للقيادات الوطنية العربية فى المشرق العربى، وبخاصة حزب البعث السورى. وكان نهج الرئيس جمال عبد الناصر نحو الوحدة العربية حضاريًّا وإستراتيچيًّا منذ البداية، أكثر منه نهجًا مؤسسيًّا بطريقة مباشرة. وقد حدد الدائرة العربية بأنها الدائرة الأولى بين الدوائر الثلاث للهوية المصرية، ومشروع مصر الوطنى، وذلك فى كتاب «فلسفة الثورة»، وقدم دعمًا قويًّا ومباشرًا للقوى المناهضة للإمپريالية، والتى كانت تعمل فى أجزاء عدة من الوطن العربى، وخصوصًا فى الجزائر واليمن، مقابل ثمن باهظ فى الواقع: فقد كانت حرب

السويس فى عام ١٩٥٦ انتقامًا من سياسة عبد الناصر الجزائرية، أما القضاء على الإقطاع فى اليمن فقد كلف مصر ٢٦ ألفًا من الشهداء، بذلوا أرواحهم فى معارك شرسة عند مدخل باب المندب مما كفل بقاء البحر الأحمر مأمونًا ووديًّا أيام حرب تشرين الأول / أكتوبر. وفى عام ١٩٥٨، كانت القيادة القومية العربية تمسك بزمام الموقف فى سورية، وقبل الرئيس عبد الناصر ـ بتأييد عارم داخل مصر ـ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة، التى فقدت مصر فيها اسمها لأول مرة فى تاريخها وأصبحت تعرف باسم «الإقليم الجنوبى» للجمهورية العربية المتحدة، ورغم أن المبادرة لم تكن مبادرته، فما من دولة موحدة ـ حسب التقاليد السياسية المصرية الخاصة ـ يمكن أن تؤدى وظيفتها بأسلوب غير محكم الروابط، بالأسلوب الإقليمى للنظم الأيديولوچية. فقد عمل الجهاز الحكومى الأوتوقراطى المصرى فى سورية، مثلما عمل بالضبط فى مصر فى ذلك الوقت، وخلق صعابًا ومعارضات حتمية من جانب فئات مختلفة. والخاصية الملحوظة لهذه الفترة، فترة قيام أول دولة عربية موحدة فى التاريخ الحديث، هى أن كل فئات الاتجاهات السياسية العربية تقريبًا قد تحالفت ضد الدولة المركزية بزعامة مصر، بينما كانت تنشد بقوة القيادة المصرية لأول دولة عربية موحدة.

وأدى انهيار الجمهورية العربية المتحدة بالرئيس جمال عبد الناصر إلى إدراك أن نهجه ـ الواقعى البراجماتى الأول ـ كان أكثر ملاءمة للحقائق السياسية فى عصرنا ـ على حد ما جاء فى تحليلات الشيوعيين المصريين فى ذلك الوقت. وكان النقد الذاتى الذى مارسه عام ١٩٦١ معناه أن مصر قد اختارت شكلاً أكثر دقة للوحدة العربية ـ ربما اتحادًا فيدراليًّا يأخذ فى اعتباره الخصائص الإقليمية، وإن كان يحتفظ بسيطرة مركزية قوية على الشئون السياسية الداخلية والخارجية، وعلى القوات المسلحة.

وكان من الواضح ـ عند هذا المنعطف ـ أن تحفظ بعض الاتجاهات السياسية فى مصر، بل ومعارضتها أحيانًا، لاشتداد موجة الوحدة العربية سوف تجعلها تقف ضد إشكالية الوحدة العربية فى ذاتها. وهى إذ تفعل ذلك فإن هذه الجماعات (التى تمثل أقلية) يمكن أن تدافع عن تضحيات مصر ورئيسها ـ الزعيم الذى لا ينازع للأمة العربية، والشخصية العملاقة من شخصيات هذا القرن ـ فى مواجهة الانقسامات والمؤامرات المضادة، والمناورات الأيديولوچية، والامتيازات الإقليمية الغربية عن

مفهوم الدولة العربية الواحدة. وعلى أى حال، فإن كلاً من ألمانيا وإيطاليا الحديثة لم تصبح موحدة من خلال سلسلة من الحلول الوسط بين الجماعات الأيديولوچية والأقاليم المتناحرة، وكذلك الحال بالنسبة لفرنسا وإنجلترا قبل ذلك بفترة طويلة. إذ أن الوحدة معناها وجود قيادة سياسية موحدة قوية. وقد دعيت مصر لتوفير مثل هذه القيادة. وكان من الصعب للغاية بالنسبة لقطاعات عريضة من سكان مصر أن يقبلوا اشتداد موجات النقد ضد الهيمنة المصرية. وبات التساؤل مطروحًا: لماذا ـ إذن ـ لا يعتد بالواقع، فنعمل داخل الأراضى المصرية؟ إن مصر هى موقع التحدى والحسم.

وقد مهدت الجماعات الأيديولوچية العربية والقوى الطاردة الإقليمية الطريق نحو التباعد الناشئ بين مصر ودائرتها المباشرة المتمثلة فى الأمة العربية، وبأكثر مما تظن. وما من شك فى أن حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ لعبت دورًا قويًّا فى استعادة روح الوحدة ودفعها إلى المقدمة، خلال الحرب نفسها، وعقبها تكاتفت الأقطار العربية الغنية بالنفط لمساعدة مصر وسورية، واستخدمت النفط فى ممارسة الضغط ضد الهيمنة الغربية. غير أن الجروح سرعان ما نزفت جميعًا من جديد، ومنذ الساعات الأولى ليوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ انهال السباب والانتقادات ضد جند مصر كما لو كانت العملية كلها خطة منظمة. ومرة أخرى لم يكن من شأن قوى الطرد المركزية إلا أن تقدم المبرر للاتجاهات الأكثر حذرًا ومحافظة فى مصر ـ لكى تنحو إلى عزلة جديدة.

ولم تكن دلالة هذه العملية غير الإيجابية بينة بذاتها للوهلة الأولى. غير أن المراقبين يمكن أن يلاحظوا العملية الموازية التى كانت تعمل بالطريقة نفسها أيام ابن خلدون. ذلك أنه خلال القرن الرابع عشر المشئوم انتقلت السلطة السياسية من أيدى الأسرة العسكرية المتماسكة فى مراكش إلى أيدى جماعات أكثر انفتاحًا وضعفًا وهامشية فى الجزء الشرقى من المغرب، فى تونس المواجهة لأوروبا. وقد كان ذلك هو الإطار التاريخى الذى أضعف الوحدة القومية، وأوجد العصبية الشهيرة التى جعلت مجرد وجود قيادة قوية للدولة فى ذلك الوقت مسألة متعذرة، حسب رأى ابن خلدون. ومن ثم قرار الهجرة إلى مصر حيث أمضى ٢٦ عامًا فى تأليف كتابه العظيم فى فلسفة التاريخ، مما جعله مؤسس علم التاريخ وعلم الاجتماع. وبعد مرور قرون، وللمرة الثانية ـ بعد محمد على عام ١٨٤٠ ـ حدث إنكار لسلطة الدولة ودعامتها مصر،

بالنسبة لدورها فى تشكيل الأمة العربية الموحدة، من جانب قوى الطرد المركزية الهامشية كما يبدو مثلاً فى بعض القيادات البالغة الثراء حول منطقة الخليج. وكيف يمكن تحقيق سلطة الدولة حيث يتوجب أن تتحقق إذا أمكن تجميع وصفّ مثل هذه القوى فى كثير من الحالات، لكى تيسّر إنشاء قطاع مواز كومبرادورى فى الاقتصاد والمجتمع المصرى عن طريق مناورات وألاعيب الغرب؟ ومن غير الممكن تحقيق أى وحدة عربية فى هذه المرحلة طالما ينكر على المركز الوحيد المهيأ للتوحيد دوره الموضوعى فى تحقيق شرعيته التاريخية التى تطالب بها الأقطار العربية المحيطة بمصر فى المقام الأول... هكذا أعد المسرح للانكماش.

وكان العامل المحورى عندئذ هو أن تظهر قيادة مصرية قادرة ومستعدة لتحديد الطرق والوسائل اللازمة لقيام أنماط جديدة من الوحدة العربية، وتجمع بين القوة المركزية والإمكانات المصرية وبين الموارد النفطية المكتشفة حديثًا والديناميكيات الشاملة لحركة التحرير الوطنى العربى، بعد أكتوبر ١٩٧٣، والمقاومة الفلسطينية. ولكن ذلك لم يحدث، بسبب الترتيبات الشاملة للوفاق، وأيضًا بسبب الخصائص الذاتية للقيادة السياسية فى مصر بعد عبد الناصر، والتى وطنت نفسها بالكامل على قبول الأوامر، بأن تصبح شريكًا صغيرًا فى عالم التبعية المحدثة.

وهكذا عدنا إلى ابن خلدون خلال فترة الوفاق والأنماط المتغيرة للقوى العالمية. وهذا موقف محفوف بالمخاطر. ويمثل تحديًا تاريخيًّا لا يمكن مواجهته إلا على مستوى رجال دولة من النمط الذى أعطى العالم محمد على وجمال عبد الناصر.

من المألوف لدى المثقفين الليبراليين ذوى التوجه الغربى انتقاد قيادة عبد الناصر من حيث الأوتوقراطية، وحقوق الإنسان. ومع ذلك فقد أثبت التاريخ ـ وسوف يثبت ـ أن ضعف مصر الناصرية كان من طبيعة مناقضة، على وجه التحديد.

ذلك لأن الثورة المصرية التى اعتمدت الاشتراكية العلمية عام ١٩٦٢ وأنهت عام ١٩٦٤ «حرب الظلام» التى كانت قد فصلت القوى الوطنية الرئيسية عن حلفائها اليساريين، قد انتهجت سياسة رسمية ذات اتجاه اشتراكى راديكالى، وذلك خلال المرحلة الأخيرة من فترة قيادة الرئيس عبد الناصر التى استمرت ١٨ عامًا، والتى تعتبر قصيرة للغاية. وأدى إنشاء التنظيم السياسى فى قلب الاتحاد الاشتراكى العربى إلى

الجمع بين الضباط الراديكاليين والتقدميين القوميين National progressives والشيوعيين والنقابيين والوطنيين Patriots لأول مرة منذ تنظيم «الوفد» السرى فى الفترة بين ١٩١٩ و١٩٢٣، انعكاسًا لائتلاف أحمد عرابى مع الحزب الوطنى فى ١٨٨١ ــ ١٨٨٢. وسرعان ما اقترنت هذه السياسة بتحول جذرى فى الإصلاح الزراعى بما يعيد صيغته حسب التنظيم الزراعى التعاونى سواء فى مجال الملكية أو استغلال الأراضى الزراعية المحدودة «جدًّا» فى مصر. وفى ذلك الوقت بالتحديد ــ أى عام ١٩٦٦ ـ قررت الدولة الصهيونية شن حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لتدمير الدولة التقدمية الوطنية الناشئة فى مصر، والتى اعتبرتها الصهيونية الدولية خطرًا مميتًا يهدد سياستها التوسعية العنصرية فى المنطقة العربية.

كان الوقت قصيرًا ـ قصيرًا جدًّا ـ ولم يتسع لإقامة بنية ملائمة، ناهيك عن نشرها. وحين شن الهجوم المضاد الشامل الإستراتيجى لم تتمكن المؤسسات والتقاليد الناصرية فى مصر من الصمود فى وجه عواصف الزمن ــ لفترة من الوقت على الأقل ـ وأصبحت مضطرة للعودة إلى النفى الداخلى أو للمعارضة العاجزة أو حتى قبول الحلول الوسطى الحتمية. ومن ثم فإن إنجازات عملية إضفاء الطابع الراديكالى على الثورة الوطنية المصرية هى التى سوف تدفع ـ أكثر من أى مجال آخر ـ ثمنًا باهظًا للغاية.

وهناك عوامل وقوى مهيمنة أخرى تعمل داخل الدائرة العربية الداخلية للديالكتيك الاجتماعى، وهى تحتاج إلى تحليل أكثر تفصيلاً. مثل السياسات المتجهة للداخل فى عدة أقطار عربية، راديكالية، ومحافظة على السواء. والمحاولات المتكررة للسخرية من المبادرات المصرية، ومحاصرة مصر لاختطاف قيادة ليس بوسعهم إدراكها. وقد نضيف أيضًا سوء استخدام إمكانات النفط إلى حد كبير ولفترة طويلة بين عامى ١٩٥٢ و١٩٧٣ ـ رغم وجود قيادة عربية قوية، وجاذبة مركزيًّا فى مصر. تلك هى العوامل والقوى المهيمنة التى أضعفت بشكل حتمى الموقف المؤيد للعرب لدى قطاعات من الرأى العام المصرى والقيادة المصرية. إلا أن النقطة الأخيرة تبدو محيرة بصفة خاصة: ذلك أن بنية المشروع الوطنى المصرى بقيادة عبد الناصر كانت بالتحديد العمل على جذب النفط الواقع فى محيط الدائرة للتفاعل الوثيق مع الجهاز القومى للدولة فى مركز الدائرة بغية تعزيز النهضة العربية الموحدة. غير أن ذلك قوبل بالرفض مرارًا

وتكرارًا وموجة بعد موجة، على اعتبار أنه هيمنة ومغالاة فى المركزية وفرض للأوتوقراطية، وغير ذلك، على نحو ما بيَّن محمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين فى كتاباتهما فى ذلك الوقت(1). وأصبح ظاهرًا للجميع أن هدف بعض الأوساط هو إعادة إنشاء الحلف المقدس، حلف الدفاع الشرق أوسطى، وهيمنة الهلال الخصيب فى زمن حلف بغداد وتحوله إلى الحلف المركزى. وعندما أصبح واضحًا أن الوقت وقت محاصرة فعلية، اشتد الأسى الذى أدى بدوره إلى إمكان تحبيذ التراجع داخل الأراضى المصرية.

تلك كانت العوامل التى أدت إلى يوم ٢٦ آذار/ مارس ١٩٧٩، وإلى انهيار الوحدة العربية نتيجة تغييب مصر.

ثالثًا: الإستراتيچية الحضارية

يتعين الآن طرح توجهات أساسية نحو مستقبل عربى له مغزاه خلال هذه الفترة من التحولات العالمية.

الفكرة المحورية فى هذا المستقبل هى الفكرة القائلة بأن التخطيط الإستراتيچى ينبغى أن يكون ذا طبيعة مختلفة بشكل أساسى عن التخطيط السياسى المألوف القصير أو المتوسط المدى، وذا الطبيعة التكتيكية أو الإستراتيچية. وما نحن بحاجة إليه هو استحداث رؤية عربية للتاريخ تنبثق من خصائصنا القومية - الحضارية المحددة تاريخيًّا - ومن فهم جديد للديناميات الجدلية للتحولات العالمية فى عصرنا هذا، وهو أمر يختلف كل الاختلاف عن الشروح التى يقدمها المفكرون الغربيون لمجموعات مختلفة من التحليلات(2). والهدف من هذه الإستراتيچية الحضارية العربية هو إعطاء الأمة العربية

---

(١) راجع النصوص الرئيسية من تلك الفترة فى:

Abdel-Malek, ***La Pensée politique arabe contemporaine***.

ويوجد عرض مستنير فى: عدلى حسن سعيد، **الأمن القومى العربى وإستراتيچية تحقيقه** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧)، فى مواجهة:

Yehoshafat Harkabi, ***Arab Strategies and Israel's Response*** (New York: Free press, 1977).

(٢) انظر:

Edward Mortimer, «**Making Zionism Acceptable to the Arabs**», *The Times*, 2/1/1975.

ObeiKan.com

عمقًا للمجال التاريخى، ومنظورًا متوسطًا أو طويل الأجل، وإدراكًا للمجال الجغرافى ـ السياسى، الذى يمكن أن تعمل فيه هذه الإستراتيچية بشكل مثمر، وفهمًا للتوقيت الذى يمكن عنده نشر هذه الإمكانات إذا فهمت بموضوعية. ونتيجة لذلك، توفر رؤية للمستقبل حيث تتصدى الأمة العربية لإنجاز مهام النهضة غير المكتملة فى القرن التاسع عشر، عن طريق المساهمة فى مشروعها الحضارى وتقديمه للعالم، فى زمن الأزمة العميقة للنموذج الحضارى للإنتاج والاستهلاك والأخلاق المدمرة للنفس فى مجتمعات الغرب الصناعية المتقدمة والقائمة على الاقتناء.

ـ والتحليل المستقبلى للدوائر الخارجية والمعالم الخارجية يفرض معالجة مجموعة من التساؤلات المهمة:

(أ) الاختلاف بين الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ من ناحية والبطء الراهن للنمو الاقتصادى، وما يعرف «بالركود» من ناحية أخرى وعلاقته بالتجمعات المجتمعية وهياكل القوة، المختلفة كل الاختلاف فى غرب أوروپا وأمريكا الشمالية، بل فى غرب أوروپا عينها، الموزعة على أكثر من أمة ـ دولة مختلفة.

(ب) التطور الديالكتيكى للمجتمع السوڤييتى والقوة السوڤييتية فى أواخر هذا القرن ومناحيه المرتقبة المختلفة: التحول البنيوى للديموغرافيا لمصلحة الجمهوريات الآسيوية الإسلامية فى آسيا الوسطى وسيبيريا؛ وصول الجيل الجديد من الكوادر المدربة تدريبًا عاليًا إلى موقع السلطة والنفوذ فى زمن السياسة السوڤييتية العالمية

= حول أوراق اعتماد م. رودنسون لمنحه جائزة إسحاق دويشتز التذكارية لعام ١٩٧٤. وفى هذه الأثناء وبعدما جرؤت صحيفة *Times* على إدانة لجنة محلفى جائزة نوبل، «توقفت عن الصدور» بسبب خلاف بين نقابة العمال والمكننة، وهذه حالة فريدة فى عالم الصحافة البريطانية دون أى شك، بينما كان منافسوها من الصحف اليسارية (اليومية والأسبوعية) يقودون حملة «تضليل» لتقديس يوم ٢٦ آذار / مارس ويربطون العرب بجيش التحرير الأيرلندى الذى اتهم بقتل نائب محافظ فى وايتهور فى ٣١ مارس ١٩٧٩.

حول الطابع الحقيقى للهجوم «العلمى» السياسى الاشتراكى الجديد، راجع المجموعة الغنية من الأدب النقدى فى:

Anouar Abdel-Malek, « **L'Orientalisme en crise** », *Diogéne*, no. 44 (1963), pp. 109-142.

إلى العمل الكبير لـ:

Edward W. Said, ***Orientalism*** (New York: Pantheon Books, 1978).

والانفراج الدولى؛ التفاعل بين التناقض الأساسى (أى بين الميزة الإستراتيچية من ناحية، والوتيرة الأقل سرعة باستمرار للنمو الاقتصادى بالمقارنة مع الولايات المتحدة من ناحية أخرى) وبين طريقة تحليل وفهم ومعالجة التحديات الأساسية التى يطرحها قيام مركز ثالث للقوة والنفوذ العالميين فى الصين؛ الموقف من الإسلام السياسى فى إفريقيا وآسيا والعلاقات معه، وما إلى ذلك.

(ج) المجرى المرتقب لبلورة مركز ثالث للقوة والنفوذ العالميين فى الصين، وبصفة أساسية بالتحالف مع اليابان، فى قلب آسيا، مع عوامل الالتقاء والاختلاف فى كوريا وڤيتنام والهند وجنوب شرقى آسيا. ومن الأهمية بمكان، فى هذا الميدان، آفاق إشكالية العلاقات بين النفط العربى ـ الإيرانى من ناحية، والحاجات الحيوية لليابان إلى هذا النفط، مع ملاحظة أن اليابان هى العامل الرئيسى لتحديث الصين، وهذا جانب ما زال قليل الاستخدام فى المنطقتين العربية والإسلامية.

(د) تطور أوروپا ـ بقطاعيها الغربى والشرقى على السواء ـ وبخاصة آفاق إعادة توحيد ألمانيا التى لا تبدو بعيدة جدًّا، فى شكل اتحاد كونفدرالى ألمانى، مما يخلق مركزًا هائلاً للقوة الاقتصادية فى قلب أوروپا، يربط ارتباطًا وثيقًا بالاتحاد السوڤييتى، من خلال سياسة الانفتاح على الشرق. ويتعين دراسة هذه الآفاق المرتقبة؛ لأنها ترتبط بالمجرى المستقبلى الممكن لبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ومناطق أخرى.

(هـ) ظهور أفريقية جنوب الصحراء، إما بالاتصال مع النفط والتكنولوچيا والتحالفات السياسية العربية، أو من خلال قيام مواقف من عدم التوازن والعنصرية مع جنوب إفريقيا، فى تحالف عسكرى إستراتيچى مع الدولة الصهيونية ـ وهو موقف بالغ الخطورة بالنسبة للسلام العالمى، ناهيك عن خطورته بالنسبة للأمة العربية والمنطقة الإسلامية.

(و) الإمكانات الصاعدة لأمريكا اللاتينية، وبخاصة البرازيل، والوفرة النفطية فى المكسيك القابلة للتطويق من جانب الولايات المتحدة، ومن ثم القليلة الاستخدام من الناحية السياسية. ويمثل البعد البرازيلى رابطة مهمة مع القارة الأفريقية، ومن ثم تستطيع البرازيل تقديم إمكانات متقدمة فى الميادين الصناعية والعلمية والتكنولوچية

والذرية، مقترنه بعمق جغرافى مما يجعلها منافسًا كبيرًا على مركز القوة العالمية الرئيسية فى السنوات العشر المقبلة، على المستوى العالمى - ومن ثم يصبح لها تأثير مهم جديد على الصراع العربى الصهيونى.

(ز) مشكلة السيطرة على البحار والمحيطات والاحتياطيات الهائلة من الموارد الغذائية، وأهمية القوة البحرية التى يمكنها أن تفتح أو تخنق الطرق البحرية للمواصلات ونقاط الاتصال ونقل النفط - الخ - من وإلى المنطقة الجغرافية السياسية العربية الإيرانية الإسلامية المحورية.

(ح)- إن البنود الأخيرة (هـ) - (و) - (ز) ترتبط ارتباطًا مباشرًا بأبعاد دور الأمة العربية فى قلب الكفاح المناهض للإمبريالية فى هذا القرن، من خلال حركات التضامن الإفريقى الآسيوى وتضامن القارات الثلاث، حسب تقاليد باندونج العظيمة، التى تتخذ الآن شكل مجموعة دول عدم الانحياز. وهى تقف فى كثير من المناطق موقفًا نشطًا مثلما كان الحال أيام الحياد الإيجابى لمصر الناصرية.

- الأداة الرئيسية لتحقيق إستراتيچية حضارية عربية هى الجبهة الوطنية الموحدة باعتبارها إستراتيچية تاريخية، والعمل التجميعى الأمثل لتعبئة الإمكانات الوطنية فى كل دولة داخل الإطار الأوسع للأمة العربية. وننقل عن صيغتنا لهذه الفكرة - عام ١٩٧٧- ما يلى[١]:

(أ) بنية الجبهة الوطنية المتحدة: البعدان

١ - يبدو أن مشكلة بنية الجبهة المتحدة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الممارسة السائدة حتى الآن. ويكمن هذا الاختلاف فى مجالين: مجال إنشاء بنية الجبهة المتحدة (Structuration) نفسها؛ مجال قدرة الجبهة المتحدة على الاستمرار والتواصل (Durability)، وما إذا كانت مشكلة تكتيك سياسى أو إستراتيچية سياسية، أو مشكلة أوسع.

وسنحاول هنا أن نبدأ بمعالجة البعد الأول، أى بنية الجبهة المتحدة.

---

(١) "The United Front as Historical Strategy-Positions", *Socialism in the World*, no. 7, pp. 59-74.

وفى رأينا أن التشكيل الداخلى الأمثل لبنية الجبهة المتحدة يتألف من الجمع بين مجموعتين مختلفتين أو مستويين من العناصر المكونة على النحو المبين أدناه.

٢ ـ المجموعة الأولى، أكثر تقليدية، وهى من العوامل المكونة التى يمكن أن يتشكل منها المستوى الأول للجبهة المتحدة، وهى المجموعة التى تنشأ فى جميع الجبهات السياسية المطروحة بواسطة قوى التحول والاشتراكية، بل بواسطة جميع القوى السياسية فى الواقع. وهى تنطلق من حقيقة أن الهيئة السياسية التى تعبر عن تباين أى تشكيل مجتمعى لأى أمة تتألف من مجموعات مختلفة: طبقات اجتماعية، مجموعات اجتماعية، مجموعات فرعية، وقطاعات، مجموعات مهنية وسياسية، الخ... وهذا هو مكان الأحزاب السياسية، والمنظمات النقابية، والمنظمات المهنية، والتعاونيات، ومنظمات التعبئة الشعبية والجماهيرية...الخ، ولا توجد هنا مشكلة تتصل بصيغة خاصة بتحليلنا على مستوى تشكيل البنية نفسها. وسوف تنشأ المشكلة عندما نناقش قدرة الجبهة المتحدة عينها على الاستمرار والتواصل، وما إذا كانت تكتيكية أو سياسية، أو إستراتيچية تاريخية، على نحو ما نطرح فى هذا المجال.

٣ ـ والمجموعة الثانية من عوامل تكوين البنية ـ والتى يتشكل منها المستوى الثانى من بنية الجبهة المتحدة ـ تتسم بأنها أكثر مراوغة واختفاء، كما لو كانت كامنة فى الجزء الخفى من جبل الجليد. وهى مجموعة العوامل التى تكمن خلف السطح السياسى الظاهر مباشرة من العناصر النشطة، ولكنها ملتصقة بالجذور التاريخية للاستمرارية المجتمعية العاملة فى الوحدة (Unit) التى ذكرنا أنها المكوّن المهم الوحيد للديالكتيك الاجتماعية بمجرد الدخول إلى عصر إيجاد إطار واحد للعالم (Globalization of the world)، أى الأمم والمناطق الوطنية ـ الثقافية فى العالم (National cultural areas)، وقد أوضحنا أعلاه الطريقة التى ترتبط بها عوامل الاستمرار المجتمعى ـ فى الأمم والمناطق الوطنية / الثقافية ـ ارتباطًا وثيقًا حول مزيج القوة السياسية والثقافية الوطنية باعتباره محور الاستمرار المجتمعى عبر القرون، من خلال تتابع الأشكال المختلفة للإنتاج والنظم الاجتماعية ـ السياسية والأيديولوچية. وإنه لمن حقائق الحياة وحقائق السياسة والتاريخ أننا نلاحظ فى الأمم والمناطق الوطنية ـ الثقافية المهمة اتجاهات رئيسية للفكر والعمل، «المجموعات الروحية الكبرى» (Les grandes familles spirituelles) ـ على حد

التعبير الفرنسى الدقيق ـ التى تمثل الرؤى الأساسية التشكيلية للفكر والحس الوطنى، والمعبر عنها باستمرار فى عالم العمل السياسى ـ والتى فيها قبلت مختلف الجماعات البشرية ـ اجتماعية وعرقية ـ التى عملت على قيام أمة معينة، أن تربط مصيرها فيما بينها وأن تتكاتف معًا وتعمل على قيام هذه الوحدة المجتمعية البالغة التعقيد، والتى أصبحت تعرف باسم الأمة.

ومن ثم فإن هذه المجموعة الثانية، أو المستوى الثانى، لتشكيل بنية الجبهة المتحدة سوف تتكون من التشكيلات الممثلة لهذه الاتجاهات الثقافية الرئيسية للتقاليد القومية ـ الثقافية. وعلى سبيل المثال، إذا دققنا النظر فى الحركات الاشتراكية فى عدد كبير من الدول فى الشرق ـ أمس واليوم على السواء ـ سنجد أنه من الممكن تقسيمها ـ بالتأكيد ـ إلى قطاعات أكثر محافظة وأخرى أكثر راديكالية، وإلى قطاعات أكثر ميلاً للحلول الوسط وأخرى أكثر نزوعًا نحو الثورة، ولكن سنجد أيضًا ـ فى أعماق هذه التقسيمات ـ تقسيمًا رئيسيًّا بين الجماعات التى تنتمى لمختلف التقاليد القومية ـ الثقافية: جماعات ترتبط بالقطاعات المحدِّثة ذات النزعة الغربية داخل الاتجاهات الثقافية للحياة الوطنية الأصلية بهذا البلد. ومن ثم يمكن أن يكون لدينا دعاة تحديث فى اليسار، وتقليديون أيضًا فى اليسار. وسنجد أيضًا هذا النمط نفسه من التقسيم بين القوى اليمينية الرجعية. وعلينا أن نسلم بأنه سوف توجد ـ فى البلدان ذات التقاليد المسيحية ـ جماعات رئيسية بين قوى الاشتراكية التى تستلهم ـ وستظل تستلهم فترة طويلة فى الواقع ـ الفلسفة المسيحية واللاهوت المسيحى، والأخلاق الاجتماعية، على نحو ما يمكن أن تشهده فى بلدان مثل إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا اللاتينية، الخ. وفى الوقت نفسه، نجد الظواهر نفسها فى البلدان ذات القالب الحضارى الإسلامى فى آسيا وأفريقيا. والأمر نفسه ينطبق على البوذية فى القارة الآسيوية. وهكذا فإن التقليديين والمحدّثين ـ من جميع الأديان والعقائد ـ لهم كلمتهم فى هذا المستوى التشكيلى، مستوى تشكيل بنية الجبهة المتحدة، بقدر تأصيلهم وتمثلهم للتقاليد الوطنية ـ الثقافية.

ومرة أخرى، تؤكد أن هذا المستوى الثانى، أو مجموعة العوامل المكونة قد طرحت كاعتبار رئيسى فى تحليلنا ـ حسب الواقع الموضوعى ـ للديالكتيك الاجتماعى فى عصرنا ـ وليس من خلال تحليل إبستمولوچى (قائم على نظرية المعرفة): أى من خلال

تحليل الممارسات الفعلية للنظم الاجتماعية ـ السياسية ، وليس من خلال تفسير تعاليم القرن التاسع عشر عن الاشتراكية فى الغرب.

٤ ـ ومن المهم فى هذا الشأن فهم أن الجمع بين هاتين المجموعتين من العوامل المكونة للبنية ، وهذين المستويين من التركيب البنيوى ـ سوف يبين وجود تداخل بالغ التعقيد بين القوى ، وتأثيرات وتفاعلات متبادلة بين مختلف الوحدات لكل عامل من هذين العاملين ولكل مستوى من هذين المستويين. وعلينا أن نفهم كيف نتعايش مع هذا النوع من التفاعل الديالكتيكى ؛ لأن التناقض الديالكتيكى بطبيعته تناقض يخلو من العداوة ولا يؤدى إلى الثنائية أو الانقسام ، ولكن إلى تكامل ديالكتيكى فى الفكر والعمل على السواء.

وبعرضنا لهذه الشبكة البالغة التعقيد من الديالكتيك الاجتماعى فى الجبهة المتحدة نعترف بأننا نواجه ـ فيما يعرف باسم «اليسار» وكذلك فيما يعرف باسم «اليمين» ـ قوتين رئيسيتين تعملان على إيجاد الاختلاف الرئيسى والتناقضى فى كل معسكر من هذين المعسكرين.

(أ) يمكن ـ بل وينبغى ـ تسمية القوة الأولى بأنها قوة المحافظة سواءً كانت المحافظة تندرج تحت راية التحديث أم مسايرة ما يعرف باسم الثورة العلمية والتكنولوچية ، أم بمعنى الحفاظ على التقاليد القديمة.

(ب) ومن ناحية أخرى ، نجد القوى الراديكالية ، قوى الاتجاه الراديكالى ، التى تسعى دائمًا إلى التنقيب عن جذور الديالكتيك الاجتماعى وتوفير سياسات راديكالية قادرة على إعادة تشكيل بنية Restructuring ، الأثر الناجم عن هذه الجذور نفسها فى الحياة السياسية.

٥ ـ أما الجيش فإنه يقف كهمزة وصل بين هاتين المجموعتين من العوامل التشكيلية التى بينها التقاء ديالكتيكى ، وذلك فى الدول القديمة العهد والدول الجديدة على السواء. وبينما تعكس الأغلبية العريضة من الضباط التوازن بين القوى الاجتماعية ـ السياسية فى أى مجتمع ، وتهتم بصفة رئيسية بالحفاظ على نظام المجتمع واستقلاله فى مواجهة الهيمنة الخارجية ، فإنه يصبح من الواضح بشكل متزايد أن القوات المسلحة

تكتسب تدريجيًّا دورًا اقتصاديًّا وعلميًّا وتكنولوچيًّا أكبر، واستقلالاً ذاتيًّا سياسيًّا متزايدًا، إلى الدرجة التى تعمل عندها أحيانًا باعتبارها «الطبقة السياسية» لأمة بأكملها، وبخاصة عندما تواجه تهديدات وغزوات أجنبية مباشرة ومتكررة، مثلما هو الحال فى مناطق التوتر الشديد (وبخاصة منطقة غربى آسيا ـ الشرق الأوسط : إفريقيا ـ جنوب الصحراء ؛ المحيط الهندى)، وعلى أى حال، فإن مد نطاق الخدمة العسكرية ليشمل السكان كلهم، بما فى ذلك غالبية العمال والفلاحين والمواطنين الكتابيين والبرجوازية الصغيرة، يطرح مشكلة المدى الذى يمكن أن تتطور إليه القوات المسلحة لتصبح جيش الأمة، رغم أن المجموعات الاجتماعية ـ السياسية المهيمنة هى التى تتولى قيادتها بشكل رئيسى. وعلى أى حال تلك هى تركة الناصرية أمام تساؤلنا النظرى السياسى المشترك. ولكن يمكن للمرء أن يستذكر أمثلة البونابرتية، والمسيرة الطويلة (الصينية) وتركيا الفتاة بقيادة أتاتورك، والمقاومة المسلحة للفاشية فى أوروپا، وبيرون (الأرجنتين)، وجبهة التحرير الوطنى الجزائرية، والآثار السلبية للرفض العنيد لإعادة التكيف مع الواقع فى شيلى والبرتغال وغيرهما.

إن القوات المسلحة ــ شئنا أم أبينا ــ تقف فى مركز الأنماط النامية الجديدة لإستراتيچية الجبهة المتحدة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، فى نسق بالغ التنوع من الطرق والأشكال التى لم يتم إدراجها بعد فى النظرية الاجتماعية والسياسية فى شيلى والبرتغال وغيرهما.

وعلى العموم ليس هناك طريق ملكى، أو وصفة، أو منهج ذهبى، أو لاهوت سياسى، كفيل بأن يتميز بوضوح وبشكل قاطع بين هاتين المجموعتين من العوامل، غير أن هناك قاعدة رئيسية فى السياسة هى قاعدة الخط الجماهيرى : أى الطريق والمدى اللذان يمكن عندهما أن تكون السياسات التى يحبذها كل اتجاه رئيسى قوة تعبوية فى التحول الملموس لحياة ومصير الغالبية من السكان العاملين، على نحو لا يشوه الشخصية الوطنية كما يحددها التاريخ والعوامل المكونة للخصائص الوطنية، بل على العكس يساعد على تطورها وازدهارها.

(ب) حول التحديات التاريخية والحضارية

١ ــ نتصدى الآن لبحث العامل الثانى، المجموعة الثانية ضمن إشكالية الجبهة

المتحدة، أى مسألة قدرتها على الاستمرار والتواصل، وحتى الآن ينظر إلى الجبهة المتحدة فى التقاليد الاشتراكية الغربية على أنها وسيلة تكتيكية، أو إستراتيچية فى أحسن الأحوال، لتحقيق نوع من المقاومة القصوى أو تحقيق قدرة استمرار وطنى لهيمنة القيادة الاشتراكية داخل العملية السياسية.

ومع ذلك فإننا نشهد فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفى جميع الحالات التى لم تتمكن فيها قوى الاشتراكية من تأكيد هيمنتها وقيادتها فى جبهات التحرير أن الجبهات الوطنية المتحدة هى إما مؤسسة قائمة كأمر واقع أو مؤسسة رسمية مستمرة وطويلة المدى. وثمة شعور هنا بأن الجبهة المتماسكة الوحيدة ـ سواء بالنسبة للمقاومة أو البناء الوطنى أو التحول الاجتماعى ـ هى فى الواقع تلك التى توفرها الجماعات والصراعات الطبقية وغيرها، تلتقى فى ذات المعسكر الواسع الذى يواجه الإمپريالية والهيمنة والكومبرادوريين.

هذه هى أبعاد الجبهة الوطنية الموحدة، باعتبارها إستراتيچية سياسية. وهل يمكن أن يكون هناك بعد آخر؟

٢ ـ علينا أن نعود هنا ـ مرة أخرى ـ إلى الإطار الواحد للعالم والتحديات التى يطرحها أمام جميع الوحدات الوطنية National units، وجميع الحركات السياسية، وجميع المبادرات الفكرية والعملية لتغيير وضع البشرية نحو حياة أكثر عدلاً وإنسانية وحرية وثراء، والتى أصبحت تعرف باسم الاشتراكية. وعلى الفكر والعمل السياسى على السواء أن يمعن النظر فى الآتى: إذا كان ينظر إلى الجبهات المتحدة لا على أنها عامل سياسى تكتيكى، بل إستراتيچية سياسية طويلة الأجل، أليست الوحدات المختلفة التى تشكل مستويى هذه الجبهات المتحدة الجديدة ترتبط فى العمل والكفاح وفى تفاعل وتبادل مستمرين، فى معارضة ديالكتيكية غير متنافرة، فى تكامل من حيث الأمر والواقع؟ ألا ترى أن وعود وبرامج الاشتراكية يمكن تحقيقها على نحو أفضل من خلال جبهة من القوى أوسع من مجرد هيمنة الطبقة العاملة التى تتحالف فى أحسن الأحوال مع مجموعات الفلاحين والبرجوازية الصغيرة الدنيا؟ ألا ترى أن تعبئة أوسع قطاعات السكان، عبر الخطوط الطبقية، ومن خلال الثقافة والأيديولوچيات الوطنية، ومن خلال الأديان والفلسفات ـ ولتؤكد هنا من جديد أنها تنتمى كلها إلى

oberkan.com

التقاليد الوطنية ـ الثقافية التكوينية للأمة، و «مجموعاتها الروحيةالكبرى» ـ سوف تكون ميزة هائلة يمكنها إلى أقصى حد تخفيف الصعاب والآلام والمعاناة، التى تنطوى عليها عمليات التحول الاجتماعى الكبرى؟ وباختصار، ألا تؤدى الجبهة المتحدة ـ منظورًا إليها ومقبولة على أنها إستراتيچية سياسية طويلة الأجل ـ إلى اعتبار هذه الجهات المتحدة ضمن التيار الرئيسى لمنطق التاريخ؟ أليس من الصواب بالنسبة لنا اعتبار أن الجبهة المتحدة ليست إستراتيچية سياسية ـ «حلاً وسطًا تاريخيًّا» ضمن حدودها المحدودة بالضرورة، ولكنها إستراتيچية تاريخية حسب هذا الخط من التفكير؟

إن الاختيار هنا هو فى الواقع بين اتجاهين: إما أن نختار الطريق المختصر للتآمر السياسى ونشاط وهيمنة الأقلية ـ ولكن أنصار هذا الاتجاه يجب أن يدركوا أنهم يسيرون ضد التقاليد الجماهيرية للحركات الشعبية فى التاريخ، وأيضًا ضد الإسار الحديدى للچيوبوليتيك ولترابط العالم. وكلما بذلت محاولة فى هذه الاتجاهات، فإنها تساعد أعداء الشعب فقط، كما يشهد بذلك بعض التجارب المأسوية الأخيرة، وبخاصة فى شيلى. وإما أن نختار ـ وهذا هو رأينا على الدوام ـ الطريق الأوسع لتخفيف المعاناة البشرية والحد من تعاظم المعاناة والتوتر والمصاعب، فى الاتجاه العريض للتقدم الاجتماعى والسعادة العامة وتولى الشعوب دور توجيه مصائرها. هذا هو سبيل الجبهة المتحدة، وهذه هى وعودها باعتبارها إستراتيچية تاريخية [...]».

والجبهة الوطنية المتحدة بهذا الفهم تختلف من أسلوب الطبقة ضد الطبقية المرتبط بالديالكتيك الاجتماعى الطارد مركزيًّا الذى يميز التقاليد والأيديولوچيات السياسية الغربية. إن الجبهة الوطنية ترتبط مباشرة ـ من ناحية أخرى ـ بأشكال موازية للتعبئة الجماهيرية المجتمعية فى قلب الأمم الناهضة فى الشرق: المفهوم الإسلامى للأمة، المسيرة الطويلة للثورة الصينية، العروة الوثقى للأفغانى ومحمد عبده، الجبهة الوطنية المتحدة فى تقاليدنا العربية السياسية المعاصرة.

إنها وحدها التى ستمكن الأمة العربية من الاستفادة الطوعية من الثروة الهائلة من الموارد الثقافية والبشرية بغية شن الثورة الثقافية فى قلب عملية تصميم وتنفيذ إستراتيچيتنا الحضارية العربية. وهى وحدها التى ستمكننا من إحياء «العصبية» التى هى عامل حيوى للقضاء على احتجاب مصر واستئناف مسارنا القومى العربى المشترك.

إن أمتنا العربية تقع فى قلب المنطقة الإسلامية الإفريقية الآسيوية، من المغرب حتى بحر الصين. واحتجاب مصر يحرم الأمة العربية من مركز قوتها الفعالة ووحدتها.

وفى مواجهة المد الصاعد للقارات الثلاث ـ وبصفة رئيسية الشرق: آسيا وإفريقيا ـ يعمل الهجوم الحضارى المضاد المشترك للإمپريالية ـ بقيادة الإمپريالية الصهيونية العنصرية ـ على اختراق إرادتنا السياسية فى العمق والمركز، وليس اختراق هياكلنا السياسية فقط. وكما رأينا فإن الدولتين الاشتراكيتين الكبيرتين بعيدتان الآن عن العمل الفعال فى المنطقة العربية، ومن ثم فإن خطر الانحطاط المقيم يخيم فى الأفق المباشر.

غير أن تعمق النظر فى الخريطة الچيوبوليتيكية والچيوثقافية يكشف ما يبشر به ديالكتيك تغييب مصر الذى الذى يتحقق حاليًّا. ففى أنحاء المنطقة الحضارية الإسلامية الأفريقية الآسيوية، هناك موجة هائلة من الثورات الوطنية التى تقترن أحيانًا بثورات اجتماعية، وهى قادرة الآن على الانتفاع بأهم مصدر للثروة فى العالم المعاصر لأول مرة منذ العصر الذهبى للإسلام والشرق. وهذه المنطقة ليست ـ على ما يبدو ـ فى وضع من شأنه تمكين الدول الكبرى من إقامة دولة تابعة خانعة فترة طويلة وبطريقة مستديمة. إذ تكمن فى أعماق البشر وفى أعماق الحركات الوطنية فى المنطقة، إرادة الاستقلال والتحرر، والرغبة فى النهضة، وإمكانات قيام انتفاضة جادة من خلال وحدة قومية، ومن خلال الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، بين الجماهير الشعبية والجيش، نزعة نحو الروحية، نحو رسم مسارات جديدة للعلاقات بين البشر وداخل المجتمع. وباختصار، فإن جميع العناصر اللازمة لنهضة حضارية ذات أبعاد هائلة، وبعبارة أكثر تحديدًا، فإن النسبة الكبرى من الجماهير الإسلامية تقع فى نقطة الالتقاء بين الاتحاد السوفييتى والصين والهند ومناطق النفط العربى ـ الإيرانى ويمكن لأمتنا العربية ـ أكثر من أى وقت مضى ـ أن تقوم بدور الحلقة الوسيطة بين مختلف الثقافات الوطنية، ومختلف الدول والتشكيلات الاجتماعية ـ الاقتصادية التى تبدو أنها منفصلة الواحدة عن الأخرى.

ويمكن لأمتنا العربية ـ أكثر من أى وقت مضى ـ أن ترسم الطريق لجمع القوى الأخرى من أجل التحرير الوطنى والتقدم الاجتماعى فى الشرق، وبصفة رئيسية فى آسيا وإفريقيا، مقترنًا برابطة عضوية مع الجزء الأكبر من سكان الكتلة القارية فى

obeikan.com

أوراسيا ، الذين يعيشون الآن تحت راية الاشتراكية ، وبهذا تعمل موضوعًا على التوسط بين الصين والاتحاد السوفييتى

إن تفتح النهضة العربية ، وتصفية تغييب مصر ، من الممكن أن يعمل ، أكثر من أى « حل وسط تاريخى » ، على شق طريق نحو تحول شامل للقوى العالمية فى عصرنا ، ومن ثم مصير البشرية عينه.

وما من أحد يختار زمانه فى التاريخ.

ولمواجهة التحديات الحيوية لعصرنا فى التاريخ ، وللبحث عن الطريق المفضى إلى إنهاء احتجاب مصر : ليتكانف جميع الوطنيين ، وليعملوا على إنقاذ وطننا الحبيب « مصر أم الدنيا » !.

۞ ۞ ۞

obeikan.com

ـ ٣ ـ

التراكم الوطنى

فى الأربعينيات والخمسينيات، كان المدخل إلى المسألة المصرية: «من أين نبدأ»، يتلوه محاولات للإجابة، تتنوع حسب المشارب والتوجهات، تشير إلى أنه: «من هنا نبدأ».

من أين نبدأ إذن، الحديث عن منهج مواجهة تشابك المشاكل، تزايد حدتها، أثرها على الإرادة والروح المعنوية والأداء؟ تتعدد الإجابات، لا بتعدد القوى السياسية والمدارس الفكرية فحسب ـ وهو أمر طبيعى وضرورى ـ وإنما، وهذا هو الجديد فى رأينا فى هذه المرحلة المضنية التى تجتازها مصر فى مواجهة التحديات ابتداء من طروح أو أفكار أو نداءات أو محاولات تحليلية يجمع بينها قاسم مشترك ألا وهو: أنها تبدأ وكأنها من فراغ، وكأن لم يكن ما كان، وكأن الصفحة بيضاء. وفى كلمة، ينطلق المفكر أو الداعى أو من يتصدى للمسئولية إلى واحد إلى اللحاق بـ «جيل السيرة الذاتية فى بلاد الحضارة السبع ألفية».

اللحظة التاريخية

ومن هنا كان لزاما علينا أن نسعى الى الإسهام فى توضيح المداخل النافعة لإدراك «مناهج الألباب المصرية» فى مرحلة التحديات العملاقة الآنية والمستقبلية. ومن هنا، كان علينا أن نتساءل، بادىء ذى بدء: ما هى اللحظة التاريخية لطرح المسألة المصرية؟

الإجابة التقليدية على هذا التساؤل المنهجى البسيط الذى لا مفر منه تتسم عادة بالإدراك التاريخى المسطح، فنحن نعيش فى نهاية القرن العشرين، أو «مطلع عصر ما بعد المجتمع الصناعى»، «مجتمع المعلوماتية»، فى عصر «نهاية التاريخ» أو «انحدار

الغرب » ، إلى غير ذلك من التوصيفات التى يمثل كل منها ناحية من الصورة الإجمالية ليس إلا.

وعندنا ، وعلى وجه التحديد ، فإن اللحظة التاريخية التى يحياها العالم بشكل حاد وإيقاع تزداد سرعته على مر الأيام. إنما هى مرحلة الانتقال من مرحلة «تغيير العالم» إلى مرحلة «صياغة العالم الجديد» «تغيير العالم» أى نهاية النظام العالمى المتمركز حول الغرب وحده منذ ١٤٩٢ إلى ١٩٤٥ ، وعلامته المميزة تحرر القارات الثلاث فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية بصور مختلفة ومتباينة إلى حد بعيد من الهيمنة الغربية ١٩٤٨ ـ ١٩٧٣ ، وكذا تصدع نظام الهيمنة الغربية الثنائية من جراء الأزمة الجذرية التى أصابت الاتحاد السوڤييتى ، وكذا كتلة الدول الاشتراكية الأوروپية فى ١٩٨٩ ـ ١٩٩١.

أما «صياغة العالم الجديد» ، فإنها لا تحظى بنفس القدر من تلاقى التحليلات والآراء. فمن ناحية نرى المؤمنين بـ «النظام العالمى الجديد» حول مركزه الأمريكى الأحادى وسيادة قيم السوق التى تؤكد ما لدى هذا الفريق أن التاريخ قد انتهى ، وأن على من خارج الحلبة أن يلحق بها ، أو يظل دخيلا ، بل ومنفيا فى دياره.

هذا بينما اتجهت قطاعات واسعة من الفكر والعمل إلى أن صياغة العالم الجديد تعنى فى الأساس انتقال «المبادرة التاريخية» من العالم العربى حول مركزه الأطلسى إلى الشرق الحضارى حول آسيا الشرقية ومركزها الصين فى رباط عضوى مع اليابان وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى ، وكذا قطاع هام من جنوب آسيا ، ويتجه هذا الرأى إلى الابتعاد عن النظرة التبسيطية الى التضاد : ذلك أن صعود آسيا فى قلب الشرق لا يعنى انحطاط أو زوال الغرب بحال من الأحوال ، وإنما إعادة صياغة فعالية كل قطاع من العالم ، لا إلغاء دوره أو التنكر له. أى المفهوم الجلى التاريخى الرافض تماما للموقف التسطيحى ، الوضعى.

العالم إذن ـ العالم الواحد ـ عالمنا. وإن كنا نحيا هذا العالم فى دوائر مختلفة متباينة ، تزداد بينها الهوة بشكل مخيف. وكأن «العالم الواحد» فرض نظرى لا يعكس انقسام العالم إلى دوائر مغلقة ، تارة على الثراء والنمو. وطورا على تزايد التخلف المجتمعى وتفاقم الأزمات.

إن كانت هذه هى اللحظة التاريخية التى نحياها ، من حيث التوصيف العام. وإن

كانت مصر وأمتنا العربية لا تزال فى القطاع الذى يواجه تحديات النمو والتقدم ــ ومن حولها كماشات التهديد والمخاطر النووية ــ يكون من المتوقع أن يكون جو الإجابات وردود الفعل والحلول المقترحة يتسم بطابع «رد الفعل» حتى تأتى مرحلة المبادرة وتبين كيفية الإسهام الإيجابى بالفكر والعمل.

وبينما نحن فى هذا المشوار ـ المسيرة ـ يتساءل العديد من المتشددين إن كنا فى مكانة تسمح لنا بالانتقال من «رد الفعل» إلى «الفعل» بل ويضيف قطاع من غلاة المتشائمين الى أن العالم الجديد سوف يفكك أركان الدول والقوميات والأمم، بينما نرى كبريات الصحف ومنابر الفكر ـ فى الغرب قبل الشرق ـ تحذر من هذه الرؤيا السلبية العدمية.

وعندنا أن الملاحظة الدقيقة والدراسة التحليلية المقارنة لأحوال الدنيا كما هى عليه ــ وكذا بوادر صياغة العالم الجديد ــ تشير إلى أن الزوابع والأزمات سوف تفكك التجمعات السياسية ـ المجتمعية ـ المحدثة، بينما سوف تصمد الأمم العريقة حول الدولة الوطنية المستقلة إرادة، رغم الحصار.

إن مقام مصر، فى قلب أمتنا العربية، ومصيرها المرتقب هو: الاستمرارية، والصمود، والمواجهة، والعطاء.

«ما العالم؟»

نعود بالذاكرة إلى كوكبة المفاهيم والشعارات التى نبعت من أرضنا المحروسة فى العصر الحديث لنتحسس الطريق وكيف يمكن صياغة المفاهيم الجديدة اللازمة للتحرك المستقبلى.

١ــ مرحلة أولى: بين ١٧٩٨ ــ و١٨٨٢، بين غزوة الحملة الفرنسية والاحتلال العسكرى البريطانى، وهى مرحلة التفاعل مع قوى الهيمنة، مع أوروپا عصر الثورات والاستعمار، بعد عزل مصر أو محاصرتها وتهميشها نحو أربعة قرون.

كان جو التساؤل السياسى ـ المجتمعى ـ الفكرى العام لدولة محمد على وامتدادها رغم التأزم حتى إسماعيل يتلخص فى سؤال: «ما العالم؟» أى: ما حقيقة، أو ما هو سر، أوروپا المتقدمة؟ وكذا وفى آن واحد: ما هى أسباب تخلفنا؟

ومن ثم : ما هو السبيل إلى تخطى التخلف واللحاق بعجلة التاريخ ، التاريخ الذى كان يمثله آنذاك الغرب المتمركز حول أوروپا؟

فى هذا الجو ، وانطلاقا من هذه التساؤلات ظهرت على التوالى الإجابات وكأنها حلول. فأولاً رأى اتجاه «التحديث» أو حسبما أصبح عليه فيما بعد «التحديث الليبرالى» ، أن مصر تتخلف عن ركب الحضارة الحديثة لأنها لم تمسك بمفاتيح الثورات الثلاث : العلمية والصناعية والسياسية ، وبالتالى فإن عليها أن تختص هذه التجارب بما يتفق مع شخصيتها الحضارية ، وهو قدر واسع وثرى. كانت هذه رسالة رفاعة رافع الطهطاوى وإبراهيم باشا وعبد الله النديم وزملائهم وروادهم. ثم ، وبعد ١٨٤٠ ، ورغم عودة الروح فى عصر إسماعيل ، ظهر الاتجاه الثانى وقد يئس من محاكاة أوروپا واتجه إلى الجذور ، إلى «الأصوليَّة الإسلامية» راجيًا أن تكون معانيها التكوينية الكريمة إنما لتخطى التخلف ، وهى الدعوة التى اقترنت برسالة محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا ، ومصطفى عبد الرازق وروادهم.

وإذا كان مفهوم النهضة هو الإطار العام لهذا التحرك الثنائى ، فإن تدقيق النظر يرصد كوكبة المفاهيم المواكبة ، وكلها تبرز معنى ونواحى «الوطن» فى السلطة السياسية والهندام المجتمعى والقيم وأساليب التعامل والتعليم والثقافة ، وهو الجو الذى أفضى ــ فى نهاية هذه الحقبة وبداية الانطلاقة إلى تحرير مصر وتحقيق استقلالها وسيادتها ـ إلى مفهوم «الوحدة الوطنية» التجميعى فى مطلع القرن العشرين.

« من نحن؟ »

٢ـ ثم جاءت مرحلة ثانية ، بعد الاستقلال الصورى ـ دستور عام ١٩٢٣ ــ بعد استقرار مسلمات الاتجاهين التكوينيين للفكر والعمل المصرى ، إلى الإجابة عن سؤال يبدو وكأنه من البديهيات : «من نحن؟» ليس فقط ما هى مصر «أم الدنيا» ؟ ، وإنما كيف تتحقق رؤية مصر فى عالم اندلعت فيه الصراعات بين الدول الكبرى بين ١٩١٤ و ١٩٤٥؟

إنها مرحلة «شخصية مصر» أولاً من حيث صياغتها التاريخية التى لم يختلف عليها إلا قلة ، آنذاك شخصية مصر فى الأساس حددتها حضارة مصر الفرعونية

وإمبراطوريتها الحضارية الكبرى، أهم دائرة للإشعاع الثابت الخلاق وأطولها على مدى تاريخ البشرية، منذ بداية الأسرة الأولى حتى القرن الثالث قبل الميلاد. ثم مرحلة الحضارة المتوسطية والقبطية على وجه التخصيص رغم انفلات زمام السلطان إلى الخارج مؤقتا. ثم ابتداء من الفتح العربى من القرن السابع حتى عصرنا مرحلة الحضارة الإسلامية العربية، وريثة المسيرة الحضارية الطويلة التى راحت تتحرك فى دوائر أوسع بكثير من المحيط إلى الخليج عربيًا وكذا من الأطلسى إلى الهادى إسلاميا.

وفى هذا الجو التساؤلى، أو بوجه أدق فى هذه المرحلة الثانية من التساؤل المصرى، اشتدت حدة الصراع مع القوى المهيمنة الرافضة بحيث راح شعار «الوحدة الوطنية» يصب فى دائرة صراعات سياسية أكثر فعالية أو حتمية: من شعار «الجبهة الوطنية المتحدة» الذى رفعته القوى الوطنية التقدمية حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى الأربعينيات حتى مجموعة الشعارات التى تحقق «تعبئة» القوى الوطنية فى «اتحاد» وجهته المعلنة الاشتراكية فى المرحلة الثانية من عهد جمال عبد الناصر.

«كيف نكون؟»

٣ـ ثم كانت المرحلة الثالثة التى نحياها، يواجه فيها الوطن والأمة تحديات الانتقال من تغيير العالم إلى صياغة العالم الجديد بحيث أصبح جو التساؤل هو: «كيف نكون؟» ليس فقط على أية صورة نكون؟ وإنما ـ وأيًّا كانت الصورة التى نختار أن نكون عليها ـ كيف يمكن إيجاد الوسائل والأدوات التى تمكننا من تحقيق هذا الهدف؟

إنه سؤال طبيعة الخصوصية الحضارية الكائنة، والمرتقبة، واستجلاء إمكانات تحركها وعطائها وإبداعها وخصوبتها فى عالم جديد. وعندنا أن المفهوم الأقرب إلى المنال الذى يمكن أن يحقق أهداف «الوحدة الوطنية»، «الجبهة الوطنية المتحدة»، «التعبئة»، و«الاتحاد» فى هذه المرحلة الثالثة يمكن أن يعبر عنه بمفهوم «التراكم الوطنى» الذى يهدف إلى جمع الشمل تاريخيا، مجتمعيًّا، سياسيًّا، فكريًّا، إراديًّا.

وإن فرضنا جدلا أن مفهوم «التراكم الوطنى» مقبول كنقطة بدء، ولا نقول كشعار قومى أو منهج فكرى لا خروج عليه، فكيف يكون ترى؟ كيف يتجلى ويتحقق

فى جو «السوق» وقيمه العشوائية، فى جو التنافر والخصومة والتفرد والعدمية؟ كيف يمكن اجتياز غابة السواد؟ وهل من خطوات ممكنة وفعالة تعيننا على التقدم؟

هنا، مرة أخرى، الرؤية المستقبلية ابتداءً من الواقع القائم على الرصيد التاريخى الهائل، تشير إلى أن الممكن ممكن.

الخطوة الأولى الأبسط والأصعب فى آن واحد، إنما هى رصد الإنجاز.. ونعنى بذلك أن تصارع «السير الذاتية» يجب أن يعلو عليه تأكيد معانى الاستمرارية الوطنية واتصالية الشخصية القومية والاعتراف الدقيق بالمنجزات فى كل مجال، وبيان الترابط بين مراحل الإنجاز المتتالية وإحياء نواحى الريادة والإبداع الذاتى فى كل مرحلة، وكذا حدود هذه الإيجابية وقصورها وأسباب ذلك.

إنجازات عبور أكتوبر ١٩٧٣ـ مثلا ـ قائمة ولا شك على أداء القوات المسلحة المجددة بين ١٩٦٧ و١٩٧٣ وهى تعود بنا ـ وكيف لا؟ ـ إلى تاريخ جيش مصر من إبراهيم باشا إلى «الضباط الأحرار». وهذه تدفعنا إلى إعادة النظر فى عطاء المماليك وخاصة فى القرن الثامن عشر حول على بك الكبير. مما يدفعنا إلى دراسة مكانة صلاح الدين الأيوبى المتميزة فى فن الحرب الإستراتيجية ثم، وكيف لا نتجه بالنظر إلى «جيوش الشمس» وهو اسم جيوش مصر أيام مجدها الفرعونى بقيادة رمسيس وتحتمس على وجه التخصيص. إن مسيرة جيش مصر، لو نظرنا إليها من هذه الزاوية وبشىء من التدقيق والتحليل الواقعى الموثق، تبين لنا ما أنجزناه وما تم، ولم نتمكن من تخطى العقبات فى مراحل أخرى، ولكننا، وفى نهاية هذا المطاف المحدد، سوف نمتلك ترسانة هائلة، نيرة، من «التراكم الوطنى» فى مجال الأمن القومى وأداء مصر وقدراتها الكامنة.

وكذا الأمر فى مجال الوجدان والفكر، سوف تتبدى أمامنا ـ عبر هذا المدخل ـ معانى تتمركز حول استمرارية وشموخ الإيمانية المصرية، سوف ندخل دربا نيرا من المنجزات الأدبية والفنية، وكذا الرسائل الفكرية، لا يزال كل منها محجورًا عليه فى مدرسته أو مذهبه أو حزبه أو جماعته. من «الفلاح الفصيح» و«الكاتب المصرى» إلى سيد درويش ومحمود مختار، من جامعة عين شمس الفرعونية إلى طه حسين وعلى مصطفى مشرفة ومراد كامل وعلى إبراهيم وعبد الرزاق السنهورى.

رصد بالإنجاز بوصفه بداية الطريق إلى تحقيق «التراكم الوطنى» وهو الطريق الذى تضيئه الجهود الرائدة التى يقوم بها بنات وأبناء جيلنا الشاب، والذى يبدو لها أن تحقيق الفعالية المرتقبة ممكن ما دامت تعنى بإنجاز الأجيال ورصد العطاء المصرى، صاحب العقل دوما، بوصفه قاعدة كل تجديد.

وإلا فما هو الطريق المغاير، البديل؟

الطريق الذى يسعى إليه مع الأسف عدد من المتعجلين، هو الارتباط بتراكم الغير، إن جاز التعبير: مدرسة ما بعد التاريخية هنا، وتفكيكية هناك، بنيوية فى مجال، عدمية فى مجال آخر، إلخ. مجموعة من معطيات هى ناتج لمسيرات أخرى لها مشروعيتها فى إطارها التاريخى والمجتمعى المغاير، ولها أيضًا ــ وكيف لا ــ تأزمها وحدودها وقصورها، إلى درجة دفعت أرفع مسئول روحى فى الغرب ـ بابا روما ـ إلى التنديد بـ«ثقافة الموت» فى روما أولاً فى عام ١٩٩٤، ثم فى واشنطن عاصمة أمريكا فى أكتوبر ١٩٩٥.

وبغض النظر عن تشابك القضايا الخارجية واختلاف الرأى فيها فسوف نقول إن هذه ليست مقومات التراكم الوطنى والاستمرارية الحضارية المصرية فى قلب الدوائر العربية والإسلامية والشرقية النابضة بالحيوية والتجديد فى عصرنا. دعوتنا باختصار شديد، ليست إلى القطبية، إلى الرفض، إلى السلبية، وإنما هى إلى الاتصال أولاً وقبل كل شىء بأدائنا التاريخى ـ مع الإلمام بكافة تجارب العصر ـ ودعوة الجيل الجديد من العالمين فى مجالات السياسة والمعرفة إلى دراسة هذا الأداء والإفادة منه، والاعتزاز به، وتحليل أسباب قصوره، اختصارا للوقت اللازم لتأمين مصر ومضاعفة القوى الكامنة المتراكمة فى أعماقها. وذلك بغية مواجهة تحديات العصر، والعبور بشكل متماسك إلى فعالية قومية حضارية تحيى الأمل فى قلوب الشباب، وتمكنهم من المشاركة فى صياغة العالم الجديد.

obeikandl.com

ـ ٤ ـ

فى أصول « المهادنة التاريخية »

نعيش عصر « العمليات » دون أدنى شك : من « عملية السلام » إلى « عمليات » إضعاف الدول بغية تقسيمها : فى جنوب السودان بعد يوغوسلافيا والاتحاد السوفييتى وأفغانستان والعراق الشقيق وإيطالية ثم..!

« عمليات » تهدد مباشرة أمن مصر القومى حاضرها ومستقبلها ، عمليات لا بد من رصدها ومواجهتها بشكل جذرى وإرادة مؤكدة بدلاً من أن تستمر عملية التسابق إلى نيل ثمن الانسياق فى « عملية سلام » هى فى واقع الأمر وبكافة المؤشرات عند معظم المراقبين والمحللين عملية الانزلاق إلى تصعيد جديد من العنف العنصرى الدامى ، والصدام. نقول « الصدام » لا « الحرب فى الغد القريب » ؛ نظرا لأن دولة الكيان الصهيونى لا تملك إمكانات الحرب الهجومية الإستراتيچية التقليدية نظرًا لما أصابها أثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ــ جيشًا وشعبًا ، وخاصة هيئة الضباط ــ من نزيف يصعب تعويضه ، بحيث أصبحت بالنسبة لهم آخر الحروب الهجومية الإستراتيچية.

مهام جيش العدو بعد هذه الحرب تحقيق « عمليات أمن » أى عمليات بوليس حربى ، فى أعماق قوى المقاومة الشعبية ، وقواعدها ، عنيتيبة ، بيروت ، جنوب لبنان حتى مجزرة قانا. دون التصدى للحرب الهجومية الإستراتيچية.

نقول « فى المستقبل القريب » ــ القريب فقط ــ إن القوة النووية الضاربة جاهزة على أهبة الاستعداد ، هدفها : إيران ، وكذا أية صورة إستراتيچية عربية وطنية كانت أو قومية ، محلية أو إقليمية ، وكذا موضوع آخر له آن ومقام وأبعاد أخرى. القوى الوسيطة والعظمى المحيطة بالمنطقة العربية ــ الإيرانية ــ الإسلامية المركزية « الشرق الأوسط » وهى القوى الأوروپية التى لها مصالح حيوية بعيدة المدى فى التعامل معنا..

obeikan.com

حرب جنوب لبنان مجزرة «قانا» : تهجير ٨٠٠,٠٠٠ لبنانى فى بلادهم الجريحة. أى ما يوازى من حيث النسبة تهجير نحو ١٥ مليون فرنسى أو ٢٠ مليون ألمانى أمام وابل القنابل من جيوش العدو. لقد أصاب ضمير الغرب «الديمقراطى» حالة قصر نظر، أو لعلها فقدان الرؤية والبعد، لا شىء إلا لأن المصابين عرب من المسلمين والمسيحيين أبناء وبنات أمتنا الجريحة.

دائرة مفرغة، مفروضة علينا، لا مفر منها! أم على أحسن الأحوال، قصر نظر وتردٍّ فكرى مزمن منذ حقبة من الزمان!

دائرة تصطدم ـ يومًا بعد يوم ـ بأمواج التحركات الجبارة التى تعيد صياغة العالم من حولنا، فى كافة القطاعات، وكافة المناطق دون استثناء.

من هنا كان لزامًا علينا أن نمعن النظر فى أركان ومحاور ترديه «الجديد» علينا أن ندرك مغزى وفعالية «عبقرية المكان» التى تحدد مقام مصر ومكانة أمتنا العربية وحضارتنا الإسلامية فى قلب نهضة شعوب وأمم الشرق.

أكتب هذه السطور وقد أشرقت أمامنا ـ بل وعلى الضفة المواجهة شمالا لمصر وأمتنا العربية ـ علاقات نجاح أهم تغيير فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط منذ ١٩٤٥، ألا وهى: تولى حكومة جبهة يسار الوسط فى إيطاليا «برئاسة» برودى وزعامة «ماسيمو دالينيا» الأمين العام لحزب الديمقراطية اليسارية ورئيس القطاع الأوسع من الحزب الشيوعى الإيطالى، أكبر وأهم أحزاب أوروپا الغربية الاشتراكية منذ ١٩٢١ وحتى ١٩٤٥.

انتصار الجبهة الوطنية المتحدة، بقيادة حزب اليسار الوطنى التاريخى العظيم وريث تعاليم «جرامشى» و«تولياتى» و«برلينجوير» يدًا فى يد مع القاعدة الرئيسية لشعب إيطاليا، الأدهى جماهير حركة، ثم حزب الديمقراطية المسيحية الكاثوليكية، ووريث «دى جا سبيرى» و«مورو» والبابا «يوحنا الثالث والعشرين».

ماذا يعنى هذا الحدث الخطير فى سادس دولة صناعية فى العالم، أهم دولة فى حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد عادت الأحزاب الشيوعية بعد حركة التصحيح الديمقراطى إلى الحكم فى: بولندا، ليتوانيا، بلغاريا، رومانيا، ونالت أغلبية

obeikan.com

الأصوات، وبالتالى الحكم فى معظم جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق، فى كازاخستان، وأوزبكستان، وتركمينستان، وأذربيجان، ثم أغلبية الأصوات والحكم المحلى فى مقاطعات ألمانيا الشرقية سابقًا؟ ثم: ما علاقة هذا كله بمصر؟

تساءلت: ماذا يعرف شباب مصر ـ بل ورجالاته المعنيين بـ«صنع القرار» ـ عن أركان تاريخ حركتنا الوطنية المعاصرة حقيقية هذا؟ فلو كان العلم بهذه الأمور متوافرا لما استمرت الحرب فى الظلام «بين المدارس التكوينية للشد والمد فى وطننا المصرى دون مبرر» وهى الحرب التى بدأت تدخل منطقة الحوار النقدى الأخوى والحمد لله. وكذا لما استمر البحث عن «المرجعية» أهى «أصولية» أم «تحديثية».

ترسانة حركتنا الوطنية المصرية جاهزة بين يدينا، لو علمنا بها، وأمعنَّا النظر فى جذورها، وصممنا على الإفادة منها!!

تولت الجبهة الوطنية المتحدة مقاليد الحكم فى روما تحقيقًا لأهداف «المهادنة التاريخية» historical compromise وهى السياسة التى رفع شعارها وخطط لها فى الأساس «إزيكو بيرلنجوير» رئيس الحزب الشيوعى الإيطالى، وتجاوب معه «الدو مورو» رئيس وزراء إيطاليا الشهير.

لعلنا، فى هذا المقام وانطلاقًا من تراث حركتنا الوطنية وريادة حركتنا الثورية الاشتراكية، لعلنا نستطيع أن نعود بالذاكرة إلى سنوات مضت لنرى وجه مصر مشرقًا.

تبدأ القصة بعد تولى حركة «الضباط الأحرار» مقاليد الحكم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، سادت الدهشة أركان الغرب، بل والعالم آنذاك: ماذا يعنى انقلاب عسكرى يبغى تحرير وطنة على أساس مبادئ ستة، بعيدًا عن القوى السياسية المصرية المعروفة آنذاك؟

أسرعت أهم صحف العالم لاستكشاف الموقف وأرسلت لفيفا من طليعة مراسليها «جان لاكوتير» ممثلاً لجريدة «المونـد» أيام مجدها، «إيجور بيلاييف» ممثلاً لجريدة «برافدا» لسان حال الحزب الشيوعى السوفييتى «فائق دزوار يفيتش» ممثلاً لجريدة «بوريا» اليوغسلافية، «يفجينى بريماكوف» وزير خاريجية روسيا الحالى بعد حين ممثلاً لوكالة أنباء «تاس» وكذا شاب أرستقراطى من إيطاليا «ألبرتو باكوفيلو» ممثلاً لصحيفة «يونينا» الشيوعية.

كان من الطبيعى أن يتولى لفيف من المثقفين والكادر الوطنى التقدمى المصرى القسط الأكبر من مهمة الترحاب بزملائهم الأجانب. لما كان لليسار الوطنى المصرى آنذاك من مكانة وفعالية وثقافة عالمية واسعة.

هكذا قضينا سنوات ـ يوما بعد يوم ـ نرحب بالمحللين الدارسين الوافدين ؛ أمسيات النقاش، ندوات الحوار، الموائد العائلية، لقاء الأصدقاء يبحثون معًا عن أبعاد ثورة مصر فى ثوبها الجديد، وقد بدأت تؤكد توجهها الوطنى التحريرى فى معارك السد العالى والسويس، ثم طابعها كثورة اجتماعية فى مطلع الستينيات من القرن العشرين.

الحوار النقدى، دون الاتفاق، اللهم إلا فى الجزئيات. كان جميع الوافدين يتساءلون، وكثيرًا ما يرون أنه من المفيد تقديم النصح بل وتلقين الدروس، كل يذهب مذهبه يومًا بعد يوم. كم تحاورنا، كم تشابكت أيادينا، كم اختلفنا....

الكل يسدى النصح، ويسعى إلى التوجيه وإن ظل «بريماكوف» قليل الكلام، وكذا الوجود.

الكل إلا زميلنا الإيطالى «باكوفيلو» «ألبرتو» الصديق الباسم الذى فقد ذراعه فى حرب العصابات لتحرير إيطاليا، كان يريد أن يفهم، لا أن يعلمنا، كان يريد أن يتعلم منا، لا أن يقوِّم أخطاءنا. كان يدرس ويدون الكراسات، يدرس الملفات والوثائق، يتردد على البيوت والمقاهى والمصانع والوزارات والمنتديات. كان مشدوها بهذا الذى يشهده.

بدأ يقول: إنها تجربة جديدة، ذات دلالة عالمية. أية تجربة؟ قال: تجربة الدعوة إلى تحقيق «الجبهة الوطنية المتحدة» التى تبناها الشيوعيون المصريون، عملاً بتعاليم قائدهم الشهيد بعد ذلك شهدى عطية الشافعى، وسطر معانيها مع الدكتور عبد المعبود الجبيلى فى كتاب «أهدافنا الوطنية» (١٩٤٦) وهو الذى كان بمثابة المرجع النهائى للجبهة الوطنية للعمال والطلبة أيام أوجها، رائدة لمستقبل ثورة مصر، تتحسس أبعادها ومناهجها وسبلها فى ظلمات الاحتلال والتبعية، تجربة تخطى الجراح والظلم الذى أصاب طلائع مصر الثورية الاشتراكية، من أجل تعبئة جميع القوى الوطنية حول زعامة جمال عبد الناصر.

كان يعود إلى هذا المعنى يوما بعد يوم، يتساءل: لم تفكر أكبر الأحزاب الاشتراكية فى الغرب فى هذا التوجه؟ وكذا كيف كان لنا أن نكتشف هذا التوجه، وكأنه بالفطرة؟ بالفطرة، نعم: انطلاقًا من إرث أقدم أمة فى تاريخ الإنسانية بلد الاستمرارية الحضارية، والتماسك المجتمعى حول الدولة الوطنية، بلد التسامح والتآخى رغم التناقضات!!

بلد «المهادنة التاريخية» قبل صياغة هذا التعبير.

دارت الأيام، شاء المغرضون أن يدسوا الفرقة بين «أهل الكفاءة» و«أهل الثقة» مما ترتب عليه تلك الحرب فى الظلام بين قيادة «الضباط الأحرار» وجميع القوى السياسية والمدارس الفكرية الوطنية، خاصة الشيوعيين والأخوان المسلمين والشبيبة الوفدية، ضعفت فى مصر أركان ومؤسسات «الجبهة الوطنية المتحدة» إلى درجة مأساوية من «كفر الدوار» ١٩٥٢ إلى معتقلات أبى زعبل ثم الواحات «١٩٥٤ ـ ١٩٩٤».

ابتعدت معالم التعبئة الوطنية فى سبيل مصر. فى المرحلة التاريخية بعينها التى شهدت بناء الترسانة الإستراتيجية، ثم النووية الصهيونية، من عدوان السويس عام ١٩٥٦ حتى عبور أكتوبر ١٩٧٣ مرورا بيونيو ١٩٦٧ الأسود، ثم حرب الاستنزاف. وفى هده المرحلة بالذات وبينما مصر فى محنة مواجهة الإمپريالية الحضارية الصهيونية، التى أصبحت اليوم مهيمنة فى قلب المجتمع والدولة الأمريكية. بدأت ثمار نشاط «ياكوفييلو» على أرض مصر. كانت كتاباته ودراساته دافعًا لحزبه، وخاصة رئيس لجنة العلاقات الدولية فيه «جيان كارد لو يايبتا» ثانى زعماء الحزب بعد الأمين العام للجنة المركزية «تولياتى» ثم لونجو آنذاك.

حضر «يايبتا» إلى القاهرة يكاد يكون ساخرًا وهو من سلالة البرجوازية الكبيرة فى شمال إيطاليا، وكذا من رجالات الدولة الثالثة غربية التوجه. كان ذلك عام ١٩٥٤، ذهل الرجل، بدأ يتساءل ويسأل، أصبح من مريدى جمال عبد الناصر، وصديقًا لطلائع الحركة الشعبية المصرية وهم فى محنة قاسية، وبلغ الأمر به أنه كان يقضى الأسابيع فى مصر، ثم نحو أربعة شهور على التوالى فى القاهرة.

حتى أدرك الأمر، واقتنع بصحة وسلامة ووجهة نظر «ياكوفييلو» وأننا لم نكن نمرح ولا نزايد ولا نحلم، أو بالأحرى: كان الحلم ممكنًا، لو كسرنا أنماط وقوالب التجارب المغايرة - رغم أهميتها - وعقدنا العزم على شق طريقنا المصرى إلى الاشتراكية.

عاد «يايبتا» إلى روما ووضع كتابه عن «الثورة العربية» عام ١٩٦٥ ثم ١٩٧١ وأصبح أكبر داعية لنقل التجربة المصرية إلى أكبر أحزاب الاشتراكية فى أوروپا والغرب، فى هذه الأثناء رحل جمال عبد الناصر بعد استشهاد عبد المنعم رياض، ثم جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ لتؤكد أن الممكن ممكن، وأن رؤية الجبهة الوطنية المتحدة يمكن أن تقود إلى فتح أبواب النصر والمستقبل.

عندئذ، عندئذ فقط، بدأت قيادة الحزب الشيوعى الإيطالى تنحو منحى «يايبتا» حتى جاء اليوم الذى صاغ فيه الأمين العام الجديد، رفيع المقام «إنريفو برلينجويز» خط «المهادنة التاريخية» أى الملف الإستراتيچى التاريخى بين المدرستين التكوينيتين للفكر والعمل على أرض إيطاليا: الشيوعيون ورثة «غاريبا لدى» موحد إيطاليا والديمقراطيون المسيحيون وورثة الكنيسة الكاثوليكية التى رعت تركة إمبراطورية «روما» بعد تفسخها من القرن الثالث حتى وحدة إيطاليا فى نهاية القرن التاسع عشر.

رفع الزعيم الشيوعى الإيطالى الأرستقراطى المتصوف من سردينيا الشعار الجديد المواكب لدعوة زملائه المصريين، تزاحمت الأحداث، استجاب رئيس الحزب الديمقراطى المسيحى «الدو مورو» إلى هذه الدعوة. تقلص أمر أنصار الفرقة والردة المتمركزين حول مؤامرة منظمة [ب ٢] P2 الماسونية، ومن أقطابها الاشتراكى «كراكسى» والديمقراطى المسيحى «أندريوتى» ووارثهما «بيرلوسكونى» أصبحت مصالح المافيا السياسية والمالية محل تهديد، بعد أن كاد حلم «المهادنة التاريخية» يتحقق.

كان لا بد من القضاء على الأمل قبل أن يتحقق، كان لا بد من التخلص من رمزه على رأس الحكم «الدو مورو» فكان اغتياله عام ١٩٧٨ فى ظروف لا تزال «غامضة» وعاد الفساد يحكم إيطاليا.

دارت الأيام، تبدل النظام العالمى، أصبح الإجرام ودولة الإرهاب العنصرية فى قلب الصورة، حتى شعرت أوروپا بأن مصالحها الحيوية مهددة، وأن بلاد الحضارة المسيحية يحكمها رجال الصهاينة.

كانت الضربة الأولى فى انتخابات فرنسا الرئاسية، كما أوضحنا مرارًا، ولكن الضربة الرئيسية للمخطط كله بدأت تتجلى الآن: فى إيطاليا، حيث انتصر أخيرًا شعار «المهادنة التاريخية» اسم كتلة «الشجرة الخضراء» (كذا) وتولى الحكم فى روما شهران بعد وفاة زميلنا صديقنا «ياكو فييلو» فى ٧ مارس ١٩٩٦.

صفحة جديد من الأمل والإنجاز، من المخاطر والتقلبات فى معسكر الغرب وقلب المنطقة المتوسطية، تهب رياح الأمن المتحقق. وسوف تهب رياح الهجوم المضاد من مذبحة قانا وما يليها الآن من التسلح النووى والإستراتيجى المضاد المكثف من الدولة الصهيونية على حدود مصر وسوريا، إلى محاولة تقسيم إيطاليا الشمالية ... إلخ!!

بقى ألا ننسى أو نتناسى التاريخ الحى، بقى ألا نتنكر لأداء مصر، وهو ركن ركين فى تحركها المستقبلى.

بقى ألا يسود اليأس قلوب شبابنا، وألا يكون الاستسلام شعار من يتصدى للفكر والعمل على أرض مصر وأمتنا العربية.

بقى ألا نتصور ـ لحظة واحدة ـ أننا «حرثنا البحر» على حد تعبير «سيمون بوليفار» محرر أمريكا اللاتينية، فى نهاية حياته. كلا: لم نحرث البحر، وإنما حرثنا ـ نعم ـ ساحة الأمل الواقعى، وفتحنا مسالك الغد الممكن، شهادة أردناها لوجه الله والتاريخ، لوجه مصر أم الدنيا.

قال صاحبى: أين نحن من هذا كله يا أخى؟

ألا ترى معى أن الذكريات الحلوة شىء، وأن الواقع القاسى شىء آخر ...؟ أم أنك تقبل دعوتى أن نفكر معًا، فى شروط ومستلزمات إحياء جبهتنا الوطنية، المتحدة؟... أين القوى؟ أين المؤسسات؟ أين جسور التفاعل؟ أين ساحات التلاقى؟........

۞ ۞ ۞

obeikan.com

ـ ٥ ـ

« هذه أرضى أنا!... »

أكتب هذه السطور بينما تتبدَّل مصائر روسيا ، عبر نتائج الانتخابات التشريعية واسعة النطاق ، ولنا أسوة بكل من يهتم بأمور الدنيا ، ولنا عودة إلى هذا كله.

لعل الأخطر ، بالنسبة لأمتنا العربية ، بالنسبة لمصر الوطن تلك الأحاديث والهمسات التى تدور دائرة الجنون بعد نتائج الانتخابات الأخرى التى أبرزت إلى مكانة الصدارة مشروع دولة الصهيونية وإمبراطوريتها. الهمس ومناقشات الكواليس ليس فى بعض الأروقة العربية يقارن بين (شمعون وبيبى) شمعون بيريز الراحل وبيبى نيتانياهو القادم ، بين وهم السراب وواقع الأمر ، وينتقل المعلقون إذ يتحولون إلى باحثين فيما يسمى بعلوم السياسة إلى تحليل طاقم الكادر المحيط بالرجلين. وكأن هناك أدنى شك فى أن الطاقم الصهيونى لكليهما طاقم حرب وخداع وهيمنة ، طاقم باراك !!

تتأجج الأروقة بالأحاديث ، لا بد من وقف الهرولة ، بل إن الهرولة مطلوبة أكثر من ذى قبل ، ألا تقودنا ـ هكذا يصيح المهرولون ـ إلى إعلان الدولة الجديدة ورفع أعلامها فى القدس الشريف؟

المسألة فى جوهرها إنما تعود إلى مسألة المرجعية.. المرجعية أى.. من أين نبدأ؟ على أى أساس نُقيِّم الفكر والعمل؟ ما هى نقطة البداية؟ من الذى يفكر ويتحرك؟

التقليد ، منذ مرحلة الاستسلام والخنوع العربى إنما غير قادرين على التحرك بعد عجزنا عن التفكير ، وقد تحولنا إلى قبائل من الهنود الحمر بعد اقتلاعهم من أرضهم ، أو هكذا كان التوجه المفروض باسم الواقعية ، وإدراجها بالعين العلمية ، بعيدًا بعيدًا عن كل تحليل سببى ، ولا نقول أيديولوچى ، أو تآمرى ـ حاشا الله.

المرجع عند أهل الفكر والقرار القابعين المرتدين إنما هو الغير، دولة الهيمنة الأمريكية، والمحور الصهيونى ـ الأمريكى الضارب فى قلب أمتنا العربية على حدود مصر وسوريا، وفى يديه الترسانة العلمية والتكنولوچية والإستراتيچية الهجومية، وكذا النووية، ليرهب ويرعب من شاء ذلك. وكيف لا؟ الوعود والمنح والأريحيات والطيبات، والترقى فى المشاركة فى الإجرام الكوكبى تساءلت، تساءلنا فى جلسات متوالية هنا وهناك: لماذا نبدأ بأنفسنا؟ هل صحيح أننا نعجز على أن نكون؟ لماذا لا ننطلق من رصيدنا التاريخى ومنجزاتنا السياسية المعاصرة وكذا قد يكون بيت القصيد؟

ومن الإمكانيات الجديدة غير المرتقبة التى تفد إلينا من القوة الجديدة فى العالم أليس داخل كل مجموعة هامة من الدول تشمل عددًا من الأمم العريقة؟ أليست مصر أقدم أمم الدنيا؟ ألا تشمل مجتمعاتنا العربية قطاعات واسعة من النبوغ فى مجالات الاقتصاد والعلم والسلاح والمعمار؟ فهل نسينا حرب أكتوبر ١٩٧٣؟ هل نسينا تاريخنا وواقعنا وقدراتنا؟ وإن كنا لا نمثل شيئا فلماذا ترى تتكالب عواصم الهيمنة لكسر العرب وحصارها وعزلها عن سوريا فى هذه المرحلة من صياغة العالم الجديد؟

لماذا هذا الإصرار على تصويب السهام إلى من يقال إنه جثة هامدة؟ لا بد إذن أننا ـ معشر العرب ـ شىء، وأن هذا الشىء يمثل بديلاً أو تهديدًا، أو شريكًا عنيدا، أو ربما توجهًا حضاريًا مغايرًا! العالم كله يتحرك من حولنا ونحن فى متاهات الهرولة والهرولة المعاكسة.

١ـ نبدأ بموضوع الدوائر، والمحاور، موضوع الأركان والتحرك، نقصد بذلك أنه لا بد من البدء فى وحدات تحليل الفكر والعمل السياسى ـ المجتمعى على أساس من الإمساك بمفاتيح عمق المجال التاريخى الذى وحده يمنحنا القدرة على الفكر والعمل الفاعل.

(أ) بدأت القضية عندما رفع جمال عبد الناصر مفهوم الدوائر محددا أن دوائر مصر ثلاث: عربية (الجزيرة العربية) إفريقية، إسلامية. وقد ظن البعض أن هذه الدوائر دوائر الشخصية المصرية، أى أركان الوجود التاريخى للمجتمع القومى المصرى عبر تاريخه السبع ألفى. راحوا يقارنون بين هذه الخصوصية المصرية وبين خصوصية

المجتمعات العربية الأخرى، التى قيل إنها أقاليم، ثم انتقل التحليل إلى بقية المعمورة، ابتداء من الدائرة الإفريقية الآسيوية.

وعندنا أن هناك خلطًا بين الأركان والدوائر

الأركان: أى العوامل التى تصوغ خصوصية لكل مجتمع يمتد عبر التاريخ ويتخذ شكلاً حول دولته وفى إطار حضارته.

الأركان هى الثوابت، الأركان هى التى تمثل أعمدة الدار القومية، التى لولا الإمساك بها لتهدَّمَت الدار لا محالة.

فإذا تحدثنا مثلا عن مصر، باحثين عن أركان الشخصية المصرية لكان علينا أن ندرك الثوابت. فمصر مجتمع يمتد إلى أقدم عصور حضارة الإنسان على هذا الكوكب، مجتمع محاصر صحراوى منفجر سكانيًّا، فى أخطر بؤرة چيوسياسية فى العالم.

من هنا كان تماسك هذا المجتمع حول دولته الوطنية وعلو شأن هذه الدولة ليس فقط منظما للحياة وأمور المجتمع من أمن وقوت وعلم وسلوك، وإنما أول انعكاس للتوحيد على أرض مصر، الذى تمثل دوما فى الإيمانية المصرية، ووحدة الفكر والشعور والعمل كلما ارتفع التحدى وتجبر رغم مظاهر التشكيك والانطواء والتحلل، بل والتردى فى الكثير من الأحيان، وإن كان هذا هو نمط تركيب أركان مصر، أى أعمدة الشخصية المصرية، فإن موضوع الدوائر يمثل على وجه التحديد سلم أولويات العمل المصرى فى كل مرحلة من الزمان حسب الظروف والاحتياجات، وجدلية التاريخ التى تفرض على الشعب والدولة توجهًا قد يختلف عنه فى ظروف أخرى.

نلاحظ بادئ ذى بدء أن دوائر التحرك المصرى ـ ومن ثم دوائر الانتماء المصيرى المصرى ـ كانت تمتد دوما فى ثلاثة اتجاهات: فى الجنوب حول حوض النيل من السودان الشقيق العزيز حتى إثيوبيا والدول المحيطة ببحيرة ڤيكتوريا فى إفريقيا الوسطى، ثم الشمال الشرقى من حيث يأتينا دائما التهديد، من غارات الهكسوس ضد دولة الفراعنة، حتى حروب الدولة الصهيونية فى عصرنا، ومن هنا أهمية بلاد الشام: سوريا، لبنان، فلسطين، العراق، وما يحيط بها فى شبه الجزيرة والخليج.

وليس عبثًا، قامت حروب مصر وانتصاراتها منذ معركة قادش الفاصلة التى قادها

رمسيس الثانى على رأس جيوش الشمس فى القرن الثامن عشر ق.م على أبواب تركيا، حتى حملات إبراهيم باشا لبحث العصرية فى قلب الخلافة العثمانية، ولم تتوقف إلا بتدخل الدول الأوروبية التى تحولت بعد ذلك لضرب دولة محمد على وفرض الهيمنة الأجنبية، حتى الاحتلال عام ١٨٨٢، ثم المحور الثالث إلى الغرب، إلى ليبيا الشقيقة التى طالما أثرت مصر الفرعونية بنبوغها، هو المحور الذى تحرك عليه فى اتجاه معاكس ابن خلدون مؤسس علم التاريخ وعلم الاجتماع عندما انتقل من المغرب إلى القاهرة.

هذه إذن محاور التحرك المصرى تاريخيا وآنيًا، تمليه علينا أوضاعها الجغرافية والتاريخية معا، وهى ـ بشكل مدهش ـ تربط بيننا وبين الدائرة الأولى لأولويات التحرك المصرى، الدائرة العربية «شبه الجزيرة» ثم الدائرة الثانية لتحركنا هذا أى الدائرة الإفريقية فى شمال إفريقيا، وكلتاهما تندرجان فى نطاق الدائرة الحضارية الإسلامية، وهى ثالث الدوائر فى التحرك المصرى.

ماذا تعنى هذه الملاحظات الأولوية على مسار مصر تاريخيًا وآنيًا؟

آنيًا تعنى على وجه التحديد وبشكل لافت للأنظار أنه لا مجال للتفريق بين أركان الشخصية المصرية من ناحية، ودوائر التحرك المصرى من ناحية أخرى، كانت هذه الأركان وتلك الدوائر هى الأساس، وقد أصبحت دائرة الحضارة الإسلامية منذ القرن السابع هى الدائرة الأوسع لتحرك مصر بما أضاف بعدًا محددًا لتحرك مصر الفرعونية شرقًا وجنوبًا وغربًا.

نقول إنه أضاف بعدًا محددًا، دون أن يكون هذا البعد دخيلاً على أولويات مصر بحال من الاحوال.

٢ـ هل يمكن أن ننتقل إلى مجال أوسع، ما دمنا بصدد التعرف على إمكانات التحرك فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد؟

نلاحظ أن الدوائر الثلاث الذى تحركت فيه أركان شخصيتنا المصرية. الدائرة العربية (شبه الجزيرة)، الإفريقية الإسلامية. كانت دوما محل هجوم، بل وهجوم متصل من قِبَل غزاة الشمال شرقى ـ الهكسوس ـ ثم حروب الفرنجة (المعروفة باسم الصليبية)

ثم موجات الاستعمار من ١٧٩٨ إلى ١٨٨٢ ، ثم الحروب العدوانية الصهيونية المفروضة علينا منذ عام ١٩٤٨. بل وإن هذه الارض هى اليوم هدف الحصار المكين من كل جانب ، بحيث إن عزل مصر ـ بل وترهيبها بعد التحذير والعزل وإضعاف الروح المعنوية وتسرب السمسارية إلى صلب المجتمع المصرى ـ هو بيت القصيد.

كان طبيعيًا أن تصاحب هذه الموجات المتتالية من الغزو ـ على تنوع أشكاله وصوره ـ موجات مضادة من الرفض حفاظًا على أرض البلاد والمجتمع القائم عليها ، حفاظًا على الاستقلال ، وتحريرًا لمصر كل ما لزم الأمر. مسيرة طويلة ، شامخة ، مشرقة ، رغم الجراح تمت عبر تاريخ الإنسانية ، وإن أراد مؤرخو هذا العصر الأسود أن يديروا لها ظهورهم ، ويزيفوا معانيها وتوجهاتها ، وعطاءها.

ومن هذه الحركات التحررية التى امتددت عبر الدوائر الثلاث آتية من كل مكان ما دامت هذه الدوائر الثلاث هدفا بتوغل القوة المهيمنة الخارجية من مجموع هذه الحركات تكون تدريجيا نوعًا من الألفة ، والتحالف ، والتواكب ، وتجانس المصير بين مجموعة من أعرق حضارات وثقافات وقوميات ودول العالم منذ القرن الخامس عشر. وهو عصر صعود الغرب إلى المركزية عالميًّا ، جاء منها مفهوم الشرق الحضارى الذى يتردد الكثيرون فى استعماله فيقدمون مفاهيم تارة تمويه من طراز (العالم الثالث) ، أو چيوسياسية على صورة (الجنوب). والغريب واللافت للأنظار أن هذا الشرق ، الذى يقال عنه إنه جنوبًا ، يشمل الحضارات الثلاث الأقدم فى تاريخ البشرية ــ الحضارة المصرية ، الفارسية ، الصينية ــ جنبا إلى جنب مع أكبر نسبة من الدوائر الثقافية والمجتمعات القومية ، أى الأمم ، لو قارنها بالمناطق الأخرى.

مرة أخرى لا بد من أن نترك الجدل جانبًا ونمضى فى الطريق الذى يفتح أمامنا من الباب الواسع.

نقول إن الشرق الحضارى إنما يتكون من الدائرتين الحضاريتين الرئيسيتين.. الدائرة الصينية فى قلب آسيا ، نقول عنها أحيانًا (الدائرة الآسيوية ــ الصينية) أو دائرة شرق آسيا ، ثم الدائرة الإسلامية الآسيوية الإفريقية حول أمتنا العربية وإيران. هذا ، وتقع الدائرة الهندية ذات الثقافات المتعددة جنوبًا ، ودائرة آسيا الوسطى الإسلامية التقلبية الشمالية همزتى وصل بين الدائرتين.

إلى هنا، يظل الاتفاق والخلاف ثانى الأهمية بالنسبة للتساؤل.. ما جدوى هذا كله ونحن فى خضم العمليات؟

الجدوى حقيقةً تكمن فى مجموعة الممكنات المطروحة أمامنا.. نعم المخلفات أى مجالات البدائل فى اختيار الأولويات ومحاور التحرك على عكس ما يتصوره رجال الفكر المسطح والعمل النفعى.

١ ـ الدوائر الثلاث تفتح أمامنا إمكانية التعامل مع الجانب الشمالى لمنطقة البحر الأبيض المتوسط على اعتبار أنها منطقة چيو ـ سياسية، وليست حضارية بالمعنى الدقيق، تمثل مصالح كبيرة على الجانبين، وكذا من تناقضات لا تقل أهمية عن الساحة المشتركة.. وليكن اسم هذا التفاعل هو (المتوسطية)، ولم لا؟

ويفتح أمامنا اختيار التركيز على المحاور الثلاثة للتحرك التاريخى المصرى. أى الدائرة العربية «وشبه الجزيرة» المركزية فى الجنوب والشمال الشرقى والعربى، بحيث تكون أولوية توحد النواة العربية المصرية ـ السورية ـ السودانية ـ الليبية وامتدادها إلى العراق والمغرب فى الأساس هو بيت القصيد.

وهناك أيضًا بديل ـ أو على الأقل ـ تصور ثالث لا يتنافى إطلاقًا مع هذا التصور الثانى، ألا وهو منح دائرة الانتماء الحضارى الشرقى الأولوية، لا بالمعنى النظرى، وإنما من حيث إقامة أركان التحرك والمحاور كيف يكون ترى نظام ممكن للأحلاف؟ يصل التحليل بنا هنا إلى موضوع (المثلثات).

(أ) المثلث الأول العربى وهى النواة الأصلية التى ذكرناها.

(ب) مثلث ثان يهدف إلى ربط هذا المثلث العربى حول ضرب مصر مع أهم دولتين قوميتين هما اللتان دومًا كانتا على علاقة عضوية متصلة وطيدة عبر الأجيال بنا، نعنى بذلك إيران وتركيا. المسألة ليست مسألة أنظمة، ولكن مسألة ثوابت لا يمكن إقامة التفاعل والتكامل إلى حد المحاور إلا مع الثوابت، أى مع الدول الوطنية المستقلة الثابتة، رغم تنوع وتناقض أنظمتها السياسية ومناهجها فى الفكر والعمل، وقد أدرك العدو هذا الأمر فى سعيه إلى الارتباط العضوى بتركيا. وقد كنا هنا مترددين، ولا داعٍ لذكر ما شاب العلاقات الإيرانية العربية من قلة وعى وسوء فهم عطلت الكثير من الخطوات

والمنجزات الممكنة، على أساس الاحترام الكامل للتوجهات المتباينة، وكذا السيادة الوطنية دون قيد أو شرط.

إن السعى فى إقامة هذا المثلث الذى نراه واقعيا ونافعا من جميع النواحى رغم المصاعب المعروفة العديدة نستطيع به أن نرتبط بآسيا الوسطى من الباب الواسع، حيث إن كلا من إيران وتركيا لهما اليوم مكانه متميزة فى الساحة العظيمة بين جبال أوراس الروديسية غربًا حتى المحيط الهادى شرقا مع حدود الصين وكوريا واليابان، نستطيع بذلك أن نكثف جهودنا وطاقاتنا لإرساء سياسة إستراتيچية ثابتة فى نصف القارة الهندية، خاصة وقد تولت جبهة اليسار المتحدة فعالية الحكم فى دلهى بعد فشل الحزب الهندوسى العنصرى المعادى للإسلام، وعجز حزب المؤتمر الهندى عن مواصلة رسالة غاندى ونهرو ولو مرحليًّا.

كذلك وهو أمر واضح للعيان. فإن مثل هذا المثلث الحضارى والاقتصادى والإستراتيچى والسياسى يمكن أن يكون له دور كبير فى العلاقة بروسيا الجديدة بعد أن استشعرت معانى الإهانة والتفتيت على أيدى الغرب الصديق المنافق، فكان التقارب والارتباط العضوى المصيرى بالصين الجديدة. نرى روسيا الآن تبارك التقارب بين العراق وإيران. وتوطدت العلاقة بسوريا، وتسعى إلى مصر؛ مما يفتح أمامنا تيارًا عظيم الأهمية، كان له فى تاريخنا المعاصر القريب الأثر الحاسم فى كسر شوكة الإمپريالية. ثم إن هذا المثلث الذى نراه نافعا بين الواقعية الباردة يستطيع أن يدعم التحرك العربى فى أوروپا الغربية على تنوع وحداتها ومصالحها.

الموضوع يتسع إلى عدد من المشاريع البحثية والندوات الاستطلاعية والتنقيبية العلمية الدقيقة. نطرحه الآن للبحث انطلاقًا من مقولة: إن المرجعية فى التوجه السياسى التاريخى لمصر وأمتنا العربية يجب أن يكون من الداخل لا بمثابة رد فعل على سياسات الخارج.

لو نظرنا مثلاً إلى عدد من الدول الفاعلة الأخرى فى عالمنا اليوم لأدركنا عدة معان تغيب فى معظم الأحيان على البال.

هذه مثلا الصين ـ ربع المعمورة ـ تتحرك فى إطار دائرة حضارية يطلقون عليها

دائرة كانجى الثقافية تشمل اليابان وكوريا وقطاعات واسعة من جنوب شرق آسيا، وبعض الامتداد فى آسيا الوسطى.

إن أركان الشخصية الحضارية القومية الصينية تواكب أولويات دوائر التحرك عندها، مع فارق طفيف هام، وإن كان ثانى الأهمية، ألا وهو تعدد اللغات، وإن كانت اللغة الصينية بطبيعة الأمر هى اللغة الرئيسية الموحدة لهذه المنطقة كلها.

لو نظرنا مثلاً إلى الهند، لأدركنا أن المشاكل أعمق وأشد بكثير نظرًا لتعدد الوحدات الثقافية فى نصف القارة. وكذا الانقسام بين الهندوسية والإسلام، إلى جانب البوذية، مما يجعل التوحيد بين أركان الشخصية القومية من ناحية ودوائر التحرك السياسى الآنى والمستقبلى أمرًا أشد صعوبة.

وهذه مثلاً فرنسا.. أركان التكون التاريخى واضحة وهى لاتينية تربط بين فرنسا ودول أوروپا الجنوبية بشكل وثيق، وأمريكا وبشكل ثانى الأهمية أمريكا اللاتينية، وإنما مجال التحرك هو القارة الأوروپية مشحون بتاريخ الحروب الدامية والمصاعب الآنية. ومن هنا كانت دعوة الفرنكوفونية أى إيجاد دائرة ثقافية تمكن فرنسا من التحرك الفاعل فى ظروف تزايد التحديات.

ثم إنجلترا، دائرتها البحار والمحيطات، أولوياتها بعد أن تربعت على عرش الإمپريالية العالمية هى دائرة الكومنولث البريطانى من ناحية، والولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى، بل واليوم كل من يستعمل اللغة الإنجليزية فى التعامل، وقد أصبحت هى اللغة الوسيطة فى عصرنا.

ثم البرازيل مثلا، هذا البلد الكبير الشامخ الصاعد يستطيع أن يقارن بين أركان صياغة شخصيته القومية اللاتينية ـ البرتغالية ـ الإفريقية من حكم الناحية، وبين دوائر تحركه، وهى على وجه التحديد أمريكا اللاتينية. العالم البرتغالى ـ الإسپانى فى أوروپا خاصة ثم إفريقيا الغربية وكذا الجنوب شرقية التى يربط بينهما فى استعمال اللغة البرتغالية الواحدة.

موضوع التواكب النسبى أو المتقدم أو الكلى بين أركان الشخصية القومية الحضارية عبر التاريخ من ناحية ودوائر التحرك وأولويات السياسة من ناحية أخرى هو

الذى يحتل مكانة الصدارة فى مجالات غير تقليدية للفكر والعلم والعمل، يطلق عليها أحيانًا فلسفة الحضارة أو الدراسات الحضارية المقارنة أو الچيو ـ سياسية، والتفاعل الحضارى الچيو ـ سياسى لا بد أن ندخل هذا المجال من أوسع الأبواب، فورًا، جنبا إلى جنب مع كل من يسعى إلى تنقيب المستقبل فى أمتنا العربية على وجه التحديد بدلاً من التعقيب على هوامش أوراق عمل الإمپريالية المهيمنة والعدو الصهيونى.

ومن ناحية أخرى ـ وهى الناحية الأهم ـ يجب أن نسعى إلى دراسة رؤى الدوائر الحضارية والچيو ـ سياسية والوحدات القومية الهامة فى عالمنا المتغير من الداخل، أى انطلاقًا من معطياتها وتحليلاتها وآراء مفكريها وساستها، أى يجب على وجه التمثيل أن ندرس الصين ابتداء من بحوث الأكاديميات والجامعات ومراكز البحث والمؤسسات الصينية، وهى اليوم على أرفع مستوى من التقنية والإتقان فى معظم المجالات، وإلا فكيف يفسر المحللون الواهمون انطلاقة الصين الاقتصادية الخرافية، وهى تحقق أعلى معدلات التنمية فى تاريخ الإنسانية جمعاء؟

وما نقوله عن الصين ينطبق على الوحدات الكبرى: اليابان، الهند، ڤيتنام، روسيا، أمريكا اللاتينية حول البرازيل والمكسيك، خاصة آسيا الوسطى حول باكستان وكازاخستان وقد يكون أمر هذا غريبا، دراسة مختلف القوميات الأوروپية من وجهة نظرها هى لا كما يراها المحللون الأجانب على سبيل التمثيل.. لا يمكن فهم ڤيتنام ابتداء من مراكز البحث الغربى الكارهة لوقفة الصين فى عصرنا، ولا اليابان من خلال تحليلات بيوت المال والاقتصاد فى أمريكا وأوروپا، تمامًا كما لا يمكن فهم عالمنا الإسلامى على تنوع دوائره ووحداته انطلاقا من كتابات المبشرين والمستشرقين وخبراء العلوم الاجتماعية والإنسانية والسياسية الغربيين الذين يحاصرون كل ظاهرة إيجابية، وكثيرًا ما يطوون كل صفحة بنَّاءة. دعنا من تهميش كل جديد وكل إبداع وكل تقدم فى هذه المنطقة التى يتصورون أنها ساحة مفتوحة.

موضوع كبير يشغل بال شباب مصر وأمتنا العربية فى كل لقاء وكل منتدى.. وحق أن السخط الذى يعبرون عنه بالنسبة لترديد نفس المعانى ونفس الأسماء ونفس الدردشة الفكرية باسم العلم فى معظم الأحيان يعبر عن رغبة أكيدة فى إقامة الحوار الوطنى والتكامل القومى والتفاعل الثقافى والحضارى داخل الدوائر الثلاث تحقيقًا

لمعانى (التراكم الوطنى) أى التعبئة المتصلة الشاملة لمختلف القوى العاملة، وكذا الكامنة المهمشة على أرضنا المصرية العربية الإسلامية الشرقية، وربما استطعنا عندئذ أن ننتقل إلى بناء الكبارى لزملائنا وإخواننا فى هذا الشرق الحضارى الذى يمثل ثلثى الإنسانية، وكذا يمسك بين يديه بمفاتيح المبادرة التاريخية فى كل قطاع وكل مجال رغم الحصار، وتأخر التهميش المتعمد.

إن كانت الأمور على هذا النحو، أى لو استطعنا أن نجمع بين التعبئة الوطنية القومية من ناحية واستمرار التعاون والتفاعل مع الغرب المهيمن مرحليًا، ثم التركيز كل التركيز على التعاون العضوى والفهم العميق لمستقبلنا المشترك مع أهم وحدات الشرق الحضارى لانفتحت أمامنا سبل ومجالات لا ندركها اليوم من جراء الحصار والتحكم الإعلامى، والهزل الفكرى، ورفع الشعارات الخرافية.

هل تستمر كل من مدارس الفكر والعمل التكوينية على أرضنا المصرية العربية فى توجهها، إننا فى حاجة إلى إثراء التراكم الوطنى بكل ما هو إيجابى فى كل المجالات، ومن كل القطاعات والمناطق فى العالم، وإنما دعوتنا تتركز على ضرورة إعادة النظر فى ترتيب الأولويات، أى فى تحديد رائد جديد لدوائر التحرك المصرى حول الدائرة المركزية العربية وامتدادها الإسلامى والشرقى العربى على وجه التحديد..

قال صاحبى: أراك تتقدم خطوة جريئة وكأننا على موعد مع القدر؟ ألا ترى الحصار؟ ألا ترى التخبط؟ كيف بالله عليك؟ كيف هذه الانطلاقة؟ ومن أين لك بهذا التفاؤل فى جو ملغم بالمخاطر؟ أم لعل الأزمات والمخاطر تتحول إلى تحديات؟ ولعل التحديات تقود إلى الإبداع والريادة والتجديد؟

قال صاحبى: معنى ذلك أن هناك بدائل لما يسمى بالشرق أوسطية فى مقابل ـ فى حقيقة الأمر ـ تلاقٍ مع «المتوسطية» وكذا أن قمة القاهرة التى تستقطب أقطار العالم العربى هذه الأيام سوف تقيم سدًّا منيعًا أمام هرولة الانحدار، وتعلن بدء مرحلة الصمود والتحرك الإيجابى ابتداء من رؤيتنا الذاتية ومشروعنا المستقبلى؟

هل أفهم منك أن قمة دمشق ربما تفتح الأبواب أمام تحرك عربى فى أنحاء «الشرقية» والإرادة القومية ونهاية عصر التبعية.. أراك تبتسم.

- ٦ -

ليلة السبع دوخات

أكتب هذه السطور فى صبح، ساعة الفجر، صبح جديد ليس إصباحًا، وفجر جديد لا علاقة له بالفجر الساطع المشرق.

أكوام من الصحف والدوريات وملفات البحث ونشرات مراكز ومؤسسات التحليل المتخصص فى أمور عالمنا المتغير ومنطقتنا.

ثم أعود إلى مجال القراءة والإعلام الصادر عن قاهرتنا المشرقة. العالم يسير إلى محاور تحرك، وواقع متغير جذريًّا، وإمكانات جديدة هائلة لم تكن فى الحسبان، وكذا مدخل إلى فهم الأمور الجارية. ونحن ما زلنا ـ فى أغلب الأحيان ـ نردد عبارات وشعارات ومعانى من لون وعلى مستوى مغاير.

رحت أفكر: من أين نبدأ؟ أين مفتاح بوابة المستقبل؟

وإذا بالذاكرة والذكريات تتراكم، تتفجر فى العقل والوجدان.

ربيع ١٩٧٤ ثم عام ١٩٧٥، عندما بدأنا التحرك من فك الاشتباك إلى السلام مع العدو الصهيونى بعد العبور، بعد كسر شوكة أسطورة تفوقه العسكرى. تفكك القوى المدرعة الضاربة، ثم استنزاف كادر الضباط وصف الضباط. وذلك رغم المناورات الأخيرة بفضل الجسر الجوى الأمريكى لإنقاذ ما أمكن إنقاذه. كان رأى القيادة المصرية آنذاك هو الانتقال من وقف القتال إلى الصلح. وقد أدرك قطاع من الطبقة السياسية المصرية والمفكرين ـ ومنهم كاتب هذه السطور ـ أن هذا التوجه لا مفر منه انطلاقًا من الواقعية السياسية، لكنها من خلال الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى إطار دولى. وقد أصابنا ما أصابنا من اتهامات وتجريح آنذاك من وجوه بارزة أصبحت اليوم أبواقًا لسياسة قبول التطويع باسم التطبيع، والتبعية باسم التحديث.

obeikan.com

ما علينا...

ثم ذكريات ربيع آخر منذ سنتين عام ١٩٩٤ ، أمسية فى دار سينما بمدينة نصر مع أصدقاء أوفياء : لقاء مع فنانة مصر الكبيرة فاتن حمامة ويحيى الفخرانى بعد «ليالى الحلمية» : لقاء مع فيلم «أرض الأحلام» سيدة كريمة من أسرة كريمة تضطر إلى قبول فكرة الهجرة إلى أمريكا «أرض الأحلام» إرضاء لأولادها المتطلعين إلى مباهج السوق ، المتنكرين لمصر المحاصرة. ليلة تمزق : صديقة تقرأ لها الفنجان وتنبئها بأنها (أى فاتن حمامة) سوف تعبر «ليلة السبع دوخات» . تفقد الأم جواز السفر ، ثم تفقد أعصابها مما يترتب عليه حادث تصادم فى الليل مع سيارة رجل من النوع الشعبى الضاحك (يحيى الفخرانى). ليلة لقاء بين الحلم والواقع ، بين الشعارات الكاذبة ووجدان مصر الأنيس.

تتساءل الأم (فاتن حمامة) عن مغزى هذا كله ، بينما هو يشجعها ويجاملها. روى لها حياته البسيطة الأصيلة ـ حياة شعب مصر ـ ثم يأتى الفجر ومعه مفاجأة العثور على جواز السفر المفقود ، يفترق الصديقان بعد ساعات الأنس. تعود الأم إلى تساؤلها ، إلى أزمتها.

يشرق الفجر رويدًا رويدًا. ومع أضواء الطريق.. تعود فاتن إلى منزلها وتعلن أنها لن تغادر عتبة المنزل وليسافر من يسافر إلى أرض الأحلام ، أما هى فلن تدير ظهرها لأرض الوطن ، انتهت «ليلة السبع دوخات» . عادت الأم إلى أرضها ، إلى دارها ، بفضل شعب مصر (يحيى الفخرانى) والقدر (استعادة جواز السفر) ، ما زالت المشاكل كما هى ، لكن الأم سيدة مصر ، رمز شخصية مصر ، عقدت العزم على مواجهة الاختناق ، بعزم وإصرار واعتزاز.

ذكريات ملتهبة : ما علاقتها بالمشاكل والتساؤلات والمعضلات التى تحاصرنا اليوم؟ وهل تقدم ـ من يدرى؟ ـ خيطًا لبداية جديدة؟

١ ـ «المسيرة» أولا «مسيرة السلام» .

قلت إن كاتب هذه السطور كان من القلة التى قبلت نهج السلام بعد نصر أكتوبر ، وذلك من منطلق الواقعية السياسية. وقد تمنى أن يلبى القدر قدرًا من الآمال المرتقبة. من

يدرى؟ لعل الأمور تبدلت حقيقة؟ لعل الناس أصبحوا غير الناس؟ لعل! حقًا، كان هناك فارق جوهرى بين ما رأيناه واقعيًا ومبدئيًّا معًا آنذاك، وما تم بالفعل عام ١٩٧٩.

كنا ـ وما زلنا ـ نرى أن الإطار الأوحد لعرض السلام والتعاقد عليه إنما هو إطار هيئة الأمم المتحدة صاحبة الشرعية الدولية، وكذا تفسير القانون الدولى والرقيب المعترف به على تنفيذ أحكامه.

كان لا بد أن يدعو الرئيس الراحل إلى عقد دورة استثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة يعلن فيها قرار مصر بالسعى للسلام على أساس مبادئ القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة، بحيث يصبح المجتمع الدولى هو حامى حمى السلام المرتقب (أو راعى السلام، حسب تعبير اليوم).

ومن هنا، كانت ـ ولا تزال ـ معارضتنا وإدانتنا للتوجه إلى ساحة إحدى الدول العظمى آنذاك، والولايات المتحدة الأمريكية، لا من حيث إنها دولة عظمى لها مقامها ومكانتها، وإنما بصفتها حليف الدولة الصهيونية الرئيسى، ومركز قيادة جبهة الهيمنة الإمپريالية العالمية. وجاء قرار مصر عكس ذلك تمامًا، فكان السعى إلى أمريكا «أرض الأحلام» وقبول الاحتكام إليها فى معاهدة «كامب ديڤيد»، وكأن المجتمع الدولى لا وجود له، وكأن الحليف الإستراتيچى الأول لدولة العدو يمكن أن يكون حكمًا منصفًا، وكأن الإمپريالية الأمريكية ـ الصهيونية يمكن أن تنسى أو تتناسى ـ لحظة واحدة ـ تحرك الوحدة الوطنية التحريرية المصرية فى صياغة التاريخ المعاصر، وأن تنسى أو تتناسى ـ لحظة واحدة ـ إنجازات ثورة مصر الوطنية بقيادة جمال عبد الناصر، وأن «تنسى» عصر حروبها العربية بقيادة فاروق عام ١٩٤٨ حتى أنور السادات عام ١٩٧٣.

«مسيرة السلام» منذ مذبحة «دير ياسين» أيام تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ حتى مذبحة «قانا» وتهجير شعب جنوب لبنان الشقيق عام ١٩٩٦، مرورًا بضرب اقتصاد مصر فى الأعماق، ورمز ذلك مذبحة «أبو زعبل» أثناء حرب الاستنزاف.

شاهدنا سياسة بناء المستوطنات على أرض فلسطين الشهيدة دون أدنى كلل، وقد صدق نيتانياهو عندما ذكر حقيقة الأرقام أمام الكونجرس الأمريكى فى يوليو ١٩٩٦: فقد حققت حكومة حزب العمل «الاشتراكية» بقيادة «رابين» ثم «بيريز» رقمًا قياسيًا،

ذلك برفع عدد المستوطنين من ٩٦٠٠٠ إلى ١٤٥٠٠٠ خلال سنوات حكمها الأربع ، أى بزيادة نحو ٥٠ ٪ باسم مسيرة السلام. وقد أضاف «بيبى» بحق (وابتسامة..) : «إنى أفترض أن أحدًا هنا (أى فى الكونجرس الأمريكى) ينتظر منا أن نفعل أقل من ذلك!» .

شاهدنا تدمير مدن القناة ، خاصة مدينة السويس ، التى ظل «أنصار السلام» فى سيناء المحتلة يقذفونها ببطاريات المدفعية الثقيلة من عيار ١٥٨ فى «عيون موسى» ليل نهار من يوليو ١٩٦٧ حتى أكتوبر ١٩٧٣ .

شاهدنا ـ أخيرًا وليس آخرًا ـ وثائق اغتيال رجالات العرب فى الخارج ، ثم الآلاف من أسرى الحرب المصريين على يد العدو بعد هزائم سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ، وقد اختفت منذ حين أنباء التحرك المصرى فى مجال محاكمة المجرمين الصهاينة المسئولين عن هذه المذابح.

شاهدنا ، ومارسنا ، وسمعنا ، وطالعنا.

٢ ـ ثم مفهوم السلام الذى تعرضة الدول العربية ، ألا وهو مبدأ «الأرض مقابل السلام» .

الأرض ـ أية أرض؟

أهى الأرض العربية المتبقية بعد موجات الاحتلال والاستيطان الصهيونية المتتالية ، من مذبحة «دير ياسين» إلى تعيين «شارون» ـ المسئول الأول عن مذبحة صبرا وشاتيلا ، وكذا تدمير بيروت ـ وزيرًا للبنية الأساسية للدولة الصهيونية ، أى المسئول الأول عن تحقيق سياسة التوسع والاستيطان ، والقضاء على المجال المتسق لفلسطين العربية؟

أم أنها الأرض العربية قبل بدء عمليات الاكتساح الصهيونية بعد سنة ١٩٤٨ ، أى الأرض التى حددها قرار تقسيم فلسطين المشئوم فى ديسمبر سنة ١٩٤٧؟

ثم كيف يجوز الحديث فى التفاوض حول شعار «الأرض مقابل السلام» بعد إعلان «اللاءات الثلاث» من قبل «نيتانياهو» : لا لمبدأ الأرض مقابل السلام ، لا لوجود دولة فلسطينية ، لا لقبول أى تغيير فى مكانة القدس عاصمة للدولة الصهيونية. وهو فى هذا الأمر لا يعدو أن يكرر مرة أخرى رسالة «إسحاق رابين» أيام حكمه :

«إن القدس التى دمرت ثمانى مرات، وحيث لم نستطع أن نتوجه إلى فلول معبدنا، القدس هذه كانت لنا، وهى لنا، وستظل لنا إلى الأبد».

«رابين» الذى اغتاله غلاة اليمين العنصرى فى وطنه، متناسين أنه رجل هذه السياسة الاستيطانية العنصرية الثابتة، وكذا الأمر بكسر عظام شباب المقاومة الفلسطينية للقضاء على الانتفاضة، نفس الرجل الذى رأت هيئة منظمة اليونسكو ـ أى «منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم» ـ أن تقيم له تمثالاً أمام أحد مداخل بنائها الرئيسى فى باريس فى ربيع سنة ١٩٩٦.

٣ ـ هذا كله «مسيرة السلام». بينما تصر الدولة الصهيونية على التمسك بحقها فى التسلح النووى، ومن المعروف لدى مراكز البحث الإستراتيچى أنها تمتلك سادس ترسانة نووية إستراتيچية هجومية فى العالم بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين وإنجلترا وفرنسا، الترسانة الموجهة ضد الجبهة العربية والإسلامية، وعلى وجه التخصيص محور مصر ـ سوريا، ثم إيران الثورة، وكذا أية قوة محيطة بمنطقة الشرق الأوسط ـ روسيا مثلاً، وكذلك دائرة البحر المتوسط وباكستان ـ ربما تسعى أن تفك الحصار النووى المضروب حول أمتنا.

مسيرة سلام؟ أم طريق الاستسلام؟

أتمنى أن تنقل وسائل الإعلام السمعية ـ المرئية إلى جمهور المواطنين فى كل منزل وكل مكان على أرضنا المصرية العربية ملفًا يوميًا لأهم التعليقات والتحليلات السياسية والإستراتيچية العالمية حول تحرك قوى الهيمنة الصهيونية التى بلغ بها حد الفعالية أنها شلت الإرادة الأمريكية، وحيدت أوروبا، وحاصرت قرارات القمة العربية من كل جانب، بل وكادت تلغى من إدراك العقل والإرادة مفهوم الإمپريالية والهيمنة، إلى حد تهميش هذين المفهومين من المصطلح العربى، بل وإلغائهما، وقد حل محلهما مفهوم «الإرهاب» العربى ـ الإيرانى ـ الإسلامى بفضل تحكم دول الإرهاب العنصرى على مفاتيح ومؤسسات الإعلام العالمى.

الملف طويل، مُرَكَّب، تزداد خطورته يوما بعد يوم، يتناوله المحللون على تنوع اتجاهاتهم وتخصصهم اليوم تلو اليوم بما فيه الكفاية.

هكذا دخلنا «ليلة السبع دوخات» ...

هكذا أصبح لزامًا علينا أن نهتدى إلى المفتاح، أن نتبصر طريق التحرك لذلك الحصار والإفلات من الكابوس الأسود.

انقلبت المعايير رأسًا على عقب، وكأن الأبيض أصبح أسود، وكان الأسود أصبح هو الأبيض.

انقلبت المعايير.. تحولت المفاهيم.. أصبحنا مدفوعين إلى الإيمان بأننا نعيش فى طريق الأمل، أمل «المسيرة السلمية»، أمل الحصول على الأمن والسلام بفضل شعار «الأرض مقابل السلام»، المرفوض تمامًا وبكل إصرار وصراحة من القيادة الصهيونية المدعومة بدوائر المال والإعلام والنفوذ فى قطاعات واسعة من الدولة الصهيونية، وكذا العالم الغربى بجميع قطاعاته، «أرض الأحلام».

أصبحت مصر وأمتنا العربية تعيش فى إطار الحرب فى زمن السلام.

كيف ـ إذن ـ يكون الطريق إلى السلام فى زمن الحرب؟

كيف يمكن ـ ترى ـ الخلاص من «ليلة السبع دوخات»، والاهتداء إلى طريق المستقبل؟

أين «جواز المرور» للخروج من «أرض الأحلام» إلى دنيا الواقع؟

كيف تتحقق «عودة الروح»؟ وما العمل؟

نحسب أن كل ما ينتمى إلى وطننا المصرى وأمتنا العربية وحضارتنا الإسلامية الشرقية يعود الآن إلى ضميره، ويستحث عقله ووجدانه للإسهام فى هذه الفريضة الحيوية المقدسة.

إن كان هذا واجبنا الحيوى المقدس، فلا أقل من أن ترفع جميع الحواجز التى تعوق تلاقى مختلف المدارس التكوينية للفكر والعمل من أجل شق الطريق إلى تحقيق سلام عادل آمن للشعوب.

وعندنا، أن المنهج المعقول إنما هو إدراك أبعاد الزمان التاريخى الذى بدأ يندرج أمام أعيننا، وقد نبهنا المرة تلو المرة إلى ما يطرحه من عوامل جديدة، ومحاور تحرك ممكنة رائدة، وطاقة هائلة ـ فى صفنا ـ لم تكن فى الحسبان.

وقد نختلف أو نتفق. على كل حال قد نجمع على ضرورة التأنى والتعمق فى فهم الأمور والأوضاع الجديدة التى تشكل مسيرة الانتقال من مرحلة «تغيير العالم» (١٩٤٩ ـ ١٩٧٣) إلى مرحلة «صياغة العالم الجديد» (منذ ١٩٥١ ـ ١٩٨٩).

لا بد ـ إذن ـ من التريث ووقف الهرولة.

لا بد ـ إذن ـ من الاكتفاء بما تم، أى حالة اللاحرب ابتداء من ١٩٧٩. دون الاندفاع إلى طريق الانكسار باسم السلام، والتبعية باسم المصالح، والانزواء التاريخى، باسم العولمة والكوكبة والنظام الجديد.

لا بد ـ إذن ـ من وقفة مع الذات.

لا بد من دعم أركان التلاقى، ثم الوحدة، فى قلب عالمنا العربى أساسًا.

لا بد من مرحلة دراسة جماعية متأنية للجديد المحيط بنا، وهو فى صالحنا فى معظم الأحيان:

١ ـ انتقال بؤرة المبادرة التاريخية من الأطلسى إلى آسيا ومحيطها الهادى حول الصين.

٢ ـ عودة روسيا إلى مكانتها دولة عظمى بكل معانى الكلمة، بعد مرحلة التفكك والهوان.

٣ ـ ظهور آسيا الشرقية ـ خاصة مثلث الصين ـ اليابان ـ كوريا المتجهة إلى وحدتها ـ فى طليعة التنمية الاقتصادية والتكنولوجية العالمية، وكذا المناسبة لظروفنا، خاصة أن تأمين طرق ووسائل المعدل المُؤمَّن إلى النفط العربى ـ الإيرانى يحتل مكانة حيوية بالنسبة لدول شرق آسيا، قبل أية منطقة أخرى.

٤ ـ صحوة الحضارة الإسلامية فى توجه عصرى عقلى فعال، من ماليزيا وإندونيسيا وباكستان إلى دائرة الإسلام المركزية التاريخية فى الشرق الأوسط (الأمة العربية، إيران، تركيا).

٥ ـ تمايز الوجود الدولى لأوروپا أمام عودة روسيا إلى مكانة القوة الرئيسية فى القارة، وهو التمايز الذى يفسر مصاعب انتقال أوروپا من «السوق» إلى «المشروع» والهوة الواضحة بين دول ترى التعامل مع روسيا والعالم الإسلامى، وكذا الصين، وأخرى تتردد بين هذا الجديد وبين الولاء للحلف الأطلنطى الأمريكى.

٦ ـ عودة الدين إلى مكانه العامل الفعال المركزى فى حياة الأمم والشعوب، بعد أن تبدى قصور الاقتصادوية، وتفشى القيم العدمية بين الشباب بواسطة سوقية الحياة الاجتماعية وهيمنة التبذل عبر قنوات التلفزة وما تبقى من الأنشطة الثقافية الجماهيرية.

٧ ــ التقارب المتزايد فى الأعماق بين المسيحية ــ خاصة فرعى الكاثوليكية والأرثوذكسية ــ من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى، رغم ستار الصمت الذى تضربه وسائل الإعلام الصهيونية حول هذا الحوار والتآخى، باسم العلمانية تارة وحقوق الإنسان الفرد تارة أخرى، ما بعد الحداثة واللاتاريخية وأولوية النسبية فى مقابل الأنظمة الأخلاقية، فكر السوق المعادى للإيمانية والحضارة الإنسانية الروحية والعدالة الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكى.

٨ ـ ثم ظهرت قوى جديدة إقليمية بدأت تؤثر على المستوى الدولى: اليابان، ألمانيا، الهند، البرازيل، إندونيسيا، إيران وڤيتنام وما تتيحه من موارد غذائية ومساحات هائلة قابلة لاستيعاب الأيدى العاملة الصديقة.

٩ ـ بدء مسيرة «التحالف الإستراتيچى» التاريخى بين الصين وروسيا عن طريق الحرير فى آسيا الوسطى.

.... القائمة تطول، يمكن تشكيلها حسب الأولوية والرؤى. ولكنها قائمة، ما يحيط بنا من تحركات وعوامل تكوينية جديدة لا بد لأمتنا أن تدرسها بعناية، بغية تحديد كيفية الإفادة منها والمشاركة فيها، قبل الهرولة إلى سلام هو على الدوام وجهتنا الحضارية، وإن كان اليوم يختنق ويبتعد نتيجة اللاءات القوية المتنكرة له بإصرار وسذاجة تعبر عن شعورها بالأزمة القادمة ـ لا محالة ـ لو تمكنت قوانا الإيجابية من توحيد صفوفنا وترتيب تحركها عالميًّا.

قال صاحبى: «مرة أخرى أراك لا تقبل منطق الأمر الواقع، فتدعو إلى دراسة المتناقضات وكأن الممكن ممكن، وكأننا نملك زمام أمورنا! ألا ترى ـ معى ـ أن الواجب يقتضى أولاً ترتيب أمورنا، لو أردنا أن نكون! بدلا من السعى وراء الأحلام والأوهام؟...»

❁ ❁ ❁

ـ ٧ ـ

« اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » خمسون عامًا

حق شعب مصر أن يحتفل بما أنجز، وأن يعتز بما حققه من ريادة وإبداع سياسى. حتى ولو كان ذلك فى زمن غير هذا الزمن.

من حق شعب مصر أن يتساءل: كيف ـ ترى ـ انتقلنا من عصر «الحركة» إلى عهد «المسيرة»؟ ما السبب ـ ترى ـ فى تبدل المصطلح السياسى، أو كما يرى البعض (المتشائمون) فى تبدل الأمور؟

أما الاحتفال والاعتزاز ـ حديثنا اليوم ـ فهو يتعلق بموضوع ما زال حيًّا فى ذاكرة الشعب، وإن كان باهتًا، بعيدًا عن مجرى الأمور. الاحتفال والاعتزاز إنما بالذكرى الخمسين لانتخاب «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى ربيع ١٩٤٦ ثم تشتت شملها فى ١٠ يوليو ١٩٤٦. وهو الموضوع الذى أراد المناضل الوطنى التقدمى الكبير، عادل أمين، المحامى، أن يؤرخ له فى سلسلة مؤلفاته الموفقة النادرة عن تاريخ الحركة الوطنية والثورة المصرية فى الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن، وآخرها كتابه الجديد «محاكمة الشيوعيين المصريين فى عام ١٩٤٦»، الذى سرعان ما نفذ من الأسواق بعد أيام قلائل من صدوره.

أعترف أننى لم أقرأ الكتاب، بعد أن فاتنى حظ تسليم نسخة الإهداء، وهى فى انتظار عودتى من رحلة التنقيب عن أحوال الدنيا صيفًا. عدت بالذاكرة إلى أمسيات قضيناها معًا، فى دار الصديق النبيل الراحل سعيد خيال، نستعيد وقائع ومعانى سنوات الحركة والثورة. وكان عادل أمين يدقق فى بعض النقاط، ويخبرنا بما استطاع أن يجمعه من الوثائق القضائية والإدارية، حوليات ذلك الجيل الذى قال عنه جمال عبد

الناصر فيما بعد أنه «كان على موعد مع القدر» : جيل الأربعينيات وامتداده إلى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين. جيل الحركة الوطنية. جيل الثورة.

أعود إلى السؤال ـ التساؤل : لماذا أطلقوا عليه اسم «الحركة» ، دون «المسيرة». الحركة الوطنية دون المسيرة إلى ما يراد له أن يكون سلامًا (ومن معالمه ، حسب قول زميلتنا «الحياة» يوم ٢٦ يوليو ١٩٩٦ : أن «يهودا متطرفين يدخلون ساحات المسجد الأقصى بإذن محكمة إسرائيلية» ، بينما نيتانياهو يعتزم توسيع المستوطنات القائمة والبناء على طول الطريق فى الضفة.

كيف كانت «الحركة» ترى أيام «الثورة» ؟

الإطار العام ، أولا

خرجت مصر من الحرب العالمية ـ التى فرض عليها المحتل البريطانى أن تدخلها مُرغمه ـ يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ الأسود فى صف «الحلفاء» ضد محور ألمانيا ـ إيطاليا ، بينما كان الشعور العام يتجه إلى الحياد. خرجت مصر وهى فى نفس الوضع ، دولة محتله عسكريًا بواسطة ٨٠٠,٠٠٠ من قوى الاحتلال ، وكذا الوحدات المدرعة والطيران تنتشر فى قواعد جيش الاحتلال البريطانى فى القاهرة والإسكندرية ومنطقة القنال.

كانت الخطة المفروضة فى صيغة حلف إستراتيچى فى منطقة الشرق الأوسط محوره منطقة الاحتلال البريطانى من القاهرة إلى بغداد ، يكون بمثابة الجناح الجنوبى لحلف شمال الأطلنطى عام ١٩٤٧. الهدف واضح :

إخضاع العالم العربى وكسر شوكة الحركات الوطنية التحررية المتأججة فى معظم أنحائه ، وخاصة فى مصر والشام والعراق والسودان وليبيا. وبعد نحو عشر سنوات الجزائر والمغرب وتونس وفلسطين.

كان هذا المخطط يفترض وجود حكومات عربية تابعة من نورى السعيد فى العراق إلى حكومات الأقلية فى مصر ، المعادية للوفد ، وخاصة حكومة إسماعيل صدقى أذكى قادة التحالف مع الغرب ، ومعاداة الحركة الثورية فى الداخل.

Obeikan.com

كان أسلوب كفاح الأمة آنذاك تقليديًّا حسب قواعد العلوم السياسية الأوروپية الليبرالية. بيت القصيد إنما هو تحقيق أغلبية برلمانية فى انتخابات حرة. أفلم يؤكد «الحلفاء» ـ دول الاستعمار والإمپريالية والاحتلال فى منطقتنا ـ هذا المبدأ «المقدس»، خاصة وقد أصبح من مبادئ ميثاق «هيئة الأمم المتحدة» ألم تكن الديمقراطية (البرلمانية) جوهر النصر على قوى الدكتاتورية. حتى ولو لم يلتفت قطاع واسع من الرأى العام إلى أن الاتحاد السوڤييتى هو الذى كسر شوكة جيوش هتلر، فى أكبر معارك التاريخ. من «ستالينجراد» إلى «برلين»؟

بدأت المسيرة... ما أن تم النصر للحلفاء حتى قررت إنجلترا والسراى ـ أحمد حسنين (باشا)، الحاكم الفعلى بأمر الدولة المصرية المحتلة ـ التخلص من حزب الوفد، حزب الأغلبية، الذى قبل الخضوع لقوى الاحتلال وأعلن الحرب يوم ٤ فبراير ١٩٤٢.

ثم بدأ العمل على قدم وساق بواسطة أحزاب الأقلية، فى اتجاه مفاوضات صدقى ـ بيفين ومنها إلى «حلف بغداد» المرتقب.

أصبحت مسيرة مصر المحتلة فى واد، وشعب مصر وحزب الأغلبية البرلمانية فى واد آخر.

عندئذ بدأ تحرك شعب مصر فى الأعماق، يواصل مسيرة الحركة الوطنية والثورة المصرية: من ثورة ١٨٨١ حول جيش مصر حتى ثورة ١٩١٩ بقيادة الوفد المصرى، وخاصة التنظيم السرى للوفد، ومن بعدها وثبة الشباب عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ وظهور «مصر الفتاة» والحزب الوطنى الجديد والحركة العمالية ولجان الطلبة المنتخبة.

دخلت مصر طريق الثورة الوطنية. بدأت القوى الشعبية تعود إلى تراث مصر الثورى. بدأت تسعى لإيجاد صيغ جديدة لشق الطريق إلى الأمام، لكسر أغلال الاحتلال، لتأمين حرية مصر وسيادة شعبها وشرف الأمة المغلوبة على أمرها.

تاريخ ملحمى ملىء بالمبادرات الرائدة والأفكار والتنظيمات الجديدة وقد أرَّخ له العديد من الكُتَّاب: عبد الرحمن الرافعى، شهدى عطية الشافعى، أحمد بهاء الدين، طارق البشرى، فوزى جرجس، عبد المنعم الغزالى، عبد العظيم رمضان، رءوف عباس، محمود العالم، عبد العظيم أنيس، أحمد حسين، حسن دوح، عادل أمين. والقائمة تطول أين ـ ترى ـ كان الجديد؟

كيف ظهرت ريادة شعب مصر وإبداعه الوطنى؟

والحق أن جوهر ما تم تحقيقه فى الأربعينيات ـ وعلى وجه التخصيص عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ ـ إنما تمثل فى صياغة الخط العام لثورة مصر الوطنية بدأ مع ثورة مصر الاجتماعية، وكذا التوجه إلى أفق النهضة الحضارية المصرية ـ العربية بعد أن ظهر على الأفق تهديد الصهيونية العنصرية إستراتيجيًّا وحضاريًّا.

صياغة الخط العام لثورة مصر الوطنية والاجتماعية أولاً، استمر قطاع مهم من الطلائع الرأسمالية الوطنية فى تقديم أفكار ومشروعات مهمة، نخص هنا بالذكر جهد الجيل الجديد لـ «اتحاد الصناعات» فى كتاب الأمين العام الجديد آنذاك الدكتور / صبحى وحيدة فى كتابه الرائد «فى أصول المسألة المصرية»، ثم مقالات الدكتور / محمد مندور، وعزيزة فهمى. وأحمد أبو الفتح، وإحسان عبد القدوس، وكذا مشروع الإصلاح الزراعى للدكتور / أحمد حسين، قائمة مهمة لا بد من ذكرها والاعتزاز بها.

ثم ظهرت موجة ثانية من حيث الشكل، بعيدة ـ أو على الأقل متميزة ـ عن الأحزاب السياسية. مجموعة من الهيئات والنوادى الثقافية السياسية والاتحادات الشعبية: «دار الأبحاث العلمية»، «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، «اتحاد خريجى الجامعة» مجلتى «الفجر الجديد» و«أم درمان» ثم «الجماهير» نشرة «بحوث علمية»، تحولت القاهرة والإسكندرية إلى مراكز صياغة فكر جديد تشابكت فيه الأهداف الوطنية، بتوكيد القيادة الشعبية، وكذا بالبرنامج الاقتصادى والاجتماعى بدءًا من الاشتراكية وانطلاقا من العدالة الاجتماعية، هذا فى إطار وعى جديد بأهمية خصوصية تاريخ مصر الحضارى والسياسى، ومقام ومكانة الثقافة الوطنية درعًا ضد الغزو الثقافى الرجعى العنصرى القادم.

أفكار ومفاهيم جديدة، منها تكوين البرنامج السياسى ـ الخط العام ـ لثورة مصر القادمة، وقد جاء ناصعًا جامعًا فى كتاب «أهدافنا الوطنية» لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى، ومن دراسة شهدى عن «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٥» (وقد حَذفت منه الرقابة آنذاك ٨٢ صفحة لا تزال ضائعة...).

كما بحث أحمد رشدى صالح عن أركان ثقافتنا الوطنية فى مؤلفاته عن «الأدب الشعبى».

كانت هذه سنوات بروز صلاح أبو سيف فى السينما، يوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوى فى القصة والرواية، جمال السجينى فى النحت، مختار العطار فى التصوير، عبد الرحمن الخميسى، وكمال عبد الحليم، وفؤاد حداد، ثم صلاح جاهين فى الشعر.

سنوات الثورة والنهضة بكل معانى الكلمة، بقى البحث عن إدارة التنفيذ.

كيف يمكن إنجاز ما بدأت خيوطه تتجمع ـ من كل جانب ـ على أرض الوطن؟

كانت الأحزاب المقبولة، أحزاب الأقلية ضعيفة، أو معزولة عن الأداء الفعال خاصة فى حالة «الوفد» والحركة الشيوعية رغم انقسامها، والحزب الوطنى، ومصر الفتاة، وكذا هيئة الإخوان المسلمين.

لم يعد «الحزب» هو الإدارة الفعالة فى ظروف الثورة، حتى بعد رفع شعار «نريد حزبًا من نوع جديد!» (أى حزب الطبقة العاملة والشعب العامل بعد تلك اللحظة الحاسمة، أى فى عام ١٩٤٧).

اتجه التفكير إلى ضرورة إيجاد مفهوم وساحة أوسع تستطيع أن تجمع فى دائرتها الرحبة أكبر قدر من القوى الوطنية والطاقات الشعبية والتشكيلات والتنظيمات الجديدة والقديمة معًا، هكذا برزت فكرة «الجبهة الوطنية المتحدة» عام ١٩٤٦.

ثم، ما السبيل إلى تشكيل «الجبهة الوطنية المتحدة»؟ وهنا لا بد من أن ندرك أن فترات التحرك الثورى تقدم على الدوام أشكالاً جديدة بطريقة تلقائية.

تلقائية الظاهر، وإنما هى فى حقيقة الأمر امتداد لتراث الأمة عبر تاريخها.. خاصة وأن امتداد هذا التاريخ إلى أعماق الزمان. اتجهت الأفكار إلى الوحدة الوطنية، إلى فترة تمثيل قوى الشعب المتحركة («قوى الشعب العامل» بعد ١٩٦٤). كيف يمكن تمثيلها؟

كانت الإجابة أن ذلك إنما يتحقق بالانتخاب الحر فى أهم القطاعات تحت رقابة الجماهير الشعبية:

١ ــ نشأت «لجنة العمال للتحرر القومى» وأعلنت بيانها الأول فى ٨ أكتوبر ١٩٤٥، يجمع بين مطالب التحرر والديمقراطية وإصلاح نظام الحكم والعدالة الاجتماعية على صور لم تكن مألوفة قبل ذلك، وذلك بفضل قيادة محمد المدرك

ومحمود العسكرى وطه سعيد وزملائهم فى شبرا الخيمة والمحلة الكبرى والإسكندرية. وكانت اللجنة منتخبة من مختلف المصانع ومراكز الحشد العمالى، وكذا الاتحادات العمالية المهنية القطاعية على أوسع نطاق.

٢ ـ وفى صيف ١٩٤٥ بدأت حركة الطلبة، وذلك فى اجتماعات متكررة بكلية الطب بجامعة فؤاد الأول، وقد حضرها ممثلون عن الجامعات والمعاهد العليا والمدارس الثانوية والفنية وطلبة الجامع الأزهر. وهنا أيضًا أصر ممثلو الطلبة على تأكيد المعانى الجديدة، فالكفاح الوطنى موجه ضد السيطرة الاستعمارية والاقتصادية والسياسية والثقافية. ومن هنا وجب القضاء على عملاء الاستعمار المحليين. وذلك بواسطة تحقيق الوحدة الوطنية، «فلا بد من اتحاد القوى المعارضة للاستعمار فى جبهة واحدة واسعة تكافح من أجل إلحاق الهزيمة بالنظام الاستعمارى...».

تزاحمت الأحداث والاشتباكات وعمليات القمع من صيف عام ١٩٤٠ وربيع ١٩٤٦ تجمعت قوى شعب مصر. من اللجان الوطنية للطلبة إلى «لجنة الطلبة التنفيذية». من تكوين اللجان الوطنية فى المصانع إلى «اللجنة الوطنية العامة للعمال» فى شبرا الخيمة.

ثم وعبر ومصادمات فبراير ١٩٤٦، تمت سلسلة اجتماعات بين ممثلى القطاعين ـ وكلهم منتخبون من القواعد ـ وتقرر تكوين «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى بداية فبراير ١٩٤٦، وقررت أن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦، يوم الجلاء والإضراب العام لجميع هيئات الشعب وطوائفه للخلاص من الاحتلال والحصول على الحرية كاملة غير منقوصة.

هذا كله فى جو تداخلت فيه هيئات مصر ومؤسساتها فى وحدة قوى رجال الفكر ورجال السلاح أيام تكوين «الضباط الأحرار» واتصالاته بكافة القوى الوطنية والثورية استعدادًا للثورة.

ومن قلب هذا التحرك الوطنى العام والمتأجج وقفت «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» حول فؤاد محيى الدين رئيسًا لها، بينما تولت لطيفة الزيات مهام الأمانة التنفيذية العامة.

أيام لها تاريخ...

بدأ التحرك.. بدأ الصدام

مذبحة كوبرى عباس (كوبرى الجامعة حاليًّا) يوم ٢١ فبراير ١٩٤٨ عندما أصر إسماعيل صدقى على محاصرة مسيرة طلبة جامعة فؤاد الأول لمنعهم من التلاقى بالعمال فى قلب القاهرة. وقد حدد «الاتحاد العالمى للشباب» يوم ٢١ فبراير عيدًا عالميًّا للشباب تحية لفداء شباب مصر الثورى.

بدء الاعتقالات ــ فى الأوساط العمالية أساسا ــ بين خريف ١٩٤٥ وصيف ١٩٤٦.

ثم، فجأة قرار القضاء على ثورة مصر الشعبية: بلاغ من البوليس السياسى إلى النائب العام يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ يتهم فيه ٦٩ من الشخصيات العامة والطلبة والمثقفين والعمال والكتاب ــ ومنهم مجموع قيادات النوادى والاتحادات والصحف الشعبية المذكورة أعلاه ــ بأنهم يهدفون إلى «تغيير مبادئ الدستور الأساسية والنظم العامة للهيئة الاجتماعية».

وعلى الفور، تم القبض على هؤلاء أجمعين فى الساعات الأولى من صباح ١٠ يوليو، بينما صدر قرار بحل جميع الأندية والجمعيات والمجلات والاتحادات التى كانت ركيزة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة».

ظن الاستعمار وحلفاؤه الرجعيون أن الأمر قد انتهى تمامًا. توالت حكومات أحزاب الأقلية، بينما اجتمع أعلام محامى مصر.

عزيز فهمى، محمد عصفور وزملاؤهم ـ ينددون بالاعتقالات حتى تم الإفراج فى نهاية مثل هذا الشهر نهاية يوليو ١٩٤٦ ـ منذ خمسين عامًا.

ثم بدأت موجة اعتقالات جديدة فى خريف ١٩٤٦ ضد القيادات الباقية، حتى كان قرار «هيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين» وما تلاه من تقسيم الأرض، وبدء الحرب العربية الأولى ضد الغزو الصهيونى فى مايو ١٩٤٨. كان هذا «مبررًا» لإعلان الأحكام العرفية وفتح معتقل الطور أمام المئات من صفوة الوطنيين. ثم بعد الإفراج عنهم وانتخابات شتاء ١٩٤٩ وعودة الوفد. ثم إقصاؤه من الحكم للمرة

الأخيرة، ثم توالت حكومات الأقلية من يناير إلى يوليو ١٩٥١، بعد حريق القاهرة يوم ٢٦ فبراير ١٩٥١ فى ظروف لا تزال غامضة...

دقت ساعة التحرك لإنقاذ مصر. تسابقت التنظيمات، اختلفت الخطط حتى كان استيلاء «الضباط الأحرار» على السلطة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

خمسون عامًا مضت على أيام «اللجنة الوطنية». خمسون عامًا تأكدت خلالها مدى صحة فهمها للقضية الوطنية ـ استقلال وحرية وعدالة ونهضة.

وهى المبادئ التى وردت أولاً على شكل «المبادئ الستة» لثورة يوليو ١٩٥٢، ثم فى برنامج «ميثاق العمل الوطنى» عام ١٩٦٢، وكذا فى دساتير جمهورية مصر العربية المتتالية فى توجهها العام.

خمسون عامًا من الإنجاز، والاقتصاد والثقافة والدفاع، وخاصة فى توكيد وتعميق الوحدة الوطنية بكافة معانيها.

خمسون عامًا يجدر لشعب مصر أن يحتفل بها، وعلى أمتنا المصرية العربية أن تعتز بها، وعلى كل من شارك فيها أن يحمد الله عز وجل إذ أتاح لنا أن نشق ـ معًا ـ طريق نهضة مصر عبر الثورة.

قال صاحبى: «أين هذا كله من الإذاعة والتليفزيون؟ لماذا لا يدرس شباب اليوم مادة تاريخ الحركة الوطنية فى سنوات التعليم، من الابتدائية إلى الجامعة؟... المراجع متوافرة. وكذا الشهود... أين العقبة ـ إذن ـ ما دامت دعوة «اللجنة الوطنية» إلى الوحدة الوطنية فى سبيل مصر؟...»

۞ ۞ ۞

ـ ٨ ـ

أيام مع قراء « أرض الأحلام »

نتهمك ـ كل من ناحيته ـ حول التحليلات ، وتباين التفسيرات :

هل من مسيرة؟ أو من قطيعة؟ هل نحن إلى حلول؟ أم إلى مأزق؟

من فضائل أمسيات الصيف ـ الصيف الضائع فى كثير من الأحيان ـ أنها تتيح الخروج من مأزق عالم التحليل إلى أرض الواقع ، إلى الدراسة الميدانية لمعطيات الأمور ، تساءلت ، « ماذا ـ ترى ـ يقرأ القارئ العادى ـ أو حتى القارئ الذكى ـ من سكان أرض الأحلام؟ »

أقول ماذا يقرأ؟ لا ماذا يرى على شاشة التلفزة ، عشرات القنوات من الحشد ، بل والتعبئة النفسية والوجدانية والسوقية الممتزجة بالعنف والغطرسة ـ وكذا وكيف لا ـ بأحلام أرض الأحلام؟

هكذا اتجهت إلى المكتب وعليه كوم من الصحف الأمريكية لعلها تجيب وتشير إلى ما فيه الفائدة.

كان الحديث فى أغسطس ١٩٩٦عن ذلك الصدام الحاد المفاجئ الذى بدأ بين الولايات المتحدة وحلفائها فى أوروبا الغربية حول مشروع القانون الجديد الذى يمنع دول العالم أن تتعامل تجاريًّا أو اقتصاديًّا أو ماليًّا مع كوبا ، بحجة أن العديد من الأملاك الأمريكية فى كوبا قبل الثورة قد أممتها حكومة الثورة.

إذن من يتعامل مع دولة كوبا يتعامل مع قطاع الطريق.

فجأة خرج على الشاشة ـ وكذا على صفحات الجرائد ـ شاب وسيم ، يتحدث باسم البيت الأبيض ويدعو حلفاء الغرب ـ حلفاء أمريكا فى الغرب ـ إلى مراجعة

أنفسهم والموافقة على موقف الولايات المتحدة، بحيث نقذف بهذا الرجل «أى الرئيس ڤيدل كاسترو» وصحبه إلى سلة القاذورات، التى هى مكانه الطبيعى، تعجبت: من هذا الشاب الوسيم الحقود؟ وأى «نفايات» يقصدها؟ ثم رأيت ألا أكرر اسمه على صفحات الأهرام، فسوف يطويه النسيان سريعًا بعد أسابيع، أو لعلها شهور الانتخابات أو مستلزماتها.

واهتديت ـ ربما من باب المصادفة ـ إلى عدد جريدة «إنترناشيونال هيرالد تريبيون» بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٩٦، إذ رأيت فيها العديد من الأخبار المهمة التى قد تضىء الطريق إلى الإجابة على السؤال ـ التساؤل: «ماذا يقرأ قراء أرض الأحلام» فى الصفحات الأولى بداية سلسلة مقالات ثلاثة عنوانها «عاصمة الانهيار» ثم العنوان الفرعى «كيف انهار رمز الولايات المتحدة إلى مستوى الاضمحلال» تساءلت عن العاصمة، والاضمحلال، عن الرمز والسقوط. وإذا من مقال بداية من سلسلة مقالات ثلاث حول أزمة العاصمة «واشنطن» التى يتوافد عليها رؤساء الدول وكبار القوم ورجال المال والأعمال وأعلام الصحافة والثقافة باحثين عن «الرمز».

يبدأ المقال الأول حرفيًّا بالسطور التالية: «فى أى يوم من الأيام، هنا فى عاصمة أغنى أمة فى العالم، سوف نجد أن ثلث سيارات الحريق ١٦ وحدة يحتفظ بها فى المخازن خارج الخدمة، من أجل توفير المال، ثم نجد ضباط البوليس يدفعون من مرتباتهم ثمن إبدال عجلات السيارات وشراء البنزين لسيارات وحداتهم، وكذا فإن عيادات المدينة كثيرًا ما تتوقف عن إجراء تحليلات مرض الإيدز بسبب أنها لا تستطيع أن تحصل على الإمداد الكافى» وكذا فإن «موظفى الصحة يقذفون بكميات عالية جدًّا من الكلور فى مياه الشرب لدرء خطر مستوى التلوث بالبكتيريا وقد بلغ أوجه بسبب تآكل مواسير المياه».

إن واشنطن، عاصمة المبانى اللامعة والمتاحف من الطراز العالمى، وكذا من حولها أحياء لذيذة، خضراء، إن هذه المدينة ما زالت تجذب السياح بالأفواج، ولكن إنما الحق أن واشنطن بوصفها واقعًا لبلدية محددة بدأت تتفتت فى جميع الاتجاهات والنواصى الكبيرة والصغيرة.

كيف ولِمَ؟ قرأت المقال الأول، ثم مقال اليوم التالى، الثالث لليوم الثالث،

وأدركت أن السبب ـ حسب تحليل الكاتبين ستيفن هولمز ومايكل يانوبسكى ـ يرجع إلى أن خصخصة بلدية العاصمة أدت إلى التفكك والانحطاط والانهيار، وجاءت خلاصة المقالات الثلاثة تؤكد أنه لا بد من العودة إلى الدولة، أى إلى وضع العاصمة تحت رعاية الحكومة الأمريكية، وكأن عاصمة الدولة هى من الأمتعة الخاصة..

ثم نظرت إلى الصفحة الأولى مرة ثانية، وإذا بها رسم لطيف لسباق يجرى ومن حوله مقال كبير عن الألعاب الأوليمبية فى أتلانتا.

قلت: لعلنا نصل إلى ما فيه تخفيف حدة الانهيار، والحق أننى ما كنت أتصور أن واشنطن قد بلغت هذا المستوى من التدهور.

وإذا بكاتب المقال تونى كورن هايزر يخصص المقال لحملة قاسية لاذعة ضد العنصرية التى فى رأيه أحاطت بالجو العام بالألعاب الأوليمبية، بدأ المقال كما يلى:

«إن ما رأيته فى الألعاب الأوليمبية حتى الآن هو: لقد انتصرنا، انتصرنا! عاشت الولايات المتحدة الأمريكية!. هل انتصروا؟ آه؟ لا بد أنهم يتعاطون المنشطات والمخدرات» ثم يضيف كورن هايزر:

«أعلم أن الألعاب الأوليمبية تدور فى أمريكا، ولكن هل من الواجب أن تكون الألعاب كلها حول أمريكا؟ إننى أطالع الجرائد وأشهد التلفزة وأسمع الجماهير فى صالات الألعاب، وكذا الناس فى الشوارع، الكل يهتم بالتهجم على البلدان الأخرى التى تنافس الولايات المتحدة من حيث عدد الميداليات..»

إننا لا شك يجب أن نحوز عددًا أكبر من الأوسمة، فعندنا أكبر عدد من الرياضيين، ولدينا أكبر كمية من المال والميزانيات لتدريبهم، وفوق هذا وذاك فنحن نلعب على أرضنا، أو لعلنا نستطيع أن نخصص قسطًا أكبر من أفلام التلفزة للرياضيين الأجانب؟ وكذا ربما نستطيع ألا نجرحهم عندما نقدمهم للجمهور؟..

وهكذا عمود تلو عمود، يحدثنا فيها تونى كورن هايزر الأمريكى المحرر فى جريدة «واشنطن بوست» عما أسماه بحق «زوبعة رفع الأعلام» كل شىء لأمة واحدة.

تساءلت: هل ترى أن المبالغة فى مدح الذات والتنكر للغير فى الألعاب الأوليمبية بأتلانتا تمثل تعويضًا لانهيار عاصمة البلاد؟ أم أنه لا يتجزأ من انهيار مستوى تنظيم

العاصمة، وانهيار مستوى الأخلاق فى ساحة الألعاب الأوليمبية؟ ثم رأيت أننى ولا شك أبالغ هنا وهناك، أو لعل جريدة «إنترناشيونال هيرالد تريبيون» هى التى تبالغ، قلت: نواصل القراءة.

وانتقلت صفحة بعد صفحة إلى الصفحة الثامنة، صفحة المقالات الافتتاحية والرأى، وفى صدرها بحث للبروفيسور رونالد ستيل، أستاذ العلاقات الدولية فى جامعة كاليفورنيا الجنوبية، ومؤلف كتاب «إجراءات دولة عظمى»، عنوان المقال: كيف لا «الإرهاب هو وسيلة الضعيف لإرهاب ومعاقبة القوى»، قرأت باهتمام. وإن كنت أعترف أننى مللت مطالعة الإرهاب ليل نهار وعلى جميع القنوات والصفحات، وكأنه موضوع اليوم، بينما واقع الأمر هو أن تغيير العالم والانتقال إلى صياغة العالم الجديد يشكل جوهر الموضوع، مرة أخرى نقول ما علينا.

ماذا يقول البروفيسور رونالد ستيل؟

«إن هدف الإرهاب هو تحييد القوى» وذلك بمهاجمتها فى أضعف نقاطها، ألا وهى الثقة العامة، نتساءل: لماذا الولايات المتحدة؟ ومع الأسف فإن السؤال هو: لِمَ لا الولايات المتحدة؟

كما أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل موقع السلطة فيما أطلقنا عليه «النظام العالمى الجديد» وهو الذى سوف يمحو من الوجود المعتقدات التقليدية، وحتى مجتمعات بأسرها.

«إننا نعلن بكل اعتزاز الدولة رقم ١» وإننا الدولة العظمى الوحيدة المترقبة فى العالم، وهكذا وبطبيعة الأمر، فإن جميع الذين لا يستشعرون بالرضا فى هذا العالم يعتبرون أننا مسئولون عن أمرهم، عن فقرهم، عن جهلهم، عن ضعفهم، عن هامشيتهم.

والحق أنه لا يمكن لأمة أن تكون رقم ١ عندما يتفق هذا الزعم مع مزاجها، ثم تقول (من، أنا، أنا الأمة الصغيرة) عندما هذا لا يتفق، تساءلت: مَنْ ـ ترى ـ هذا الرجل البروفيسور رونالد ستيل؟ وهو الذى يقول كلامًا غير لائق فى مثل هذه المناسبات؟ قلت: لا بد من المضى فى المطالعة، ونقد ما أقرأه لأخواتى ولإخوانى على أرض الوطن.

«إن المسئوليات تبدأ من مستوى الأهمية، إننا ـ معشر الأمريكيين ـ نتصور أن مكانتنا شيء طبيعى، وكذا مكاسبنا، بحيث إنه يصبح من المتعذر علينا أن نتصور غيرنا من الناس ربما ينظرون إلى هذا كله بفزع، إننا نقدم مبادئ مثل الديمقراطية، الغرضانية، الاستهلاكية، وسوق الأفكار وكأنها كلها من الحسنات التى لا تناقش».

«ثم ترانا منزعجين بصدق عندما ندرك أن غيرنا يرى أن هذه المفاهيم إنما تهدده، فأتصور أنه ـ أى الغير ـ لعله لا يملك المعلومات الكافية أو لعله سيئ النية، ثم نمضى، شأننا فى ذلك شأن المكتشفين فى عهد الملكة ڤيكتوريا «أى القرن الـ ١٩» وكنا نواجه العديد من «الشعوب المحلية». التى لا تفهم، وبالتالى نرفع صوتنا أعلى فأعلى».

«إننا نؤمن أن مؤسساتنا يجب أن تدفع بجميع المؤسسات الأخرى إلى صندوق «زبالة التاريخ»، إننا نقود نظامًا اقتصاديًّا استطاع أن يقضى على جميع الأنظمة الأخرى من الإنتاج والتوزيع، تاركًا وراءه ثروات واسعة وخرابًا واسعًا»

«إننا نقدم ثقافة تقوم على التسلية الجماعية، وكذا التفاخر بالذات. ثقافة تقدم اللذة والتراكم حتى لو أطلقت عليها تسمية الفردانية والرغد، والحق أن الرسائل الفضائية التى نطلقها على العالم عبر هوليود وماكدونالد إنما تنطلق إلى هذا العالم لإخضاعه، وكذا لهدم المجتمعات الأخرى من الداخل».

«ثم إننا لسنا مثل الفاتحين التقليديين، أى إننا لا نكتفى بإخضاع الغير، وإنما نطالبهم ـ وهم مقهورون ـ أن يكونوا مثلنا. ولذلك بطبيعة الأمر من أجل مصلحتهم، إننا ـ معشر الأمريكيين ـ أكبر رجال التبشير فى العالم».

«يجب على العالم أن يكون ديمقراطيًّا، يجب على العالم أن يكون رأسماليًّا، يجب على العالم أن يرتبط بالمفاهيم الانقلابية العدمية لشبكة «الإعلام» الكوكبية، وبطبيعة الأمر فإن العديد من الناس يشعرون بأنهم مهددون بما تمثله بلادنا، فإننا دعاة الكوكبية وأعداء التقليدية والنظام».

«إن الحرب بين التحديثيين وبين التقليديين سوف تستمر لمدة طويلة من الدهر، أمامنا عالمان يتصادمان، وكلنا نقف فى الصفوف الأولى».

رحت أتأمل معانى هذا المقال الدقيق، وبينما أفكر فيما يريده المؤلف وما لا يجده

فى واقع الأمر، طالعت فى الصفحة السادسة من نفس العدد خبرًا مهمًّا «موظف أمن إسرائيلى يعترف بأنه قتل اثنين من العرب الأسرى بالحجارة» بعد أسرهما، وهذا ما يخالف قوانين الحرب قديمًا وحديثًا.

وتحت المقال مقال آخر بعنوان «محادثات السلام فى الشرق الأوسط تُبعث من جديد؟».

تعجبت لهذا الحشد من الأخبار والآراء المتناقضة، المتفجرة.

دارت الأيام ومعها تراكمت الجرائد والقصاصات والبحوث حتى كان يوم ٣١ يوليو ١٩٩٦، وأيضًا فى نفس الجريدة. الذى تجتمع فيها خلاصة أهم الصحف الأمريكية «نيويورك تايمز» و«واشنطن بوست»، وهكذا طاقم «إنترناشيونال هيرالد تريبيون المركزية». رأيت فى الصفحة الثانية مقالاً غريبًا لكاتبه «نيل ماك فارلهار» عن مصر. المقال يمتد على مساحة خمسة أعمدة، وهو مكتوب من الإسكندرية وعنوانه: «فى مصر يهرول الأغنياء إلى التمتع بحياة الصيف الرغدة» وإذا بالمقال عن الساحل الشمالى، وكيف تحول إلى مائتين وخمسين كيلو متر بين الإسكندرية ومرسى مطروح من الفيلات والقصور كلها محاطة بأسوار الحراسة، وعلى الساحل وفى البحر الألعاب المائية الراقية، وكأننا فى كوكب آخر، ثم يقول نيل ماك فارلهار هار بالنص: «إن خطة الحكومة لم تشمل مجمعًا فندقيًّا واحدًا للحصول على محصول سياحى، بينما امتد المخطط على مساحة من الأرض تشمل كمية من الأمطار الطبيعية تستطيع أن تنمى زراعة ناجحة خارج دلتا نهر النيل».

ويسترسل نيل ماك فارلهار، المراسل الأمريكى فى صفحة النيويورك تايمز فى مقاله ويذكر بعض النكات، فمثلاً يقول السيد رمسيس وهو من رجال الملاهى العامة فى هذه المنطقة: إن النكتة هنا يا سيدى «مخاطبًا نيل ماك فارلهار» هو أن كل من يركب سيارة صغيرة ويصل إلى باب الدخول فسوف يتم القبض عليه...

ويضيف نيل ماك فارلهار فى نهاية المقال أن سكان الساحل الشمالى يقولون إنهم يستطيعون التمييز بين المقيمين فى فيلات وقصور الساحل الشمالى وبين من يستأجرون الفيلات بمبلغ ٣٣٠ جنيهًا يوميًّا، وذلك لأن المقيمين الدائمين لا يصحون من النوم قبل الخامسة بعد الظهر...

فكاهات لطائف الصيف الضائع، يرصدها صحفى دقيق تعود على أرض الأحلام وجاء منها، فأدرك أن أحلام أرض الأحلام بدأت تتقلص أمام وثبة الأحلام على شواطئنا الشمالية.

بارك الله فيه: لقد أجاد الوصف، مما يؤكد أن الصحافة الأمريكية بخير، فقد جمعت من أسبوعين بين دراسة تدهور عاصمة الولايات المتحدة، وتفتت أكذوبة الدولة العظمى الواحدة الخائفة من رد فعل الساخطين، وانتهت بهذا الوصف النير للهرولة على شواطئنا المحروسة.

قلت: إنها قراءات الصيف الضائع فى صحافة أرض الميعاد، حاولنا أن نتابع من خلالها تموجات الفكر والوجدان فى بلاد شعبها صديق وأحلامها بعيدة، بلاد تمثل دولة الهيمنة لمرحلة تاريخية قصيرة من الأمن وستظل على كل حال ذات أهمية ودور فعال فى العلاقات الدولية والحياة الثقافية.

تساءلت: لِم ـ ترى ـ لا ندرس ميدانية هذه الدولة التى يعتبر البعض أنها مصدر الخير، ومفتاح مسيرة السلام والمستقبل؟ بينما يرى قطاع واسع من الفكر والعمل على أرضنا أنها تمثل مركز الهيمنة والعدمية والتردى الحضارى.

لِمَ لا نقيم على أرض مصر ـ وفى إطار جامعاتنا ـ معهدًا علميًّا رفيع المقام لدراسة أمريكا الشمالية، أو ربما بالأخص دراسة الولايات المتحدة؟

إن مثل هذا المعهد موجود فى معظم الدول المهمة: الصين، روسيا، اليابان، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، الهند، وكذا دول أمريكا اللاتينية. وعندما آن الأوان لكى نعنى بفهم الولايات المتحدة، مجتمعًا، ثقافة ونظامًا، ابتداء من تاريخه وخصوصيته، وليس فقط بالتعليق على هوامش سياسته الخارجية؟

وأخيرًا وليس آخرًا، هذه التصريحات لمرشح الحزب الجمهورى «بوب دول» ١٦ أغسطس.

«عندما أكون رئيسًا سيعرف كل رجل، وتعرف كل امرأة فى قواتنا المسلحة أن الرئيس هو القائد الأعلى، وليس بطرس بطرس غالى» وهنا احتد وانتفض المرشح حفظه الله... أو أى أمين عام غيره فى الأمم المتحدة، هكذا منطق الحرب فى زمن

السلام : لا تقبل القوى الإمبريالية المهيمنة حليفًا ، وإنما تشترط على كل من يتعامل معها أن يكون عميلاً.

قال صاحبى : «إنه لشيء غريب حقيقة... ما زلنا نهتم بالغرب وكأنه يتمثل فى أوروبا فى حد ذاتها ، لشكل الحصر ، ثم وفى مقابل ذلك لا نعنى بدراسة آسيا علميًا وتكوين الكادر على فهم وثبتها العظمى فى تاريخ الإنسانية وتحديد مسار مستقبلها.. وكذا أيضًا بالنسبة لأمريكا اللاتينية.. لعلنا يا أخى نهتم بواقع العالم الجديد الذى يتشكل من حولنا ، ونحن فى قلبه ، كثيرًا ما نكتفى بالتعليق على هوامش الغير ، فنتخبط ونفقد الاتجاه».

❁ ❁ ❁

Obeikan.com

ـ ٩ ـ

منطق الاحتقار

منذ عام ١٩٩١ قالوا إنه «النظام العالمى الجديد». وقلنا إنما هو: «الإجرام العالمى الجديد». قالوا: «كيف هذا؟ أليست الديمقراطية، قيم السوق، والليبرالية الرأسمالية، وفوق هذا وذاك التشدق بحقوق الإنسان خير من نظام القطبية الثنائية الغربية؟».

طال السجال، مرت الأعوام، ازداد المؤمنون بالنظام العالمى الجديد اقتناعًا بأن الاستسلام هو طريق السلام وأن مسيرة الأوهام خير طريق إلى أرض الأحلام.

كان لا بد ـ بل ولا مفر ـ من الامتحان. وقد جاء قاسيًا، لا فى لحظة مفاجئة، وإنما بعد تدبير طويل دقيق دام أعواما، منذ عبور أكتوبر إلى حرب الخليج الإيرانية، العراقية الأولى (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) ثم حرب الخليج الثانية ضد العراق (١٩٩١) حتى اندلاع النيران هذا العام ١٩٩٦، أولاً ضد لبنان من عملية «عناقيد العنب» حتى مجزرة «قانا» ثم ضد العراق الذى استشعرت دولة الهيمنة المركزية أنه ساحة مستباحة يمكن تأديبها بين تصفيق «الحلفاء».

وفجأة بعد يومين من إطلاق صواريخ كروز وتوماهوك التى أخفقت فى إصابة أهدافها بنسبة أكثر من خمسين فى المائة، أفاق العالم على عدد من الصدمات لم يكن يتوقعها حلفاء الأمس:

(أ) لم ينكسر العراق، بل استطاع أن يثبت أقدام سلطته السياسية وقواته المسلحة على شمال أراضيه مستغلا تفشى الأمية السياسية بين قيادتى الحركتين الكرديتين المتصارعتين.

obeikandl.com

(ب) عجزت القيادة الأمريكية عن الحصول على تأييد أقرب حلفائها فى الحلف الأطلنطى، إذ اكتفت بريطانيا العظمى بالتأييد الكلامى لا التحرك بينما قادت فرنسا حركة العصيان فى العالم الغربى باسم استقلال القرار الوطنى وضرورة صيانة وحدة الأمم.

(ج) ورغم هذا استمرت الولايات المتحدة وبريطانيا فى محاولة استدراج مجلس الأمن لـ «معاقبة العراق» ؛ لأنه مارس سيادته على أرضه الوطنية، وهنا اصطدمت بقرار روسيا باستعمال حق الڤيتو، وكذا معارضة الصين وفرنسا، هذا فى الوقت الذى انتشر فيه التذمر بين صفوف الغالبية من الدول الأعضاء فى هيئة الأمم المتحدة.

(د) انتقل الصراع الأوروپى إلى اجتماع وزراء الخارجية فى غرب أوروپا. وهنا أيضًا ظهرت أوروپا الغربية على حقيقتها، أى أنها سوق تتكون من مجموعة الدول ذات المصالح والسياسات المتباينة ـ قارة الحروب الأهلية بين مختلف دولها القومية منذ ألف عام ـ بحيث عجزت أوروپا الغربية عن إصدار قرار بتأييد الولايات المتحدة فى عدوانها ضد العراق.

(هـ) ولم يبق على حد تعبير إذاعة الـ «بى. بى. سى» البريطانية من متفهم أو مستحسن للعدوان الأمريكى إلا «مجلس التعاون الخليجى» لدول النفط العربية.

(و) وفى هذه الزوبعة ـ رغم الآمال المعقودة ـ أصرت إيران على احترام سيادة العراق ووحدة أراضية وكذا ترددت تركيا فى تنفيذ عملياتها الحربية على حدود العراق الشمالية لمنع تهجير الأكراد إلى أراضيها حتى الآن.

هكذا أصبح من الواضح، حسب تعبير نيل ماك فارلهار فى جريدة «النيويورك تايمز» يوم ٧ / ٨ سپتمبر ١٩٩٦ : أن «مغامرة صدام نالت النجاح على حد تعبير أعدائه».

النجاح أى: دعم السيادة السياسية والقوة الحربية، وتفتيت جبهة «حلفاء» الأمس، وفوق هذا وذاك، جمع الغالبية العظمى من الوجدان والعقل والإرادة فى أمتنا العربية والعالم الإسلامى، بل ودول الجنوب، وكذا قطاع واسع من الغرب ضد الهيمنة الأمريكية وعدوانها الإجرامى ضد العراق الشقيق.

نقاط سريعة على طريق العد التنازلى الذى سيندرج أمامنا يومًا بعد يوم.

ولكن المهم هنا أن نتساءل: كيف أدرك العرب ـ وخاصة غالبية طلائعهم الفكرية والسياسية ـ كيف أدركت هذه العمليات الدامية؟

١ـ مدخل أول قال بعلاقة العدوان بالمناسبات الانتخابية زاعما أنه كان من المفهوم أن يضرب الرئيس الأمريكى كل من يقف فى وجه الهيمنة الأمريكية، فكان له أن اختار العراق برئاسة صدام حسين، بل وإن بعضهم ذهب إلى أنه كان «لا مفر» من هذه الضربة بعد أن بالغ صدام حسين فى العناد، بل واستفزاز الهيمنة الأمريكية...

وقد فات هؤلاء العقلاء أن يقيموا العلاقة نفسها بين البعد الانتخابى والعدوان المسلح فى ربيع ١٩٩٦، عندما قاد «شيمعون بيريز»، عملية «عناقيد الغضب» التى هجرت ٨٠٠ ألف لبنانى من ديارهم فى الجنوب، وجاءت مذبحة «قانا» تتويجًا لها.

وكانت الدولة الصهيونية على أبواب الانتخابات التى لفظت فيها حزب «بيريز» رغم جرائمه المتعاقبة، وولت حزب «الليكود» مقاليد الحكم للذهاب إلى ما هو أبعد فى طريق رفض الدولة الفلسطينية، والإمعان فى احتلال الجولان ورفع نوعيات أرقى من التسليح الإستراتيچى الهجومى الصاروخى منذ أغسطس ١٩٩٦ ضد أمتنا العربية توكيدًا ـ ولا شك ـ لما يسمية البسطاء «مسيرة السلام». وكان الاعتراف بدولة فلسطين وعاصمتها القدس ورد الجولان إلى سوريا الشقيقة وتوقيع اتفاقية نزع السلاح النووى فى منطقتى الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط تمثل «مسيرة الحرب»...

٢ـ تتساءل: كيف يتفق هذا المدخل «الانتخابى» مع مشروع عقد مؤتمر الإرهاب فى لندن فى رحاب نفس القوى التى دفعت بالحكومة البريطانية إلى التفرد فى تأييدها للعدوان الأمريكى ضد العراق، وعلى رأسها وزير الخارجية «مالكولم ريفكند»؟ من الغريب ـ أليس كذالك؟ ـ أن تتفرد جريدة «الصنداى تايمز» الأسبوعية واسعة الانتشار المملوكة للقطب الصهيونى «روبرت موردوخ» يوم ٢٥ أغسطس ١٩٩٦ بإعلان هذا الخبر الموجه ضد أمن واستقرار جميع الدول العربية على تنوعها، أيام قلائل قبل انطلاقة صواريخ «ضربة الصحراء» ضد العراق. ماذا يقول العقلاء عن هذا التواكب الزمنى بين المدخل الانتخابى والمدخل الإرهابى؟ اللهم إلا إذا كان الهدف واحدًا، ألا هو: ضرب القوة العربية المتصاعدة. بعد أن بدأ رأب الصدع بفضل ريادة مصر وسوريا فى قمة القاهرة العربية فى أغسطس ١٩٩٦ حول الرئيس حسنى مبارك.

ضرب وإضعاف القوة العربية

يتساءل المحللون والباحثون الجادون فى أمتنا العربية والعالم عن سر «التوهان» العربى. كيف فاتهم ـ ترى ـ هذا الكم الهائل من المؤلفات والدراسات والمشاريع السياسية والإستراتيچية المعلنة، بل ودروس التاريخ المعاصر كله؟

يعلمون ـ وكلنا يعلم ـ كيف تكالبت قوى دول أوروپا جمعاء لكسر دولة محمد على (١٨٠٥ ـ ١٩٤٨)، ومحاصرة عباس وسعيد، وفرض مشروع قناة السويس توكيدًا لهيمنة الإمپريالية على مصر بصفتها الممر الطبيعى بين أوروپا وآسيا وإفريقيا، ثم إجهاض محاولة إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) لتجديد مسيرة محمد على، وإقامة دولة عربية إسلامية شرقية قوية، ونظام دستورى برلمانى رائد فى دائرة المتوسط وجنوب غرب آسيا، فى اللحظة التاريخية ذاتها التى شهدت ثورات الفلاحين فى الصين وثورة «ميجى فى اليابان» من هنا كان فرض الاحتلال البريطانى على مصر بعد الغزو الحربى عام ١٨٨١، وإحكام السيطرة الأوروپية على عالمنا العربى من المغرب إلى أعالى النيل فى إفريقيا، حتى الخليج وأرض الرافدين.

يعلمون ـ وكلنا يعلم ـ كيف حاصرت الإمپريالية وثبة الحركة الوطنية الديمقراطية فى مصر من إسماعيل إلى سعد زغلول، بينما قضت على حركة «الاتحاد والترقى» فى تركيا، وفرضت حكم أسرة «بهلوى» الدخيلة على شعب إيران. مجموعة من العمليات التدميرية بلغت أوجها فى إقامة الدولة الصهيونية العنصرية المعتدية على أرض فلسطين، بين شطرى أمتنا العربية فى إفريقيا وآسيا، لتكون قلعة للعدوان، وحروب الإجهاض، والاستيطان العنصرى، والتسلط الإستراتيچى الهجومى، حتى المستوى النووى، بل والأنواع المتطورة الأخرى من أحدث النوعيات الأكثر تدميرًا من أنظمة التسلح الهجومى.

يعلمون ـ وكلنا يعلم ـ أن هذا الحلف الإستراتيچى بين الإمپريالية الغربية والحركة الصهيونية العالمية كان يستهدف فى المقام الأول إجهاض المحاولات الثورية الدائبة منذ ١٩٣٥ لإعادة بناء القوة المصرية قلبًا لأمة عربية ممكنة حول مشروع القومية العربية، يمكن أن تكون قادرة على مواكبة العصر فى مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوچية والتعليمية والفكرية، وكذا الإستراتيچية.

وقد أدى تراكم هذه الموجات الثورية المتعاقبة ـ خاصة فى الأربعينيات من القرن العشرين ـ إلى انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاتح الطريق لانطلاق ثورة مصر الوطنية والاجتماعية حول رئاسة جمال عبد الناصر.

من هنا كان فرض موجات الحروب على أمتنا العربية ـ وعلى وجه التخصيص مصر وسوريا حتى انكسار يونيو ١٩٦٧. ومن هنا أيضًا كانت وثبة حرب الاستنزاف المجيدة، وعبور أكتوبر ١٩٧٣ الذى أكد العزيمة المصرية العربية، وقدرتها الفعالة على بناء هذه القوة الإقليمية العربية بوصفها واحدة من المراكز المرموقة لعالم جديد متعدد الأقطاب بدأ يتشكل بعد تحرير الصين بقيادة ماو تسى تونج يوم أول أكتوبر ١٩٤٩، جنبًا إلى جنب مع صعود اليابان إلى الصف الأول فى الريادة الاقتصادية والتكنولوچية، وكذا انتصار ڤيتنام بعد ربع قرن من الحروب، وبروز الهند فى قلب حركة عدم الانحياز فى الجنوب.

كان لا بد من التخطيط لهجمة إستراتيچية مضادة، من هنا كان سبيل المخططات والمطبوعات المذكورة آنفًا والتى تركزت حول نقطة مركزية حيوية ألا وهى: التواكب بين تفتيت الاتحاد السوڤييتى عام ١٩٩١ وتفجير منطقة الوصل بين قطاعى حضارات الشرق المعاصر فى آسيا من ناحية والشرق الأوسط وإفريقيا من ناحية أخرى بواسطة حربى الخليج المتتاليتين (١٩٨٠ ـ ١٩٩١).

وما دامت أن الغاية هى منع قيام دولة مركزية قوية فى منطقتنا، فإن عدو الإمپريالية الأول والهدف المستهدف اسمه مصر:

١ ـ تقوم أولاً القاعدة الإستراتيچية الصهيونية فى حلف إستراتيچى مصيرى بالإمبريالية المهيمنة بحيث تتمكن دومًا من التفوق الحربى على مصر وجارتها العربية.

٢ ـ يتم التخطيط لمحاصرة وإضعاف الدائرة العربية المركزية حول مصر: سوريا، ليبيا، السودان، بحيث تعجز مصر عن بلورة النواة المركزية القادرة عن التحرك المنسجم يدًا واحدة نتاج عشرات الأجيال من التواكب التاريخى.

٣ ـ ضرب القوى المواكبة فى الشمال، أى العراق، وكذا الإمعان فى مضاعفة الخلافات والتناقضات بين تركيا والعالم العربى.

٤ ـ العمل على التفرقة بين مشرق العالم العربى ومغربه.

٥ ـ التركيز على فصم وحدة دولتى وادى النيل.

٦ ـ إقامة سور حديدى مفتعل بين إيران والعالم العربى، وخاصة مصر، رغم أن مصر ثم إيران والصين أقدم الحضارات وأشدها استمرارية منذ عشرات القرون. مما يجعل من تحالف مصر العروبة وإيران ـ بمشاركة تركيا ـ أخطر ما يهدد الهيمنة الإمپريالية الغربية بعد صعود الصين إلى مكانة المركز فى مرحلة صياغة العالم الجديد.

٧ ـ ثم ـ ولإتمام عملية الحصار ـ يتم التدخل الغربى فى مضايق البحر الأحمر. مما يحرك تصعيد التناقضات إلى حد الصدام بين دول القرن الإفريقى، وكذا دفع إثيوبيا إلى التوجه ضد السودان، وهى المناورة التى تستهدف فى الأساس احتجاز كميات متزايدة من مياه النيل الأزرق بواسطة بناء سدود جديدة فى إثيوبيا (كما تفعل تركيا بالنسبة لسوريا والعراق). ويكون الناتج هو الإخلال بحصة مصر المعترف بها دوليًّا فى مياه النيل، بغية إصابة الزراعة، ومن ثم الاقتصاد الوطنى فى نقطة الضعف ألا وهى المياه.

من هنا نرى أن صواريخ «كروز وتوماهوك» المنطلقة ضد قواعد العراق وشعبه إنما تستهدف ـ فى نهاية المطاف الإستراتيچى ـ القوة المصرية والأمن القومى المصرى فى الصميم.

وكأنما قصيدة «چون دون» فى القرن السابع عشر ترن فى آذاننا:

« .. ولذا لا تسأل

لمن تدق الأجراس.

إنها تدق من أجلك»

ولعل هناك من لا يصدق أن هذا الترابط بين النيات والتخطيط هو حق مشروع ومفهوم مما لا شك فيه.

إلى هؤلاء المتشككين نسوق مطلع افتتاحية إحدى أهم الصحف العربية الشقيقة يوم ٥ سپتمبر ١٩٩٥، بالنص كلمة .. كلمة:

«الرئيس صدام حسين يجب أن يترك الحكم فى بغداد».

«الطريقة المثلى هى أن يترك الحكم بموجب اتفاق مع الحكومة المصرية، فيغادر بغداد فى طائرة مع أسرته وأتباعه الأقربين، ويحيا حياة كريمة فى ضيافة مصر وحمايتها (...) ونعلم أن مصر مستعدة لاستقباله كما استقبلت زعماء عربًا لجئوا إليها فى السابق (وهو كان لاجئًا فيها مرة)».

أو بعبارة أخرى ـ ورغم حسن النيات التى لا نشك فيها أدنى شك لحظة واحدة: تنتقل نقمة الإمپريالية الأمريكية والصهيونية ـ ومعها الصواريخ ـ من بغداد إلى القاهرة.

بداية ونهاية

الهدف هو إضعاف أمتنا العربية، محاصرة مصر وإحباط وثبتها المرتقبة، فى الوقت الذى يكثف الغرب بجميع أجنحته الضغوط والجهود على مصر لفرض انعقاد ما يسمى «بالقمة الاقتصادية» بغية تكريس هيمنة وزيادة رأس المال اليهودى العالمى على أمتنا العربية، هو الحلم المشترك لشمعون بيريز، فى كتابة البرنامجى «شرق أوسط جديد» وكتابات خليفته «نيتانياهو» عما أسماه الإرهاب ـ الهدف المشترك للجبهة الإمپريالية الغربية ـ الصهيونية.

ولست أدرى من أين جاءتنى ذكريات متضاربة عن الفئران، نعم: الفئران .. بدأت أتلوها على صاحبى فنصحنى بروايتها فى موضوع لاحق، لعله يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل..

قال صاحبى: قلت لى إنك تود رثاء أحمد بهاء الدين رمزًا لـ «المصرى أفندى»

وها أنت تتحول إلى الصواريخ والحصار، وتحالف الفكر والعمل فى عالمنا العربى. كان بهاء يتساءل دومًا: «إيه الحكاية يا جدعان»..

۞ ۞ ۞

ـ ١٠ ـ
« وإذا بالدنيا كما نعرفها.. »

وكأن الأقدار شاءت أن يتصاعد التحدى السياسى إلى المستوى الحضارى حتى تجتمع فيها كلمة مصر حكومة وشعبًا. أمة متماسكة متجانسة حول رئيس مصر حسنى مبارك لحظة رفضه المشاركة فى مؤتمر واشنطن التليفزيونى، معبرًا بذلك عن وحدة معدن أمتنا المصرية فى قلب أمتنا العربية والحضارة الإسلامية، له منا ـ أجمعين ـ عظيم الوفاء والولاء والمحبة والاعتزاز، وكذا لحظة العزاء لأسرة شهيد مصر البار الرائد معوض أبو جليل، أول ضحايا الغدر الصهيونى فى رفح.

هل نحن فى عهد علامات الاستفهام والتعجب حقيقة؟ وإن لم نكن، فما السر فى تراكم التساؤلات المذهولة، والذهول المتوالى، والدهشة «تلو الدهشة» حتى ضفاف الفجيعة.

فى سيل متدفق من التصريحات والتعليقات والتحليلات والعناوين المضطربة أمام ما يحدث حولنا.

هذه مثلا «مناورات» «بدر ٩٦» التى أرادت بها مصر أن تؤكد وحدتها حول قواتها المسلحة العزيزة الفاعلة، وقد ظهر جليًّا فى أرفع مستوى من الاستعداد والأداء لصيانة أمن الديار ومستقبل الشعب. نستغرب أن التسمية تثير لدى العدو «الذى يضمر الشر لمصر» دون هوادة تساؤلات بل «وهجومًا» مضادًّا. وكأن الموضوع أن «بدر» كان علينا أن نبدله بتسمية أخرى لإرضاء من لا يرضون لمصر إلا الانحصار والانحسار والهوان، فهل ـ ترى ـ كان من الأوفق تسميتها «بيبى ٩٦»؟ ثم نستغرب ونتعجب أن يثور نفس العدو ويحمل مناورات جيش سوريا الشقيقة نفس المعانى، وكأن على سوريا أن تظل جامدة مكانك سر، بينما الجولان المطل على دمشق بين أيدى

أدوات الاستكشاف والمدفعية الثقيلة والصواريخ الصهيونية.. يستغرب، يندهش، يتعجب البعض.

من أين ـ ترى ـ هذا الشعور الغريب لدى قطاع من صناع الرأى والقرار هنا وهناك؟

هل حقيقيًا تصورنا ـ لحظة واحدة ـ أن الموضوع قد انتهى، وأن سيادة أمتنا العربية ـ على تعداد دولها حول مصر ـ أمر مقبول لدى نظام الهيمنة الإمپريالية الغربية والقوة المركزية «المحركة» لها فى الدولة الصهيونية؟ وإن كان الأمر كذلك، فما هو يا ترى السبب فى هذه السذاجه التى يفترضها العدو؟ لِم لا نعير الند والعدو «حقهم» واعتبارهم؟ لم لا نثق فى برامجهم وإعلاناتهم ومخططاتهم؟ لماذا نتوهم أن كل من لا يرضى عنه لا يفصح عن حقيقته؟ وهل الرضا ـ ترى ـ مدخل للحقيقة «الموضوعية» ولواقع الأمر؟

نعيش فى جو «غريب يذكرنا بالمقولة العسكرية التى كانت مألوفة فى القرن التاسع عشر» تتقدم القهقرى..

فهل ترى من سبيل لكى نتقدم إلى الأمام، إلى فهم صدق النيات، سواء كانت حسنة أم شريرة، ما دام أنها تمثل واقع الأمر؟

وقبل هذا وذاك، ماذا بنا؟ من أين لنا بهذا الذهول؟ ماذا كنا ننتظر ـ ترى ـ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣؟

المدخل الأول إنما يتمركز حول مفهوم الحرب والسلام. نحن نعلن صادقين أن «السلام هو الإستراتيجية العربية» ثم، أفلا نتساءل إن كان الأمر على هذا النحو بالنسبة للدولة الصهيونية العنصرية العدوانية؟

وقبل هذا وذاك، ماذا عن فهم البعض منا لمقولتى «الحرب» و«السلام»؟ فلنفتح كتب التاريخ، منذ قديم الزمان، فى كافة القرارات ومراحل التطوير السياسى والمجتمعى والحضارى، لنتبين كيف تكون هذه العلاقة بين النقيضين التوأمين. إن تاريخ الأمم والإنسان يبين بشكل ساطع ـ ودون أدنى استثناء ذى أهمية ـ أن السلام لا يتم إلا بعد أن تنهى حرب أو مجموعة من الحروب مرحلة من الصراع القصير، وفى أغلب

الأحيان بعيدة المدى، بحيث يتم تشكيل ميزان جديد من القوى ميدانيًّا، عسكريًّا، سياسيًّا، اقتصاديًّا، معنويًّا.

عند هذا الحد، عند هذا الحد فقط، تبدأ مفاوضات السلام بغية تقنين ميزان القوى الجديد، يمتد إلى مرحلة معقولة من الزمن الوسيط إن لم يكن الوسيط ـ الطويل، نطلق عليها أنها «السلام».

ومعنى هذا أنه ليس أمامنا فى تاريخ الأمم والإنسانية جمعاء، مثل واحد ذو أهمية، حيث تم فيه السلام على البارد، هكذا، وبدون مقدمات، فإن كان ليس ثمة صدام، فعلى ماذا تكون المفاوضات؟ وإذا لم يكن هناك صراع، فلماذا السعى إلى إنهاء الصراع بما نتفق على تسميته بـ «السلام»؟ أو بمعنى آخر إن كان الإنسان مصحًا، فلماذا نطالبه ببتر الساق، وإجراء عملية تقلص من قوته؟ كيف ننتظر أن يكون موقفه إذ نعلن أمامه ليل نهار: «نحن من أنصار الصحة والعافية!» وهو ـ أيضًا ـ من أنصار العافية والصحة. وإنما عافية الغريم العدو، على نقيض عافيتنا، بل إنها لا توجد إلا على أنقاض عافيتنا وقوتنا ومحاصرتها لتدميرها وتفكيكها من الداخل بكافة المعانى. كيف يمكن أن نتصور أن ما يصلح لطرف متصارع حضاريًّا وسياسيًّا وتاريخيًّا هو عين ما يصلح للطرف المواجه؟ أو بالأحرى: كيف يمكن أن نصل إلى موازنة معقولة اللهم إلا من خلال ما أطلق عليه الرئيس حافظ الأسد «الموازنة الإستراتيچية»؟ أى بعبارة بسيطة ميزان قوى معقول يدفع كل الأطراف إلى إيجاد حد أدنى من التعايش دون التدمير المتبادل لمرحله تاريخه فى إطار القانون والعرف الدوليين؟

فإن كان الأمر كذلك، فهل ترى وصلنا إلى هذه المرتبه بعد أكثر من ربع قرن بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣؟ وهل أن ميزان القوى فى العالم وفى منطقتنا وداخل كل من دولنا تبدل إلى الدرجة التى يمكن أن تتحقق فيها صيغة جديدة فى موازين القوة فى المنطقة بطريق تمحو التناقضات والصراعات؟

أم لعلنا لم نلتفت إلى بعض الأمور التى تستحق أن نمعن فيها النظر ـ ميدانيًّا ونظريًّا ـ إن كان سبيلنا هو مواجهة واقع الأمر، كحد أدنى لإعداد مستقبل مقبول؟

لعل المدخل الأوفق لتبيان باطن الأمور إنما هو حرب أكتوبر ١٩٧٣، ودراستها فى المحيط العالمى؟ دون الاعتبارات القومية والإقليمية المباشرة.

إن عبارة «حرب أكتوبر ١٩٧٣» تعنى بالنسبة لنا فى المقام الأول العبور، واسترداد الكرامة، وكسر الانكسار، واسترداد سيناء ووحدة الإرادة والعمل العربى، فهل ترى من أبعاد أخرى؟

نبدأ نتساءل: ماذا تم حول حرب أكتوبر، أى حول عام ١٩٧٣؟

جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ لتمحو أيام يونيو ٦٧ السوداء، وهى التى لا مفر منها لتأديب الثورة المصرية التى تجرأت فأممت قناة السويس عام ١٩٥٦، وعرفت كيف تلعب بميزان القوى العظمى لإنهاء حرب السويس التالية للتأميم، ثم انطلقت فى طريق التصنيع وبناء الاقتصاد الوطنى وكذا الثقافة الوطنية، حتى بلغت مرحلة إعادة تكوين الجبهة الوطنية المتحدة بعد ١٩٦٤.

كانت هذه مرحلة انطلاقة الشرق الحضارى فى الصين والهند وڤيتنام وقطاعات هامة من إفريقيا وامتدادها حتى كوبا. كأن عبور قناة السويس بمثابة رفض للنظام العالمى وإعلان بأن التحرك من التحرر الوطنى إلى الثورة الوطنية وغايتها الاشتراكية هو البرنامج الموضوعى لمعظم القوى الوطنية فى العالم المناهض للإمبريالية. كان يمكن التغاضى عن هذا الأمر، بمحاصرته أو محاولة الانتفاع بنقاط الضعف فى قلبه، وهذا ما تم بالفعل بطبيعة الأمر.

ولكن الأمر أخطر من هذا بكثير: إنه يصل إلى مستوى القرار السياسى المصيرى، أى إلى قلب عملية صناعة التاريخ. وكأن التاريخ ـ تاريخ العالم ـ يتحرك فى اتجاهات لم تكن مرصودة فى التحليل السياسى التقليدى، بل وكانت غريبة على الغالبية العظمى من العقول العربية فى هذه الآونة. فمثلاً:

١ ــ إذا تحدثنا عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإنه من الواجب التحدث عن حقبة السبعينيات، وعلى وجه التحديد الفترة ما بين ١٩٧٣ إلى ١٩٨٠، بين عبور أكتوبر وكامپ ديڤيد (١٩٧٩).

٢ ــ وبينما نحن فى حصار الأوهام الذى نصبه لنا «الصديق هنرى» (هنرى كيسنجر) كان العالم فى تأجج. فقد انتهت مرحلة الحروب التحريرية بدءًا من انتصار الجزائر حتى كوبا، حتى بلغت أوجها بين حرب أكتوبر ١٩٧٣ وانتصار ڤيتنام بعد ربع

قرن من المعارك ضد الاستعمار الفرنسى ثم الإمپريالية الأمريكية. كان لا بد أن نحسب حسبان رد فعل هذه الموجة التى أرادت أن تكسر الانكسار، وأن ندرك أن الإمپريالية ـ مركزًا ومعسكرًا ـ سوف تعد لضربات مضادة شرسة بالغة التأثير على مسارنا، وهذا ما لم نفعله، وكأننا فى عالم محصور محدود لا يؤمن بفاعليته على المستوى الأوسع.

٣ ـ كانت الصين ـ بعد إنجازات هائلة وإن كانت متناقضة منذ تحريرها وتأسيس جمهورية الصين الشعبية فى أول أكتوبر ١٩٤٩ ـ قد وضعت حَدًّا للثورة الثقافية فى ربيع ١٩٧٨، وانطلقت إلى طريق اللحاق بالعصر، عبر عمليات «التحديثات الأربع» بقيادة دنج هسياو بنج خليفة ماو تسى تونج وصحبه، وهو الذى أدرك مقتضيات العصر، وقرر أن الانفتاح على أوسع مدى على كافة الأشكال المعاصرة يمكن ضبطه من خلال القيادة السياسية المركزية للحزب الشيوعى الصينى والدولة الصينية المخضرمة، وهذا ما تم بالفعل. وفى كلمة: انطلقت الصين منذ ١٩٧٨ كالصاروخ فى كافة المجالات، وأصبحت الدولة الرائدة فى التنمية الاقتصادية والعلمية ـ التكنولوچية والإستراتيچية والتعليمية. وهذا على ساحة ربع المعمورة فى سنوات وجيزة. كان لا بد أن ندرك أن الصين ـ شريكة مصر فى مؤتمر باندونج (١٩٥٥) ـ سوف تؤثر على مصائر العالم أجمع، وبالتالى على الحسابات التى تقام حول وثبة مصر والتحرك العربى.

٤ ـ وفى الوقت نفسه كانت اليابان قد أتمت مرحلة إعداد بناء اقتصادها بعد الدمار الذى لحق بمدنها الكبرى التى دمرتها القنابل المحرقة والقنابل الذرية فى ١٩٤٥، وحققت ما أصبح يُنعت «بالمعجزة اليابانية» أى أرفع معدل نمو فى قطاعات الاقتصاد والمال والتصنيع والتكنولوچيا المتقدمة، مما جعلها ثانى قوة اقتصادية فى العالم فى نهاية الستينيات. كان هذا أيضًا يجب حسابه بدقة، وخاصة أن اليابان يعتمد بنسبة ٩٧٪ على استيراد البترول من منطقة الخليج العربى الفارسى، وبالتالى فإن هذه القوة الصاعدة وما تمثله من منافسه ـ بل وتهديد محتمل أو متصور ـ فى المعسكر الإمپريالى سوف تؤثر أيضًا على وضع مصر فى دائرتها العربية.

٥ ـ ثم قريبًا قريبًا منا فى القارة الأوروپية بدأت إرهاصات توحُّد أكبر دولة فى القارة على ضفتى حاجز برلين، وهى العملية التى أدت إلى توحيد ألمانيا بفضل عبقرية المستشار كول وإدراكه لإمكان التوحيد بشكل سلمى فى لحظة تأزم الاتحاد السوڤييتى،

وبالتالى احتياج جورباتشوف آنذاك إلى تأمين حدود الاتحاد السوڤييتى الغربية ، لحظة وجيزة عرفت القيادة الألمانية أن تستغلها خير استغلال ، فظهرت على الوجود من ست سنوات ألمانيا الاتحادية الموحدة أكبر قوة اقتصادية وسكانية فى قلب القارة ، يدًا فى يد مع فرنسا من الچنرال ديجول إلى شيراك ، ودائرة الاتحاد الأوروپى المرتقب ، كان لا بد من إدراك معنى هذه العملية ، وأثرها على الشرق الأوسط ، ليس فقط من حيث النفط ، وإنما من حيث التحرك الچيوسياسى وتأرجحه بين التصادم وتكامل الثقافات والحضارات ، خاصة وأن ألمانيا لم يكن بينها وبين العالم العربى الإسلامى ـ وخاصة تركيا ـ إلا العلاقات المواكبة دون أدنى صدام استعمارى ملحوظ ، ولكن هذا الأمر لم نتمعن فى أبعاده بالنسبة لمستقبل تحرك مصر والأمة العربية بعد حرب أكتوبر.

٦ ـ هذا وقد بدأت أوروپا الغربية فى جمع قواها محاولة أن تنتقل من « سوق » إلى « مشروع » على الأقل فى المستوى السياسى ولا نقول الحضارى ، كان لا بد من إدراك معنى هذه الحركة التاريخية بالغة الأهمية ، خاصة وأنها تندرج فى الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط ، أى فى شراكة ممكنة أو تضاد مرفوض معنا. والحق أننا انتبهنا إلى هذا الأمر ، ولكن دون التمعن فيه ، وخاصة دون إدراك الصراع الهائل بين قوى المسيحية وخاصة الكاثوليكية من ناحية ، وبين الصهيونية الأصولية ـ السلفية التى قررت ربط أوروپا الاشتراكية الديمقراطية بالدول الصهيونية.

٧ ـ أما الحليف السوڤييتى ـ هكذا كان الأمر حتى تفتت الاتحاد السوڤييتى بين ١٩٨٩ إلى ١٩٩٠ ـ فكان من الواجب أن نمعن النظر فى بوادر أزمته الداخلية ، وخاصة فى مغزى ودلالة الصراع المستمر بينه وبين الصين الجديدة ، بعد قرار القيادة السوڤييتية الأحمق عام ١٩٦٥ بنسف جسور التعاون الاقتصادى والتحديث التكنولوچى والعلمى التى كانت تربط بين العملاقين الشيوعيين.

٨ ـ وأخيرًا وليس آخرًا ، كان من الواجب أن نتبين أن أمريكا الوسطى والجنوبية ـ أى أمريكا اللاتينية ، على تنوع أنظمتها ـ قد بدأت تلحق بركب موجة التحرر وعدم الانحياز بدرجات متفاوتة إلى حد بعيد ، تتأرجح بين كوبا الشيوعية بقيادة ڤيدل كاسترو والأنظمة الدكتاتورية الرجعية فى عدد من دول أمريكا الجنوبية ، خاصة بعد ضرب تجربة الحكم الاشتراكية فى شيلى وسحق سلفادور إليندى. كان من الواجب أن ندرك

أن هـذه الموجـه المتصـاعدة ــ رغـم تأزمهـا ــ سـوف تفـتح مجـالاً جديـدًا للتنـاقض مـع الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالتـالى مجالاً جديـدًا للتعـاون مع الـدوائر الأساسية فى منظمة الجنوب ، ومن بينهما دائرة أمتنا العربية.

وهنا ساد الصمت وكأننا فى كوكب آخر.

استمر الأمر على هذا المنوال منذ ١٩٧٩ حتى وقت قريب.

المنظار ليس منظارنـا. المفـاهيم ليست مفاهيمنـا. الـرؤى ليست رؤانـا. النبض ليس نبضنا..

تصـورنا ــ تصـور البعض ــ أن العـالم يسير فى اتجاه يقـال إنـه يمثـل «نظامًـا عالميًـا جديدًا». هنا ككوكب واحد يتخذ شكل قرية واحدة ، ولعل مصر حارة ضيقة أو كوخ أو على أحسن تقدير منزل على ترعة فى هذه القرية ، وفى قلب هذا كله ناطحات السحاب لمدينة عاصمة بعيدًا ، بعيدًا تأتينا عبر قنوات التلفزة الفضائية وخاصة الـ سى إن إن.

تصورنا ـ تصور البعض ـ أن هذا النظام يحظى برضا بقية سكان القرية رغـم تعـدد حوادث النفـور والانتفاضـات وزيـادة التناقضـات ، وصعـود الصراعات إلى مقـام حـاد. كان المفروض مثلاً ، أن تتشابك جميع الدول الرأسمالية فى جبهة واحدة. داخل القرية لتفرض إرادتها وتنسق تبعية بقية السكان.

وإذا بالصـدام يحتـدم بـين الرأسماليـة الأمريكيـة مـن ناحيـة ، وكوكبـة الأنظمـة الرأسمالية فى أوروبـا الغربيـة مـن ناحية أخرى. وإذا بالصـدام يبلـغ أشـده مـع اليابـان ، وإذا بالوجوه التى تقود الحملة كلها من الصهاينة المخضرمين : ميكى كـانتو ، إستيوارت أيزن إيزنشتات ، إيرين بارشيفسكى...

وإذا بمحاولة محاصرة الجميع ، بما أسميناه الحصر النمطى ، أى فرض النمط المركزى على جميع الشركاء ، بما يؤدى إلى عودة القومية ، وتأكيد مصالح الـدول على تنوعهـا ، وبعث الاشتراكية الديمقراطية فى العديد من بلدان أوروپـا الشرقية.

أريد بالصدام مع الصين أن يمنع صعود الصين إلى مكانة التأثير المعنوى الرئيسى فى أمور الدنيا فى هـذه السنوات الأخيرة مـن القـرن العشرين بشكـل متزايـد. وإذا بالحملة التى قيل إنها علمانية ولكنها فى جوهر الأمر صهيونية ضد الحضارة المسيحية والحضارة

الإسلامية تؤدى إلى عودة جماهير الشعوب ـ مئات الملايين ـ إلى الإيمانية والتوحيد يدًا فى يد مع القومية والخصوصية الثقافية والحضارية.

الأمور تتوالى، وكلها تقدم الدرس لتبيان فساد الرؤية العامة المفروضة علينا فرضًا، بواسطة تعتيم الإعلام وتستطيح التحليل، واتهام مختلف المساعى للتفسير السلبى بأنها «فكر تآمرى».

وقد بلغ الأمر درجة غريبة خلال الأسابيع الأخيرة، عندما أطلقت الولايات المتحدة «ضربة الصحراء» ضد العراق الشقيق. قيل لنا أولاً: إن الموضوع يهدف إلى إقرار حقوق أكراد الشمال. ثم تجمعت قوة ضاربة حول مجموعتين من حاملات الطائرات فى الخليج فى تظاهرة إستراتيجية غربية بعد أن هدأت المنطقة الشمالية الكردية، ورفضت تركيا وإيران أن تتجاوبا مع عملية تفكيك العراق، بل وإن معظم الدول العربية ـ أيًّا كان موقعها من النظام العراقى الحالى ـ ازدادت تمسكًا بوحدة العراق واستقلاله وسيادته على أراضيه بشكل واضح.

ثم توالت التقارير من الولايات المتحدة حول إخفاق العملية، إلى درجة أن الرئيس كلينتون أعلن بنفسه أن العراق خرج من هذه الأزمة على صورة أقوى مما كان. ونشرت إدارة المخابرات المركزية الأمريكية وثيقة تلو الوثيقة من النقد الذاتى الجاد الدقيق اعترفت بفشل عملياتها فى شمال العراق، محاولة أن تبرر هروب ضباطها بعد أن تركوا الأكراد يتصارعون دون وجه. والحق يقال فإن إدارة المخابرات المركزية الأمريكية بذلت جهدًا صادقًا فى تحليل الفشل، وكذا فى إعداد الضربات القادمة بشكل أكثر حكمة وأكثر ترويًّا وأكثر نضجًا. علامة الدولة الكبرى دون جدال.

ورغم هذا وذاك، فقد رأينا من حولنا من لا يفهم، من لا يصدق، بل ويتشكك كيف يمكن ـ ترى ـ أن تكون الخيبة قد أصابت ناطحات السحاب للمدينة العاصمة؟ وماذا يحدث لقريتنا الكوكبية من مآس بعد هذه المأساة التى ليست بعدها مأساة؟ بل بلغ الأمر أن قراءة الوثائق الأمريكية نفسها أصابها الشلل: فهذا مقال مترجم عن «الهيرالد تريبيون» الأمريكية وقد نشر فى الأهرام بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٦٠ وعنوانه «هل ذهبت أموال الـ سى آى إيه هباء؟» الغريب هنا أن العنوان المنقول من «الهيرالد تريبيون» ينتهى بعلامة استفهام بينما عنوان المقال الأمريكى الأصلى ينتهى بنقطة دون علامة

استفهام. أى أن التقرير الأمريكى يعترف بواقع الأمر. وإنما المترجم المصرى العربى لا يكاد يصدق هذا الاعتراف: كيف يمكن ذلك؟ إيه الحكاية؟ إلى أين نحن مساقون؟

يتناول الأصدقاء والزملاء والخبراء وصناع القرار هذه الأمور من زوايا مختلفة، يتفقون أحيانًا ويختلفون أحيانًا أخرى، حتى يصل بعضهم إلى هذا الشعور من الحيرة والتعجب. التعجب من هذا العجب العجاب، الذهول من هذا الأمر. دنيا اللامعقول...

يحاول الجميع تحليل الأمر بشكل عقلانى علمى، فيهتدون شيئًا فشيئًا إلى أن المعلومات المتاحة ـ وكذا صياغة العقلية والتوجه العام ـ قدمت صورة ناقصة خاطئة زائفة مصطنعة لعالم لا وجود له. وإذا بالعالم كما نعرفه ليس هو العالم كما يتحقق تحت بصرنا وأمامنا يومًا بعد يوم..

وإذا بالدنيا كما نعرفها ليست هى الدنيا كما تصوغها الصراعات والرؤى المتباينة، وكذا الجهود المواكبة يومًا بعد يوم.

وإذا بالواقع المتصور غير الواقع الواقعى. قضية كبرى تطرح العلاقة بين إدراكنا لواقع الدنيا من ناحية، وصياغة العقلية السائدة فى قلب حياتنا العامة حتى مستوى القرار المصيرى من ناحية أخرى.

موضوع كبير رحب، لا بد أن نطرقه معًا من زوايا ومداخل مختلفة، كلها تصب فى رفع مستوى الفكر والعمل على أرض الكنانة.

قال صاحبى: صدق رئيس مصر عندما أقام قراره على أساس رفض تحدى مشاعرنا وكذا غضب الرأى العام فى بلادنا.

كيف أغفل بعض التائهين هذه المعانى؟

أوليست مصر «بيتًا من لحم» على حد تعبير يوسف إدريس؟

أم أن البيت ربما فى حاجة إلى مزيد من العناية؟ .. أراك تبتسم.

۞ ۞ ۞

ـ ١١ ـ
ترتيب المنزل أولاً

تحولات هائلة فى كل مكان فى مواجهتنا ومن حولنا، علينا أن نتعمق ـ معًا ـ فى إدراكها بقلب دافئ وعين باردة؛ ما دام أن الزمان أصبح يتحدى مصيرنا الوطنى، القومى والحضارى.

من أين نبدأ؟ شق طريق السلام فى زمن الحرب؟

لا يمكن أن نسعى إلى إستراتيچية تقليدية مثل التى حددها «كلازفيتس» و«جومينى» قمتا الفكر الإستراتيچى، والچيو- سياسى الغربى.

ذلك أن الإستراتيچية المصرية العربية لا تهدف إلى تدمير قوة العدو.

إن الإستراتيچية التى يجب أن ندركها فى الأعماق هى تلك التى حددها المفكر السياسى والچيو- سياسى الرائد «سون تزو» فى القرن الخامس ق.م عندما انتشرت الحروب الأهلية فى الصين، فراح هو يدعو إلى منهج يمكن أن يؤدى إلى تخطى الفرقة وتحقيق الوحدة فى كتابه التكوينى الفريد «فن الحرب» الذى أصبح فيما بعد المرجع الملهم لفكرية رواد الثورة التحريرية فى آسيا، وعلى رأسهم الرئيس ما وتسى تونج يقول «سون تزو».

«إن قمة المهارة لا تكمن فى تدمير العدو مائة مرة فى مائة معركة.. وإنما قمة المهارة أن تدمر قدرة العدو أن يستخدم قواه».

إن الموضوع هو ضرب القدرة الحركية، أى إمكان استعمال تفوق القوى المواجهة لمصر وأمتنا العربية، دون تدميرها بالضرورة، كيف نفهم هذه الرسالة التوجيهية الرائدة؟

الفهم السائد لدى الطلائع الثقافية والسياسية فى مرحلة التردى إنما هو أن السعى يجب أن يكون الإفادة من الفروق الكمية ـ ولا نقول النوعية ـ بين قوى العدو، هناك من يتصور حتى الآن أن لحزب المابام ورئيسه شمعون بيريز دورًا إيجابيا فى عملية السلام كما يقولون، وذلك بعد ضرب لبنان الشقيق فى عملية عناقيد الغضب، ومذبحة قانا، وما سبق ذلك فى عهد رابين الشهير من تكسير عظام شباب الفلسطينيين رجال الانتفاضة دون هوادة، هذا هو معسكر مسيرة السلام.. وفى مقابله معسكر الحرب. إذن، هكذا يقول التطبيعيون الجدد: علينا إذن أن نركز على السلاميين لاستبعاد دعاة الحرب بهذه السذاجة، بل هذه الأمية الفكرية والسياسية. نتصور أننا نفيد من ثغرات العدو..

بل نقول: يجب أن يتجه سعينا إلى الذات المصرية والعربية، إلى بيتنا، إلى مجتمعنا، إلى ترتيب أمورنا ـ أولاً وقبل كل شىء.

أولاً: علينا أن ندرك أن المنطق السياسى لمرحلة الحرب الكونية يختلف تماما عن المنطق السائد فى مراحل السلام، ولا نقول الاستسلام.

إن منطق المواجهة ـ كما رأيناه أثناء حرب الاستنزاف بعد إعادة الجبهة الوطنية المتحدة إلى الوجود فى المرحلة الثانية من حكم جمال عبد الناصر ـ هو منطق التعبئة الوطنية الشاملة.

يجب إشراك كافة القوى السياسية، وكذا كافة مدارس الفكر والعمل التكوينية فى أرضنا المصرية العربية فى عملية اتخاذ القرار، وإنجاز القرار، والإفادة من تنفيذ القرار. لا يمكن بحال من الأحوال أن نستمر فى جو يستبعد غالبية القوى الحية فى مجتمعاتنا من المشاركة فى تدبير مصائر الوطن والأمة.

وعندنا، أن التاريخ قد أتاح لرئيس مصر أن يجمع حوله كافة هذه القوى دون استبعاد أى منها، على ضوء التوجه الوطنى والديمقراطى والاستقلالى العام السائد، بعد بداية تفسخ مرحلة التبعية والاستسلام.

والحق أن هذا التطوير لحياتنا السياسية لا يحتاج إلى طفرات ولا إلى تغيير جذرى أو جراحة.

وإنما يمكن أن يتم بدعوة من رئيس مصر لإعادة النظر فى كيفية تكوين الجمعية التشريعية والسلطة التنفيذية بشكل رحب يستوعب كافة الطاقات ، بحيث تتأكد من فاعليتها فى مواجهة التحديات التى تحاصرنا من كل مكان.

إن هذا النوع الجديد من الجبهة الوطنية المتحدة يتكون ـ كما قلنا المرة تلو المرة ـ من الجمع بين مستويين :

١ـ جبهة تجمع بين كافة القوى السياسية ومدارس الفكر والعمل التكوينية القائمة على أرضنا المصرية.

٢ـ وكذا المشاركة العضوية الثابتة بين رجال الفكر ورجال السلاح بحيث تلتف قلوب المصريين دومًا حول قواتنا المسلحة ، درع الوطن ، ورمز إرادته وشموخه.

إن مثل هذا العمل الجاد سوف يمكننا من تخطى العديد من المصاعب :

(أ) نستطيع مثلاً أن نطور السياسة الاقتصادية مما هى عليه اليوم إلى اقتصاد مصرى متعدد القطاعات ، يؤكد التوجه الإنتاجى ، أى سيادة الرأسمالية الوطنية فى مواجهة التوجه السمسارى ، أى التوجه التجارى للتوكيلات الأجنبية. ويؤكد كذلك العروة الوثقى بين البحث العلمى الإستراتيچى وبين إبداع التكنولوچيا العلمية والتصنيعية فى كافة مجالات الاقتصاد يدًا فى يد مع كل من يصادقنا ، بعيدا عمَّن يعادينا.

(ب) وكذا فإن مثل هذه الصورة من الحكم الوطنى سوف تسهل تحقيق معانى العدالة الاجتماعية من أوسع الأبواب ، فى قطاعات الإسكان والعمالة على وجه التخصيص ، أى فى القطاعات الحيوية بالنسبة لأجيال الشباب المتدفق إلى الحياة عبر معاهد التعليم على كافة مستوياتها وأنواعها. وهذا أيضًا فى حاجة إلى إعادة ترتيب المنزل من الداخل ، أى إلى اتخاذ إجراءات لضبط الأمور ، وإعادة تشغيل التوازنات ، وتحقيق الضوابط المجتمعة ضد الإسراف والتبذل ومحاكاة أرض الأحلام ـ كما نتصورها ـ لصالح حياة اجتماعية منضبطة حول قيم ومعايير تصب فى دائراتها الروافد الإيمانية والفلسفية والأخلاقية النابعة من إرث مصر الحضارى المتفرد.

لن نطيل هنا ، فالموضوع بحاجة إلى سلسلة من الدراسات والندوات ، ومعظمها قام ، وسيقام إن شاء الله ؛ نظرا لما يحيط بنا من التحديات ، وإنما القصد هنا أن نشير إلى

جوهر الموضوع ، أى إلى ضرورة إعادة بناء جبهة وطنية متحدة من نوع جديد قد تفرض تنازلات وضوابط لا يرضى بها قطاع قد يكون واسعا ، وإنما لا مفر منها إن أردنا أن نعبر إلى بر السلام.

أما وقد سعينا إلى إعادة ترتيب المنزل من الداخل على هذه الصورة التى ـ وحدها ـ تجعلنا قادرين على مواجهة المخاطر والتحديات وتحديها ، والعبور إلى الإيجابية التاريخية ، فإنه يصبح من الممكن أن نحدد محاور تحرك مصر الخارجى الذى يحقق الإستراتيچية العامة كما حددناها فى مطلع هذا المقال أى : إستراتيچية ضرب قدرة العدو على استعمال إستراتيچيته.

أولاً : التوجه الأساسى المنهجى فى هذا المضمار إنما هو تأكيد خصوصية مصر ـ مصر العربية ـ وتمايز سياستها بالنسبة لكل الشركاء ، والأعمال التى تحددها مصر وجدانًا وإرادة وعملا فى هذه المرحلة.

ثانيًا : ومن المهم كذلك أن نميز بوضوح بين دوائر الشخصية المصرية ودوائر التحرك المصرى. إن دوائر الشخصية المصرية هى التى صاغها تاريخنا السبع ألفى من أعماقه الإسلامية ، فى إطار الشرق الحضارى بالمعنى الواسع.

أما دوائر التحرك المصرى فهى التى تمليها موازين القوى فى ظروف الحرب المحيطة على المستوى العالمى وفى الدائرة الإقليمية المباشرة.

انطلاقًا من هاتين الركيزتين المنهجيتين ، تتبدى أمامنا صورة التحرك المصرى على النحو التالى :

١ ـ إلى الدائرة الحيوية المباشرة ، وهى التى تتكون من مصر ، السودان ، سوريا ، ليبيا على وجه التحديد. إن هذه الدائرة كانت على الدوام دائرة الأمن القومى المصرى منذ أقدم عصور مصر الفرعونية ، وهى الدائرة التى خاضت معنا ثورات التحرير ، وعلى وجه التخصيص حروب المواجهة مع العدو الصهيونى. لا يمكن لمصر العربية أن تتحرك لفك كماشات العدوان إلا بتسوية أمور هذه الدائرة من كل النواحى فى المقام الأول. وقد نجحنا بشكل باهر مع سوريا الشقيقة ، رفيقة السلاح والمصير دوما ، وكذا الأمر بالنسبة لليبيا ، نلحظ بهذه المناسبة أن مصر تسعى لإلغاء الحصار المفروض على

ليبيا بشكل ظالم، وهو مجال تتشارك فيه أيادى مصر وتركيا الجديدة، وكذا عدد من الدول الأوروپية، ثم الصين وروسيا العضوان الدائمان بمجلس الأمن، بشكل محمود.

وعندنا، أن بدايات السعى إلى تسوية الخلافات بين شطرى الوادى ـ بين مصر والسودان الشقيق الأغر ـ قد دخلت مرحلة يمكن أن تبشر بأمل أكيد. علينا ـ من الجانبين ـ أن نعلن الأولوية المطلقة إلى عمق الأمن القومى الذى لا وجود له ما لم تتشابك أيادى أبناء الجنوب بأبناء الشمال، دولة الشمال بدولة الجنوب. هناك ولا شك صعوبات معروفة ومشروعة. وهناك كذلك إمكانية الحل وتخطى هذه الصعوبات بحيث تكون مصر ـ الأخ الأكبر ـ هى الساعية إلى رفع العقوبات عن السودان الشقيق، واحتضان أشقائنا فى الجنوب والتقدم معهم قُدُمًا فى طريق أُخوتنا التاريخية. الأمر صعب. والأخطر بكثير أن تظل الأمور راكدة، ونحن نواجه أهوال الحصار الإستراتيچى المفروض.

٢ ـ وفى قلب هذه الفكرة الحيوية يتحدد المحور المركزى الحركى، ألا وهو محور مصر وسوريا. إن تحرك مصر هو تحرك سوريا. وكذا فإن تحرك سوريا هو تحرك مصر. إن الخطر الذى يصيب أحدًا منا يصيب الآخر فى الصميم. كان الأمر كذلك عبر الأجيال، وقد تأكد منذ ١٩٤٨ حتى أكتوبر ١٩٧٣. ومن ثم، فإن أدنى إهمال لهذه الأولوية المطلقة سوف يترتب عليه كسر إمكانات التحرك وتمكين العدو من تحقيق مخططاته.

٣ ـ ثم إدارة الحلف العربى المباشر، وهى تجمع بين دائرة الأمن القومى المصرى، ومحور التحرك، يدًا فى يد مع إخواننا فى الجزيرة العربية والمشرق والمغرب العربى، وعلى وجه التخصيص العراق والسعودية والجزائر، فى رحاب جامعة الدول العربية.

إن ترتيب سلم أولويات البيت العربى ـ حول مصر ـ على هذا النحو يجعل من الممكن أمامنا جميعا أن نتقبل وحدة التوجه العام، يدًا فى يد مع تنوع المسارات، بل وتباينها فى أحيان لا مفر منها.

نضيف فنقول: على مصر ألا تسعى سعى مراكب سفن النقل الكارجو فى الحرب العالمية عندما كانت تتجمع القوافل المكونة من خمسين إلى ثمانين سفينة محاولة أن تنقل الذخيرة والمؤن من الولايات المتحدة إلى أوروپا عبر الأطلنطى، ومن حولها عدد محدود

من المدمرات الخفيفة للحماية. كانت سرعة هذه القوافل تتحدد حسب سفينة النقل الأكثر تباطؤا، فإن كانت سرعتها ثمانى عقد فى الساعة مثلا اضطرت القافلة كلها أن تخفض سرعة الجميع إلى ثمانى عقد، حتى ولو كان جزءا هاما من السفن تتراوح سرعته بين خمس عشرة وعشرين عقدة فى الساعة، وذلك للمحافظة على وحدة التحرك تمكينا لمدمرات الحراسة من الإحاطه بالموكب.. وقد ترتب على هذا المنهج الحفاظ على معظم القوافل فى أمان، وترتب كذلك عليه تأخر المؤن والإمداد فى كثير من الأحيان، وخاصة الذخيرة والأسلحة المتقدمة، مما أثر فى العديد من المعارك الإستراتيجية بوجه عام، وخاصة قبل فتح الجبهة الثانية فى جنوب أوروپا، ثم فى شمال فرنسا عام ١٩٤٤.

نعنى بهذا الكلام: أن مصر لا تستطيع أن تضبط إيقاعها على من يود التباطؤ، بل والتوقف إلى حين.. وإنما ـ كما قلنا ـ يجب على مصر أن تحترم خصوصيتها وتمنحها الأولوية المطلقة، فى الدوائر والمحاور التى حددناها، بحيث تُؤمِّن مصالحها الوطنية والقومية العربية من مكانة القيادة، لا التبعية لمن يرى التوقف والترسُّل بل والمهادنة..

وقد لفت أنظارنا مقال هام لزميلنا إدوارد سعيد منذ أيام «الانتفاضة ضد أوسلو» (الحياة ١ / ١٠ / ١٩٩٦) هذا نص خاتمته: «الأزمة الحالية ـ كما أعتقد ـ مؤشر أولى إلى نهاية حل «الدولتين» وهو الحل الذى تجسد أوسلو ـ ولو بشكل غير واع ـ افتقاره إلى العملية. ذلك أن الشعبين الفلسطينى والإسرائيلى أكثر ارتباطا من أن ينفصلا، على رغم إعلان كل منهما عن الحاجة إلى دولته المنفصلة. والتحدى هو إيجاد طريقة سلمية للتعايش، ليس كأطراف يهودية ومسلمة ومسيحية محترمة، بل كمواطنين متساوين فى الأرض نفسها».

قد يكون هكذا الأمر بالنسبة لقطاع من أشقائنا، وإن كنت أظن أنه ليس كذلك تمامًا. ولكن هذه السطور تعبر عن حدود موضوعية ثابتة تواكب فى الحقيقة أطروحة الأمة العلمانية الديمقراطية الواحدة التى تجمع اليهود والعرب مسلمين ومسيحيين كما جاءت معانيها فى ميثاق «منظمة التحرير الفلسطينية» منذ البداية. وأيًّا كان الأمر، وأيًّا كانت الاعتبارات الحرجة لهذه المرحلة المدمرة، فإنها لا يمكن بحال من الأحوال أن تمثل إطارًا لتحرك مصر.

إن الذى يحدد تحرك مصر هو مصر، مصر وحدها، فى قلب أمتنا العربية، فى مواجهة العدوان الصهيونى التاريخى المدعوم من «الإمپريالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة». إن كان غيرنا يرضى بما هو أقل «فعليه أن يتدبر أمره» ـ إن استطاع ـ أما نحن فعلينا أن نحافظ على مصر واستمراريتها عبر المستقبل. رسالتنا، واجبنا، والتزامنا.

أعود إلى مدخل هذه السطور

كيف يمكن مواجهة المهام والتحديات التى يطرحها التاريخ على وطننا المصرى؟

أفلا نتفق على أن هذه اللحظة التاريخية الحيوية ـ النادرة ـ تجعل لزامًا علينا جميعا أن نسعى إلى تحقيق وحدتنا الوطنية فى الأعماق؟

وإن كانت حركتنا الوطنية المصرية أول من أبدع فكرة «المهادنة التاريخية» التى تتحقق اليوم فى إيطاليا، وكذا فى الهند، أوليست مصر أجدر ما تكون بعنايتنا.

وكذا إصرارنا على جمع الكلمة بين كل أحباء مصر، اللهم من يختار منهم أن يهرول إلى ساحة الهيمنة والاستسلام؟

قال صاحبى: «بل إن اللحظة التاريخية أكثر إيجابية مما كنا نتصور. ألا ترى معى أن هناك جديدًا فى الموقف العالمى، وكذا فى شرقنا الأوسط العربى والإسلامى؟

وأن علينا مرة أخرى أن نعيد النظر فى الـمُسَلَّمَات والقناعات التى يفرضها علينا إعلام العدو باسم الكوكبية؟....»

۞ ۞ ۞

ـ ١٢ ـ

عن النشرة الجوية ومسألة التغييب

مسألة تقلبات الجو تشغل بال الجميع، أعنى جميع الناس، جميع شعوب ومجتمعات ودول العالم، بطبيعة الأمر أو بأمر الطبيعة. كلنا يتطلع إلى معرفة جديد «النشرة الجوية»، كلنا يتابع هذا الملحق الكوكبى بشغف: ترى، كيف يكون الغد؟ نتطلع إلى متابعة تقلبات الجو على الشاشة، شاشة التليفزيون، خاتمة النشرة الإخبارية فى كافة أنحاء المعمورة، يومًا بعد يوم.

ومنذ عام ١٩٩٦، وبعد الحصول على إمكانية متابعة عدد من القنوات العالمية وخاصة الفضائية الشهيرة على الشاشة، اكتشفت ظاهرة «جوية» غريبة لم تكن على البال حقيقة، لاحظت ـ يومًا بعد يوم ـ وفى كل أمسية ومناسبة أن نشرة الأخبار الجوية فى أهم محطات تلفزة العالم الغربى ـ وهى التى تعرض خريطة العالم من ساحل المحيط الهادى الأمريكى شرقًا إلى اليابان مثلاً، أو العكس بالعكس ـ تتحدث عن كل قارة ومنطقة جغرافية ـ أمريكا الوسطى، أمريكا اللاتينية، أوروبا الشمالية، أوروبا الغربية مثلاً، الخ ـ وتستشهد بعدد من العواصم فى كل منطقة فتذكر درجة الحرارة اليومية وغدًا، وأحيانًا بعد غد أو بعد أسبوع، عالم واحد، كوكب واحد، قرية واحدة.

وإذا بوحدة العالم هذه تتصدع بمجرد وصول «النشرة الجوية» إلى العالم العربى والشرق الأوسط ثم، ولكن إلى درجة أقل نسبيًا إلى إفريقيا، أحوال الجو مذكورة وكذا درجات الحرارة بطبيعة الأمر. ولكن العواصم. أين العواصم؟ لا ذكر لشىء لا لبلد أو دولة أو عاصمة أو مدينة فى منطقتنا.

تختفى أسماء «القاهرة» و«دمشق» و«طهران» و«بغداد» يومًا بعد يوم ومعها أسماء البلاد، وتنحصر الأمور فى «تل أبيب» وأحيانًا «دبى» أو «عمان» أو «جدة»

ـ والحمد لله ـ ثم تنتقل الكاميرا بسرعة إلى جنوب إفريقيا وجنوب شرق آسيا بعد عبور عاجل فوق الهند.

تساءلت، تساءل لفيف من الأصدقاء أو الزملاء هنا وهناك، فى جلسات وأمسيات الصداقة والمناسبات، عن أحوال الجو فى بلادنا ومنطقتنا وعالمنا. أين الجو «جوها»؟ وما حالة اليوم، ثم: الغد؟. العواصم غير موجودة، أسماء البلدان الرئيسية غير مذكورة، وكأن عالمنا مغيب...

تذكرت حوارًا دار عام ١٩٩٥ مع مفكر شاب أنتج سجلاً حافلاً من البحوث والمقالات المنشورة، وقد حظيت بتقدير أساتذته وزملائه. رأيته يشكو من الصمت حوله: لا تعليق ولا وظيفة ولا عمل ولا مجال واضح لتحقيق الذات. كل هذا فى عاصمة عالمية حيث يقيم هذا المفكر الشاب منذ قرابة عشرين عامًا. سألته، سألنى عن السبب. اتفقنا على أنه لا علاقة له بشخص المفكر الشاب، وإنما الأصل يرجع إلى موجة «تغييب» مصر والعالم العربى. حتى عندما يكون الإنتاج واضحًا، والإسهام جادًّا، والجهد مضنيًا.

مرة أخرى: عالم واحد، كوكب واحد، قرية واحدة...

ومنذ أيام (ديسمبر ١٩٩٦) رحت أتصفح كومة من الجرائد والمجلات العالمية الجادة المؤثرة تراكمت منذ أسابيع وقد انشغلت عنها للفراغ من إعداد بحث فى موعده المحدد. والحق أننى اعتدت أن أقوم بمثل هذا الجرد لأكوام المطبوعات الدورية الوافدة بين الحين والآخر، ربما بحثًا عن محاور اتجاه الرأى العام السياسى، والفكر المحيط بحركة التاريخ من حولنا وعبر منطقتنا.

لم يختلف الأمر هذه المرة عن ذى قبل. أخبار مصر والعالم العربى تكاد تختفى، ولا تبرز إلى الوجود إلا بمناسبة وقوع مأساة جديدة فى الشرق الأوسط، أو أحداث إجرامية إرهابية، أو كشف عن ظاهرة شاذة تؤكد شذوذ هذه المجتمعات بالنسبة للعالم «المتحضر». أقول: تكاد تختفى، وإن كانت تبرز فى أحوال نادرة تكشف عن لحظة أو ظاهرة إيجابية فى مجالات التنمية أو السياحة مثلاً.

أما التحليل والتعليق فإنها ـ فى معظم الأحيان وأكاد أقول فى كل مناسبة باستثناء

obeikandi.com

ندرة نادرة منها ـ تكون دومًا على لسان خبراء أو كتاب أو رحالة غير عرب ، وكذا نقلاً عن الصحافة والإعلام الغربى أساسًا. تساءلت عن مصير الإنتاج العربى ، فهذه مثلاً صحافتنا المصرية (وكذا اللبنانية) تقدم كل شهر ما يتراوح بين ٥٠٠ و٧٥٠ مقالاً ودراسة وتعليقا ، الأرقام تقديرية أوردها عدد من الزملاء خلال جلسات متناثرة. لا شك أن هناك عددًا منها ، خمسون أو على أقل تقدير ثلاثون مقالاً (أى مقال واحد فى اليوم) خلاصة لكل ما تقدمه الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الدورية والإعلام السمعى والمرئى ، لا شك أن هناك هذا القدر المتواضع بكافة المعايير من الرأى الأصيل ينبع من أرضنا المصرية بفضل عقول مصرية ومن خلال قنوات إدراك وتوجهات متنوعة متباينة تعكس تنوع وتباين المصالح الفئوية والطبقية والسياسية. والأمر كذلك بالنسبة لإنتاج إخواننا ، زملائنا فى عدد من البلاد العربية ، حتى ولو قلت الأعداد نسبيًا فى أقطار أخرى أكثر حداثة.

أين إذن صدر هذا التراكم الهائل فى وسائل الإعلام العالمية؟ أين ترجمة فقرات من أهم ما يصدر؟ أين جرد لإنتاج الصحافة والإعلام المصرى والعربى فى الإعلام العالمى؟ وإذا قيل : إن الدوريات المتخصصة تهتم بهذه النواحى وتنشر المختارات منها على عدد محدود من الإخصائيين ، فما السبب إذن فى تغييب إنتاج الرأى العام العربى على الساحة العالمية؟

أين صوت العرب ، أصوات العرب على امتداد إنتاجها الثرى المبدع؟ أين صدى هذا الجهد وذلك الإبداع وكذا الإصرار على توضيح الحقائق والمشاعر والمواقف على أرجاء «القرية العالمية» فى عصر الكوكبة والعولمة؟

وليت الموقف كان مغايرًا بعض الشىء فى مجال الإنتاج العربى العلمى. سواء فى العلوم الطبيعية أو الاجتماعية. آلاف العلماء والمفكرين والفنانين والتربويين من الأجيال الجديدة يشاركون عامًا بعد عام فى المؤتمرات والندوات العالمية أو الإقليمية المتخصصة ، يتقدمون بنتاج بحوثهم وفكرهم إلى الساحة العالمية. ومنهم من تم انتخابه إلى أرقى المناصب فى الجمعيات العلمية العالمية ، بل وإن عددًا منهم ومنهن ما زال يشارك فى رئاسة هذه الجمعيات المتخصصة. سيل من البحوث والأوراق العلمية والعطاء ، ثم : لا نكاد نرى لهذا الرافد المصرى والعربى أثرًا معترفًا به ولا تركة فعالة ، وكأن شيئًا لم

يحدث. وكأن الموجود غير موجود، وكأن الإسهام العربى عنصر ثانوى الأهمية، قد يواكب الركب المتحضر، ثم يمضى. صحيح أن عددًا محدودًا جدًّا من الأسماء العربية «المقبولة» فى الإعلام الغربى ـ وخاصة الأمريكى منه ـ يحظى بالذكر والدعوة، وأحيانًا الترحاب، أما الأغلبية الساحقة من كبار العلماء والمفكرين العرب فإن نصيبهم دومًا الإسهام والمشاركة ـ فى صمت أو سكون أو وجود مرحلى لا يلبث أن يزاح من الساحة. يعود الصمت. يسود التغييب.

والحق أن تناول الإعلام العالمى ـ الأمريكى فى الأساس ـ لشئون العالم يختلف جوهريًّا، وإن كانت درجة الاختلاف مع العالم العربى شاسعة هائمة حقيقة.

نعم، يتركز الاهتمام فى المقام الأول على آسيا، ولكن لا آسيا كلها، وإنما آسيا الشرقية أساسًا باعتبارها دائرة الصين واليابان، ثم كوريا ومجموعة «آسيان» فى جنوب شرق القارة، منطقة الطفرة الاقتصادية الفريدة فى تاريخ الإنسانية، والتى تجعل من هذه المنطقة ـ حول الصين ـ المنافس الأول، بل والوحيدة للهيمنة الأمريكية فى مطلع القرن الحادى والعشرين. المنافس أو الشريك، أيًّا كان الأمر: لا بد من متابعة التطورات بدقة. والمتابعة نفسها انتقائية: فالصين ـ منذ عشر سنوات (كذا) ـ تعيش عصر الانتقال من قيادة «دينج شاو بينج» إلى جيل جديد، وكذا تواجه مخاطر «التمزق» بين منطقة ساحل المحيط الهادى وأقاليم الداخل. واليابان يسعى دون جدوى إلى تجديد نظامه السياسى، كما أنه يدخل عصر تفكك الأسرة، الخ. أما مجموعة «آسيان» فى جنوب شرق آسيا فإنها حتمًا تكوين إقليمى مرحلى لا بد وأن يتصدع بعد ارتفاع معدلات التنمية فى إندونيسيا والفلبين.

ثم يأتى دور أمريكا اللاتينية، وهى الآن فى المقام الثانى من الأولويات الأمريكية. أخبار الإنجازات الاقتصادية واردة: تجمع دول أمريكا الجنوبية الاقتصادى حول البرازيل والأرجنتين فى منطقة «ميركو سور» وهى السوق الاقتصادية المشتركة التى بدأت عملها الفعال لمواجهة ضغوط منظمة «نافتا» فى قارة أمريكا الشمالية. ولكن القسط الأكبر من الأخبار يتعلق بمسألة تجارة المخدرات، وكيف تتدفق إلى الولايات المتحدة حيث الإدمان فى تزايد مطرد سنة بعد سنة. ومعنى ذلك أن منع زراعة نبات الكولا فى عدد من بلدان أمريكا الجنوبية مثل كولومبيا وبيرو ومنطقة جبال

«الأندلس» الغربية الموازية للمحيط الهادى هو الهدف وبالتالى يصبح العدو هو موقف بعض القيادات السياسية فى أمريكا الجنوبية التى ترفض إبادة المزارعين وتجارة المخدرات. أى أن بيت القصيد يظل بعيدًا بعيدًا عن معالجة الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية لانتشار المخدرات الوبائى فى شمال أمريكا، ومواجهة الحقائق بوضوح وجدية. القائمة تطول، قائمة الإهمال والتغييب.

المهم، الأهم، أن نتعمق فى محاولة فهم هذه الظاهرة الوبائية التى يهملها عدد غير قليل من صُنَّاع القرار.

عن الأسباب، أولاً:

(أ) **العوامل الخارجية وهى التى لا خلاف عليها**: ذلك أن موازين القوى العالمية، وكذا الإقليمية تلعب دورها الطبيعى فى تكوين الأمور حسب مصالح المراكز الأكثر قوة ونفوذا وإصرارًا.

ثم هناك موضوع سيطرة القوى الصهيونية على وسائل الإعلام العالمى باعتراف الجميع دون انفعال ولا مبالغة، مما يجعل من أمر عالمنا العربى أسوأ بكثير من سائر مناطق الشرق الحضارى، وكذا عالم الجنوب.

إن هذه العوامل معروفة ومعترف بها، وإذ كان هناك فوارق هامة فى تقدير فعاليتها.

(ب) ماذا إذًا عن العوامل الداخلية التكوينية لأرضنا العربية؟ ماذا نقول عن تزاحم العديد من الدول على نيل رضا قوى الهيمنة التى تحاصرنا، مما يترتب عليه مجموعة من النتائج السلبية تبدأ بتصور أن لأمتنا العربية حلفاء فى مراكز الهيمنة حتى تنتهى إلى التباكى على عصر الهرولة باعتبار أنه ليس فى الإمكان خير مما كان؟

ماذا تقول الشعوب العربية عن إهدار طاقات العرب، خاصة ثروات البترول، فى مجالات التبذير غير المنتجة، وكذا تهريب القسط الأكبر من عوائد النفط إلى مصارف الغرب وملذاته؟ ماذا ـ مثلاً ـ لو تم جمع كلمة أمتنا العربية بغية استخدام كافة طاقات العرب لتحقيق تنمية شاملة تحقق قوة الوحدة العربية وتعمل على تحديث المجتمعات

العربية على أساس يجمع بين إرث التاريخ وتحديات العلم والتكنولوچيا المعاصرة، وكذا تنشر العدالة الاجتماعية بين الجماهير الواسعة؟

ماذا عن نشر ركائز الديمقراطية الحقيقية، أى مشاركة الجماهير الشعبية الواسعة فى اتخاذ القرار فى كل مستوى، ومراقبتها لكيفية تنفيذ القرار، ثم الإفادة من ثمار تنفيذ القرار فى حياتها اليومية وتأمين مستقبلها؟ سيادة القانون هى الأساس، مبدأ فريد من تأكيد مبدأ المواطنة فوق أى اعتبار اجتماعى آخر يهدف إلى تأكيد وحدة المجتمع القومى والأمة. ومن تواكب المواطنة والديمقراطية يكون تأكيد حقوق الإنسان فى أمتنا، بحيث تنال شعوبنا العربية ما يحق لها من التفاف العالم إلى مصالحها، واهتمام القوى المحركة للعالم لإنجازات العرب، وإدراك القوى الصاعدة الجديدة لقيمه، وخصوصية إسهام الطلائع العربية فى صياغة العالم الجديد.

ما العمل، كيف يمكن فتح النوافذ للمشاركة الفعالة؟

أولاً: المبدأ العام هو أنه لا يمكن التعبير عن إسهام أمة أيًا كان نظامها فى عصر تاريخى أيًّا كان ـ خاصة فى عصرنا الحديث حيث تنتشر الأخبار والتجارب بأسرع من سرعة البرق ـ إلا ابتداءً من القوة الذاتية لكل أمة. وهذه القوة الذاتية هى ناتج مجموعة الجهود الاجتماعية والفردية فى كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية، وهذا الناتج القومى لا يمكن أن يتحقق إلا لو تفتحت أبواب المشاركة بشكل مستمر ومنظم وعادل أمام كافة القوى السياسية، وكذا كافة مدارس الفكر والعمل التكوينية على أرض الوطن والأمة.

هذا هو سبيل تحقيق «التراكم الوطنى» الذى دعونا إليه دون كلل، والذى لا يتحقق بالأمانى والبيانات والتصريحات المطمئنة، وإنما سبيله الأوحد هو الجمعية الوطنية المتحدة بوصفها أداة التعبئة لصيانة الديار، والإعداد لمشروع قومى حضارى فعال.

ثانيًا: عندما تتحقق هذه الشروط الأولية المبدئية ويرتفع مستوى تعبئتها فى بوتقة الوطن والأمة يصبح من الممكن طرح تساؤل: كيف نضع حدًا للتغييب ونحقق لوجودنا وإنتاجنا وإبداعنا مكانة معترفًا بها.

عندئذ، عندئذ فقط يمكن أن تثمر جهود التعريف بما نحققه على المستوى العالمى. رغم العوائق والحواجز وخطط الإجهاض. وهذا ما تحققه اليوم آسيا فى المقام الأول، وكذا أمريكا اللاتينية تدريجيًّا جنبًا إلى جنب مع صحوة أوروبا.

لن ينصفنا إلا أنفسنا: هذا بيت القصيد.

ليس هناك مفتاح سحرى، ولا وصفة جاهزة، ولا منقذ ملهم يملك مفاتيح المستقبل.

أبواب المستقبل لن يفتحها إلا الفاتحون.

قال صاحبى: «شىء غريب حقيقة. أراك تقول كلامًا واضحًا! ربما لا يختلف عليه أحد، على الأقل بين عقلاء الأمة. حسنًا.. كيف إذن تفسر أن الأوهام ما زالت حية ترزق، أوهام أن رفع مستوى أداء العلاقات العامة والمجاملات هو السبيل لنيل حصتنا ومكانتنا؟ هل أصابنا الإرهاق بعد المسيرة الطويلة؟ أم أننا ما زلنا نعيش على مفاهيم وتصورات عصر مضى؟...»

۞ ۞ ۞

obeikan.com

ـ ١٣ ـ

الوفاء للمستقبل

رسالة رأس السنة تستوجب الاختصار، تهدف إلى التأمل يدًا فى يد.

نظرة سريعة إلى حشد التحليلات التى تتدفق ساعة بعد ساعة حول تقويم ١٩٩٦، وبوادر العام الجديد، تعكس القلق بعد ما أصاب العالم من تقلبات هائلة غير مرتقبة فى المرحلة الأخيرة. القلق، أو على وجه أدق: شعور بانفصام الرؤية وصعوبة التنبؤ بما هو قادم، مما يساعد على انتشار سحابة رمادية غير محددة المعالم ولا المذاق.

ولا داعى هنا إلى تكرار المعانى المشتركة بين غالبية الناس وكذا الخبراء.. والمفكرين. انهيار نظام التوازنات العالمية لمصلحة مركز مهيمن واحد مرحليًّا.. انتصار اقتصاد السوق، فى الوقت الذى تتزايد الأزمات المترتبة على انتشار قيم الجشع والنهم على حساب تقاليد التضامن الاجتماعى ومعانى الإخاء والمشاركة. تأزم بل ونهاية العديد من الأيديولوچيات والأفكار الموجهة للحياة والقيم التى تضبط الصراعات والتناقضات، فى وقت صعود الأصوليات القومية والعرقية والدينية بل والحضارية ـ كما يدعو البعض.

انتشار سيطرة التكنولوچيا والمعلوماتية على الفكر العلمى والعمل الواعى، خاصة بواسطة إخضاع العقول والأفئدة بواسطة رسائل الإعلام السمعية وخاصة المرئية، هذا فى نفس الوقت الذى تعود فيه القومية إلى التأجج وكأنها الدرع الواقية المشتركة للجميع ضد مخاطر ذوبان الخصوصيات.

الحنين إلى معانى الدين والفلسفة والقيم الأخلاقية فى نفس الوقت الذى بلغ فيه الفكر العدمى أوجه، أزمة الشباب أمام الطريق المسدود فى مجال العمل والسعادة

وتحقيق الذات، فى الوقت الذى ارتفع كم الإنتاج وإمكانات المشاركة فى ثماره إلى أرفع المعدلات. تفاقم الهوة بين قلة من الدول المتقدمة، بل وبين أقلية ضئيلة فى كل منها من ناحية، وبقية الإنسانية من ناحية أخرى.

ليست هذه الساعات النادرة التى تتشابك فيها الآمال والعيون والأيادى مناسبة لرصد السلبيات، وإنما هى بكل تأكيد لحظة التأمل فى كيفية العبور، وفتح أبواب لمستقبل واقعى يسوده الأمل والإنجاز، هذا فى اعتقاد الناس هو معنى الاحتفال بعيد رأس السنة، عيدًا لتجديد الحياة بالرغم من كل حصار.

كيف يكون الأمل بالرغم من الإحباط؟

كيف يكون الغد بالرغم من السدود؟

كيف نستعيد الابتسامة؟

شىء ما حدث خلال عام ١٩٩٦، يشير إلى الإجابة الممكنة بل والواردة، أعترف بأننى لم أشاهد فيلم «ناصر ٥٦»، وقد أتعبنى الوقوف فى طوابير التذاكر، ولكننى شاهدت، شاهدنا كلنا، احتشاد جماهير مصر والأمة العربية عبر شاشة التلفزة، يومًا بعد يوم لتأمل معانى حرب السويس منذ ثلاثين عامًا، ومحاولة النفاذ إلى شخصية جمال عبد الناصر التى تحولت بالنسبة لجيل الشباب إلى أسطورة غير واضحة المعالم بعد ما دار حول صاحبها من جدال وتفنيد بل وتنديد، وعلى كل حال، محاولة عالمية لتغييب ثورة مصر منذ الأربعينيات حتى العبور، شعرت بأن وجدان مصر بخير ما زال يؤمن بالوفاء حتى بالنسبة للأمل الجريح، والمشروع المتأزم. كان السؤال ـ وما زال ـ من كان الرجل الزعيم؟ كيف كان شعب مصر والأمة العربية؟ ماذا دفع إلى أعمال فاتحة غير مرتقبة؟ أين مفاتيح الوثبة؟ ثم أين أسباب الانكسار؟ هذه التساؤلات، وأخرى تمت إلى مجال دراسة الشخصية وكذا تاريخ العلاقات الدولية آنذاك، تراكمت فى أذهان الملايين الذين سعوا إلى فهم الظاهرة، وكذا، نعم إلى التعبير عن وفائهم للأمل الكبير والحلم الذى لم يضع.

ثم لاحظت عملية مواكبة أقل بروزًا ولا شك، وإنما لها دلالتها بكل تأكيد، ألا وهى إدراك المغزى الحضارى لحرب أكتوبر والاعتراف بمكانة قائدها الأعلى أنور السادات، بالرغم من إجهاض ثمار الحرب السياسية وتفكيك الاقتصاد باسم الانفتاح.

وفى الوقت ذاته عادت شخصية الخديوى إسماعيل إلى الظهور، وتساءل العديد من مشاهدى البرامج المسرحية والتليفزيون عن أسباب تغييب الرجل الذى حاول استعادة مشروع محمد على العظيم بين ١٨٦٣ و١٨٧٩ وأقام الإمبراطورية المصرية من جديد، ثم أنشأ أول مجلس نيابى برلمانى تمثيلى خارج العالم الغربى، وفى العالم العربى، بل وفى الشرق الحضارى قاطبة، فى آسيا وإفريقيا، فى ديار مصر، مما دعم مطالب الحركة الوطنية بين صفوف الجيش والرأسمالية الوطنية، فما كان بأوروپا إلا أن دفعت تركيا إلى إقالته عام ١٨٧٩، مما فتح الأبواب أمام ثورة ١٨٨١، ومن بعد هزيمتها عصر الاحتلال البريطانى.

تراكمت التساؤلات: ماذا عن إنشاء الجامعة المصرية باسم «جامعة فؤاد الأول» ومعها كوكبة الجمعيات العلمية المصرية فى الزراعة والجغرافيا والعلوم؟ ماذا حدث يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ بالضبط؟ من هم باشاوات مصر من محمد على إلى فاروق؟ كيف كانت حياة الناس والصفوة، الريف والمدن خارج القاهرة، وكذا أحوال العاصمة، وكيف ازدهرت واستمرت بالرغم من الحروب والاحتلال فى فترة الازدهار والتأزم.

موضوع عملية التنقيب الثرية التى يحققها الدكتور يونان لبيب رزق أسبوعًا بعد أسبوع؟ ما هى قصة آثار مصر؟ ومحاولة الحفاظ عليها واستردادها على أيدى كوكبة من رواد علم المصريات الوطنيين من أحمد كمال إلى اليوم؟ تلك الملحمة التى وجدت فى شادى عبد السلام خير شاعر يعبر عنها فى فيلم «المومياء» الفريد؟ وعبر هذا كله، عادت ذكريات ثورة ١٩١٩ ومكانة الوفد المصرى فى بناء مصر المستقلة الديمقراطية، ودوره الفريد فى تحقيق الوحدة الوطنية من أوسع الأبواب، وفى أعماق النفوس، وكذا الحياة العامة حول قيادة الأعلام: سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس ومكرم عبيد، وكذا، وكأنها موجة واحدة للحنين.. واستعادة مسيرة أجيال الحركة الشيوعية المصرية منذ العشرينيات ـ خاصة فى موجتها الثانية منذ الأربعينيات، ودورها الريادى حول شهدى عطية الشافعى فى صياغة الخط العام لثورة مصر، ومشروعها المستقبلى، وتكوين نخبة فريدة من الطلائع السياسية والفكرية المشرقة الفاتحة.

الكلام يطول، ولكن المعنى واحد، ألا وهو الوفاء، أى الاعتراف بجميع الروافد التى صاغت نهضة مصر المرئية والمعاصرة عبر سيل من الطعنات والتناقضات كادت

تقضى عليها، وما زالت تجهض ثمارها. على هذا النحو كانت «مناهج الألباب المصرية» فى عصرنا، وهى التى تغنى بها الشيخ رفاعة الطهطاوى منذ قرن، وما زالت تصنع تاريخ الأمة وتصون استمراريتها فى عصر التقلبات.

وكنت أود هنا أن أعرض لبعد أهم بكثير من شعور الوفاء للماضى القريب، ألا هو معنى الوفاء لتاريخنا الحضارى منذ أقدم العصور وكيف يكون التعبير عنه فى يومنا وغدنا، ولكنه موضوع واسع الأرجاء لا بد من إفراز عدة أبحاث لتفهم مناهجه بما تحتاج إليه من صبر وأناة وعناية. وقد رأيت أن أنوه به هنا بحيث ننتبه إلى البعد العميق لتركتنا الحضارية التى تحتاج منا إلى بذل قدر هائل من الوفاء، وهى التى صاغت وما زالت تحرك فى الأساس أركان شخصيات ومناهج سلوكنا حتى اليوم.

فهل يكون الوفاء للماضى وحده؟ أم أن هناك مفهومًا آخر للوفاء وجهته المستقبل؟

الوفاء للمستقبل: كيف يكون ما دام لم يتحقق بعد؟

لا بد أن نقر بادئ ذى بدء بأن الوفاء لإرثنا الحضارى وإنجازات تاريخنا الحديث لا يمثل عبئًا يصد أبواب الغد وكأن التراث الحى على نقيض مع العمل والتجديد والتنقيب والإبداع. ذلك أن الوفاء لا يصدق إمكان تحقيق الممكنات الكامنة ولا التصورات المستقبلية، ما دام هو رصيدًا يدعم القرار والتحكم، أى لو عرفنا كيف نصل بينه وبين الوفاء لما تحقق من ناحية، وضرورة منح الأولوية بإصرار لما يجب أن يتحقق لصياغة المستقبل. وعندنا أن هذه العملية أو ذلك التحدى يمكن أن يتم لو نظرنا إلى الوفاء على اعتبار أنه احتياطى لما هو ممكن. احتياطى وليس بديلاً، أى أن التمسك بواجب الوفاء ليس هدفًا فى حد ذاته، وإنما خطوة نافعة فى طريق التقدم.

من هذا الموقف يمكن الدعوة إلى الاهتمام بعدد من العوامل الفاعلة والتحديات تفرض نفسها على ساحة الاهتمام من حيث إنه لا يمكن تحقيق مساحة معقولة للأمل المستقبلى إلا من خلال دراستها بعناية والالتفاف إلى خطورتها بحيث يمكن الإجابة عن السؤال الملح: كيف يكون الوفاء للغد؟

١ ـ نقطة البدء دومًا هى: دعم الوحدة الوطنية، على أساس المواطنة والمشاركة الفاعلة فى جميع معانى ومجالات تطوير المجتمع فى دائرتيه الوطنية والقومية، ومعنى ذلك أن الدعوة إلى ذوبان خصوصية مصر وكذا أمتنا العربية فى قالب السوق العالمية

وباسم الكوكبية بوصفنا «قرية واحدة» تمثل أخطر وسيلة لنشر الضعف بين صفوف الوطن والأمة، إن واجب الوفاء للمستقبل يفرض على كل مواطن أن يكون الحارس الواعى اليقظ لخصوصية وطنه وأمته، حرصًا على دعم استمراريتها وقدرتها على الإفادة من جميع الطاقات العاملة والكامنة لبناء الداخل، وكذا التعامل مع العالم الجديد.

ويترتب على هذا الموقف المبدئى أن إهمال معانيه بل والتنكر له معناه تقويض أركان الوفاء للمستقبل وإجهاض الأمل.

٢ ـ ثم يأتى دور التعامل مع العالم الجديد من الأبواب، على أساس من الوعى الدقيق بحقائق الأمور. وهنا لا بد أن نفهم أن حقائق أمور الدنيا لها ماض ولها مستقبل، وأن حاضرها ـ أى حالتها الراهنة ـ لا تمثل إلا واقعًا مرحليًّا يمكن وصفه، نعم ولكنه لا يمنحنا فهم خصوصيته، وكذا محاور تحركه المستقبلى على تنوعها وتباينها، من هنا كانت دعوتنا المرة تلو المرة إلى العناية بدراسة صياغة خصوصية كل عامل ذى شأن فى المجتمع الدولى بدءًا من المصادر والدراسات الذاتية بدلاً من الاكتفاء بالعلاقات العامة الدولية، وكأنها حقيقة دراسة للعلاقات والاعتماد على ذكريات الرحلات والمناسبات، العمل العلمى الجاد دون العلاقات العامة، هكذا فقط يمكن الاقتراب من فهم الصين واليابان وڤيتنام والهند وإيران، وكذا الدول العظمى المعاصرة، خاصة الولايات المتحدة، باب واسع نعرض له بالتفصيل فى كتابات تالية، وإنما الأمر الملح بالنسبة للوفاء المستقبل، مستقبلنا الوطنى القومى الحضارى فى قلب صياغة العالم الجديدة يقتضى أن ننتبه إلى ضرورة تعدى الدراسات الجادة لواقع الأمور كما تبدو الآن، وكذا مستوى العلاقات العامة السطحية بعد أن اكتسبت رواجًا واسعًا فى عصر السوق وسلوكياتها، هكذا فقط يمكن أن «يدعم كل ما هو عالمى كل ما هو وطنى»، كما فعلت اليابان فى نهاية القرن التاسع عشر، ثم الصين فى عصرنا، وهى التى صاغت هذا الشعار الواقعى الجرىء بعد انتصار ثورة التحرير.

٣ ـ ثم يأتى اختيار عدد من القضايا التى تتحكم فى فتح أبواب الأمل، أى الوفاء لمستقبل، لو أدركناها وعرفنا كيف نمنحها ما تستحقه فى سلم الأولويات، وكيف نفيد من تواكب اهتماماتنا بما يشغل بال الشركاء فى عالم الشرق والجنوب خاصة بهدف مضاعفة قدراتنا.

عدد من القضايا تبدو متفرقة لا يجمع بينها رباط واضح منهجى أو علمى. مسألة المياه مثلاً، بوصفها مفتاح الحياة لشعب مصر، التعليم حيث تجتمع خيوط العلوم العصرية بدراسة تاريخنا الحضارى، وكذا تجارب أهم دول العالم التى شقت طريق التقدم عبر العصور، خاصة منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى أعتاب القرن الحادى والعشرين، قضية القضاء على المجاعة وضمان الغذاء لجميع الشعوب، وما يستوجب ذلك من إعادة ترتيب قيم مجتمع الاستهلاك والبذخ التى نقلدها دون تردد ولا حياء، ثم ضبط الاندفاع إلى العدوانية، خاصة فى المجال الدولى، وهو الأمر الذى يقتضى فى المقام الأول العمل على التخلص من التسليح النووى، كما دعا إلى ذلك رئيس أركان القوات الجوية السابق الچنرال ليبيد مستشار الأمن القومى الروسى السابق عام ١٩٩٦، على اعتبار أن الاحتفاظ بترسانة نووية لدى الدول الكبرى يفرِّغ أية معاهدة للحد من «انتشار الأسلحة النووية» من أى معنى، وهو التوجه الذى يعنينا فى المقام الأول ما دمنا نواجه التهديد النووى على حدودنا.

القائمة تطول، وقد تختلف الأولويات، المهم أن نتأمل أمور الدنيا فى هذه الأيام التى نحتفل بها بالانتقال إلى عام جديد، وأن ندرك كيف أن مصير كل ما نسعى إليه ـ خاصة ما تعارفنا على تسميته بنجاح «المشروع الشخصى» ـ مرهون بدوائر وعوامل أوسع بكثير.

أى فى كلمة: لم يعد هناك مجال مفتوح دون حدود ودون حساب لتبديد ما هو متاح لنا اليوم لو أردنا أن نصون الغد، لو كان الوفاء للمستقبل، المستقبل القريب وكذا ما يمكن أن يليه من تحقيق أحلام ورؤى، نقول: لو كان الوفاء للمستقبل معنى لا يزال حيًا فى قلوبنا كما دلت عليه عدة أحداث ذات مغزى خلال عام ١٩٩٦.

لو كنا نريد حقيقة أن تصدق نياتنا إذ نحيى العام الجديد: صباح العام الجديد يا مصر!

قال صاحبى: «بالأمس كنا معًا فى حديث الذكريات وكيف ـ أنك ـ أننا قضينا معًا أسبوعًا نيرا فى أسوان حول الوالدة. أحب أصدقاء العمر فى نفس هذه الأيام. منذ عشر سنوات تمامًا نحتفل بنهاية عام ١٩٨٦ وبدء العام الجديد.. ترى هل من علاقة بين هذا كله وموضوع الوفاء فى عالمنا الجديد؟

ـ ١٤ ـ

فلنرفع عاليًا ألوية الوطن والأمة!

عقارب الساعة تدور، تدور.. منذ أسابيع فى نهاية مايو ١٩٩٧ رأى مشهدًا واحدًا بعد إعلان «الشراكة الإستراتيچية بين الصين وروسيا» فى موسكو يوم ٢٣ أبريل ١٩٩٧ نشرت «چين مين جى باو» «جريدة الشعب اليومية» لسان حال الرئيس الشيوعى الصينى، كبرى صحف الصين، افتتاحية الرئيس «زيانج زيمين» رئيس الجمهورية والحزب، يعلن فيها: «يجب أن يكون التركيز على تقوية الروح الوطنية!».

«الروح الوطنية!!» ماذا يعنى هذا الكلام «السلفى» فى عصر سيادة السوق، ونهاية الأيديولوچية فى كافة أرجاء «القرية الواحدة» ما هذا الهراء حقيقة؟

وهل تعود عقارب الساعة إلى الوراء بعد هونج كونج؟

إن حماس مليونيرات هونج كونج من المنتجين فى مجالات البناء والإلكترونيات والتجارة الدولية وصناعة السفن، وكذا رؤساء المصارف المندفعين إلى الاستثمار فى الصين، حماس يواكب حماس الشارع الصينى فى هونج كونج من أوسع الأبواب، حسنًا: لا خلاف على هذا الأمر، رغم أن دعاة الغرب فى عالمنا المعاصر ينتظرون ساعة بعد ساعة ـ ولا نقول يومًا بعد يوم ـ أن يتزعم قادة العداء لجمهورية الصين الشعبية على أرض هونج كونج حملة صليبية جديدة باسم «الديمقراطية» التى «اكتشفتها» بريطانيا العظمى خلال السنتين الأخيرتين من ولايتها للجزيرة، وكذا يصبح اسم «مارتين لى» هو الذى يتردد يومًا بعد يوم فى الصحف الغربية، مع أصداء عربية محدودة، فى انتظار الفرج، الفرج أى: استفزاز سلطات هونج كونج إلى منع المظاهرات، أو إجراءات قمعية فى حالة اعتداء أنصار الديمقراطية على رموز ومؤسسات الدولة.

obeikan.com

أين حقد عصابات المافيا، وقبلها وقوعها فى دائرة الفكر والعمل الصهيونى للسيطرة على الإعلام الغربى قاطبة؟ لماذا يثور أصحاب الأقلام المرموقة ـ ومعظمها يهودى الأصل، عنصرى صهيونى التوجه ـ ضد هذا العمل الذى يبدو بعيدًا عنهم؟

ـ إن عودة هونج كونج إلى سيادة الوطن الأم، وفرحة الشعب والكادر الإدارى والسياسى، ورجال المال والأعمال والاقتصاد والصناعة فى هونج كونج بهذا الحدث معناه عودة العنصر الوطنى، القومى، بوصفه العنصر الفَعَّال الأول فى مجال السياسة الداخلية، وكذا فى مجال السياسة العالمية، على عكس الأكذوبة الكبرى التى رفعها مفكرو ودعاة النظام العالمى أحادى البعد حول المركز الصهيونى ـ الأمريكى، رجال الكوكبة المنادون بأننا أصبحنا «قرية واحدة» يحكمها هذا المركز إلكترونيًا من بعيد، عن طريق عملائه المضاربين فى صفوفنا.

وهنا يجب مواجهة منطقة غامضة بصراحة ودقة، ذلك أن جبهة التحرر الوطنى ومعاداة الاستعمار تمحورت حول اتجاهين رئيسيين: فهناك من ناحية أنصار الوطنية والقومية، والجبهة الوطنية المتحدة على وجه التحديد، أى سيادة عامل «الأمة» على أى عامل آخر فى مجال التأثير والعمل، ومحور آخر رأى أن الطبقات الشعبية المغلوبة ـ خاصة الطبقة العاملة ـ هى العنصر القائد الذى يجب الارتكاز عليه فى معركة التحرير.

ورغم زلزال الأربعينيات، لم ينتبه أنصار الرأى الثانى إلى مغزى تحرير الصين وإقامة جمهورية الصين الشعبية، وتسمية جيش التحرير بجيش التحرير الوطنى، وتسجيل كل ذلك فى دستور جمهورية الصين الشعبية وبرنامج الحزب الشيوعى الصينى القائد، متصورين أن يوم ١ أكتوبر ١٩٤٩ يمثل انتصار الطبقة العاملة وإعلان الحكم الشيوعى وفوز النظام الاشتراكى فى الصين، بينما كان الأمر يمثل المرحلة الأولى، الرئيسية، أى: التحرر الوطنى الكامل على أيدى جبهة شعبية وطنية واسعة بقيادة الحزب الشيوعى الصينى الذى استمد أيديولوچيتة من تواكب الفكر الاشتراكى المعاصر الماركسى اللينينى / مع فكر «ماو تسى تونج» وريث فلسفة الكونفوشية والتاوية الحضارية الصينية على وجه التخصيص، وهى جوهر أيديولوچية الحزب فى واقع الأمر.

وكذا لم ينتبه العديد منهم إلى مغزى انتصار القوى الوطنية التقدمية فى ثورة كوبا، (١٩٥٩).

ولا قيادة الحزب الشيوعى الڤيتنامى / لحرب التحرير بربع قرن حتى توحيد ڤيتنام والنصر (١٩٧٣).

بينما ظلت جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية ـ أى كوريا الشمالية ـ بعيدًا عن الأنظار والتحليل.

وما أن تم تفتيت الاتحاد السوڤييتى من الداخل، وتفكيك المعسكر الاشتراكى الأوروپى، حتى كاد الرأى يجتمع بين القوى المحافظة واليمينية بين القطاع المتغرب من اليسار معلنًا نهاية الاشتراكية وضرورة الواقعية والتعقل وتفهم الأمور، وكيف أنه بعد «نهاية التاريخ» لم يعد من تاريخ إلا السوق الرأسمالى، وقد أضاف أنصار الاشتراكية بالأمس أنه سوق لا بد أن يحاط هذا النظام بضمانات اجتماعية كافية للشعب العامل، أما أولية التحرر والاشتراكية التى ترفرف اليوم على ما يقرب من ٤٤ ٪ من المعمورة، حول الصين فهى وكأنه أمر شاذ، يمت إلى تاريخ الأصنام القديمة، وهنا وجد بعض مفكرى هذا التوجه فى عودة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أو الاشتراكية اليمينية، أو أحيانًا الأحزاب الوطنية التقدمية إلى الساحة والحكم فى أوروپا الغربية والشرقية ما يشجع إلى التفاؤل، فهذا هو الوجه «المقبول» للاشتراكية، وقد عادت إلى دائرة العالم الجديد، عالم السوق العاقل، بعيدًا عن عصر الثورات وتواكب التحرر بالاشتراكية كل شىء يدور فى هدوء، بحيث لا يهدد ـ ولا حتى من أبعد البعيد ـ ميزان القوى العالمية، أى نظام العولمة الصهيونى ـ الأمريكى الذى تبدى وكأنه مانح التوكيلات والسمعة والشهرة والجوائز وإمتاع الشهوات.

إن تفجير فكرة الأمة الواحدة والنظامين حول عودة هونج كونج إلى الوطن الأم بدأت فى لحظة تفجرت فيها عدة ظواهر أخرى فجأة :

(أ) قرار كوريا الشمالية بالتعجل فى محادثات الوحدة مع كوريا الجنوبية، بمشاركة الولايات الأمريكية المتحدة والصين، وذلك بعد فترة من التحدى أو التباعد حسب الظروف إلى حد أن جمهورية كوريا ـ أى كوريا الجنوبية ـ قد أصبحت الآن فى حيرة

من أمرها وهى تواجه بإيقاع الوحدة التى لا مفر منها ولا من تكاليفها الباهظة ماليًّا وسياسيًّا وإستراتيجيًّا.

(ب) دخول كل من الهند وباكستان إلى مستوى المحادثات الودية لتطبيع العلاقات بينهما، ومعالجة مسألة كشمير دون اللجوء إلى الحرب، بينما كانت كشمير سببًا فى حربين داميتين منذ الستينيات، وفى تقديرنا أن كشمير سوف تحصل فى مستقبل قريب على نوع من الاستقلال الذاتى لما تقدم، ربما يكون همزة وصل فى اتحاد كونڤيدرالى بين دول نصف القارة الهندية «الهند، باكستان، بنجلاديش، سيريلانكا، كشمير، نيبال، بوتان» تدخل باسمه الهند من الباب الواسع إلى كوكبة دائرة العولمة الجديدة حول محور الصين ـ روسيا، بشكل فاعل ومؤثر، جنبًا إلى جنب مع اليابان ودائرة الإسلام المركزية الإيرانية ـ العربية.

(ج) تصاعد موجة التقارب بين جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية (السوڤييتية سابقًا) وتقاربها من إيران فى المقام الأول، وكذا إلى تركيا فى عصر أربكان، وباكستان، وذلك استشعارًا منها بأن الرابطة القومية ـ الثقافية ـ الحضارية هى التى يمكن أن تجمع بينهما، فى غياب ثقل عامل الأمة الموحدة بشكل واضح، بما أن هذه الجمهوريات بها غالبية قومية وأقليات كثيرة ـ وخاصة روسية ـ من السكان.

(د) انطلاقًا من الحركات الثورية فى وسط إفريقيا، حول انتصار الرئيس «قبيلة» فى جمهورية الكونغو الديمقراطية، ظهور فكرة التقارب والتنسيق نحو الوحدة بين معظم هذه الدول الثرية القوية حول بحيرات أمريكا الاستوائية الكبرى: أوغندا، الكونغو ـ خاصة ـ وبين الثورة إلى ساحل الأطلنطى عبر جمهورية الكونغو. هذا فى الوقت الذى تتقارب فيه هذه الدائرة الوسيطة لإفريقيا مع دائرة جنوب إفريقيا بقيادة مانديلا.

(هـ) اتساع دائرة دول الـ«آسيان» فى جنوب شرق آسيا، وذلك بضم لاوس بعد ڤيتنام إلى عضويتها، وقبول عضوية كمبوديا ميانمار (بورما) مبدئيًّا، أى أن هذه المجموعة القوية المتصاعدة فى جنوب شرق آسيا تتجه إلى التغلب على كل العوائق والمصاعب والتناقضات فى سبيل إيجاد دائرة يمكن أن تواكب اليابان وكوريا شمالاً فى الجنوب، أى فى جنوب الدائرة الصينية المركزية، وتكون مركزًا لنظام العولمة الجديد.

(و) وكذا فإن عملية التقارب بين الدول الأوروبية ـ التقارب، ولا نقول الوحدة ـ تمضى على طريق الأشواك، ولكنها لا تنكسر. ولعلها تجد فى عنجهية واستفزاز التحدى الأمريكى ما يضطرها اضطرارًا إلى التقارب والتعجيل.

ولكن الأمر هنا ملبد بالألغام، بعيد المنال، مجرد هدف بعيد

(ز) أما فى أمريكا اللاتينية وخاصة الجنوبية فإن دائرة الـ «ميركوسور» تجمع البرازيل والأرجنتين وأورجواى، وقد بدأت تتسع إلى شيلى. وبدأت تظهر معالم دائرة أخرى فى منطقة بحر «الكاريبى» محورها فنزويلا ـ وتشمل كذلك كوبا.

إنها تجمعات إقليمية مهمة بعيدة على أنظارنا ما دمنا نحن بعيدين عن العالم منغلقين على «مسيرة» مصيرها الإفلاس والفشل.

عرضت منذ قليل للمدرستين الرئيسيتين للفكر والعمل فى حركتنا الوطنية المصرية العربية، وكذا فى عالم الجنوب.

نقول: الاتجاهان الرئيسيان منهما ـ رغم التباين، وأحيانًا التناقض ـ عملا يدًا فى يد، فى جو من الإصرار لبلوغ مرحلة الاستقلال والدخول فى مرحلة التنمية والثورة الاجتماعية بشكل أكيد. أى أن التباين ـ وهو أمر ضرورى ـ لم يؤدِ أبدًا إلى تفتيت الجبهة الوطنية المتحدة.

وفى اللحظة نفسها تكونت نواة ضئيلة العدد، ذات نبره رفيعة، وإمكانات غير مفهومة تتنكر لتوجه مختلف قوى الجبهة الوطنية المتحدة باسم «الثورية» معلنة أن العدو هو الأمة، وأن القومية هى عائق التقدم، وأن الحركات الوطنية وهم وهذيان...

ما العمل؟ ما الحقيقة إذن؟ الحقيقة هى: القضاء على الأمة، التخلص من القومية، رفض انحراف الجبهة الوطنية المتحدة... وكذا إعلان الثورة العالمية وأيديولوچية الكوزموبوليتية، ذلك أن الدول المستقلة ـ بعد مرحلة الثورات الوطنية التحررية، بل والدول المستقلة التى حققت قدرًا واسعًا من أهداف الثورة الاجتماعية، بل وكذا الدولة التى قادت مسيرتها الأحزاب الشيوعية فى الصين وڤيتنام وكوريا الشمالية وكوبا وإلى حين فى أنجولا وموزمبيق وإثيوبيا ـ تمثل عين الردة، بل إنها هى العدو الحقيقى!..

وفى الوقت الذى ترتفع فيه نبرة الواقعية والاتزان فى صحافة إنجلترا نفسها، وبينما تشتعل النبرة العدوانية الإسرائيلية الصهيونية ـ الأمريكية على وجه التخصيص نرى أن صحافتنا العربية ـ والحق يقال فى معظم الحال ـ مؤيدة متفهمة لانتصار القومية الوطنية فى عودة هونج كونج إلى الوطن الأم، اللهم إلا بعض أصوات النشاز التى تغالى ـ نعم ـ على أصوات المحافظين فى الغرب، وتتبارى فى التنكر لما تم مع أشرس أقلام الصهيونية عميلة الإمپريالية، وإلا، فكيف يمكن أن نصف ـ أو حتى نتفهم ـ عبارات غربية دخيلة ظهرت فى سماء بعض وسائل الإعلام الثرية العربية، مقالات معدودات تتحسر ـ نعم ـ على الاستعمار الراحل ـ باسم الديمقراطية، بل وباسم سكان هونج كونج البؤساء وقد تركز غضب هذا النفر القليل من «الثوريين» الحاقدين على دخول وحدات جيش التحرير الشعبى الصينى إلى هونج كونج «ليحل محل» جيش الاحتلال البريطانى ٤,٥٠٠ تعداد اللواء فى مقابل فرقة الاحتلال وقوامها ١٠٠٠٠ بريطانى بالإضافة إلى الأسطول والطيران. يا للهول! العسكريون الصينيون يدخلون أرض الصين!.. أفلم يكن من الأرفق مثلاً أن ترسل الصين وحدات من «الكشافة» أو راقصى الباليه أو ربما الإسعاف كى تسد الفراغ الذى تركه اللواءان البريطانيان فى وجدان الشعب الصينى؟...

ثم كيف يمكن مواجهة «الفراغ» فى عالم الاستخبارات والجاسوسية؟ كيف يمكن تفادى الفوضى؟

هذا مثلاً «البروفيسور» المسئول عن «برنامج المحيط الهادى ـ آسيا» البريطانى، بعد أن عاش دهرًا كبيرًا لزملاء «المعهد الدولى للدراسات الإستراتيچية» فى لندن، السيد «جيرالد سيجال»، الصهيونى المخضرم.

يتناول مأساة هونج كونج من زوايا التجسس والتخابر: سوف تطارد السلطات الصينية جميع مؤسسات المخابرات الإلكترونية والكوادر البشرية، أى الجواسيس التى وضعتهم بريطانيا، والولايات المتحدة، والدول الغربية الأخرى فى هونج كونج، ثم إن حكومة الصين سوف تدخل مع الفرق الصينية الأخرى على أرض هونج كونج للسعى إلى انتزاع العقود المالية من بكين، استنادًا إلى عمل أجهزة المخابرات الخاصة، هذا بالإضافة إلى معارك حكومة الصين الشعبية على أرض هونج كونج مع عملاء تايوان.

إلى أن يأتى «سيجال» إلى جوهر الموضوع: «سوف تصبح هونج كونج كذلك ساحة مركزية. تمكن الصين من أن تتعلم كيف ترفع من مستواها الإستراتيچى فى منافستها طويلة الأجل مع الولايات المتحدة. سوف تتعلم الصين بفضل هونج كونج كيف يمكن أن تلحق بأمريكا فى مجال العمليات الحربية المتقدمة. وكذا فسوف تركز على هونج كونج لكى ترفع إمكاناتها للاستخبارات الحربية. وكذا سوف تستعمل الصين ساحة هونج كونج كغطاء من الدخان لاستيراد التكنولوچيا الهادفة لأغراض عسكرية. سوف تنتقل، عبر هونج كونج، كميات من الأسلحة المتكاملة، كذا العديد من مكونات وأنظمة التسليح على شكل تصدير هونج كونج إلى الصين... («هيرالد تريبيون» ٢٥ / ٦ / ١٩٩٧).

والطريف أن بريد القراء فى اليوم التالى، (٢٦ يونيو)، فى نفس الجريدة حمل تعقيبًا من السيد «دانيال جروف» من رجال أعمال هونج كونج الغربيين يعلق ويجود:

«إن السيد سيجال - وأنا من المعجبين بكتاباته - يجب أن يعلم كيف أن عددًا كبيرًا من الدول - خاصة جمهورية الصين الشعبية - استعملت هونج كونج مركزًا للتجسس ونافذة لمراقبة العالم الغربى منذ منتصف الخمسينيات، إلى حد أن أجهزة التجسس والمخابرات المضادة الغربية فى هونج كونج أطلقت نكته فى الستينيات تقول: إنه فى حالة تركيب جهاز استماع إضافى إلكترونى جديد فى هونج كونج، فسوف تغرق الجزيرة..» نعم: سوف تغرق لما تحملته من أجهزة مخابرات الأجهزة الغربية بقيادة منظومة دول حلف الأطلنطى - التى تهرول هذه الأيام - وكأنها مصادفة؟...

ما العمل إذن؟ كيف يمكن إجبار المليونيرات الذين يحتشدون حول كبيرهم، حاكم هونج كونج الصينى؟ ياللهول؟

كيف يمكن كسر شعار كبرى مجلات آسيا الصادرة فى هونج كونج. «مجلة الشرق الأقصى الاقتصادية» معلنة على صفحة الغلاف فى ٣ يوليو ١٩٩٧: «هونج كونج: المستقبل هو الآن»؟

كيف يمكن وقف تدفق رءوس الأموال لدائرة المهجر الصينية - وعاصمتها هونج كونج - ثلثى مجموع الاستثمارات العالمية من وإلى الصين؟

obeikan.com

ما السبيل إلى وضع حد لارتفاع أسهم سوق المال ـ يدًا فى يد مع فرحة الناس اللى تحت؟

يمكن تهذيب الأمر؟

إلى أن تأتى الدعوة ـ المفتاح ـ يومًا بعد يوم: أين الحزب الشيوعى الصينى؟ لماذا يخفى تنظيماته وكوادره وقياداته؟ لماذا لا يقدم قائمة بأعضائه؟ لماذا لا يتقدم الصفوف بجرأة؟ إنه وحده الذى يستطيع أن يضبط الأمور ويعيد المليونيرات إلى شىء من الانضباط والأدب والاتزان!...

أى والله: الدعوة يومًا بعد يوم فى الإعلام والصحافة الأمريكية القادمة عبر المحيط الهادى والإنترنت. إلى أن يمارس الحزب الشيوعى الصينى ـ المحظور قانونًا حتى الآن ـ أو ربما لجنة منطقة هونج كونج للحزب الشيوعى الصينى بكامل صلاحياته.. ليضع حدًّا لهذه الفوضى التى تهدد، نعم، تهدد النظام، بل ومصير الاشتراكية. دخلنا فى دائرة اللامعقول، فقدان التوازن أو الهذيان والجنون كما يقول الناس البسطاء، ونحن منهم، نسينا الشيوعية. انتصرنا للرأسمالية. فقدنا الصواب.

ما هذا؟

هل هناك بعد غائب؟

والذى يزعج الأجهزة الصهيونية والمؤسسات اليهودية وكبار المفكرين والإستراتيچيين الأمريكيين، وقطع من زملائهم فى الغرب ـ قطاع. والحمد لله لا يمثل الأغلبية حتى الآن ـ أمام هذا «الصعود الرأسمالى»؟ من أين التوجس بسعادة المليونيرات يوم عودة هونج كونج إلى أرض الوطن، إلى سيادة الصين؟

هل مثلا أن شعار «أمة واحدة، ونظامان» مزعج، يخفى ما هو غير مرغوب فيه؟

هل هناك ما هو أبعد من مجرد هونج كونج؟

هل ترى أن «شعار الجمع بين القوى المشتتة، بفضل الحدود المصطنعة التى أقامها الاستعمار الغربى أيام هيمنته وخاصة فى القرن التاسع عشر، هل أن هذا الشعار المبدع يهدد ميزان القوى العالمى القائم؟ هل الدعوة إلى وحدة الأمة مع الإبقاء على تعدد

أنظمتها فيه ـ مثلاً ـ ما يستثير حركة التوحيد بين القوميات والدوائر الثقافية. وفى قلبها أمتنا العربية، ومن حولها عالم الإسلام الحضارى، مواجهة الهيمنة والعنصرية وسيادة منطق الاحتقار ـ باسم «القرية الواحدة»؟

ثم: هل فكرة الجمع بين الخصوصية والعالمية تمثل صورة جديدة، واقعية، وكذا مساحة رحبه لصياغة عالم جديد هو نهضة شعوب الشرق ووحدتها؟

هل عودة هونج كونج إلى رحاب السيادة الصينية لا تمثل مجرد نهاية عصر الإمپريالية الغربية فى آسيا ـ ثلثى المعمورة ـ أربعين سنة بعد السويس ـ وإنما تتيح أمام مستقبل مشرق، جديد، أمام نهضة تبدأ الآن، تحيط بنا، تتحدى الهمم، ترحب بنا إلى الأمل والعمل من أوسع الأبواب؟

قال صاحبى: «إذن فلنمض إلى طريقنا دون كلل، أليس كذلك؟ سحاب الأطلنطى يحاول أن يلملم شمله العدوانى ليتحرك شرقًا.

وها هى مصر وسوريا والسعودية ـ قلب أمتنا العربية ـ تتعانق، تتشابك ريادتها مع إيران الثورة الشقيق بعد طول خصام، فى عروة وثقى قادمة مع نهضة آسيا، حول الصين...

إلى الصين، لا نقول مبروك، وإنما: شكرًا، نعم، شكرًا لهذه الريادة التاريخية!

ثم: من قال ـ ترى ـ إننا لسنا على موعد مع القدر؟...»

ـ ١٥ ـ
مع من أنتم يا أحباء مصر؟

أسبوع حاسم، مثير، بكل معانى الكلمة.

أسبوع احتفال مليون ونصف من شباب العالم من مختلف القارات والديانات والثقافات والانتماءات السياسية بيوم الشباب العالمى فى باريس، يحيطون ببابا روما «يوحنا بولس الثانى» رافعين شعار «رئيسى متكرر» يتألق بين العديد من الشعارات الفرعية: «أنت شبابا!». شبابنا؟

أليس الشباب متوفرًا فى كل أسواق الاستهلاك والمتعة؟

أم أن سهام الفكر السالب العالمى وما أحدث وتحدثه من نزيف عميق متصل فى وجدان وفؤاد وقلوب الأحباب الجديدة يدفع بها دفعًا إلى السعى نحو الإيمانية، والقيم الأخلاقية، والتوجه الحضارى، فى وجه أدعياء العلم باسم العلمانية، أعداء التحرر الوطنى والقومية باسم الاشتراكية الليبرالية الغربية، أنصار الصهيونية باسم الحداثة.

أسبوع الغدر الذى أحاط بشابين فى مطلع العمر والهيام، فكان اغتيال عماد الفايد والأميرة ديانا على أيدى مجهولين يتسترون وراء حكاية «كاميرات»، وهم المتربصون لأى معنى وأى جسر من معانى وجسور التلاقى بين حضارة الغرب المتأزمة وصحوة الشرق، وخاصة كل ما يمت إلى القطاع المصرى، العربى، الإسلامى.

أدركت الحاسة الشعبية العالمية أنه لا مجال لقصة «حادثة المرور» بعد أن تولت المباحث الجنائية التحقيق المتصل منذ اللحظة الأولى فى جريمة دم أدمت قلوب العالم فى فجر حزين.

أو بعبارة بسيطة يتداولها رجل الشارع: لمن تفيد الجريمة؟ ما هى الجهة التى تفيد من ضرب العلاقات بين إنجلترا والعرب.

العلاقات الطيبة بين العرب وأوروپا، بين الإسلام والدائرة المسيحية، بين الشرق والغرب؟

هذا هو السؤال، وراء بريق حكايات الكاميرات والتباكى على الجمال المطعون....

أسبوع مشرق، مأساوى يدخل سجل تاريخ هذا العام المحورى فى عملية تغيير العالم.

ثم ـ وفى الفترة نفسها ـ بينما يرقب رجال مسيرة التعبئة باسم العولمة، والتطبيع باسم الواقعية، يلهثون، يكتمون أنفاسهم فى انتظار سيدة المناسبات، نصيرة العدو، بينما تستعد أساطيل الولايات المتحدة والكيان الصهيونى ودولة الچنرالات «العلمانيين» الأتراك لمحاصرة العرب ـ فى قلب هذا كله، يحتفل رموز الحركة السياسية القومية «اليهودية» ـ «الصهيونية» ـ فى مدينة «بازل» السويسرية بمرور مائة عام على تأسيس الحركة تلبية لنداء «تيودور هيرتزل»، فيطرحون تساؤلاً مصيريًّا مذهلاً بالغ الدلالة: «هل يمكن لليهود البقاء دون وجود عدو خارجى؟».

يصعد إلى المنصة «أبراهام بورج»، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، النائب العمالى سابقًا فى برلمان دولة الكيان الصهيونية، يتساءل، يحذر، يخطط العدوان، يعلن النص المؤيد:

كانت الدنيا بخير، كما قال الحكماء، بينما الضحايا العرب تتساقط فى فلسطين ولبنان.

كنا فى جولة فى عالم الفكر والفلسفة، قراءات فى صيف مشتعل.

وفجأة تأتى الأحداث لتعيدنا إلى الصواب: وفى قلبها تلك المناورات البحرية الحربية الأمريكية ـ الصهيونية ـ التركية وقد بدأ الإعداد لها، حول هيئة الأركان التنظيمية فى تل أبيب، لتستعرض عضلاتها شمال الإسكندرية فى مواجهة اللاذقية للسيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط.

طبعًا كل هذا باسم «عمليات الإنقاذ» وكذا «الإغاثة»، وما شابه ذلك من الدعايات الباسمة.

«المحيط الحائر» وقد بدأ يمد قبضته الفولاذيَّة لتهديد أمتنا العربية فى القلب ـ وحصار مصر وسوريا على وجه التحديد ـ بين الكماشة التركية «العلمانية» بقيادة الفريق أول «بير» شمالاً إلى تحركات الأقليات العرقية فى حروب أهلية غامضة عبر إعلام نسمع عنها عبر قنوات إعلام متخبط، مبهم، تحيط بالبحيرات الإفريقية الوسطى وكذا بمنابع النيل الأزرق فى إثيوبيا والأبيض انطلاقًا من بحيرة ڤيكتوريا.

كل هذا ونحن ما زالنا «نسير». نسير ونرقب، بل يلهث بعضنا أملاً وراء زيارة الوزيرة الأمريكية التى تهرع إلى المنطقة إنقاذًا للكيان الصهيونى وقد امتدت جذورها العائلية ـ بعد اكتشافها ـ إلى هذا الحنين العارم «السلام»؟ من قال إننا لسنا أنصار سلام؟ أفلا نرى أن السلام الذى «يرتب» لنا بعناية يومًا بعد يوم، بل لحظة بعد لحظة منذ سنوات، هو السلام الذى يفترض ـ بادئ ذى بدء ـ كسر الإرادة والكرامة والوجود العربى حول مصر، وإجهاض إمكانات المستقبل، بواسطة استنزاف طاقات الحاضر، بعد أن بدأت عدة قطاعات من العالم العربى تعيد بناء معانى التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى لم تأت دولة الأركان الصهيونية إلا لتدميرها تاريخيًا منذ سنة ١٩٤٨.

السلام لا يعنى المجاملات، والأحضان، والكوكتيلات الدبلوماسية. السلام معناه: إقرار موازين قوى بين أطراف متصارعة، أو متباينة أو متصادمة فى الأهداف والغايات، السلام مثلاً قام من الناحية القانونية بين جمهورية ألمانيا الاتحادية وألمانيا الغربية من ناحية، وجمهورية ألمانيا الديمقراطية ـ أى ألمانيا الشرقية سابقًا ـ من ناحية أخرى، فى نهاية الأربعينيات. أمة واحدة فصل بينها حائط برلين رمز الحرب الباردة. كان السلام يعنى اللاحرب. لا حرب بين أبناء الأمة الواحدة. واستمرار الأمر هكذا حتى نهاية حائط برلين، ثم توحيد ألمانيا بفضل مستشار ألمانيا رجل الدولة العلم «هيلموت كول» السلام، مرة أخرى، ساد العلاقات بين ألمانيا وفرنسا عبر الحروب الثلاث الدامية التى كادت تدمر شرق فرنسا، وكذا منطقة الرور الصناعية الألمانية بين ١٨٧١ و١٩٤٥. فقد كان هناك سلام بين ١٨٧١ ـ ١٩١٤ لصالح ألمانيا ثم سلام آخر بين ١٩١٩ و١٩٤٠ لصالح فرنسا وإنجلترا، وكلاهما سلام يعنى اللا حرب، بل والعلاقات الدبلوماسية الباسمة، دون أن تنكس إحداهما أعلامها أو تخفض مستوى قواها الحربية الضارية.

حتى جاءت ساعة الفصل فى يونيو ١٩٤٠ ، وأوشكت ألمانيا أن تسيطر على أوروپا كلها من المحيط الأطلنطى حتى حدود روسيا ، ثم مشارف موسكو فى يونيو ١٩٤١.

ثم جاء السلام فى عام ١٩٤٥ بعد انتصار الحلفاء آنذاك ، وبعد عامين فقط أعلن الغرب الليبرالى ـ صاحب فكرة ديمقراطية السوق ـ تكوين منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) لمحاصرة الاتحاد السوڤييتى (الحليف). والبقية معروفة ولا داعٍ لتكرار الأمور.

نحن ـ إذن ـ فى «سلام» : من معاهدة «كامپ ديڤيد» (١٩٧٩) حتى توقيع وثيقة الاعتراف المتبادل والسلام بين «رابين» وياسر عرفات ـ بداية الطريق ـ إلى «أوسلو» رمز الانكسار ، وذلك فى واشنطن. وعندئذ ارتفع صوت الفنان العظيم «يهودى مينوهين» يصيح : «ليس هنا ، ليس على هذا النحو!» ، حميمة الواقعية والضمير الحى الذى لم يلتفت إليهما العرب ، ليس هنا» ، أى ليس فى عاصمة أمريكا. و«ليس على هذا النحو» أى أن السلام لا يتم بالاستسلام.

من أين ـ إذن ـ من أين لنا أن نتعجب ، إذ نطالع بعض ما تقدمه لنا عواميد الصحف المصرية والعربية فى الداخل ، وكذا النخبة الثرية «الثورية» فى الخارج؟

عينات من السيل المنهمر

١ ـ تبدأ الوليمة ـ المتدفقة ـ وليمة التنديد بالذات ، بالعجز تحدد أن الخراب لحق بنا لأننا لم نعرف كيف نحاكى الحداثة الغربية : حسب ما يراه أحد المفكرين ، إذ يندد بما أسماه «تنامى العصبيات المناهضة للدولة الحديثة الوطنية ، سواء كانت أصولية دينية أو أصولية عرقية وعشائرية ، وتفاقم أزمة الحداثة. وأعتقد أن كل ذلك ليس إلا مظهرًا من مظاهر الخراب السياسى والأخلاقى والدينى الواسع الذى تعيشه المجتمعات العربية نتيجة انسداد الآفاق ، ونفاد إمكانات التقدم والتراكم...

٢ ـ ومن هنا ـ حسب هذا المنظور ـ جاءت ردود الفعل غير مرغوب فيها ، وهى مرفوضة على كل حال :

«وفى كل هذا تفسير كاف لرد الفعل الاجتماعى، السياسى، والأيديولوچى على النظم القائمة، وعلى القيم الحداثية الرثة، بما فيها الوطنية والقومية والتحديثية والعلمانية الشعاراتية التى تتمسك بها النخب لتضفى على سيطرة البدائية صبغة السياسة والشرعية. ولا يفسر تجديد الحلم بالدولة الإسلامية وعدالتها المفترضة ـ بعد عقود طويلة من نقد السلطنة والخلافة لصالح الجمهورية والحريات ـ إلا الحاجة لنزع الشرعية والصدقية عن حكم النخب القائمة، والخروج عليها وعلى أيديولوچياتها وأساليب عملها وإداراتها. ولا يبرر هذا الخروج إلا الدرجة العالية من الانحطاط السياسى والأخلاقى التى وصلت إليها هذه النخب فى العقود القليلة الماضية...».

٣ ـ كيف يمكن التغلب على حال «الانحطاط»؟ هل يكون ذلك بمجرد النقد الفكرى كما يراه الكاتب السابق! أم أن هناك بعدًا «عمليا» (أو لعله «عملياتيا»)؟

جاء دور جماعة «كوبنهاجن»:

«لقد تحركت مجموعة مصرية رائدة لتشكل تحالفًا دوليًّا من أجل السلام ويكون إطارًا سليمًا وصحيًّا للحوار مع قوى السلام الإسرائيلية والقوى الدولية الأخرى المؤيدة للسلام. وهو حوار يتم فى العلن وبعيدًا عما كان يتم من اتصالات سرية (وبعضها ما زال يحدث حتى الآن)، وهذه المجموعة نفسها تعمل الآن على تأسيس جمعية السلام المصرية لتكون حركتها وأنشطتها علنية وقانونية، وهى قد نجحت حتى الآن فى أن تكون هناك أرضية مشتركة للسلام الشامل والعادل طبقًا لإعلان كوبنهاجن والبيان المشترك مع حركة «السلام الآن» ومع «بيت الشرق فى القدس». وبذلك تتحقق الخطوات العاقلة والواقعية التى تسمح بتعديل للمعادلة الصعبة فى العلاقة العربية ـ الإسرائيلية. ولن تفلح القرارات والبيانات المضادة فى وقف هذا التيار السياسى العقلانى، وكل ما هو مطلوب أن تعلن الأغلبية الصامتة عن رأيها وتقف بشجاعة مع الموقف الحقيقى والواقعى..».

المصطلح لافت للأنظار: «جمعية السلام المصرية»؟ أليس عندنا «حركة السلام المصرية» منذ الأربعينيات؟ أم أن هذه الحركة أصبحت «سلفية» ما دامت أنها تناهض «الإمپريالية»، هذا الوهم المزعوم، فى أيام العولمة الصهيونية ـ الأمريكية والكوكبة وما شابه ذلك من المسيرات العصرية؟

التيار السياسى «العقلانى» ؟ بالنص والكلمة: رسالة «أبراهام بورج» إلى «مؤتمر بازل»، تحديدًا لسياسة الصهيونية العالمية المستقبلية.

ثم «الأغلبية الصامتة» ؟ أية «أغلبية» ؟ ومن قال إنها «صامتة» ؟ أوليست «الأغلبية»، أغلبية شعوب أمتنا العربية وعالمنا الإسلامى، بل ومعظم القوى السياسية والمدارس الفكرية الشريفة فى العالم، أوليست أغلبية «زاعقة» تندد بسياسة الاستيطان والعنصرية وإرهاب الدولة، كما فعل ـ مثلاً ـ منذ أيام رئيس وزراء اليابان «هاشيموتو» أثناء لقائه «الصريح» (أى: العاصف) مع «نيتانياهو» فى مطار «طوكيو ـ ناريتا» ؟

٤ ـ إلى أن يتساءل باحث جاد عن أسباب غفلة العرب، فيقول:

«باختصار لم ينتبه العرب ـ وخاصة فى مصر حيث وجدت صحافة يومية ورأى عام ـ إلى الحركة الصهيونية ومشروعها الاستيطانى فى فلسطين إلا بعد البداية الرسمية للحركة بأكثر من عشر سنوات. وحينما تم السجال حولها فإن من بيدهم الأمر لم يتحركوا للتعامل مع هذا الحدث بعقلانية وحسم، وهذه إحدى مآسى الإدارة العربية لصراع المائة عام بين العرب والحركة الصهيونية، ونقصد أنه كان هناك دائمًا «فجوة زمنية» بين الحدث الموضوعى وتنبه العرب لهذا الحدث.. ولكن حتى حينما يتم هذا «الوعى» بالحدث فإنه كانت هناك دائمًا «فجوة زمنية» أخرى بين «الوعى» و«الحركة المضادة» أو رد الفعل المناسب، لذلك كان رد الفعل العربى دائمًا متأخرًا وباهتًا، وغير فعال بالمرة...».

لم يتحرك «من بيدهم الأمر» ـ وإن كان فاروق، وعبد الناصر، والسادات حاربوا ـ كل حسب رؤيته وطاقاته ـ لدرء الخطر الصهيونى بين ١٩٤٨ و١٩٧٣.

حركة محاصرة بالمقارنة إلى ثورة من لم يكن بيدهم الأمر: فى مصر ـ مثلاً ـ عندما ثار الشيوعيون ضد التسلط الصهيونى على توجههم الوطنى.

المرة تلو المرة، بين ١٩٢٤ و١٩٤٧ تاريخ نير، مغيب، يجدر بشباب مصر الباحثين أن يهتموا به، بدءًا من مؤلفه الأستاذ الدكتور رءوف عباس الأول منذ سنوات قلائل، والبقية لا بد أن تأتى على أيدى طواقم بحث من شباب المؤرخين الوطنيين، مثل بين العديد من الأمثلة لما قام به من لم يكن بين يديهم الأمر فى مصرنا المحروسة.

obeikan.com

من أين ـ إذن ـ الهيام بالمسيرة، وأحلام اليقظة لقطاع غير قليل من النبهاء المتطلعين إلى تولى الأمور فى عالم الغد ـ كما يحلمون؟

إن كان الكلام، خير الكلام، هو دومًا ما قل ودل لأصبح لزامًا علينا ــ دون أدنى تردد ــ أن نترك الكلمة لعاشق لغتنا الحلوة، الفنان الشاعر الكاتب رفيع المقام الأستاذ فاروق شوشة، وكان له على هذه الصفحات أبلغ تعبير عن حال الأمة:

« .. الحق الأعزل حق ضائع

يليق بأحلام الجبناء!

واليوم الراهن موقوت

بصراع بقاء وفناء

والزمن الآتى زمن رهان

فليختر كل ما شاء!

هل لى أن أقترح الليلة

نخبًا للعائلة...

ونخبًا لأشقاء كانوا..

طلع الفجر علينا

فانتبهوا...

لكن أعداء!».

عند هذا الحد نعود بالذاكرة إلى سنوات الشباب الأولى عندما أطلق كاتب الاتحاد السوفييتى العظيم «ماكسيم چوركى» سؤاله الشهير إلى ضمير رجال الفكر والعمل فى العالم عام ١٩٣٤ وقد بدأت الفاشية تتصدى للهيمنة على أوروپا: «مع من أنتم يا رجال الثقافة؟»

واليوم وبعد أكثر من نصف قرن، يجدر بنا أن نسأل كل مواطن وكل وطنى:

«مع من أنتم يا أحباء مصر؟».

obeikan.com

سؤال موجه إلينا جميعًا دون استثناء، إلى كل مواطن وكل وطنى.

ولا شك عندنا أن الوطنى التائه هو الأقرب إلى قلبى ما دام فى حاجة ملحة إلى التوعية والترحاب والحب، وكذا التوجيه والتصويب والتقويم، نعم، يصبح واجبًا علينا أن نسأل بأعلى صوت: «مع من أنتم يا أحرار مصر؟».

وكلنا يقين أن أحباء مصر فى حب مصر يعيشون، غالبيتهم العظمى إلى مسيرتها سوف ينظمون، ومن أجلها وفى سبيلها سوف يهتدون إلى «مناهج الألباب المصرية» التى نادى بها «رفاعة رافع الطهطاوى قبل قرن ونصف القرن، فى مطلع عصر النهضة.

قال صاحبى: «إيه الحكاية؟ مقالات.. تصريحات.. العواصف تتجمع من حولنا، ونحن «مكانك سر».. كيف إذن يكون الانتقال من جو «تلميع التبعية» إلى لحظة «والله زمان يا بلادى»؟...»

۞ ۞ ۞

obeikan.com

- ١٦ -

أكتوبر: رسالة « جيوش الشمس »

طبول الحرب، سحاب التهديد، صيحات الوعيد، عمليات إرهاب الدولة العنصرية، تمهيدًا للأجواء، تطويعا للنفوس، الإعداد للحرب العدوانية العنصرية الصهيونية على تأججها وفُجرها، تتحدى العالم، والعالم لها يتنكر يومًا بعد يوم، من كندا إلى اليابان، من أوروبا إلى أعماق إفريقيا، من ساحة المسيحية إلى أرض الإسلام.

لسنا اليوم فى مقام الذكريات. وإنما فى موقع يفرض علينا واجبًا وطنيًّا قوميًّا ألا وهو: أن نعى دروس حرب أكتوبر، وعندنا إنها تتعدى بكثير دائرة العملية الحربية الباسلة، عبور حاجز السويس وخط «بارليف» العملاق الوهمى المتفتت. ثم كسر شوكة جيش الدولة الإرهابية الصهيونية الذى كان يدعون أنه له مقام بين جيوش العالم، وتبدى الحقيقة أنه فى حقيقة الأمر لا يقدر أن يواجه حربًا إستراتيچية «هجومية» أو دفاعية خوفًا من حجم الخسائر، مكتفيًا بالعمليات الإرهابية الدامية، الفاشلة.

المدخل الأول إنما هو إدراك المغزى الحضارى لحرب أكتوبر: كانت ولا تزال كسرًا للانكسار بعد أيام يونيو ١٩٦٧ السوداء، التى يرى بعض ضعفاء النفوس والمنتفعين أن أمر مسؤليتها «غير واضح» حتى اليوم. والحق أن الحرب والسلام، أن الهزيمة والانتصار من صلب مسؤولية القيادة السياسية التى عليها أن تعد العدة لكافة الظروف.

فالحرب، كما قال «سون تزو» أكبر مفكر چيو ـ سياسى، وچيو ـ إستراتيچى فى تاريخ البشرية، الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى عصر تمزق الصين وكان هو فكرًا وعملاً من أهم عوامل توحدها من جديد، فى كتابه «فن الحرب» ــ المرجع الأساسى لفكر الرئيس ماو تسى تونج: «الحرب مسألة فى غاية الأهمية بالنسبة

obeikan.com

للدولة. إنها قضية حياة أو موت، الطريق إلى البقاء أو الدمار، ومن ثم يصبح لزامًا أن تدرس الحرب بعمق وعناية».

١ ـ إن نكسة يونيو ١٩٦٧ السوداء جاءت نتيجة مباشرة لفساد مفهوم الحكم السياسى لحركة يوليو ١٩٥٢، أى تولية الأمور إلى «أهل الثقة»، كوكبة الضباط وأدعياء الفكر وكذا التكنوقراط الأكفاء الملتفين حول الرئيس جمال عبد الناصر، واستبعاد ثم ضرب وسحق جيل كامل من الثورة «رجال الكفاءة» كان فى الأساس يتكون من الشيوعيين ومختلف توجهات الحركة الوطنية والتقدمية والشباب الوفدى وكذا مصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد وقطاع من الإخوان المسلمين بالإضافة إلى شباب الضباط الأحرار. انتشر الاستبداد بدلاً من التوحيد. ظلت أساليب التحكم المتفرد ـ لكل مسئول فى قطاعه ـ بدلاً من معانى الوحدة الوطنية والمسئولية الجماعية لقادة منتخبين والجبهة الوطنية المتحدة. حتى واجهنا أمر قواتنا المسلحة العزيزة على غير استعداد بفضل قيادتها المرتدة المتنكرة للمسؤولية الوطنية، فكانت الكارثة. وانهار النظام أو كاد. ثم كانت هبة أمتنا المصرية يومى ٩ و١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ وهى وحدها أى الأمة المصرية وحدها التى صانت الدولة المصرية المنهارة، وأحاطت بقيادتها المنهزمة وطالبت بإعادة تكوين جيشنا الوطنى بعد تصفية صفوف المنتفعين والانتهازيين والخونة.

أمر جلل، لا نعرف حتى الآن على وجه التحديد ـ أى وثائقيًا ـ كيف ومتى ومن. تمامًا كما هو الحال فى حريق القاهرة العظيم يوم ٢٦ فبراير ١٩٥٢ الذى كما قيل إنه معد لنهاية العهد القديم وإعلان الثورة. من، متى، لم، كيف؟ هنا أيضًا وحتى الآن الأوراق مخلوطة والتحقيق لم ينته ـ أو لعله لن ينشر بعد سحب الجزء الأول فى ربيع ١٩٥٤.

٢ ـ من هذا المنطلق وبدءًا من هذه الأيام السوداء، يبدو عبور أكتوبر ١٩٧٣. وكأنه معجزة، ولعله إنجاز لم يكن مرتقبًا لدى أدعياء السياسة والفكر والإستراتيچية قبل ١٩٦٧ كيف إذن تم هذا الإنجاز الخارق؟ على أيدى من؟

الأداة، والمنتفعن أولاً. الذى حدث خلال الأيام الأولى بعد العاشر من يونيو إنما كان وثبة شعب، وخاصة الشباب من أبناء هذا الشعب، لوضع حد لفساد الجهاز السياسى، والنظرة السياسية، لإدارة شئون البلاد بعيدًا عن أنظار الشعب. أدرك

الرئيس جمال عبد الناصر ضرورة التجاوب معها. ومن هنا جاء قرار فتح أبواب الجيش للمتطوعين، ما يفوق مائتين وثلاثين ألفًا من الشباب والطلبة، وهم الذين عبروا ـ حول ضباطهم الشباب وقادتهم المبدعين النوابغ ـ فى السادس من أكتوبر.

إن بناء هذا الجيش الجديد، بعد أيام يونيو ١٩٦٧، كان يعنى العود ـ بعد الانكسار والهزيمة ـ إلى دروس جيل الأربعينيات وعلى وجه التحديد إلى رسالة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة»، أى: ضرورة إقامة القيادة الوطنية والعمل الوطنى كله على أساس جبهة وطنية متحدة تشمل كافة القوى السياسية والمدارس الفكرية على تنوع وتباين توجهاتها، ما دامت أنها معنية بالهم الوطنى، دون أى تبعية أو رافد أجنبى، أيًا كانت المبررات الأيديولوچية أحيانًا، أو المالية فى معظم الأحيان.

كانت المحاولة الأولى للعود لمفهوم الجبهة بعد إعلان «ميثاق العمل الوطنى» (١٩٦٥)، ثم تأسيس التنظيم الطليعى بعد الهزيمة. ولكن القيادة السياسية لم، ولن، تعترف بأن هذه الإجراءات الإيجابية المتأخرة نحو ربع قرن من الزمن، ما كانت إلا مواكبة محدودة وحذرة إلى درجة شبه الإجهاض لرسالة الأربعينيات، إلى دروس وإنجازات جيل الثورة الرائد، الذى تم تدميره بين ١٩٥٢ و١٩٥٤.

ـ ومن خلال هذه العودة ـ الحذرة، المترددة، غير المؤمنة حقيقة بأن الجبهة وليس «أهل الثقة» هى جوهر الحكم ـ قامت معجزة من صفوف شباب جيش مصر، تم ذلك على أيدى صفوة من الضباط القادة الشباب الذين ارتكز عليهم جمال عبد الناصر، حسن البدرى، عبد المنعم رياض، سعد الدين الشاذلى، حسن الجريدلى، عبد الغنى الجمسى.

وقد تمركزت هذه الكوكبة الرائدة من القادة العسكريين حول شخصية الفريق أول عبد المنعم رياض، رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة، الذى جمع بين أرفع مستويات التقنية الحربية ورؤية إستراتيچية من ناحية، وبين الهيام والرومانسية بل والتصوف الوطنى ـ التاريخى من ناحية أخرى. ألهم هكذا عبد المنعم رياض آلافا من الضباط الشباب والقادة فيما أصبح تعبئة ليلاً ونهارًا لتدريب جيش المتطوعين، لولاها لما قامت أكثر حروب مصر ضراوة وأهمية بكل المقاييس، ألا وهى حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ــ ١٩٧١)، لم تكن حربًا «عادية»، إن كانت هناك حروب «عادية»(؟)

بغض النظر عن الخصوصيات القومية والثقافية والحضارية، وكذا مختلف مستويات التقدم التقنى والاقتصادى. حرب لم يكن هدفها ـ أو ليس فقط كما تصور البعض ـ تجربة السلاح الجديد وإتقان استعماله من ناحية، وكذا امتحان قوة العدو الدفاعية والهجومية المضادة، وإنما فى الجوهر: هز ثقة العدو فى إمكان استعمال قوته، ونشر التردد والتساؤل، بل والتخبط فى قيادته وكذا فى العديد من قطاعاته ووحداته، بحيث أصبحت النظرية الإستراتيچية العامة للجيش الصهيونى تساؤليه أكثر منها إيمانية بالنصر: كيف يمكن لبلد منكسر وجيش منهزم أن يتوغل كما فعل شبابنا؟ كيف يمكن لبلد مستضعف وجيش ما زال تحت التدريب أن يستوعب الضربات القاسية المضادة فى أبو زعبل والصعيد؟

ما زال العدو يتحرك بنفس المنطق الذى يتحرك به اليوم ألا وهو منطق الاحتقار، العنصرى، الأعمى، هو وحده يملك النظرة، القدرة، الإلهام، بل والحق الأزلى الأبدى فى تحقيق العمل والنصر.

وما كان استشهاد عبد المنعم رياض فى مأساة ٩ مارس ١٩٦٩ ـ بعد أن عرض نفسه المرة تلو المرة لمدفعية العدو على الضفة الشرقية ـ إلا علامة خضراء لانطلاق العزيمة والإصرار على التضحية والعبور. مات شهيدًا. دخل تاريخ الأسطورة. خلق المعجزة.

ثم إبداع مصر، الإبداع الفكرى الذاتى، بدءًا من حضارتنا أداة التنفيذ، ودلالتها فى الأعماق، كانت فى تحقيق العبور نفسه الساعة ١٤٠٠ يوم السبت السادس من أكتوبر. كان جميع خبراء الإستراتيچية فى دولة الغرب ـ وكذا فى الاتحاد السوڤييتى الحليف، والدول الاشتراكية الأوروبية ـ يؤمنون إيمانًا عميقًا بأنه لا يمكن مواجهة خط «بارليف» الذى أقيم مثل الهرم، سياجًا من الرمال العالية يصد الضفة الشرقية من قناة السويس، لم يكن من الممكن ضربه بالمدفعية، ولا بالطائرات، ولا بالقذائف الصاروخية ولا حتى ـ كما قال بعض الخبراء الغربيين مداعبين ـ بالقنبلة «الذرية». كان خط «بارليف» هو رمز العجز المفروض علينا.

وفجأة، عاد ضباط هيئة الأركان العامة وسلاح المهندسين إلى ذاتهم المصرية، أى إلى خصوصيتهم، خصوصيتنا المصرية، كان السؤال: كيف ـ ترى ـ يمكن علاج زحف

الصحراء؟ تساءل شباب المهندسين العسكريين : كيف يستطيع فلاح الصعيد الأعلى أن يحافظ على خيط الوادى الأخضر المحاصر من الصحراء من كل جانب؟ قامت البعثات للدراسة ، أدركت أن الفلاح المصرى دائمًا يصد الصحراء بواسطة خراطيم مائية يديرها ويزيد فاعليتها بتركيب محركات كهربائية. من هنا كانت بداية الفكر. أن الماء ـ الماء وحده ـ يستطيع أن يصد رمال الصحراء. أن يصد رمال الصحراء؟.. أم أن هناك بُعدًا آخر؟ عاد المهندسون واجتمعوا بقادة هيئة الأركان ، وقد نتج عن هذا اللقاء الفكرى الإستراتيجى الرفيع إبداع فكرى ذاتى مصرى رائع ، ألا وهو : اختراع سلاح المدفعية المائية. الخراطيم تتسع إلى حجم المدفعية الثقيلة. والمدافع الثقيلة تحرك بقوة دافعة مماثلة للمدفعية التقليدية. كل الأمر : أن القنابل تستبدل بمسارات المياه التى يتم حصرها ودفعها بقوة هائلة فتنطلق وكأنها قنابل تخترق.

وبالفعل تم الاختراق : فى ساعات لا تزيد على ست ساعات ونصف يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، نجحت المدفعية المائية فى هد خط «بارليف» هدًّا وكأنه فتات من الرمال ، دون استعمال المدفعية التقليدية. وانطلقت وحدات العبور للجيش الثانى والثالث تحت شعار «الله أكبر» ونزلت على البر الشرقى. وتوغلت فى الداخل فى ساعات لم يكن أحد قد حسبها. فما كانت مصر ـ جيشًا وشعبًا ـ تتصور أن العبور بهذه السهولة والسرعة ، وإلى هذا العمق ، وبهذه الخسائر المحدودة. ما كانت مصر تتصور أنها تملك مفاتيح المبادرة ، بفضل الإبداع الفكرى الذاتى لطلائع شعبنا المجيد العريق ، بدلاً من الإنصات إلى آراء خبراء العالم «المتقدم».

ـ ثم آثار حرب أكتوبر على لعبة الأمم. أشعلت نيران الحماس القومى لقلوب شعوب أمتنا العربية ، وكان من الطبيعى ، أى أنه كان لا مفر من أن تتحرك الدولة التى لم تحارب. ومن هنا جاءت القمة العربية فى ١٨ أكتوبر ، القمة المتأخرة جدًّا حسب العادة ، تعلن قبول فكرة تحويل البترول من سلعة إلى سلاح ، أى من مادة خام رخيصة تحت رحمة الغرب الإمبريالى ثمنها ثلاثة دولارات للبرميل إلى سلعة غالية نسبيًّا ارتفعت إلى ١٨ دولارًا بين اليوم والآخر ، ثم بعد ذلك إلى ٢٣ دولارًا. فجأة أصيبت جميع هياكل الاقتصاديات للدول الصناعية المتقدمة فى الصميم ، وهى التى اعتادت أن تمتص البترول العربى بأبخس ثمن وتحت تهديد السلاح والترسانة الصهيونية ، لتحقيق

obeikan.com

القدر الأوفر من الأرباح بشكل يدعو إلى التساؤل : من أين للدول الصناعية ذلك؟ هل من «نبوغها» وتقدمها العقلى، أى من تميزها العنصرى؟ أو لعله من القدرة على محاصرة واستغلال طاقات الدول التابعة، دول الجنوب؟

جاءت حرب أكتوبر وأوضحت الإجابة : التفوق إنما هو ناتج لمرحلة تاريخية معينة. وبالتالى فإن لحاق الشرق بدول دائرة الهيمنة أمر مقدور عليه ـ لو استطاع الشرق وأراد أن يمسك بمصائره بنفسه، أن يفرض سياسة استقلالية فاعلة بإصرار وقوة، أن يدفع ثمن هذا القرار. أفكار باندونج. رسالة أكتوبر. «ريح الشرق» هذا فى الوقت الذى استطاعت ڤيتنام الشقيقة أن تكسر شوكة الجيش الأمريكى بعد الفرنسى عام ١٩٧٨ بقيادة الرئيس «هوشى منه» والمارشال «فو نجين جياب». فكأن ڤيتنام وأكتوبر نهاية لمرحلة، مرحلة تغيير العالم التى بدأت بتحرير الصين وإنشاء جمهورية الصين الشعبية يوم ١ أكتوبر ١٩٤٩. وكأنها إيذان لبدء مرحلة جديدة يمكن أن تؤدى لصياغة عالم جديد.

عالم جديد؟ ما هذا؟ وهل يمكن أن يتم أمر خارج بكل المعايير مثل هذا الأمر؟

هنا تتباين ردود الفعل فى مختلف الدول الصناعية :

١ـ الولايات المتحدة الأمريكية فى المقام الأول. كان رد فعل مزدوجًا، أى قرار القيام بهجوم إستراتيچى بكل معانى الكلمة :

ـ تعميق الحلف الإستراتيچى الهجومى بالمشاركة فى الترسانة التكنولوچية والإستراتيچية الهجومية المتقدمة مع الدولة الصهيونية، أو «الدولة اليهودية الثانية» كما يقول السفير الأمريكى «سام لويس»، وذلك لتأكيد التفوق الإستراتيچى الصهيونى بكل معانى الكلمة على كافة دول أمتنا العربية، وقد تم ذلك بتدبير حربى الخليج الأولى والثانية ١٩٨٠ ـ ١٩٩١. وما ترتب عليها من دمار عميق، وكذا تفتيت الصف العربى إلى حين.

٢ـ أما الدول الصناعية فى أوروپا الغربية، فقد واكبت التحرك الأمريكى، وشارك بعضها فى حرب الخليج الثانية، حرصًا على الإبقاء على بعض المصالح هناك، دون إدراك أن هذا الأمر من شأنه أن يعمق من مشاعر الأمة العربية الجريحة ضد الغرب

فى عموميته، دون مبرر معقول، ويدعم الفكرة القائلة بأن الغرب كله ـ دون استثناء ـ إنما يقف وراء الدولة الصهيونية.

٣ـ ثم كان موقف الدول الصناعية المتقدمة الأخرى ـ وعلى رأسها اليابان ـ ثانى دولة صناعية واقتصادية ومالية فى العالم بعد تفكك الاتحاد السوفييتى.

كان الجميع يتساءل عن أسباب سياسة اليابان «الغريبة» وذلك أنه عندما تم وقف القتال وأعلنت مصر قرارها بفتح قناة السويس التى أغرقت فيها قوى العدو عشرات السفن منذ ١٩٦٧ تقدمت اليابان بالعرض الأحسن إذ تعهدت بفتح قناة السويس وتوسيع حمولتها ـ عرضها وعمقها ـ إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه سنة ١٩٦٧، وذلك بقرض على ثلاثين عامًا ومدة سماح ست سنوات وبسعر فائدة ٢,٥ ٪ تمامًا كما فعل الاتحاد السوفييتى فى بناء قناة السويس.

ما العمل إذن؟ كيف يمكن الانتقال من سياسة «اللامفهوم» إلى بصيص من النور، إلى عمل جاد مؤثر؟

ـ لا بد أن نبحث أولاً عن مصالح القوى الكبرى والهامة وكذا التجمعات الإقليمية الصاعدة، وعن خطتها المستقبلية فى القريب العاجل والمدى البسيط: الصين وروسيا ومجموعة الجمهوريات السوفييتية السابقة، اليابان، الهند، إيران، أوروبا، وخاصة فرنسا وألمانيا وإنجلترا، جنوب شرق آسيا، كوريا، أمريكا اللاتينية الوسطى والجنوبية، ثم دول كانت تبدو بعيدة: كندا، أستراليا، إفريقيا الاستوائية والجنوبية.

أى: لا بد أن نراجع حساباتنا مع عالم الواقع. وأن نبدأ ـ مثلاً ـ بزيارة رئيس مصر التاريخية إلى روسيا فى لقاء قادم.

ثم: ما العمل بالنسبة لترتيب الجبهة الداخلية؟ ما السبيل لتحقيق التراكم والتعبئة الوطنية؟ وهل من طريق إلى إقامة جبهة وطنية متحدة فى مستوى جديد؟

ثم: كيف ندعم ونعمق وحدة رجال الفكر والسلع والسلاح؟ شعب مصر وجيش الوطن؟

ومن واجبنا إذ نتصدى لهذه المهام أن نقف ـ شعبًا ودولة وأمة وحضارة ـ وقفة

الإجلال والعرفان تعظيم سلاح تحية لمناضلى وشهداء حركتنا الوطنية وثورتنا التحررية وجيوش مصر والعرب فى هذا اليوم الفريد ـ الجنود ، صف الضابط ، الضباط ، القادة.

إننا ـ إذ نفعل ذلك ـ نسير على نهج رسالة «جيوش الشمس» التى خلدها شادى عبد السلام فى سطور من حضارتنا الفرعونية المجيدة :

«قف فلن تفنى

لقد نوديت باسمك ،

لقد بعثت من جديد..»

قال صاحبى : «إيه حكاية «جيوش الشمس» ؟ أليست هذه هى التسمية التى أطلقها رمسيس الثانى بعد انتصاره على الغزاة فى معركة قادش الكبرى (١٢٩٠ ق.م)؟ أفلا ترى معى أن من واجب وزراء الدفاع والإعلام والثقافة والتعليم أن ينشروا فيلم شادى عبد السلام باسم «جيوش الشمس» على كل شاشة ، وعبر كل قناة ، وفى كل مدرسة ومؤسسة وميدان وقرية؟ .. علنا نعتبر..»

۞ ۞ ۞

obeikan.com

ـ ١٧ ـ

« المصرى أفندى » إلى الشرق

كنا معًا، صديق العمر وكاتب هذه السطور، كالعادة على شاطئ البحر، أو لعله ضفة النهر، أو جسر بين الضفتين. وعدته ـ هكذا يقول ـ أن نتمهل بين الحين والآخر لنستعيد أنفاسنا، نتريث بين زوابع الأزمات، وأنباء التقلبات، وتراكم المعلومات المتناقضة. ثم أضاف: إننا هكذا فعلنا منذ عام ١٩٩٧.

فهل ترى أمانع؟

قال صاحبى: « إيه حكاية انهيار الأسواق المالية، أولاً فى جنوب شرقى آسيا، من إندونيسيا إلى تايلاند حول ماليزيا ورئيس وزرائها رجل الدولة الوطنى العنيد الدكتور محاضير محمد، ثم إلى شرق آسيا حول هونج كونج وتايوان، وفجأة بعد أيام قلائل، فى هذا الأسبوع على وجه التحديد، فى جميع أسواق المال فى العالم الغربى على وجه التحديد؟ قالوا: إنها أزمة العنجهية الشرقية.. وإذ بالأزمة تهز أسواق المال فى أمريكا المصونة وتزلزل أسواق المال فى أوروپا الغربية المرتبكة.

ثم.. إيه حكاية هذا الإنسان المدعو « چورج سوروس » الذى يقولون إنه « رجل الظلام »، أو لعله كما يقول البعض الآخر يافطة لجبهة واسعة من القوى المعادية لكل جديد يتهدد هيمنة الغرب، وعلى وجه التحديد مكانة اليهود المركزية فى قلب هذه الهيمنة الغربية؟.. ».

شعرت بأن الفيض قد يتعدى الحدود، إن كان ثمة حدود للتساؤل فى هذه الأيام فى أمور الدنيا.

عود ـ إذن ـ إلى عالم الواقع كما تعكسه وسائل الإعلام. هذا المقطع ـ مثلاً ـ من

جريدة «نيويورك تايمز» بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٩٧ : «إذن، هذا هو چورچ سوروس يعلن نبأ هدية دولية مذهلة. إنه سوف يرفع ميزان عمليات مؤسسته «معهد المجتمع المنفتح» فى روسيا من مائتين إلى خمسمائة مليون دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة. ومعنى ذلك أنه يفوق بكثير ميزانية المنح الأمريكية إلى القطاع الخاص فى روسيا، والتى تبلغ ٩٥ مليون دولار سنويًا فقط. إن هذه المنحة الجديدة تأتى بالإضافة إلى واحد ونصف بليون دولار التى سبق أن قدمها السيد سوروس لعالم ما وراء البحار بهدف إقامة المجتمع المدنى ووسائل الإعلام المستقلة فى البلدان الشيوعية سابقًا. وفى الوقت نفسه فإن السيد سوروس ليس مجرد الرجل الذى يقف على قائمة من يمنحون العون لروسيا. ذلك أنه اشترى كذلك حصة تبلغ نحو بليون دولار فى «سفيازين فيست» أكبر شركة للاتصالات اللاسلكية لدولة روسيا بعد خصخصتها.. أى أنه فى روسيا يعمل من ناحية مع الحكومة ويراهن من ناحية أخرى على خصخصة شركات هذه الحكومة، بحيث إنه يجب عليه الآن أن يميز بين كل من الدورين اللذين يمثلهما». إلى أن يضيف كاتب الافتتاحية: «إنه لمن الأمور المزعجة أن يكون لمثل هذا المواطن بمفرده كل هذا النفوذ على بلد ذى مكانة إستراتيچية مهمة. والحق أن واشنطن من حقها أن تسعد، إذ أن نشاطات چورچ سوروس الدولية تعكس القيم الأمريكية».

أى - باعتراف شبه رسمى - هناك تطابق تام بين مصالح الهيمنة الأمريكية وتحرك چورچ سوروس.

ثم.. أليس هذا هو نفس الرجل الذى اتهمه رئيس وزراء ماليزيا فى هونج كونج فى أكتوبر ١٩٩٧ بأنه يمثل رأس رمح الجهاز اليهودى الذى يعمل على ضرب عملية التنمية فى جنوب شرق آسيا كلها، وذلك بالتلاعب بالإيداعات الأجنبية فى أسواق دول جنوب شرق آسيا الحالية، وسحب هذه الإيداعات فجأة بحيث تنهار قيم العملات القومية، مما يعطل تنفيذ المشروعات الكبرى، وبالتالى يمكن ضرب التنمية فى القلب؟

ثم.. ألم تنبرى وسائل الإعلام الغربية عن بكرة أبيها لاتهام الدكتور محاضير بأنه يعادى السامية، سيما أن «سوروس» من المحببين إلى وسائل الإعلام هذه؟ أم أن وسائل الإعلام الغربية هى - أيضًا - جزء لا يتجزأ من الجهاز الصهيونى العالمى؟

وهنا يعود إلينا صوت السفير «سام لويس» الذى مثل الولايات المتحدة فى تل

أبيب لأطول فترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٨٥ ، وهو الذى أكد تطابق المصالح المصيرية بين الولايات المتحدة والدولة الصهيونية عندما حذر فى مطلع سپتمبر ١٩٩٧ الحليفين بكلماته المشهورة :

« كيف يمكن لأكبر دولتين يهوديتين فى العالم ـ إسرائيل وأمريكا ـ أن ترعيا الحلف غير المكتوب بينهما؟ (إلخ.. إلخ..) » .

من أين ــ إذن ــ دهشة الناس وكذا انزعاج من يطلقون على أنفسهم صفة « المشاركة فى صنع القرار » ؟ التطابق بين الحليفين كامل ، أو يكاد. وليس رأس رمح الحية إلا منفذ فاجر للعملية كلها. أم أن العملية كلها هى عملية الحية لحسابها ، من خلال غطاء الهيمنة الأمريكية؟

قال صاحبى : « العملية.. أية عمليه؟ قصدك إيه؟ العمليات كثيرة ، دعنا من جنوب شرق آسيا وأزمة أسواق المال وزلزال البورصات فى الغرب والدوائر المحيطة. لا بد أن هناك حكايات أخرى. أنا لا أفهم يا أخى حقيقة الكثير فى أمور روسيا ، فى الهند مثلاً واليابان ، حول الصين. ثبات الحال فى اليابان والهند. ثم وثبة الصين الخارقة فى قلب عالم لم يعد كما كان منذ خمسة أجيال. إيه الحكاية؟... » .

حاولت أن أركز الأمر حول نقطة ، أو دائرة تتجمع فيها الخيوط ، عدت بالذاكرة إلى يوم أول يوليو ١٩٩٧ ، ذلك اليوم المشهود الذى عادت فيه هونج كونج إلى سيادة جمهورية الصين الشعبية ، بوصفها منطقة إدارية خاصة ، تحقيقًا لشعار « أمة واحدة ونظامان » .

فى هذا اليوم ، اجتمعنا معًا فى دار صديق كريم لنتابع الأحداث على شاشة التلفزة ، تنتقل إلينا الأحداث الميدانية عبر قنوات الـ « سى إن إن » والـ « بى بى سى » .

آخر أيام الإمبراطورية البريطانية تنكس أعلامها فوق المستعمرة اللؤلؤة ، بينما ترفع أعلام جمهورية الصين الشعبية ومنطقة هونج كونج الإدارية الخاصة.

خطاب الوداع المؤثر لآخر حكام المستعمرة « كريس باتين » يلقيه بشجاعة أدبية ملحوظة بين الدموع والأحزان. حضور الوفد الرسمى لجمهورية الصين الشعبية برئاسة رئيس الجمهورية « زيانج زيمين » ورئيس الوزراء « لى بينج » ، الحديث الودى المنضبط

obeikan.com

بين الرئيس «زيانج» والأمير تشارلز ولى العهد البريطانى. انطلاق الملايين فى أحياء هونج كونج بالهتاف والرقص والزغاريد، بينما انطلقت الألعاب النارية طيلة اليوم تغطى المحيط، صور دخلت التاريخ، تاريخ نهاية هذا القرن العشرين المتأجج، ثم منظر غريب شاذ بكل معانى الكلمة: رجل بين مجموعة الشخصيات البريطانية التى كانت تنتظر حضور رئيس جمهورية الصين لإجراء المراسم الرسمية. الكل جاد، ومنضبط، واجم فى شموخ يؤكد أصالة الإمبراطورية الزائلة. رجل قصير القامة يتململ، واضعًا يديه فى جيوب بنطلونه، يتمتم وفى عينيه مزيج من نظرات الاشمئزاز والتجهم، الكل منضبط وهذا الإنسان يتألم كالثور الجريح خارج الصف. قال واحد منا: «شىء غريب حقيقة أن يكون وزير خارجية إنجلترا «روبين كوك» هو هذا الرجل وعلى هذه الصورة. والحق أن الجميع ـ خاصة جميع كبار الممثلين البريطانيين ـ على استغراب من هذا المنظر».

تمر الأيام. يذهب نفس الرجل وزير الخارجية البريطانى ليصاحب جلالة ملكة بريطانيا إلى نصف القارة الهندية للاحتفال بالذكرى الخمسين لاستقلال كل من الهند وباكستان. وإذ به يتفضل بمبادرة استفزازية حمقاء فى إسلام آباد عاصمة باكستان، يعرض وساطة إنجلترا لإنهاء النزاع بين باكستان والهند، باعتبار أن إنجلترا هى الصديق والشريك.. وعند هذا الحد، انبرى رئيس وزراء الهند «جوجرال» وهو من سلالة الأسر العريقة فى كاشمير، مسقط رأس أسرتى غاندى ونهرو، وهى المقاطعة الإسلامية الذهبية بؤرة الخلاف بين الهند وباكستان، فيصيح:

«إن الهند لها سياستها، وهى لا تقبل أى تدخل لدولة من الصف الثالث»، خاصة أن هذه الدولة هى التى تسببت فى اندلاع الحرب الأهلية بين الهند وباكستان عندما قررت الانسحاب المتعجل عام ١٩٤٧، مما عجل بالصدام بين الأغلبية الهندوسية والأقلية المسلمة، فكان أن وقع مليون ونصف مليون قتيل، وظلت الهند وباكستان على صدام حتى اليوم. نفس أسلوب «التخلص» من عبء فلسطين بقرار التقسيم (ديسمبر ١٩٤٧)، ثم ـ وبعد هذه المأساة الدامية ـ يأتى السيد «كوك» ليعرض وساطته للجمع بين الأشقاء المتخاصمين، وهما فى طريق التفاوض.

وفجأة، وبعد أن كانت الهند حبيبة وسائل الإعلام الغربية التى ذهبت إلى حد اعتبار الهند هى مستقبل الريادة فى مجال التنمية، لأنها ـ أى الهند ـ ديمقراطية، بينما

obeikan.com

الصين «شيوعية» فجأة تحولت الهند إلى شىء آخر فى الإعلام الغربى. بدأ الهمس يتصاعد بأنها إلى تفكك داخلى، وأن معدلات التنمية لن تستمر، وأن المفاوضات الأخوية بين رئيس وزرائها «جوجوال» ورئيس وزراء باكستان مجرد إضاعة وقت ونفاق، بل وأن تطبيع العلاقات بين الهند والصين لن يدوم.

لقد ارتكبت الهند «جريمة» التنديد بحق الغرب فى التدخل والهيمنة، حتى وإن كان هذا التدخل يتمثل فى شخص «روبين كوك» الذى أثار سخط كبار الساسة ومعظم الصحف والإذاعات فى إنجلترا منذ تصرفه الأحمق، المرة تلو المرة.

كيف ــ إذن ــ استطاع الرجل أن يمارس هذا الفُجر، ويواجه تلك الزوبعة من السخط فى قلب دياره؟

عودٌ ـ لحظات ـ إلى كبريات الصحف الإنجليزية، نقرأ فيها العجب العجاب. رجل الظلام هنا اسمه «بيتر ماندلسون». هل تعرف السيد «ماندلسون»، إنه وزير دون وزارة، خارج دائرة مجلس الوزراء المركزية، قام السيد «ماندلسون» بتخطيط الحملة الانتخابية الإعلامية التى جاءت برئيس الوزراء «تونى بلير» إلى رئاسة حكومة حزب العمال الجديدة فى إنجلترا. «وإذا به ـ أى السيد «ماندسون» ــ يؤسس اجتماعًا لتدبير جدول أعمال الحكومة وعرضه على وسائل الإعلام، وذلك فى الساعة التاسعة من صباح كل يوم. وعلى كل وزير أن يخطر السيد «ماندلسون» بقائمة الصحفيين الذين سيتناولون الغداء مع كبار موظفى مختلف الوزارات.. إن هذا التركيز المرضى على الرقابة المركزية يعنى أن مختلف الوزارات ليست من النضج بحيث تستطيع أن تنجز أعمالها بنفسها».

ثم تمضى صحيفة «فاينانشال تايمز» فى عددها يوم ٩ أغسطس ١٩٩٧، بأن السيد «ماندلسون» متهم باختلاق قصص كاذبة فى الصحافة، منها الإساءة إلى «كريس باتن»، آخر حكام هونج كونج، وأخرى حول مصير سفينة جلالة الملكة...إلخ، على أن الغرض من هذا كله كما يقولون إنما هو محاولة لحرف الأنظار عن قصص سلبية مثل قصة علاقة السيد «روبين كوك» ــ أى وزير الخارجية ــ وعلاقته بعشيقته خارج الزواج.. إلخ».

السيد «ماندلسون» أو رجل الظلام اليهودى وراء حزب العمال الحاكم: «العفاريت والديمقراطية وبيتر ماندلسون» حسب عنوان الصحف الكاشفة التى أفردتها مجلة «إيكونوميست» يوم ٢٦ أبريل ١٩٩٧ لرجل الظلام، صاحب صولجان الحكم فى إنجلترا فى عهدها الجديد.

كيف تم هذا كله؟ كيف استطاع الإعلام أن يحتل مقام القيادة السياسية؟ وهل صحيح أن «ماندلسون» ــ هذا الشاب الاستفزازى المتعجرف ــ يعمل باسم «ماندلسون» وحده؟

أمواج البحر بدأت تعصف حولنا، تكاد تغطى الكلام الهادئ، تستثيرنا إلى رفع نبرة أصواتنا، وكأن البحر ـ بحرنا الأبيض المتوسط الهادئ الناعم الأنيس ـ بدأ يضحك ويتأثر بزوابع المحيط.

قال صاحبى: «نحن فى حكايات التلاعب بالأسواق المالية، وأزمة جنوب شرق آسيا، بينما أنظار العالم كلها تتركز على زيارة رئيس الصين «زيانج زيمين» إلى الولايات المتحدة، إيذانًا بفرض وجود قطب عالمى ثان على نظام العولمة الأمريكية ــ الصهيونية، كما عرفناها منذ ١٩٨٩. كيف يمكن إدارك هذا وذاك؟ ثم أليس لنا أن نسعد لمبادرة رئيس مصر بزيارة ماليزيا والتشاور مع الدكتور محاضير فى أبعاد الغد المشترك، بدءًا من زيارة الدكتور كمال الجنزورى التنقيبية المهمة إلى شرق آسيا فى أبريل ١٩٩٧؟ ربما أنها مجرد مصادفات؟..».

لا بد إذن أن نتحدث فى الصميم.

١ ـ بيت القصيد، جوهر الموضوع إنما هو: انتقال ميزان القوى من العالم الغربى المتمركز حول حلف الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ـ حليفة الصهيونية ــ إلى دائرة شرق آسيا، حول الصين مركزًا، وامتدادها إلى دائرة الإسلام الحضارى، فى تشابك مع دائرة نصف القارة الهندية.

٢ ـ فى هذا الجو، تسعى آسيا الشرقية ــ حول ريادة الصين ــ إلى تعميق أركان قواتها الصاعدة.

(أ) جنوب شرق آسيا أولا ، شريك الصين التقليدى ، وقد انتظم حول مجموعة الـ «آسيان» (أى اتحاد أمم جنوب شرق آسيا). كانت هذه المنطقة جزءًا لا يتجزأ من تنظيم أمنى واقتصادى يدعى أنه يمثل دائرة «آسيا ـ المحيط الهادى» تجتمع فى رحابه دول شرق آسيا ومعها الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وكذا الاتحاد الأوروپى الغربى ، مع استبعاد روسيا والهند وباكستان وبنجلاديش وسرى لانكا.

عند هذا الحد قرر الدكتور محاضير أن يتقدم بمشروع جديد باسم «حلقة آسيا الشرقية الاقتصادية تقتصر عضويتها على دول مجمعة جنوبى شرق آسيا التسع وحدها بعد استبعاد الدول الغربية. وأخيرًا ، نجح الدكتور محاضير فى إقناع دول المنطقة كلها ، يعقد اجتماعا فى ماليزيا قبل نهاية ديسمبر القادم.

أولاً : اجتماع مقصور على الدول التسع الأعضاء ، ثم ثلاثة اجتماعات ثنائية بين دول الـ «آسيان» التسع من ناحية ، وكل من الصين واليابان وأوروپا الجنوبية من ناحية أخرى ، أعلنت الصين فى أول أغسطس ١٩٩٧ على الفور أن رئيس الجمهورية «زيانج» سوف يرأس وفد بلاده إلى محادثات ماليزيا التى قال عنها وزير خارجية الصين ـ ضيف مصر بعد أسابيع ـ «كيان كى شين» إنها تمثل «حدثًا له دلالة عميقة فى تاريخ العلاقات بين الصين ومجموعة أمم جنوب شرق آسيا».

(ب) هذا ، فى الوقت الذى بدأت دولتا كوريا الشمالية والجنوبية فى الاقتراب من مرحلة محادثات الوحدة ، أو على الأقل تطبيع العلاقات.

عند هذا الحد أصبح لزامًا على الإمپريالية الأمريكية ـ الصهيونية المهيمنة أن تضرب الـ «آسيان» فى الصميم. والصميم هنا بكل وضوح إنما هو ماليزيا بقيادة الدكتور محاضير محمد.

٣ ـ هنا يبدأ دور «چورج سوروس» الجديد.

(أ) كان الرجل هو الذى قام بتمويل عملية قصف البرلمان الروسى بالمدفع عام ١٩٩٣ بأمر الرئيس يلتسين ، كما بينت ذلك جريدة «سوفيتسكايا روسيا» فى حينه معلنة أن هذه العملية «تعتبر المرحلة النهائية فى عملية نهب روسيا». وهى أهم العمليات التى قام بها «معهد المجتمع المنفتح» الذى بدأنا به حديث اليوم.

(ب) ثم فجأة، وعلى مر الأيام، ظهر وجه «سوروس» على حقيقته. فما أن اقتربت حكومة المحافظين البريطانية ـ خاصة ولى العهد الأمير تشارلز، راعى «معهد الدراسات الإسلامية» فى جامعة أكسفورد ـ من تأييد القضية العربية حتى انطلقت مؤسسة «سوروس» المالية «كوانتوم فاند» وهزت سوق لندن المالية بمضاربات مفاجئة ضد الجنيه الإسترلينى عام ١٩٩٢، مما اضطر بريطانيا أن تستعين بمبلغ ١٤ بليون دولار من ألمانيا، بحيث انتهى الأمر بإخراج الإسترلينى من نظام العملة الأوروپية الموحدة، وهو الأمر الذى أعلنه وزير مالية الحكومة العمالية بشكل قاطع ـ ومن ورائه بسمة «ماندلسون» الساخرة، بعد أن أنجز رئيس الوزراء «تونى بلير» بدايات تفكيك بريطانيا العظمى من خلال الاستقلال الذاتى لكل من أسكتلندا وبلاد الغال، دون مقدمات ولا ظروف طارئه ملحة.

نتوقف عند هذا الحد من التلاعب فى الأسواق المالية، وهى العملية التى تهدف إلى تقويض أركان الاقتصاد الوطنى للدول «العنيدة» ـ أى الدول التى تقف فى وجه الهيمنة الأمريكية / الصهيونية ـ ولنا عود إلى هذا الموضوع الذى يمس منطقتنا العربية فى الصميم.

كان لا بد أن يتركز الضرب على ماليزيا، بدأ الضرب، اهتزت أسواق جنوب شرق آسيا، امتدت الزوبعة إلى هونج كونج ثم كوريا، وإلى حد أقل اليابان، ثم انتشر الوباء إلى أسواق أوروپا الغربية، ولو بدرجة أقل نسبيًّا، وخرج المركز الأمريكى ـ الصهيونى إلى مكانة أكثر ثباتًا نسبيًّا حتى الآن.

وعلى الرغم من هذا، فشلت العملية السياسية. فرض رئيس جمهورية الصين الشعبية احترام مكانة ومقام الصين فى قلب ديار الحكم الأمريكى، على الرغم من تكالب الإعلام الأمريكى واليهودى العالمى ضد نجاح هذه الزيارة التاريخية.

ثم بدأ التحرك الإسلامى ـ العربى، من جديد بعد طول غياب، بينما أوروپا الغربية فى حالة ركود تؤكد مكانتها التابعة للمركز الأمريكى.

بدأ التحرك الإسلامى / العربى ـ الذى بدأ فى باندونج (١٩٩٥)، ثم انطلق من جديد بفضل حرب أكتوبر (١٩٧٣) ثم ثورة إيران الوطنية (١٩٧٨) ـ بفضل مصر هذه

المرة، بعد طول غياب، تحرك رئيس مصر إلى ماليزيا. ويتلو ذلك فى بداية ديسمبر ١٩٩٧ اجتماع القمة الإسلامية فى طهران، عاصمة إيران الثورة. عودٌ إلى التآخى بفضل سوريا الشقيقة الأعز. وبينما رئيس مصر إلى ماليزيا، يتوافد إلى ديار مصر الدكتور «بريماكوف» وزير خارجية روسيا القومى التقدمى العريق ـ «لقد تركت جزءًا من قلبى فى القاهرة» قالها عند مغادرته لعمله الصحفى فى مصر (١٩٦٩) ـ ثم «كيان كيشين» وزير خارجية الصين وعضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى فى منتصف ديسمبر ١٩٩٧، شهران بعد زيارة رئيس وزراء الهند «جوجرال».

أى أن الشرق الحضارى كله بدأ يتجمع، على الرغم من الانحرافات من حكاية الدوحة إلى ارتفاع نبرة فريق التطبيع وتلميع التبعية العربى هذه الأيام بشكل يثير الشفقة. فقاعات على سطح تغيير العالم نحو صياغة عالم جديد، يكتسح ويفتح ويبادر ويقيم.

۞ ۞ ۞

لست أدرى كيف فاتنى أن أحيى فضيلة الشيخ حسن، كان ذلك أثناء زيارتى الأولى لماليزيا فى أكتوبر نوفمبر ١٩٧١، وعند الفجر، ومن نافذة الغرفة فى فندق ميدان المحطة التاريخى بالعاصمة جاءنى صوت عذب يؤذن الفجر، وذلك بلغة عربية فصحى ونبرة مصرية قاهرية لا جدال فيها. انطلقت إلى الاستقبال. قالوا فى إجابة باسمة: «إنه «الشيخ حسن المصرى» إمام جامع كوالالمبور الجديد».

صعدت إلى الغرفة لأستعد ثم انطلقت إلى الجامع لتحية صوت الوطن فى الغربة. شاب وسيم، لطيف الشخصية، باسم، حصيف، تبادلنا التحية والعناق، ثم كوب الشاى فى فجر ماليزيا فى اليوم الأول، ثم افترقنا، وكنا على موعد بعد أيام، ولكننى كنت قد تحركت إلى منطقة أخرى. لم أرَ الشيخ حسن منذ فجر نوفمبر ١٩٧١. لعله الآن بخير، يذكر هذه اللحظة إذ يطالع مقال اليوم، لعله ما زال هناك، من يدرى، يستقبل رئيس مصر وصاحبه، فى فجر اليوم الذى يشهد بداية العناق بين جمهورية مصر العربية وماليزيا، بين مركز الأمة العربية من ناحية، ومركز التلاقى بين الدائرتين

الحضاريتين الآسيوية ــ الصينية والإسلامية من ناحية أخرى، فجر رحلة «المصرى أفندى» من جديد إلى أهله وصحبه فى الشرق.

فليتقدم إذن الرئيس حسنى مبارك والدكتور محاضير محمد يدًا فى يد لقيادة التلاقى بين صحوة الإسلام الحضارى ونهضة آسيا حول ريادة الصين، باسم شعبنا ودولتنا ودولنا، باسم المستقبل، ما دمنا على موعد مع القدر.

قال صاحبى: «على موعد مع القدر! هكذا! بهذه السهولة! بل علينا ـ يا أخى ـ أن ننتزع مفاتيح مبادرتنا الوطنية والقومية من براثن العدو، أولاً وقبل كل شىء! أقول لك عندئذ، عندئذ فقط، سوف يرفع شعب مصر شعار «مصر التى تقول لا!» بحق وجدارة. عندئذ، عندئذ فقط تعود مصر إلى مسيرتها الحضارية ومكانتها، وكذا مقامها، فى الصف الأول للعالم الجديد!...».

۞ ۞ ۞

ـ ١٨ ـ

مشروع « جائزة ابن خلدون »

الزمن غدار.. ما كان فى الحسبان ، كاد يصبح سرابًا. ما لم يكن فى الحسبان بدا يتصاعد وكأنه صورة الغد.

النظام العالمى الجديد الذى تصور البعض أننا بالغنا إذ أطلقنا عليه تسمية «الإجرام العالمى الجديد» عام ١٩٩١ ، بدأ يكشف عن حقيقته ، اليوم تلو اليوم ، بإيقاع ترتفع نبرته وتشتد حدته دون هوادة. المداخل ـ حسب الترتيب الزمنى ـ تؤكد أن نظام العولمة أحادية القطب حول مركزها الأمريكى ـ الصهيونى دخل مرحلة التأزم ، وبالتالى التحدى الشرس لكل من يقف فى وجه أو حتى من يحاول أن يعيده إلى شىء من الاعتدال والصواب ـ إبقاء عليه.

ـ معركة مراكز المال اليهودية العالمية بقيادة «چورچ سوروس» ضد استقلالية الدكتور «محاضير محمد» ، رئيس وزراء ماليزيا النابغة ، الصلب ، كان مفروضًا أن تزعزع اقتصاديات شرق وجنوب شرق آسيا ، وذلك بواسطة التلاعب فى أسواقها المالية. وقد تم هذا فى مرحلة أولى ، وساد الذعر ـ أو كاد ـ ضعاف النفوس كالعادة. ثم بدأت الحقائق تتبدى الواحدة تلو الأخرى. ذلك أن الإنتاج الاقتصادى لجميع الدول المعنية فى إندونيسيا إلى كوريا ، من ماليزيا إلى العملاق اليابانى فى زيادة مطردة رغم زلزال الأسواق المالية. ثم جاءت المرحلة الثانية : فقد أدى الزلزال إلى هبوط قيمة عملات آسيا الشرقية والجنوب شرقية ، فى الوقت نفسه الذى ارتفع فيه مستوى إنتاجها (بنسبة ٣٠ ٪ عام ١٩٩٦ فى كوريا الجنوبية وحدها) ، ومعنى ذلك على وجه التحديد : أن الولايات المتحدة ، وكذا جزء كبير من أوروپا الغربية سوف يستشعر صعوبة متزايدة لتصدير منتجاته ـ بعد ارتفاع سعرها فجأة ـ إلى أسواق آسيا وعالم

الجنوب، فى الوقت الذى سوف تقتحم فيه منتجات آسيا أسواق أمريكا وأوروپا الغربية نظرًا لانخفاض سعرها بما يتراوح بين ٣٠ و٥٠ ٪. أثارت مراكز الغدر الزوبعة. ثم عادت الزوبعة لتزلزل أركان ديار الغدر فى عملية تاريخية هائلة لم تكن فى الحسبان.. ربما إلى حد التعجيل من وحدة دولتى كوريا الجنوبية والشمالية باسم الكرامة الوطنية فى مواجهة صندوق النقد الدولى ومخطط الإذلال الأمريكى ـ الصهيونى.

ـ ثم جاءت الموجة الثانية من الغدر والعدوان: ضد العراق شعبًا ودولة، بغية الإطاحة بنظامه وتفتيت أراضية وإهانة كرامته واستنزاف شعبه المعذب، هذا فى الوقت الذى تتزاحم فيه دول الغرب للتستر على دولة الإرهاب والعنصرية الصهيونية، ما ترتكبه يومًا بعد يوم من جرائم ضد شعب فلسطين والأمة العربية، وما تعده فى المستقبل القريب إلى حد تدمير رموز الإسلام والمسيحية الشرقية فى القدس، محتمية بترسانتها النووية والنيوترونية المتقدمة توكيدًا لسيطرتها على الأمة العربية. . هنا أيضًا بدأ العد التنازلى بسرعة: عادت جميع دول أمتنا العربية ـ دون استثناء ـ إلى التضامن ورفض العدوان الأمريكى ضد العراق، ليس فقط حماية للعراق الشقيق العزيز، ولكن فى الأساس تأمينًا لحاضر ومستقبل أمتنا العربية كلها. انهار «حلف ١٩٩١» المصطنع ضد العراق، خاصة بعد مهزلة الدوحة وانفضاح أمرها، اهتزت وحدة الدول الكبرى فى الغرب والشرق معًا، وخاصة بفضل ريادة روسيا لسياسة التعقل والتفاهم مع الوضع الظالم المفروض على العراق. وفجأة ظهر جهاز الحقد الدامى فى العراء، يقود حملة فاشلة، بعد أن ظل يتستر بمعانى الديمقراطية: «صمويل بيرجر» صاحب القرار «وليم كوهين» البوق لسان حال سياسة العنف «مادلين أولبرايت» ومن حولهم طاقم موظفى الأداء والتوظيف السفير «بيل ريتشاردسون»، وكيل الخارجية «ستيوارت أيزينشتاد»، مسئولة تطويع اقتصاديات آسيا «مارلين بارشيفيسكى».. القائمة تطول، وكلها من وسط واحد، رغم تعدد اليافطات الحزبية والانتماءات السياسية. تأكدت صلابة وذكاء القيادة العراقية بعد تصحيح الأخطاء. كل هذا فى عشية اجتماع القمة الإسلامية عظيم الأهمية فى طهران بدءًا من ٧ ديسمبر ـ بعد أيام.

ـ ثم قصة المؤامرة الصهيونية ضد روسيا، بعد نسف الاتحاد السوڤييتى عام ١٩٨٩. تتالت الوجوه التى قيل إنها مركزية. حتى ظهر رجل الظلام الحاكم بأمره،

obeikon.com

«أناتولى شوبايس» ، الذى تصور الغرب وركيزته المالية والسياسية أنه الوجه الآخر المكمل لـ«چوچ سوروس» ، فى دائرة دول الاتحاد السوڤييتى سابقًا ، بدءًا من موسكو. وفجأة انقشعت الغيوم : العصابة الصهيونية تنقسم إلى عصابتين ، بين «بيريز كوفسكى» و«جوزينسكى» من ناحية وجهاز «شوبايس» المركزى من ناحية أخرى. وفجأة : يتم عزل «بيريز كوفسكى» من منصب نائب الأمين العام لمجلس الأمن القومى ، حتى تصيب اتهامات الرشوة حامل لواء الخصخصة والنزاهة والليبرالية وكذا العمالة للغرب الأول فى روسيا «شوبايس» فيتم عزل جميع أعوانه ، ثم عزله هو عن منصب وزير المالية ، مع الإبقاء عليه نائبًا أول لرئيس الوزراء - مؤقتًا ـ صيانة للمظاهر ورضاء لصندوق النقد الدولى وحلف شمال الأطلنطى. العد التنازلى ، بداية عودة روسيا إلى قوتها ومكانتها وعالمها.

ـ ثم كانت الطامة الكبرى فى هذا الجو المشتعل ، وقف رئيس مصر ـ باسم مصر كلها ـ يعلن أمام مجلس البرلمان يوم ١٥ نوفمبر ١٩٩٧ أن الهدف هو «بناء مصر المستقبل» وأن «المستقبل هو الأولى باهتمامنا» وذلك لأن «مصر مهيأة لنقلة حضارية مهمة» . إلى أن حدد روح التحرك بقوله «علينا اغتنام كل فرص التقدم ؛ لأننا نواجه عصرًا تحكمه سطوة الاقتصاد وقوة العلم وهيمنة الكيانات القوية» . أى أن مستقبل مصر لا يمكن إلا أن يكون فى قلب حركة التاريخ الهائلة التى سوف تحدد معالم عالم جديد ، عبر الزوابع والتحديات والإنجازات ، رغم المصاعب والانتكاسات. ساعة الحزم والعزم. عودة مصر إلى رسالتها المنبثقة من «عبقرية المكان» . كان لا بد من محاصرة الإرادة المصرية فورًا : أفلم «تتحدى» مصر مركز الهيمنة بشجب سياسة الاعتداء على العراق؟ ألم تستقطب رفض الأمة العربية للتبعية الاقتصادية والسياسية فى لقاء الدوحة؟ ألم تؤكد عزيمتها أن ترفع رأسها وتشارك فى صياغة العالم الجديد : فى رحلة الاختراق إلى روسيا ، بعد رحلة التآخى من جنوب شرق آسيا حول ماليزيا؟

كان لا بد من محاصرة الإرادة المصرية. كان لا بد من تلقين مصر درسًا قبل فوات الأوان ، وكانت مقدماتها نظرات حقد «ريتشاردسون» إلى السفير نبيل العربى فى مجلس الأمن ، من هنا أصبح ميسورًا على العدو أن يستغل ثغرات الأمن والأحقاد الدفينة لمحاولة الإطاحة بشرف مصر وحضارتها فى مذبحة الأقصر ، فى رحاب الدير

البحرى رمز العظمة والإرهاف والذوق والجمال المصرى الذى أقامته «حتشبسوت» أعظم فراعنة مصر فى تاريخها المجيد.

بقى ما هو أهم، وقد صدق الأستاذ صلاح الدين حافظ إذ بين كيف أن «الحملة الإنجيلية الصهيونية التحريضية المثارة فى أمريكا بتشجيع علنى من إسرائيل» مهدت الطريق إلى إصدار تقرير لجنة الخارجية الأمريكية فيما أطلقت عليه «الاضطهاد الدينى للأقليات المسيحية فى الدول العربية والإسلامية».

هى التى «هيأت المناخ.. لتشجيع المتطرفين على ممارسة أعمالهم الإرهابية فى الداخل».. («الأهرام» ٢٦/ ١١/ ١٩٩٧). وهذا الواقع الثابت المعروف لدى جميع المعنيين بأمور الدنيا يضاعف من خطأ مواجهة جرائم الداخلية فى حد ذاتها، بدلاً من التركيز على العدو الخارجى ـ الذى لم ولن يرحم وثبة مصر.

فى هذا الجو بالتحديد، وإسهامًا من فكر مصر ووجدانها، انطلاقًا من حضارتنا الشامخة والرائدة، نرى أن الواجب يحتم علينا أن نركز الجهد على تأكيد مجموعة القيم والمعانى الروحية والمجتمعية والسياسية والفكرية التى ـ وحدها ـ يمكن أن تصلح ساحة لتعبئة الغالبية العظمى من الشعوب والأمم، حول صحوة الشرق الحضارى فى عصرنا، لصد الهيمنة الباغية والفكر العدمى.

من هنا كان اقتراحنا اليوم بإنشاء «جائزة ابن خلدون العالمية لمستقبل الحضارة الإنسانية»، رمزًا لهذا التوجه فى مرحلة صياغة العالم الجديد.

أولاً: إن خصوصية «جائزة ابن خلدون» تكمن فى أنها تهدف إلى تقديم الأعمال والأفكار الرائدة المتميزة التى تصب فى عملية صياغة العالم الجديد، لا إلى محاكاة ما تم إنجازه وبدأ يتأزم وينحدر، وذلك بغية الإسهام فى صياغة مشروع حضارى جديد، يدير ظهره للفكر العدمى وقيم السوق المبتذلة والعنصرية والإرهاب. وهى كلها سمات «منطق الاحتقار» الذى يتعامل به مركز الهيمنة الأمريكية الصهيونية ـ باسم الغرب ـ مع شعوب ودول وثقافات العالم.

وبمعنى أدق: إن كان هناك جوائز عالمية أخرى ـ وخاصة «جائزة نوبل» ـ تعلن أنها مهتمة فى المقام الأول بالامتياز والاكتشافات الجديدة، وإن كان الأمر ليس كذلك

بالضبط ـ كما سنرى بعد قليل ــ وإن كان هناك جوائز أخرى ذات طابع إقليمى ، أو قطاعى متخصص (علوم ، طب ، تكنولوچيا ، اقتصاد.. الخ) ، فإن « جائزة ابن خلدون » من نوع جديد بكل معانى الكلمة ، فهى جائزة عالمية وليست إقليمية ، ولا قطاعية متخصصة.. وهى جائزة تهدف إلى تشجيع الجديد ، وخاصة بوادر صياغة حضارة إنسانية جديدة حول محاور مشروع حضارى جديد ، بعد تأزم حضارة الهيمنة العدوانية وفكرها العدمى. وهى جائزة عالمية تنطلق من نهضة الشرق المعاصر ــ شعوبًا ودولاً ، حضارة وثقافة ، اقتصادًا وفكرًا ـ وهى كلها مغيبة عمدًا ، بدرجات متفاوتة ، انطلاقًا من « منطق الاحتقار » .

ومن خلال « جائزة ابن خلدون » وبواسطتها يمكن أن تشجع إسهامات الشرق الحضارى المعاصر إلى عموم الإنسانية دون أدنى استثناء ، توكيدًا بأن انتقال مركز الثقل والمبادرة التاريخية إلى الشرق الحضارى أمر جلل ، وأمل ساطع يمكن أن يحرك مبادرات مختلف الثقافات والقوميات والشعوب ، بحيث تتواكب وتتضافر جهودها وإسهاماتها فى صياغة حضارة إنسانية جديدة بكل معانى الجدة.

ثانيًا : إن « جائزة ابن خلدون العالمية لمستقبل الحضارة الإنسانية » تنطلق من إدراك أن وحدة الإنسانية ، وجوهر قيامها ، وتواكب مساراتها المستقبلية إنما هو ناتج مجموعة الخصوصيات المجتمعية والقومية والثقافية والحضارية التى صاغها التاريخ المتنوع ، المتباين ، المتميز للمجتمعات البشرية فى جميع أنحاء المعمورة عبر آلاف السنين.

إن دراسة أهم المفاهيم والقيم الأخلاقية لحضارات وثقافات الشرق عبر الأجيال ــ وكذا فى عصرنا الذى نحياه ـ تؤكد وجود دائرة مشتركة هى التى يمكن أن تصبح فلسفة ومرشدًا لــ « جائزة ابن خلدون » الإيمانية ، أولوية الجماعة الإنسانية ، العدالة الاجتماعية ، الجمع بين الحقوق والواجبات ، بين حقوق وواجبات الفرد ، وكذا الشعوب ، الجمع بين الفكر والعمل لخدمة الأمة ، العلم فى صالح الشعب ، السلام العادل دون الانحناء أمام الهيمنة ، مساواة جميع الأجناس البشرية فى مواجهة العنصرية ، مشاركة الجميع ـ دون استثناء ـ فى صياغة العالم الجديد على قدم المساواة.

ثالثًا : سوف يتساءل البعض : ما الحاجة إلى جائزة عالمية جديدة؟ ألم يحصل كاتبنا

الكبير الأستاذ نجيب محفوظ على جائزة نوبل للأدب؟ وكذا ـ من قبله ـ عالم الفيزياء الباكستانى الكبير «عبد السلام» ، جنبًا إلى جنب مع عدد محدود من علماء الاقتصاد والطب فى الهند الشقيقة؟

إن مراجعة قوائم «جائزة نوبل» ـ مثلاً ـ من بدايتها تبين أن أكثر من ٦٠ ٪ من الحائزين عليها من الولايات المتحدة وحدها، وأن معظم الجوائز تمنح لبحوث تتعلق بالتطبيقات التكنولوچية أو الميدانية التى يمكن أن تدعم سيطرة حضارة الغرب ودوله على الاقتصاد العالمى بشكل أساسى ـ جنبًا إلى جنب مع بوتقة من الجوائز التى تعترف بالامتياز العلمى المجرد بشكل واضح.

والحق أن هناك مفارقات لا يمكن التغاضى عنها : هذا ـ مثلاً ـ أمير شعراء عصرنا ، الذى قد أجمع النقاد على أنه ربما أهم علم من أعلام الأدب فى القرن العشرين ، الشاعر الكاتب الناقد الفرنسى العظيم ، رفيع المقام ، عاشق الشرق «لويس أراجون» ؟ كيف يمكن نسيانه ، بينما تذكرت اللجنة المبجلة أسماء مثل «ألبير كوهين» صاحب الرواية الفرنسية الوحيدة ، و«يوسف برودسكى» الشاعر الروسى الهامشى ، فى عصر مهدى الجواهرى وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وجمال السجينى وسعد الله ونوس.

القائمة تطول : أين مثلاً نصيب العمالقة الذين صاغوا وجدان الإنسانية فى عصرنا؟ من أمثال «أراجون» ؟ أين أم كلثوم؟ أين «أكيرا كوروزاوا» كبير أساتذة الفيلم اليابانى؟ لماذا لا يحتفى العالم بعبقرية المارشال «فونجيين جياب» الذى حرر ڤيتنام فى مواجهة الحربين الاستعماريتين وجاء بالسلام إلى جنوب شرق آسيا كلها؟ أين «سيلسو فورتادو» كبير علماء اقتصاد التنمية البرازيلى؟ ثم : كيف يسمح الغرب لنفسه أن ينسى أو يتناسى مقام ومكانة أعظم عالم موسوعى فى القرن العشرين ألا وهو أستاذ كمبريدج العظيم «چوزيف نيدهام» ، صاحب موسوعة «العالم والحضارة فى الصين» التى سوف تبلغ نحو ٢٥ مجلدًا ، فى موازاة «الموسوعة البريطانية» ؟ أين اعتراف العالم بإسهام الراحل «بيدرو أوربيه» الرئيس الأعلى لهيئة اليسوعيين الراحل صاحب رسالة لاهوت التحرير و«دييجوا ريڤيرا» الفنان المبدع الأسطورى المكسيكى؟ ما القول فى «لى كوان يو» رئيس وزراء سنغافورة السابق صاحب فلسفة القيم

obeikan.com

الآسيوية وصحوة الكونفوشية؟ وكيف ننسى رمز الرومانسية الثورية فى عصرنا الشهيد «تشى جيفارا» ؟ ثم أين نصيب نهضة الصين الخارقة فى عصرنا بين قائمة الامتياز؟

القائمة تطول، ومعها قائمة المفارقات: كيف يمكن إعلاء اسم «مناحم بيجين» دون الالتفات إلى «عبد المنعم رياض» الذى أعدَّ شباب العبور؟

جوهر المشروع إنما هو الاعتراف بأكبر قدر من الكفاءات الريادية على اتساع المعمورة دون أدنى استثناء، هذا مع إدراك أن الدوائر المغيبة حتى الآن هى دوائر الشرق الحضارى: الدائرة الصينية ـ الآسيوية، والدائرة الإسلامية، وكذا الدائرة الإفريقية المنسية، ودائرة أمريكا اللاتينية المهمشة.

رابعًا: ومن البديهى أن مثل هذه الدعوة كان من الواجب أن تعرض على ساحة دولية واسعة، مثل مؤتمر دول عدم الانحياز، أو إقليمية أكثر تحديدًا مثل «جامعة الدول العربية» أو «منظمة دول أمريكا اللاتينية» أو «اتحاد أمم جنوب شرق آسيا».

وقد شاءت الظروف أن تحديات الأزمة وبوادر المستقبل تتبدّى أمامنا فى نهاية التسعينيات من القرن العشرين حول صحوة الحضارتين الصينية والإسلامية. وكذا.. فقد شاءت هذه الظروف عينها أن تواكب انعقاد مؤتمر القمة الإسلامية فى ديسمبر ١٩٩٧ فى طهران، فى الوقت الذى ينفتح فيه «طريق الحرير الجديد ـ من جديد ـ بين الشرق والغرب من المحيط الهادى إلى أوروبا الشرقية، عبر دائرة أمتنا العربية وإيران فى قلب حضارتنا الإسلامية.

خامسًا: ومن هنا كان لزامًا علينا أن نختار لهذه الجائزة ـ الرمز ـ اسما علمًا تشارك فيه الإنسانية جمعاء، رمزًا للريادة الفكرية والعلمية والاجتماعية، ألا وهو اسم الأستاذ الأجل عبد الرحمن بن خلدون الذى أجمعوا على الاعتراف به مؤسسًا للتاريخ بوصفه علمًا، وكذا مؤسسًا لعلم الاجتماع حول المفهوم الرئيسى الذى تقدم به، ألا وهو مفهوم «العصبية» أى فى لغة العصر، الوحدة الوطنية والرابطة القومية والتضامن الاجتماعى على أساس الإيمانية والعدالة، واستقلالية الحكم.

الاسم إذن على مسمى، وليس التواكب هنا من باب المصادفة، وإنما التطابق جاء نتيجة الموضوعية لعودة الشرق الحضارى إلى مكانته المركزية فى تاريخ الإنسانية، بعد

فترة من الهامشية والتغييب منذ مطلع القرن السادس عشر حتى النصف الثانى من القرن العشرين.

وبطبيعة الأمر، وما أن يلقى هذا الاقتراح نوعًا من الاستحسان والتأييد، سوف يحين الأوان للعناية بالنواحى التنفيذية.

١ ـ دائرة مؤسسات التنفيذ: هل هى مؤسسة واحدة؟ أم كوكبة من المؤسسات تجمع بين مختلف المنظمات الإقليمية، جنبًا إلى جنب مع عدد من الهيئات ذات الطابع العالمى المرتبطة بقواعد شعبية وقومية ثابتة، جنبًا إلى جنب مع كوكبة من المؤسسات العلمية ذات الطبيعة والأداء المتميز؟

يمكن مثلاً الجمع بين «جامعة الدول العربية» و«منظمة دول أمريكا اللاتينية» و«اتحاد أمم جنوب شرق آسيا» و«منظمة الوحدة الإفريقية» من ناحية. ثم «هيئة الحوار الإسلامى المسيحى» حتى مؤسسات ذات طابع متخصص مثل «جامعة الأمم المتحدة» و«الاتحاد الدولى لمعاهد الدراسة المتقدمة». قائمة مختصرة لما يمكن أن يتم.

٢ ـ مسألة التمويل: وهى أسهل بكثير، بدءًا من موارد البترول فى الدائرة العربية ـ الإيرانية ـ الإسلامية والقوة الاقتصادية الصاعدة فى شرق آسيا، ونحو نصف القارة الهندية، ومنطقة «الميركو سور» فى أمريكا الجنوبية مثلاً.

٣ ـ نوعية الجوائز: وهل تكون محدودة لعدد من الشخصيات والهيئات؟ أم أن يكون الأفضل أن تواكب هذا المستوى الأول مجموعة من الجوائز المتخصصة الأكثر عددًا وكأنها جوائز تشجيعية «لجائزة ابن خلدون العالمية»؟ ثم.. كيف يتم تحديد التخصصات والقطاعات ـ بعد توكيد وجهتها المشتركة فى اتجاه صياغة عالم جديد وحضارة إنسانية جديدة؟

٤ ـ ثم: هل يمكن التقدم بقائمة أولية لأعلام يمكن أن يفتحوا الطريق جنبًا إلى جنب مع الرواد الذين عرضنا لهم فيما سبق: اسم العالم الموسوعى العظيم الأستاذ الجليل الدكتور عبد الرحمن بدوى، الموسيقار «ياهودى مينوهين» الدكتور «محمد محاضير رئيس وزراء ماليزيا». الشيخ أحمد ياسين رمز التضحيات والصمود الفلسطينى. «بول كينيدى» المؤرخ الأمريكى صاحب نظرية صعود الإمبراطوريات

وانحدارها. الأستاذ الدكتور «مجدى يعقوب» رائد طب جراحة القلب. الممثلة السينمائية الصينية «جونج لى» التى حازت مكانة «جريتا جاربو» فى عصرنا.. قائمة أولية، لفتح الطريق. لسنا على هامش التاريخ، بل إننا ـ حقيقة ـ فى طليعة صانعى المستقبل.

٥ ـ وكذا، وانطلاقًا من توكيد عالمية «جائزة ابن خلدون» بكل معانى الكلمة فإنه من الضرورى ـ وليس فقط المفيد ـ أن تكون لجنة الترشيح على مستوى رفيع من الجدية والخبرة بأمور السياسة العالمية من ناحية، وجديد الفكر والعلوم والاقتصاد والفنون من ناحية أخرى.

لجنة تنبع من أعماق مجتمعات البشرية، وليس فقط من سطح الحركات السياسية، وخاصة الحزبية منها، تمد جذورها إلى أوسع جماهير الشعب، كما تعبر عنها مختلف مدارس الفكر والعمل التكوينية الأصلية، وبالتالى تحظى بشرعية أخلاقية وفكرية وإنسانية على أرفع مستوى.

ما دام أن العدل أساس الملك، لا بد وأن يكون أمر إضاءة الطريق أمام الملك على أيدى من يحق لهم ـ بجدارة، بعيدًا عن المنفعة والتهالك على المناصب الزائلة ـ أن يقولوا كلمة الحق، ويرفعوا أعلام إنجازات الرواد.

ولكن الأمر ـ بداية ونهاية ـ فى مستوى أولوية السياسة: لا عدل دون قوة. لا ملك للضعيف.

قال صاحبى: «أخيرًا، وصلت بنا إلى مفترق الطرق. الخيار ـ لا شك ـ بين رسالة ابن خلدون وقوى الظلام. أسالك: ماذا لو عاد ابن خلدون اليوم إلى عالمنا؟ ألا تراه يتساءل: «أين العصبية؟»».

ماذا نقول؟ كيف نفسر ـ أنت وأنا وأولاد الحلال ـ ضعف العزيمة وتفكك الصفوة؟.. أراك ـ كالعادة ـ متفائلاً، تتصور أننا بدأنا نفيق؟. الله يسمع منّك!...»

❁ ❁ ❁

ـ ١٩ ـ

ماذا حدث للمصريين؟

سيل جارف من البحوث والندوات والمؤتمرات، والمساجلات، لم تعد القاهرة ولا عواصم المحافظات والأقاليم بعيدة عن حشد التساؤلات والاقتراحات، ولعل ما يلفت أنظار الجميع، وحتى القائمين بهذه النشاطات، أن الأسماء تكاد تكون هى هى، شريحة محددة من المسئولين وأصحاب الرأى والثقافة، يتفقون بداية ونهاية، وإن اختلفوا بطبيعة الأمر فى البحث عن السبل، وكذا فى تحليل ما هو قائم، وتقييم ما يمكن أن يقوم، وها هو ذا معرض القاهرة الدولى للكتاب يقدم لنا وفرة من النشاطات تمثل أكثر الوجبات دسامة ـ إن جاز التعبير ـ فى مجال الفكر والأدب والثقافة والفنون طيلة العام، ولو لذلك أياد نعتز بها جميعًا.

ومع هذا، ومع كامل الاعتراف بإيجابيات ما يدور هنا وهناك، ويتركز سنويًّا فى معرضنا القومى للكتاب، يبدو أن سعة واسعة من التساؤلات ما زالت دون إجابة، وكأنها كلها تصب حول سؤال: «إيه الحكاية؟» أى: ما حقيقة الأمر فيما تشهده مصر، ويقوم به المصريون، من غرائب ونشاطات، وما يواجهون من سدود وإبهامات؟ كيف يمكن أن يرتفع النشاط والإنتاج وأرقام الخريجين وأداء مختلف المؤسسات، خاصة قواتنا المسلحة التى هى دومًا فى القلب، كيف يمكن أن يتم هذا كله ونظل وكأننا فى حالة «مكانك سر»؟ الحرص؟ تباين المسالك؟ العجز ـ حاشانا الله ـ؟ الرؤية المهتزة؟ عدم التلاحم بين مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية؟ أم لعله أعمق من هذا وذاك: لعل أن تغييرًا هائلاً يتم فى أعماق المجتمع المصرى، مما يؤدى إلى اهتزاز مجموع القيم والمفاهيم والسلوكيات، بينما الفكر والثقافة فى مواد بعيدًا عن هذا الزلزال فى الباطن؟ أو بعبارة أخرى: لعل الأمر كما عرضنا له منذ

سنوات فى كتاب «الشارع المصرى والفكر» كيف يمكن تفسير التباين بين المستويين؟ ثم، هذا التفسير الذى لا بد منه: ما السبيل إلى مدخل معقول رصين لفهم الشارع المصرى؟

عند هذا الحد رأيت أنه لا بد من عقد «لقاء فكرى» أو بشكل أدق «لقاء مع الفكر» بين سلسلة من المفكرين الذين لم يلتفت إليهم الرأى الرسمى، أو كما يقال الرأى العام، بينما كان الواجب ـ على الأقل فى معرض الكتاب ـ التمييز وكذا الجمع بين مستويين من اللقاءات «لقاء مع مسئول»، أى وزيرة، أو رئيس هيئة، أو شخصية عامة إدارية أو قضائية، أو تشريعية، و«لقاء مع مفكر» وهم الذين يقدمون تباعًا مختلف الاجتهادات الفكرية دون أن يكون لهم نصيب فى ـ أو تطلع إلى ـ المراكز الحكومية القيادية.

بدأت أتصفح عددًا من الكتب الصادرة هذا العام ١٩٩٨، والحق أننى كنت بادئ ذى بدء شديد الانبهار بغلاف كتاب شيق صدر منذ أسابيع، رحت أتصفحه بعناية تحولت إلى ولع وحماس. فوجدت اللوحة تلو اللوحة تصف «الحكاية» وكأن المؤلف على موعد مع الإجابة عن سؤال: «إيه الحكاية؟».

عن الأفراح والليالى الملاح: يصف المؤلف الأستاذ الدكتور جلال أمين ـ المفكر والكاتب المصرى الكبير، أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية ـ مرحلة الانتقال من موسم الأعياد إلى موسم «أفراح الأنجال»:

خلال سنوات الأربعينيات أو الخمسينيات كانت الأفراح تعقد فى بيوت أصحابها، فإذا ضاق البيت عن استقبال المدعوين أقيم سرادق فى الحديقة أو فوق سطح المنزل، مما يسمح باستقبال أى عدد من الناس».

«إذ ما الذى يحتاجه الحفل مما لا يمكن عمله فى البيت؟ وكيف يتصور «فرح» حقيقى دون أن يشهد الجيران جميعًا ما يجرى فى البيت السعيد، ودون أن تسمع الزغاريد فى الشارع كله؟

شيئًا فشيئًا، ابتداء من أوائل السبعينيات، أخذت تزداد حفلات الزفاف التى تعقدها الطبقات الميسورة فى الفنادق الكبرى، وإذا بذلك يغير شيئًا فشيئًا من طبيعة

الزفاف برمته، فتلغى أشياء وتستحدث أشياء، حتى ليخشى أن تتلاشى بالتدريج عادات الزواج المصرية التى استمرت قرونًا لتحل محلها طقوس ومراسم يحددها مديرو الفنادق الكبرى».

«لقد لاحظت أولاً أن الزغاريد لا تكاد تسمع ولو مرة واحدة فى حفلات الفنادق، ربما كان السبب أن سيدات الطبقات التى تلجأ إلى عقد الزواج فى الفنادق لا يجدن إطلاق الزغرودة، أو بالأحرى يعتبرنها ألصق بطبقات أدنى من طبقتهن. أو أن الزفاف فى الفندق يجرى بمعزل عن الناس إلا المدعوين، ومن ثم فليس هناك من الغرباء أو الجيران من يمكن إعلامه بالخبر السار».

«لا بد من إدارة الفندق هى أيضًا التى تصر على ألا يحضر الأطفال هذه الأفراح، وهو أمر لا بد أن يؤسف له بشدة، إذ كيف يتم فرح حقيقى دون أطفال؟ ولكن إدارة الفندق فيما يبدو تخشى أن يفلت الزمام من يدها فلا تستطيع أن تتحكم فى كمية الأكل الذى سوف يستهلكه المدعوون، أو ربما أنها تخشى الإخلال بالنظام الدقيق الذى وضعته لخطوات الحفل ومراسمه، ومن ثم أضيفت هذه العبارة غير اللطيفة إلى بطاقات الدعوة إلى حفل الزفاف «الرجاء عدم اصطحاب الأطفال» أو «نتمنى لأطفالكم نومًا هنيئًا» وهو طبعًا عكس ما يراه الأطفال بالضبط».

«ولكن التطور الرهيب الذى حدث هو ذلك المتعلق بالميكروفونات وارتفاع صوت الموسيقى والغناء ارتفاعًا فظيعًا، وهو أمر لا يفهمه أحد، ولا يستطيع أحد حتى الآن تفسيره تفسيرًا مقنعًا. فها أنت ذا جالس فى حفل عظيم، فى فندق من أفخم فنادق القاهرة. لم يدخر أهل العروس أو العريس وسعًا فى إتمامه على أجمل وأكمل وجه، وحولك بعض عظماء البلد، من رؤساء الوزارات والوزراء الحاليين والسابقين، وكبار رجال السياسة أو الصحافة أو المال. أو كلهم جميعًا، ولكن لا يكلم بعضهم بعضًا، إذ لا جدوى من ذلك لعجزهم جميعًا عن سماع ما يقوله الجالس إلى جوارهم، بل لعجزهم عن سماع ما ينطقون به هم، كما يتضمن إحاطة العروسين بدخان أشبه بالسحاب، وإدارة الفندق هى التى تملك الخبرة الكافية بالارتفاع الصحيح لكعكة الزفاف، وأنواع الزهور المناسبة، وما الذى يجب أو يحسن بالناس أن يأكلوه فى هذه الظروف. إلخ. لقد نشأ وتطور علم كامل فى قواعد حفلات الزفاف، لم يعد من السهل

على الأب العادى أو الأم العادية الإحاطة به ، فلم يعد هناك بد من الالتجاء إلى الخبراء المحيطين بأسراره من مديرى الفنادق الكبرى » .

خلاصة القول أن أصحاب الزفاف عندما يقررون إقامته فى أحد الفنادق ، لا يعقدون فى الواقع حفل زفاف ، بل يقومون « بشراء » حفل زفاف من أحد الفنادق. لقد قال أحد الكُتَّاب مرة فى تشخيصه لإحدى سمات المجتمع التكنولوچى الحديث. إن « الأفعال » تتحول أكثر فأكثر إلى « أسماء » فالمشى على الأقدم يتحول إلى سيارة ، وغسيل الملابس يتحول إلى غسالة كهربائية ، وتبادل الحديث بين أفراد الأسرة يتحول إلى تليفزيون.. الخ. وهكذا نرى فى حفلات الزفاف.

ثم ، عن التصييف « أريد من القارئ أن يلاحظ أوجه الشبه بين فكرة « مارينا » فى التسعينيات ، وفكرة « ميامى » فى الأربعينيات. لاحظ أولاً الاسم الإفرنجى فى الحالين ، والأسوار والحراسة المشددة ، ولاحظ ضآلة نسبة هؤلاء وهؤلاء فى المجتمع المصرى ككل ، ولاحظ المجتمع المغلق فى الحالين ، ومعرفة أفراد كل منهما لبعضهم البعض ، بل وتزاوجهم من بعضهم البعض ، طبعًا إن لكل وقت حكمه ، ولكل عصر وسائل التسلية المناسبة له ، فمع التقدم التكنولوچى العظيم ، لم يعد الاستلقاء على الرمال فى الشمس متعه كافية ، بل لا بد الآن من مركبات بخارية يشق بها الأولاد والبنات عباب البحر شقًا ، ويعلنون بها على الملأ ويُعرِّفون من لم يكن يعرف ما حقق آباؤهم من ثروة منقطعة النظير فى وقت قصير جدًا.

لاحظ أيضًا أنه بينما كان رواد شاطئ ميامى مستلقين على الرمال فى صيف ١٩٤٨ أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل فى فلسطين ، وبينما يشق أولاد وبنات مارينا عباب البحر بمركباتهم البخارية فى صيف ١٩٩٧ ، نسمع عن أشياء غريبة تجرى فى القدس تمهيدًا لإعلان هذه المدينة الغالية عاصمة أبدية لإسرائيل. التبعية مسألة استعداد.

بدون تعليق.. رمضان والطقوس ، ولكن : ماذا عن الشهر المكرم؟ ماذا عن أعيادنا؟ ماذا عن تراثنا الحضارى والروحى؟

« عندما كان يحل بنا شهر رمضان فى السنوات الأخيرة لاحظت أن هذا الشهر قد جرى عليه حكم نظام السوق ، كما جرى على غيره. إذ ما كل هذا التسويق لرمضان

أيضًا، وما كل هذا الذى بذل لتحويل رمضان إلى مناسبة للبيع والشراء؟ نعم كانت فوانيس رمضان فى طفولتى تباع وتشترى، ولكنها لم تكن إلا هدايا بسيطة للأطفال، زهيدة الثمن، بدائية الصنع، وكانت ترتبط بتجمع للأطفال فى الطريق العام، وغنائهم لرمضان وهم يحملون الفوانيس، ولم تكن الفوانيس تتفاوت كثيرًا فى درجة الفخامة أو الإتقان، فكلها تقريبًا كانت مصنوعة من الصفيح وبالحجم نفسه، أصبحت هناك الآن محلات بأكملها لا تبيع إلا الفوانيس بأحجام صغيرة وأحجام عملاقة للأطفال، أو لتزيين مداخل العمارات أو الفنادق وشرفاتها، وتضاء بالكهرباء، وكاد فانوس رمضان يحتل مركزًا مماثلاً للمركز الذى تحتله الآن فى الغرب شجرة الكريسماس التى تحولت إلى رمز وشعار لا يمكن أن يكتمل الاحتفال بالكريسماس بدونه. وهكذا يتحول فانوس رمضان الآن شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح رمزًا وشعارًا لشهور رمضان، وقريبًا يصبح الفانوس ركنًا من الأركان التى لا يقبل الصوم بدونها، مثلما حدث بالتدريج لفوازير رمضان التى أصبحت بدورها سمة ثابتة من سمات هذا الشهر».

«هكذا ترى أن زحف نظام السوق قد أخذ يطبع حياتنا الدينية بطابع وثنى، إن الجريمة نفسها التى ارتكبها هذا النظام ضد المسيحية يرتكبها الآن ضد الإسلام».

«قد يرد هذا كله إلى الانفتاح الاقتصادى، أو إلى حلول الرأسمالية محل الاشتراكية، وقد يوصف بأنه خطوة أخرى نحو المزيد من التغريب، وكل هذه التشخيصات صحيحة، ولكن الأمر للأسف قد يكون أخطر من هذا وذاك، إنى أميل إلى الاعتقاد بأن «كارل بولانى» كان على صواب عندما علق الأهمية القصوى على فكرة «نظام السوق» فإذا كان الأمر كما قال، فنحن بِصدد زحف شىء أخطر من مجرد الانفتاح أو الرأسمالية أو التغريب، وهو تحويل كل شىء خطوة بخطوة، ليصبح محلاً للبيع والشراء، حتى روح الإنسان نفسه».

عن الثوراة والنهضة

هل ترى من دائرة تلاقٍ لهذا الجمع من التساؤلات؟

«إن من أسوأ ما تشترك فيه السنوات الأربعون التالية لثورة ١٩٥٢ يتمثل فى

obeikan.com

تصورى فى عجز القيادات السياسية الفكرية للنظام الجديد عن تقديم مشروع حضارى مستقل لتحقيق النهضة فى مصر، فمع كل ما أعلنته ثورة يوليو من أنها قامت لتحرير مصر من الاستعمار، وتقود كفاح الأمة العربية من أجل استقلالها، ومع كل الشعارات التى رفعتها مما يحمل معنى السيادة الوطنية وسيطرة الأمة على مقدراتها، بل مع كل ما حققته من نجاح فى بعض هذه المجالات، لم يستطع قادة الثورة ومنظروها أن يتخلصوا من المفهوم الغربى للنهضة، بل الأصح أن نقول إنهم تبنوا هذا المفهوم تبنيًا يكاد يكون حرفيًا، ولم يطرح أى منهم تصورًا لما يريدونه لمصر أو للعرب يختلف فى أى جانب أساسى عن النموذج الغربى.

«إن هذه الدعوة إلى الاستقلال بقيت محصورة فى الميدانين السياسى والاقتصادى وحدهما، ولم تتسع لتشمل محاولة تقديم مفهوم مستقل للنهضة، بل على العكس تمامًا من ذلك، لقد أصاب هذه المحاولة الانتكاس على يد ثورة يوليو».

«فقبل ١٩٥٢ كان دعاة الإصلاح فى مصر يفهمون الإصلاح مفهومًا واسعًا يشمل مختلف نواحى الحياة الاجتماعية والثقافية والخلقية، وكانت قضية موقفنا من التغريب أبعد ما يكون عن الحسم، وكان الخلاف ما زال محتدمًا بين أنصار تبنى النموذج الغربى وأنصار العودة إلى الأصولية والتمسك بالتراث مع أو بدون تطويره لملائمة متطلبات العصر. فجاءت الثورة فحسمت الأمر لمصلحة التغريب، إنها لم تذهب بالطبع إلى المدى الذى ذهبت إليه ثورة أتاتورك فى تركيا، كما أنها بالطبع لم تحسم الأمر على المستوى الفكرى، ولكنها حسمته على المستوى العلمى بإلقاء كل ثقلها إلى جانب التغريب، واتخذت كل ما كان فى وسعها اتخاذه من إجراءات لترجيح كفته.

لم يكن عبد الناصر ـ إذن مَهمَا بلغت درجة طموحه ـ طموحًا لدرجة أن يتصور أن العرب يمكن أن يقدموا للإنسانية نموذجًا مختلفًا للنهضة، كان هدفه هو المساواة مع الغرب وليس التميز عنه».

«كان من المهم لدى حكومة الثورة بناء مصانع جديدة، لكن لم يطرح تساؤل جدى حول جدول إنتاج السيارات الخاصة وأجهزة التكييف، سواء فى الحال أو

المستقبل، بل لم يثر تساؤل جدى حتى حول اختيار التكنولوچيا الملائمة فى الصناعات الجديدة، ومدى قدرتها على استيعاب الأيدى العاملة. كان من المهم تخريج عدد كبير من المهندسين، ولكن لم يكن من المهم لديها طراز المعمار ومدى اتفاقه مع تقاليد المعمار الإسلامى، أو ظروف البيئة أو عادات الناس. ولنتذكر فى هذا الصدد ما أصاب تجربة المهندس المعمارى حسن فتحى الرائدة من إحباط».

«كان من المهم محو الأمية ـ على الرغم من عجز الثورة حتى عن إحراز نجاح كاف فى هذا الصدد ـ لكن لم يكن من المهم المحافظة على قواعد اللغة العربية من خطر الإهمال أو الابتذال، كان من المهم تمصير المدارس الأجنبية وإخضاعها لإشراف حكومة الثورة، ولكن لم يكن من المهم بعد ذلك النهوض بمستوى تدريس اللغة العربية أو الدين أو التراث العربى، فالمطلوب هو التنمية وليس الإبداع، المطلوب هو التخلص من السيطرة وليس محاولة إعادة اكتشاف الذات».

«إن هذا الذى نقوله لا يتناقض مع ما سبق قوله من أن الثورة بسبب نجاحها فى التخلص من سيطرة الأجنبى فى الخمسينيات والستينيات، وبسبب نجاحها فى إعادة توزيع الدخل لمصلحة بعض الطبقات الدنيا، قد ساهمت فى إحياء بعض وسائل التعبير عن الثقافة الشعبية، ذلك أنه بينما كانت الطبقات الدنيا بما حصلت عليه من دخول جديدة وإسهام أكبر فى الحياة الاجتماعية، تدعم وسائل جديدة للتعبير أقرب إلى نبض الشعب وعواطفه وتقاليده، كان المجتمع ككل يحذو حذو النمط العربى فى الحياة. وقد سار الاتجاهان ـ على الرغم مما يبدو بينهما من تناقض ـ جنبًا إلى جنب، ففى الوقت الذى كان الفلاح المصرى ـ الذى اندرج أخيرًا فى عداد عمال الصناعة أو انضم إلى سكان المدن ـ ينفق جزءًا من دخله الجديد على ارتياد دور السينما التى تقدم أفلام أقرب إلى ذوقه وتقاليده. كان أيضًا يطرح جلبابه ويستبدل به الزى الأوروپى، ويتطلع إلى اقتناء جهاز التسجيل الغربى والمروحة اليابانية، وإلى بناء بيته بالطوب الأحمر».

«وهكذا نلاحظ الظاهرة التى قد تبدو أيضًا غريبة لأول وهلة، وهى أن الأرستقراطية المصرية فيما قبل ١٩٥٢ وإن كانت طبقة ممعنة فى استغرابها، وتنقل من الغرب أدق تفاصيل حياته، فإنها كانت أيضًا فى بعض الميادين أحرص على التمسك بالتقاليد من الطبقات الجديدة التى فتحت لها ثورة يوليو الأبواب على مصراعيها،

فهى بسبب اتصالها الوثيق نفسه بالغرب كانت تعى أكثر من غيرها بعض حماقات النمط الغربى ».

نحن إذًا أمام كتاب مصرى أصيل عن أصالة مصر وماذا حدث لها ولمعشر المصريين، وليس لـ« مشروع » بحثى برىء المظهر يهدف فيما يهدف، شأنه من ذلك شأن المشاريع الممولة من الخارج التى يتصدى فيها المؤلف إلى اختراق نواحى الضعف فى المجتمع، إضافة جديدة إلى مشروع النشر المصرى الرائد الناجح بكل المعايير فى مجالات الفكر والثقافة والسياسة، والفكر الذى يقوده فى صمت وإصرار الأستاذ الكبير مصطفى نبيل.

ـ إن مفهوم، « التحرك الاجتماعى » بالغ الأهمية، إذ أنه يبدأ من التحليل الطبقى التقليدى الذى قدمته الماركسية فى طليعة الفكر الاجتماعى منذ قرن ونصف القرن، ونضيف إليه فكرة الصيرورة التاريخية، أى أنه يحاول أن يتبين كيف تكون جدلية الطبقات والفئات الاجتماعية، تكاملاً وصراعًا، تضادًّا وألفة، فى قلب الأمة العريقة الواحدة، والجديد الذى يضيفه المؤلف يختص بسرعة الإيقاع فى ظروف محيطة لم تكن فى الحسبان، ألا وهى ظروف تأثير انفجار النفط فى المجتمعات العربية، فى قلب المجتمع المصرى خاصة، عقب عقدين من التغيرات الاجتماعية ذات الطابع الحاد، بادئ ذى بدء منذ يوليو ١٩٥٢، وفى مرحلة ثانية ذات الطابع الثورى الوطنى والمجتمعى بعد ١٩٦٤، وإن كان ذلك دون وجهة محددة ولا مشروع.

ـ راجعت ما سطره الدكتور جلال أمين فى الفصل الأول من كتابه عن « الحراك الاجتماعى » وتوقفت طويلاً عند فقرة جاء فيها: « لا عجب أن تؤدى القوانين نفسها إلى نتائج مختلفة فى المجتمعات المختلفة، فلا يمكن مثلاً أن نتوقع أن يؤدى انفتاح دولة كالصين إلى النتائج نفسها التى أسفر عنها فى مصر، حتى لو تصورنا أن الصين طبقت درجة الانفتاح المصرى نفسه، ونقلت عن القوانين نفسها » (ص ١٣). الصين! كيف جاء ذكر الصين فى هذا الكتاب المعنى بأمركة مصر على حد رسم الفنان حلمى التونى على الغلاف؟ لعل المقارنة بالصين تصلح مدخلاً لتفسير ما نحياه فى مصر؟ أى أن جوهر الموضوع يمت إلى خصوصية كل من الأمتين العريقتين، وكذا خصوصية الإطار الچيوـ سياسى المحيط بكل منهما.

والغريب أن السيد «چورچ سوروس» الشهير، الرأس المفكر لاجتماع «المنتدى الاقتصادى الدولى» فى دافوس يتفضل بتقديم سؤال هامشى فى جلسة يوم ١ فبراير ١٩٩٨ : «البنوك هى بمثابة تجار سوق لا ثبات لهم، وليس هناك أية قاعدة مجتمعية تستطيع أن تفعل أى شىء فى هذا الأمر» (أى لا مكان للدول والأمم والعمل السياسى فى غاية السوق) ثم يضيف: «صحيح أن الصين سوف تدافع عن هونج كونج، ولكن ترى من سيدافع عن الصين؟».

التهديد والوعيد واضحان كل الوضوح: يمكن زلزال سوق الصين المالى، ثم سوق هونج كونج ـ المحور المالى للتنمية الاقتصادية فى شرق آسيا كلها ـ بالتلاعب فى هذه الأسواق من الخارج. التلاعب على أيدى سوروس وجهازه. هذا ما لم «تتفهم» الصين الأمر و«تدرك» أنه لا بد من تهدئة الإيقاع مع الصهيونية العالمية.

وقد فات «سوروس» وصحبه دراسة قصة «القط والفئران» وكيف أن القط ـ فى نهاية الأمر ـ سوف يلتهم الفئران لا محالة.

مرة أخرى: هل ترى فى هذا مدخلاً لفهم: لماذا حدث ذلك الذى حدث فى مصر؟

قال صاحبى: «إنت فين واحنا فين؟.. أفراح وليالى ملاح، ومعارضة لعوب، وهجرة إلى الخليج، ثم هجرة أجواء الخليج إلى حضارتنا المدينية.. كل هذا بينما يحكم الحصار بالنار والحديد، بالأساطيل والقواعد والأحلاف الحربية حول مصر مركزًا والخط الرئيسى للشرق العربى الإسلامى من القاهرة، ودمشق إلى طهران!

ألا ترى معى أن الأمرين على علاقة عضوية فى الأعماق؟

أم أن الحكاية كلها فى تغير العادات والتقاليد فى عصر السوقية؟

❁ ❁ ❁

ـ ٢٠ ـ

لمن تدق الأجراس فى الشتاء؟

شتاء البحث عن الحقيقة التائهة. شتاء الظلام، النفاق، التوارى، الادعاء. شتاء الإجرام، شتاء المواجهة. سيل لم نشهده منذ عقد من الزمن من الادعاءات والبيانات المتباينة، والأكاذيب والتعليقات الذاتية غير الموثقة اكتسح بواقى المعقولية والاتزان على معظم وسائل الإعلام السمعية والمرئية فى العالم، وقد تمركزت حول وحى «بى بى سى» بدعم من «بى بى سى» فى عهدها الجديد. أترك هنا أمر قطاع من الصفحات العربية الثرية النفطية التى راحت تؤكد لنا إنها تعلم بواطن الأمور، بل وموعد ومدة الهجوم (ثلاثة أسابيع). أصوات من يدَّعون الثورية يهللون لتقسيم العراق الشقيق، وإقصاء رئيسه. وكأن فى هذا حلاً للقضية ـ قضية الوطنية والقومية والاستقلال..

أقول هذا أمام منظر إفلاس مسرحية جامعة أوهايو عندما نقلت التلفزة تخبط الثلاثى القائد: صموئيل «ساندى» بيير جير، المسئول السياسى، وإلى جانبة «وليم كوهين» المسئول التنظيمى، ثم مسئولة الدعاية والإثارة وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت يوم ١٨ فبراير، أى يومًا واحدًا بعد بيان الرئيس كلينتون المتردد فى وزارة الدفاع بواشنطن.

وفى اليوم التالى أى فى صباح الخميس ١٩ فبراير ١٩٩٨، أعلنت جريدة «إنترناشيونال هيرالد تريبيون»: «التجمع النجومى على التلفزة يتحول إلى مرارة فى قلب أمريكا: إن عدم الثقة فى موضوع العراق يربك المسئولين حول كلينتون».

ـ كيف ولماذا حدث ما حدث فى أمريكا؟ كيف يمكن أن تصل أكبر أداة دعائية فى تاريخ الإنسانية إلى هذا المأزق؟ هل ـ ترى ـ لأن أداة الحرب لم تتحدّ بوضوح؟ هل أن هناك ـ كما قال العزيز «هنرى» كسنجر ـ تخبطًا فى التصريحات اليومية فى ثلاث

اتجاهات كل يوم؟ هل أن كبار القادة العسكريين خاصة رؤساء الأركان الخمسة على غير قناعة بإمكان القضاء على مخازن أسلحة الدمار الشامل المزعومة على أرض العراق؟ وهل أنهم يتساءلون : ماذا بعد هذا الفشل؟ إلى متى موجات الهجوم؟ كيف يمكن تدمير إستراتيچية بعيدة المدى دون تحديد الأهداف السياسية بوضوح ، أو على الأقل : دون الإعلان عنها بصراحة؟ هل أن هناك فارقًا بين جو نيويورك وواشنطن من ناحية وبين داخل البلاد؟ وإن كان هناك فارق فلماذا هذه الهوة الساحقة؟ من المسئول؟

ـ ولعل السؤال ـ التساؤل هو : من هم هؤلاء «المسئولون»؟ ، وما هى المصالح والقوى التى يمثلها ، ترى ، هذا الثالوث الحاكم الذى يحاصر الرئيس كلينتون؟

عدت بالذاكرة إلى أيام دراسة ثورة الاستقلال الأمريكية وما تجمع لدى من وثائق آنذاك خاصة حول كتابات أقطاب الاستقلال ، صانعى «الإعلام العالمى لحقوق الإنسان» . وفجأة ، شاءت الظروف أن يذكّرنا الزميل الأستاذ عرفان نظام الدين على صفحات الحياة الغراء ـ يوم ٤ فبراير ١٩٩٨ ـ بوثيقة تقدم المفتاح ، وهى التى سطرها الرئيس الأمريكى العظيم «بنيامين فرانكلين» عام ١٧٨٧ عندما حذر فى خطاب تاريخى شعب أمريكا من الخطر اليهودى : «هناك خطر محدق بالولايات المتحدة الأمريكية ، هذا الخطر يتمثل فى اليهود ، إذا لم يجر استئصالهم من الولايات المتحدة ، فإنهم وبموجب الدستور وخلال مائة عام على الأقل ، سيتدفقون إلى هذه الدولة بأعداد ستمكنهم من تدميرنا عن طريق تغيير تركيبة حكومتنا ، التى ـ نحن الأمريكيين ـ قد بذلنا الدماء وضحينا من أجلها بحياتنا وممتلكاتنا وحريتنا الشخصية من أجلها. إذا لم نستأصلهم ، فإن أطفالنا خلال مائتى عام سيعملون فى الحقول لإطعامهم ، بينما هم سيكونون فى مكاتبهم يفركون أياديهم وقد أخذتهم النشوة ، إنى أحذركم ، أيها السادة... إن أطفالكم وأطفال أطفالكم سوف يلعنونكم فى قبوركم.. إن قيمهم بعيدة عن قيمنا ـ نحن الأمريكيين ـ على الرغم من أنهم يعيشون بيننا منذ عدة أجيال ، إن النمر لا يستطيع أن يغير جلده. سيعرضون مؤسساتنا ومجتمعنا للخطر ، يجب استئصالهم بطريقة دستورية» .

هذا إذن جوهر الموضوع : إن غالبية القيادة المركزية فى دولة الهيمنة لا تمثل بحال من الأحوال أصحاب المصالح الحقيقية فى الولايات المتحدة ، ولا تاريخ أمريكا الأصيل

العظيم، ولا طموحاتها المستقبلية كدولة عظمى فى منظومة الدول العظمى التى تتشكل يومًا بعد يوم، وإنما هذه الدوائر القيادية الصهيونية تمثل مصالح أعداء أمريكا ـ باسم أمريكا. لقد دبَّت الصهيونية العالمية أركانها فى قلب جهاز القيادة الأمريكية، وراحت تسمِّم تحركه وتدفعه إلى المأزق.

ـ وهذا تمامًا ما توصل إليه «كارل ماركس» أيام شبابه فيلسوفًا ومؤرخًا لألمانيا فى بحثه النادر ثاقب النظر «حول المسألة اليهودية»، وهو الكتاب الذى لا يكاد يجده المشترى فى أى من طبعاته فى أية لغة غربية فى أية عاصمة من عواصم الغرب ـ اللهم إلا فى الأعمال الكاملة التى تبلغ الخمسين مجلدًا ـ أدرك ماركس أن تسلط نفس هذه القوى يفسد المعانى الديمقراطية العقلية لنهضة أوروپا منذ القرن السادس عشر، وقد دفعت بها إلى تقديم صراع الطبقات وسيطرة الأقلية الرأسمالية بالقوة على أمور الدول الأوروپية، مما فجر الصراع الطبقى.. ودفع به إلى طرح الاشتراكية مخرجًا مستقبليًّا إنسانيًّا لأخلاق سيطرة دوائر المال والسوق.

نفس المعانى التى أعلنها الچنرال ديجول بعد حرب يونيو ١٩٦٧ عن تعالى اليهود على بقية القوم. والتى أثارت ضده ثورة يهود فرنسا واضطرته إلى الاستقالة عام ١٩٦٩.

لماذا الآن؟ البترول... ورغم هذا كله، ورغم مفاجأة الأسبوع الماضى (١٧ـ٢٣ / ٢ / ١٩٩٨) المذهلة، التى تؤكد فشل الإعلام الصهيونى فى كسب الرأى العام العالمى، يبقى السؤال كاملاً: لماذا الآن؟ ما السر فى هذا التوقيت بين خريف ١٩٩٧ وربيع ١٩٩٨ فى ظلمات هذا الشتاء المظلم؟ ما الجديد ترى؟ إيه الحكاية؟

وصلنا إلى جوهر المنطقة الرمادية وراء «رداء السحاب» أى العبارات المعسولة التى تُخفى التحركات الإستراتيچية. من المعروف أن العالم العربى فى الشرق الأوسط تم تقسيمه بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ بين إنجلترا وفرنسا إلى مناطق احتلال ونفوذ شملت حوض وادى النيل والشرق الأدنى أساسًا، هذا بينما انطلقت الولايات المتحدة إلى منطقة الجزيرة العربية والخليج لتؤمن موارد الطاقة، فى الأساس النفط، فكانت أول الدول الأوروپية فى الاعتراف بالأنظمة السياسية فى هذه الدائرة، وظل الأمر كذلك

حتى اليوم دون مواربة. أمر معقول ومفهوم وقد تجلّى فى أرفع صوره أثناء حربى الخليج الأولى، عندما دفعت الولايات المتحدة العراق إلى ضرب ثورة إيران الإسلامية، ثم الثانية عندما شجعت العراق إلى قطف ثمار انصياعه فى الحرب الأولى بالانطلاق إلى الكويت.

الجديد فى الموضوع يتمثل فى الموضوع الذى أشرنا إليه مرارًا وتكرارًا بالتفاصيل والإحصائيات المتاحة ألا وهو: اكتشاف دائرة احتياطى بترول وكذا غاز طبيعى تقترب من طاقات الدائرة العربية الخليجية، وذلك فى منطقة بحر قزوين، من أذربيجان وتركمنستان وأوزبكستان وكازاخستان، وهى المنطقة التى يقدر الخبراء الغربيون أنها تحتوى على مائتى بليون برميل نفط، بينما ترى حكومة كاراخستان أن احتياطى النفط بها وحدها يأتى فى المقام الثانى بعد احتياطى المملكة العربية السعودية، أى أن مجموع احتياطى مجموع الجمهوريات الإسلامية الأربع فى آسيا الوسطى يصل على الأقل إلى مستوى ما هو قائم اليوم فى الدائرة النفطية العربية الخليجية. هذا مع العلم أن رقم مائتى بليون برميل يمثل احتياج الولايات المتحدة للطاقة لمدة أكثر من ثلاثين عامًا. هذا بالإضافة إلى أن علماء الچيولوچيا يعتبرون أن هذه المناطق الجديدة لم يتم مسحها إلا فى أجزاء ضئيلة جدًا، وبحيث يمكن التنبؤ بأنها سوف تقدم ثروات هائلة غير مرتقبة.

ــ المعركة الدائرة الآن هى: إلى أين يتم نقل هذه الكميات الهائلة من النفط والغاز؟ أى: من يفيد منها؟ الفكرة العامة بسيطة فى أول وهلة: ذلك أن خط الأنابيب الجنوبية أو الشرقية يمكن أن تخدم سوق آسيا، بينما تخدم خطوط الأنابيب الشمالية احتياجات روسيا، وخطوط الأنابيب الغربية أوروپا، سيما أن احتياطى المنطقة البترولية فى أوروپا الشمالية لا يزيد على خمسين بليون برميل. عند هذا الحد تبدأ الصراعات:

١ ـ خط الأنابيب الشمالى هو الذى تفضله روسيا. إنها تقترح أن تلتقى خطوط الأنابيب القادمة من حقول «تانجيز» الرئيسية فى كازاخستان شرقًا إلى الأنابيب الروسية بحيث تصب فى ميناء نوفوروسيسك الروسى على البحر الأسود بعد بناء أنابيب جديدة من باكو إلى نوفوروسيسك وذلك بعد مفاوضة شيشينيا.

٢ ـ خطوط الأنابيب الجنوبية وهى التى تمتد بين آسيا الوسطى إلى إيران وكذا نصف القارة الهندية. وقد تم افتتاح أول خط مشترك لنقل الغاز من ميناء «تركمان باشى» فى غرب تركمنستان إلى إيران يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٧. وذلك، على أساس أن إيران تمتلك أهم مجموعة من خطوط الأنابيب فى المنطقة فضلاً عن أن الخليج ـ خاصة ميناء «بندر عباس» الإيرانى ـ خير قاعدة لنقل البترول إلى أسواق آسيا. ومن الطبيعى أن تعادى الولايات المتحدة هذا الحل بكل ما تملك من قوة محاولة استمالة أذربيجان، فضلاً عن أن أمن هذا الطريق مرهون بالسيطرة على مضيق هرمز الذى يربط بين الخليج الفارسى وخليج عمان تجاه المحيط الهندى.

٣ ـ خطوط الأنابيب الغربية التى تفضلها الولايات المتحدة، وكذا تركيا وأذربيجان وچورچيا، والتى سوف تصب إلى ميناء «سوب ساه» فى جورجيا على ساحل البحر الأسود (ومن بعدها المضايق التركية تجاه البحر الأبيض المتوسط) وكذا إلى ميناء «سايهان» فى جنوب تركيا، على حدود سوريا. والمشكلة هنا هى أن المضايق التركية لا تستطيع أن تستوعب سيل ناقلات البترول العملاقة. وكذا فإن خط الأنابيب الجديد إلى ميناء سايهان التركى سوف يتكلف نحو ثلاثة بلايين دولار، كما أنه يجب أن يمر عبر منطقة ثورة كردستان غير المأمونة.

٤ ـ وأخيرًا خط الأنابيب إلى الشرق وهو الذى ينقل معظم ناتج البترول وكذا الغاز الطبيعى عبر كازاخستان إلى الصين ثم يمتد تحت بحر اليابان حتى يصل إلى اليابان. وهذا هو القرار الإستراتيچى الأكثر خطورة بالنسبة لمستقبل الدول الصناعية فى حلف شمال الأطلنطى، إنه يؤمن صعود الترسانة التصنيعية فى الصين واليابان، وكذا كوريا ومنطقة جنوب شرق آسيا. هذا بالإضافة إلى أنه يؤكد معنى اتفاق «الشراكة الإستراتيچية بين روسيا والصين.

الصراع إذن بين هذا الاتجاه إلى الشرق يدًا فى يد مع روسيا، وهو الأمر الذى تؤكده الاتصالات الصينية الكازاكية الروسية المستمرة لبناء الخط الثالث للطريق الحديدى عبر سيبيريا. وهو المغزى الحقيقى لتلاقى إرادة روسيا والصين المعلنة برفض الحل الحربى فى الخليج يوم اجتماع رئيس جمهورية روسيا ورئيس وزراء الصين فى موسكو يوم الثلاثاء ١٧ فبراير ١٩٩٨.

أهداف الإستراتيچية الهجومية كان لا بد إذن من التحرك الإستراتيچى الهجومى السريع.

ـ بدأ الإعداد للتحرك الأمريكى فى الخريف الماضى، وعلى وجه التحديد فى شهر سبتمبر، عندما تحركت وحدات من الفرقة ٨٢ المحمولة جوًا للجيش الأمريكى من كارولينا الشمالية إلى «كازاخستان» أى مسافة ١٩ ساعة من الطيران دون توقف لقطع ١٢٣٠٠ كيلو متر. قالت السيدة «كاترين كيلى هير»، نائبة مساعد وزير الدفاع الأمريكى كوهين: «ما نحتاج إليه هنا إنما هو دول مستقلة ذات سيادة تستطيع أن تدافع عن نفسها نظرًا لإمكانات الصراع وكذا لوجود كميات هائلة من الطاقة». وأضاف الچنرال «چون شيهان» القائد العام آنذاك للقيادة الأمريكية للمحيط الأطلنطى ما يلى: «إن الرسالة التى أود أن أتركها هى أنه ليس هناك أمة على سطح الأرض لا تستطيع أن نتوصل إليها.» ثم كان حشد الأسطول الإستراتيچى والقوى الجوية الضاربة، وكذا القوى البرية الخاصة (البريطانية أساسًا) للعمل وراء الخطة.

وقد نشرت جريدة «نيويورك تايمز» يوم ١٤ فبراير ١٩٩٨ تقريرًا بالغ الخطورة بعنوان «القنابل وحدها لن تستطيع زلزلة العراق بشكل جدى» بقلم الخبير الإستراتيچى «برنارد ترينور»، وقد جاء فيه عرض تفصيلى لرأى كبار القادة الأمريكيين فى هيئة الأركان العامة وميدانيا وخلاصته، أن العملية كلها لن تتعدى مجرد «حَفر حُفرٍ واسعة فى الصحراء. هذا ـ بالطبع ـ لو كان الهدف هو مجرد ضرب العراق وحده.

إن تقسيم العراق يعنى إقامة مناطق واسعة تستطيع أن تنتقل إليها القوى الجوية والصاروخية الضاربة، بما فى ذلك القوى النووية الأمريكية، من الخليج إلى مراكز أمامية على حدود إيران وتركيا ومنطقة بحر قزوين جنوب روسيا، صوب آسيا الوسطى. أى فى كلمة: إن القوى الإستراتيچية الهائلة فى الخليج تهدف أولاً إلى تقسيم العراق، ولكن لا كهدف فى حد ذاته، ولكن كخطوة أولى لتمكين الولايات المتحدة من التسلط على دائرة احتياطى النفط والغاز الثانية فى العالم بعد الجزيرة العربية والخليج، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا بتركيز القوى الضاربة على حدود هذه المنطقة، بعد تقسيم العراق.

وفى هذا أيضًا ما سوف يمكن الولايات المتحدة ـ أو هكذا تتصور ـ من قطع خط الأنابيب الشرقى من أذربيجان وأوزبكستان عبر كازاخستان إلى الصين واليابان، جوهر اتفاقية «الشراكة الإستراتيچية بين الصين وروسيا التى تم توقيعها فى أبريل ١٩٩٧.

من هنا جاءت الضربة المضادة:

رحلة الوزير كوهين إلى موسكو وما تم له يوم ١٢ فبراير ١٩٩٨. كان يتصور أن الموضوع دبلوماسيات وابتسامات، وأن روسيا على استعداد لتوقيع المرحلة الثانية من الحد من الأسلحة النووية بعد إضعافها. وفجأة رآه الجميع على شاشات التلفزة، رأيناه يواجه المارشال إيجور سيرجييف وزير دفاع روسيا وكبار القادة الروس وقد اتجهوا إليه بأسلوب لم يعهده: «هل أمريكا مستعدة حقيقة لمواجهة كافة نتائج الهجوم ضد العراق؟ هل أن موقف الولايات المتحدة الذى لا يود التفاهم مع العراق يخدم دعم الاستقرار والأمن فى العالم؟ هل قدرت أمريكا ما يترتب على تدمير مخازن الأسلحة الكيماوية والبيولوچية على افتراض وجودها بالعراق بالنسبة لنشر الدمار على آسيا الوسطى؟ إن هذا الأمر سوف يضر بعلاقتنا. إنه سوف يعود بها إلى الوراء عدة سنوات. ليس لدينا حدود مشتركة مع العراق، وإن كان هذا الأمر لا يهم فى حالة الأسلحة الكيماوية». وفجأة ـ وأمام العالم على شاشات التلفزة ـ خرج الوزير كوهين المعروف بشموخ القامة والتحدى والعنجهية والاستفزاز، خرج وكأنه شاب مبلل، عيونه زائغة، منحنى القامة ـ وتكاد أسنانه تصطك ـ ويتحدث بصوت خافت يؤكد أن الرئيس الأمريكى متزن فى تصريحاته، إلخ.. إلخ، وبعد أيام ذهب سفير أمريكا فى الأمم المتحدة ريتشاردسون إلى بكين واجتمع بوزير خارجية الصين «كياو كى شين»، عضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى، وخرج يدعى أنهما على وفاق. وفورًا ظهر وزير خارجية الصين يؤكد أن الصين لن توافق على أى هجوم عسكرى على العراق. وأخيرًا ليس آخرًا، فما زلنا فى بداية الشوط. جاء يوم الثلاثاء ١٧ فبراير ١٩٩٨ ليؤكد بداية كسر الانكسار. ألقى الرئيس يلتسين على غير موعد سبق تقريره السنوى عن حالة اتحاد روسيا الفيدرالى أمام الدوما حيث الغالبية المطلقة للحزب الشيوعى، وإذ به يشجب السياسة العدوانية الأمريكية بعنف وإصرار مكررًا للمرة الثالثة فى أسبوع واحد أنها قد تؤدى إلى تفجير السلام العالمى، وإذ بزعيم حزب اليمين

obeikan.com

الليبرالى «ڤلادمير جير ينوڤسكى» يقف فى الصالة يناديه بأعلى صوت، وهو المعارض دومًا لرئيس روسيا: «أنت الأمل الوحيد. أنت وحدك تستطيع أن توقف هذه الجريمة. أستحلفك باسم روسيا أن تفعل هذا! وإذ بالرئيس يلتسين يرد عليه مؤكدًا: «دعنى أؤكد لك أنه لا يوجد إنسان فى العالم يعمل ليل نهار مثلى لإنقاذ الموقف فى العراق» وفى اليوم نفسه وصل إلى موسكو رئيس وزراء الصين وعضو اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى «لى بانج» ممثلاً للقيادة الصينية المركزية، واجتمع بالرئيس يلتسين، وأكد الطرفان رفضهما لسياسة الحرب وضرورة حل الأزمة بين لجنة التفتيش والعراق حلاً سلميًّا دبلوماسيًّا سياسيًّا حفاظًا على السلام العالمى. جولة قد تكون واسعة. وهنا لا بد من كلمة تعبر عن العقل والوجدن معًا: كلمة تحيه وتقدير ووفاء للوجوه العربية التى وقفت فى هذه المحنة بذكاء وشموخ، رغم الحصار، الأمين العام لجامعة الدول العربية الدكتور عصمت عبد المجيد الذى حاصره الحقد الصهيونى. رئيس مصر ووزير خارجيتنا وقد رفعا رأس الدولة المصرية ناصعًا، وكانت مصر على أبواب تجميع الرأى العربى، لولا ما تم فى القمة الخليجية، وهو الأمر الذى دفع برئيس مصر أن يعلن أنه «ليس هناك مبادرة عربية» بطبيعة الأمر، ما دام أن الإجماع على هذه الأمور البسيطة لم يمكن موجة الأكاذيب والافتراءات والاتهامات غير الموثقة تنطلق على ألسن كبار وجوه القيادة اليهودية، وتدعى ــ رغم تكذيب الرئيس الأمريكى ــ أن الجزائر وليبيا والسودان أصبحت مستودعات لأسلحة الدمار الشامل العراقية ـ إن كانت هناك مثل هذه الأسلحة.

ــ والهدف واضح، ألا وهو محاصرة الدائرة العربية المركزية، أى محور مصر ـ سوريا من ناحية، ثم كسر المحور الإسلامى الصاعد العربى ــ الإيرانى، من أجل التفرد بمحاصرة آسيا الوسطى، مستودع البترول والغاز الرئيسى فى القرن الحادى والعشرين، طريق الحرير الجديد مفتاحًا لنهضة شعوب الشرق وصياغة العالم الجديد.

ــ أما الأداة فهى أيضًا دون قناع: الأسطول السادس الأمريكى يحاصر الجزيرة ــ ليبيا ـ السودان ومصر. الحلف الإستراتيچى بين تركيا والدولة الصهيونية يحاضر سوريا ولبنان وفلسطين والشرق الأدنى العربى. الأسطول الأمريكى الهجومى فى الخليج يستهدف العراق وإيران توطئة للوثبة إلى حدود روسيا وآسيا الوسطى.

وإن تساءلنا مع شاعر إنجلترا الكبير فى القرن السابع عشر «چون دون» : «لمن تدق الأجراس؟» ، لكان علينا أن نعلن أن الأجراس فى هذا الشتاء الأسود تدق لدعاة التبعية والاستسلام ، لأبواق الحقد والشماتة ، نعم ، ولكنها تدق أيضًا لنظام الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية ، ومستقبل من يسانده فى الغرب ، فإن كان «الزمان لا يعود» حقيقة ، فكذا صدق شاعر فرنسا العظيم «لويس أراجون» عندما صاح عام ١٩٦٨ : «إن المستقبل لم يتحقق بعد فى الحياة» .

قال صاحبى : أراك تكرر من جديد نفس العبارة : «المسائل غير واضحة.. كله خير..» كما كان يعاتبك ضاحكًا صديق النضال الراحل العزيز عبد الستار الطويلة. أم أن الأمور بدأت تتضح لمن يريد أن يرى؟.. وأن الخير ممكن؟.. ترى : بأى ثمن؟..» .

۞ ۞ ۞

obeikan.com

ـ ٢١ ـ
أفكار لها تاريخ

كيف كانت أيامنا ولياليها فى بداية الحرب العالمية الأخيرة، ترى؟ بلاد مصر المحروسة تحت الاحتلال العسكرى المكثف وقد تحولت إلى القاعدة الإستراتيچية للسيطرة على الشرق الأوسط بإمرة رئيس وزراء إنجلترا «تشرشل»، وقد حشدت قوات هائلة بلغت نحو ٥٦٠ ألف رجل، ومنهم عدد كبير من ألوية الدبابات والمدفعية الثقيلة، وعشرات أسراب قاذفات القنابل والمقاتلات، وكذا الأسطول البحرى المسيطر على البحر الأبيض بدءًا من الإسكندرية، القاهرة تحولت إلى قلعة، ثكنات قصر النيل (حيث الآن جامعة الدول العربية وفندق هيلتون) حتى كوبرى بولاق كانت طابية للسيطرة على وسط المدينة وبها فرقتان بكامل العدة والعتاد. القلعة تحت سيطرة قوة ضاربة أخرى، وكذا ثكنات باب الحديد. دعنا من قاعدة قناة السويس بالغة الأهمية. انهالت أسراب قاذفات القنابل الخفيفة الألمانية «شتوكا» على مطارات القاهرة، وخاصة مطار ألماظة قرب مصر الجديدة، ليلة بعد ليلة تعيد الطريق لتقدم جيش إفريقيا الألمانى بقيادة رومل، الظلام الدامس يسيطر على العاصمة.

إلى أن كان صيف ١٩٤١ الرهيب: الغزو الألمانى للاتحاد السوڤييتى حتى أبواب موسكو، وكذا اندلاع الحرب فى المحيط الهادى بعد غارة الطيران اليابانى وتدمير الأسطول الأمريكى فى قاعدة «بيرل هاربر».

العالم يشتعل ...

أين نحن من هذا كله؟ ما العمل؟ تسرب إلى قلوب الآلاف من شباب مصر آنذاك من كافة الاتجاهات شعور غامض ولكنه أكيد أن هذه التبعية الكبرى سوف تتيح لمصر ـ

ونحن أركان حركتها الوطنية الشابة ــ أن تفلت من قبضة الاستعمار والهيمنة، أن نستغل الثغرات، أن تشارك ـ من يدرى ـ فى ثمرات انتصار مبادئ الديمقراطية وحرية الشعوب، الخطوات الأولى فى مسيرة «جيل كان على موعد مع القدر» كما قال جمال عبد الناصر فى عبارة نسيناها.

فى هذا الجو الملتهب الشيق، الذى لم يتوقعه أحد آنذاك، بدأت حياتى العملية موظفًا فى البنك الأهلى المصرى بمرتب ثمانية جنيهات فى الشهر (أى نحو ٨٠ جنيهًا اليوم). ولم أبلغ بعد السادسة عشرة من عمرى، رحت ألتهم الكتب والمجلات وأبحث عن أفكار وتفسيرات، شأنى فى ذلك شأن الآلاف المؤلفة من شباب مصر. إلى أن كان اللقاء الأول مع ساحة واسعة من الفكر الثورى فى مكتبة نادرة لأحد الأقارب من أعضاء جماعة «الخبز والحرية» يسكن قريبًا منا فى شارع البارون إمبان فى مصر الجديدة. كان اللقاء الأول مع مجلدين من «الأعمال المختارة لرائدين للفكر الاشتراكى اسمهما ماركس وإنجلز ـ اللقاء الأول.

كنت أتصفح الأجزاء دون منهج محدد حتى التقيت بكتاب لا يتعدى ثمانى وأربعين صفحه ضمته هذه الأعمال المختارة، بنصه الكامل، العنوان غريب ولكن العبارة الأولى، وكذا العبارة الأخيرة ألهما الحواس، وكأنهما تصبان فى جوهر المأساة: «شبح يهدد أوروپا ـ شبح الشيوعية» ثم المأساة الأخيرة: «فلترتعد الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية. ذلك أن العمال لن يفقدوا فيها إلا قيودهم. بينما العالم أمامهم لكى يصبح لهم، يا عمال جميع البلاد، اتحدوا!». وبين هاتين العبارتين كتاب «البيان الشيوعى».

صدى العبارات، والتحليل بين الصفحة الأولى والصفحة الثامنة والأربعين لم يكن فى الحسبان الحديث كله عن أوروپا والصراع بين الطبقتين الرأسمالية والعمالية. ولكن الوجهة والرؤية مغايرة. إن واضعى هذا البيان الذى يحتفل العالم اليوم بالعيد الخمسين بعد المائة من صدوره. وقد أصبح أكثر الكتب انتشارًا فى العالم، فى العصر الحديث بعد الكتب السماوية، يتحركان فى إطار رؤية وجو حول محاور تمت إلى مفاهيم تحرر. التحرر من الطغيان والتغيير الدائم، وبناء عالم جديد حيث يصبح للغالبية المطحونة المكانة الطبيعية اللائقة بها بعد نهاية الطغيان.

كانت هذه الذكريات، ذكريات شهر مارس ١٩٤١ على وجه التحديد في مثل هذه الأيام وأنا أتساءل: ما مغزى هذا كله في ربيع ١٩٩٨ بعد مرور أكثر من نصف قرن من العمر؟ دخلت مكتبة في الحي الصيني في باريس واقتنيت الطبعة الجديدة لكتاب «البيان الشيوعي».

السطر الأول من جديد بعد نصف قرن نفس الصيحة، ثم رحت أقرأ بدقة وإمعان، وإذ بالكتاب وكأنه قد صدر اليوم، وإذ بالمعاني وكأنها هي التي نتحاور حولها، نختلف، نتفق، نتلاقى، نتصادم، نتساءل: الكتاب كأنه كتب اليوم ـ مع فارق بسيط واضح من حيث المصطلح. ماذا مثلاً، لو استبدلنا كلمات معدودات مثلاً بدلاً من كلمة «الشيوعية» نضع كلمة «التحرر الوطني». وبدلاً من تسمية «الطبقة العاملة» نستعمل عبارة «شعوب الشرق المستغلة» (أو القارات الثلاث، أو العالم الثالث، أو الجنوب كما يقولون)؟

الكتاب، بداية ونهاية، قصة الظلم وإنهاء الظلم، الهيمنة والقضاء على الهيمنة، التبعية والتحرر. الكتاب إعلان لإنسانية جديدة، يصبح فيها الإنسان مالكًا لمصيره، بدلاً من أن يكون أداة لقوى الاستغلال والسوق. من هنا، ربما، هكذا شعرت بشكل غامض، من هنا كان اهتمام العالم أجمع بالاحتفال بذكراه.

من هنا، كان لزامًا علينا أن نقف لحظة لنتبين ما هو حي في هذا البيان الذي غيَّر مصير العالم، وكيف ـ ترى ـ يكون تأثيره على صياغة عالمنا الجديد؟

محاور الفكر التساؤلي

١ ـ **التساؤل الأول**: كيف يمكن تفسير قوة الطبقات والدول الحاكمة الآن، أي عام ١٨٤٨.

كانت فلسفة التاريخ العنصرية الغربية التقليدية ـ ولا تزال إلى حد بعيد ـ تدعى للإنسان الغربي، بدءًا من يونان (قبل أن نكتشف أن يونان كلها بداية ونهاية صيغت في قلب الحضارة المصرية الفرعونية منذ القدم)، نقول كان مفهوم صعود أوروپا إلى مكانة الهيمنة منذ القرن السادس عشر لا يعترف إلا بتفوق الإنسان الغربي، ورسالة الغرب

الحضارية، فى مقابل انحدار المجتمعات اللاغربية، وتخلف الأمم والدول والشعوب الهامشية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وعند المؤلفين الشابين أن الأمر ليس كذلك: «إن اكتشاف أمريكا، وطريق رأس رجاء الصالح فتحا أمام البرجوازية الصاعدة مجال عمل جديدًا. إن أسواق الهند الشرقية (أى الهند وكذا جنوب شرق آسيا) وكذا الصين، ثم استعمار أمريكا، والتجارة مع المستعمرات، وتزايد وسائل التبادل ونقل البضائع بوجه عام منحت التجارة والملاحة والصناعة نموًا لم تكن عرفته قط فيما قبل.» أى أن الأساس الاقتصادى المادى ـ وهو الذى مكَّن الطبقات الرأسمالية الحاكمة فى أوروپا من التقدم ـ كان نتاجًا للاكتشافات البحرية، وهنا لا يرى ماركوس وإنجلز الروافد الأخرى كما سنرى فيما بعد.

٢ ـ **التساؤل الثانى**: ماذا عن دور البرجوازية الرأسمالية؟

يقول المؤلفان الشابان: «لعبت البرجوازية فى التاريخ دورًا ثوريًا رفيعًا، ذلك أنها ـ حيث تولت السلطة ـ فقد قضت البرجوازية على كل العلاقات الإقطاعية والأبوية والهيامية. وكذا فقد مزقت دون شفقة الشبكة المتنوعة للعلاقات الإقطاعية التى كانت تربط بين الإنسان ورؤسائه الطبيعيين، ولم تترك من علاقة بين الإنسان والإنسان إلا المصلحة العارية، إلا الدفع الفورى. إن البرجوازية رمت إلى المياه المثلجة للحساب الأنانى كافة إرهاصات الهيام الدينى المقدس، وحماسة فرسان، واكتئاب صغار البرجوازيين العاطفى، لقد حلت البرجوازية الكرامة الشخصية ووضعت مكانها قيمة التبادل، واستبدلت العديد من الحريات المعترف بها بالوثائق، بعد ثمن غال، بحرية واحدة ألا وهى حرية التجارة دون أدنى تساؤل، وفى كلمة: فقد استبدلت البرجوازية إلى الاستغلال وراء أقنعة الأساطير الدينية والسياسية الاستغلال الصريح، الغادر، المباشر، العارى. لقد انتزعت البرجوازية كافة النشاطات التى كانت تحتضر حتى ذلك الحين والتى كان ينظر إليها بتقديس ممزوج بالخوف نزعت عنها مكانتها. هكذا حولت الطبيب ورجل القانون ورجل الدين والشاعر والعالم إلى عمال يعملون مأجورين لها. وكذا فإن البرجوازية مزقت الغلاف العاطفى الرقيق المحيط بالعلاقات العائلية حتى هذا الحين وأعادتها إلى علاقات المصلحة المالية المباشرة، إلى أن يقولا: «لقد كشفت البرجوازية كيف أن مظاهر القوة الوحشية التى تثير إعجاب الرجعية فى العصور

الوسطى (الأوروبية) اقترنت مع الكسل فى أحقر معانيه بوصفه الوجه الآخر لها. إن البرجوازية كانت أول من أظهر ذلك الذى يمكن أن يحققه نشاط الإنسان. إن البرجوازية حققت منجزات خارقة أرفع بكثير من أهرامات مصر والقنوات المائية الرومانية والكاتدرائيات الجونسية (الكاثوليكية) وكذا أنجزت حملات أهم بكثير من الغزوات الكبرى والحروب الصليبية».

٣ ـ **ثم التساؤل الثالث**: ماذا عن الحالة الداخلية لهذا الانتصار الخارق؟

عند هذا الحد يقدم ماركس وإنجلز الصورة التى نعرفها وأصبحت تقليدية ــ فى العلوم الإنسانية والاجتماعية ــ حول استغلال الطبقات العمالية والكادحة فى المدن والريف، وكذا شعوب المستعمرات والدول التابعة، بدءًا من الرسالة الرئيسية: «إن تاريخ كل مجتمع حتى أيامنا، تاريخ صراع الطبقات» ولا داعى هنا لسرد تفاصيل التحليل الذى أصبح ــ كما قلنا ــ جزءًا من الثقافة العامة لعصرنا. ولكنما جوهر الموضوع هو أن الانتصار المظفر يقوم على أساس صراع مستمر بين من يملكون وسائل الإنتاج وهم قلة، وبين غالبية العاملين فى المصانع والحقول، فى المكاتب والمؤسسات، وكذا فى عالم الدول التابعة الذى لم يعن به ماركس وإنجلز فى هذا الحين. أى أن المكانة المرموقة لأوروپا فى منتصف القرن التاسع عشر لم تأتِ كنتيجة لتفوقها العلمى ـ ودعنا من تفوقها «الذهنى» أو «الفكرى» ـ وإنما من خلال طحن أوسع مساحة من الجماهير الكادحة لتحقيق فائض القيمة، ثم استعمال هذا الفائض لتغيير العالم الإقطاعى إلى عالم الحداثة منذ قرن ونصف قرن.

٤ ـ أخيرًا، وليس آخرًا، مسألة العولمة عام ١٨٤٨، بمعنى مائة وخمسين عامًا قبل أن يتزاحم مُنظِّرى اليوم على عجالة على سلم التعليق على هوامش مركز الهيمنة الأمريكى ـ الصهيونى. إن الليبرالية تحت تأثير حاجتها إلى إيجاد منافذ أوسع باستمرار لمنتجاتها ـ تنتشر على الأرض كلها ـ يجب عليها أن تتأسس فى كل مكان، وترسخ فى كل مكان، وتقيم فى كل مكان ومع كل مكان علاقات. إن البرجوازية بواسطة استغلال السوق العالمية أعطت صبغة كوزموبوليتيه (أى: كوكبية) إلى إنتاج واستهلاك كافة البلدان، إن الاحتياجات القديمة التى كانت تلبيها المنتجات القديمة بدأت تحل محلها احتياجات جديدة تحتاج إلى منتجات الأقطار والأجواء من أجل تلبية متطلباتها، إن

العزلة القديمة للأقاليم والأمم التى كانت تكتفى بنفسها، حلت محلها علاقات عالمية وتبعية متبادلة عالمية للأمم. وكذا فإن ما هو حقيقى فى مجال الإنتاج المادى حقيقى أيضًا فى مجال الإنتاج الذهنى. إن إنتاج فكر مختلف الأمم يصبح ملكًا شائعًا. إن انغلاق وضيق الأفق القومى يصبح مستحيلاً أكثر فأكثر، ومن ثم ينشأ أدب عالمى من تعدد الآداب الوطنية والمحلية، هكذا فإن البرجوازية تدفع بشراسة كافة الأمم ـ وحتى أكثرها تخلفًا ـ إلى الحضارة، بفضل التطوير السريع لكافة المواصلات التى أصبحت أكثر سهولة بكثير» الخ.. الخ، فى مسألة القضاء على شخصية الأفراد وتحويلهم إلى أشياء وسلع (أى ظاهرة تشيىء الإنسان)، فى المجتمع البرجوازى يتمتع رأس المال باستقلال وطابع خاص بينما نرى الفرد النشيط مجردًا من كل استقلال وشخصية. فى المجتمع البرجوازى يهيمن الماضى إذن على الحاضر، بينما فى المجتمع الشيوعى ترى الحاضر يهيمن على الماضى».

القائمة تطول، تتتالى الصفحات والرسائل، يكاد السياسى وكذا الباحث الجاد يعرفها وكأنها أصبحت جزءًا من رأس المال الثقافى الفكرى العام للإنسانية مرة أخرى، ورحت أفكر فى لقائنا الأول فى يناير ١٩٤١.

تغيير العالم يتحدى

ـ المحور الأول الذى يحتاج إلى توضيح وتعميق إنما هو موضوع القومية ـ الوطن ـ الأمة ـ بوصفها الإطار السياسى لصياغة التاريخ. ذلك أنه من الواضح أن «البيان» اهتم بتقديم صراع الطبقات إلى المقام الأول على أساس أن الأمم الأوروپية مستقرة فى نظام عالمى يتمحور حول أوروپا، وبالتالى فإن القضايا الوطنية ثانية الأهمية بها بعد ١٨١٥. ومع هذا ورغم هذا، فهناك عبارات تضىء طريقًا معينًا: «العمال لا وطن لهم، إذ لا يمكن أن يؤخذ منهم ذلك الذى لا يملكونه، ومن هنا فإن على الطبقة العاملة أن تستولى أولاً على مكانة السيادة السياسية، أى أن تصبح طبقة وطنية، وأن تتحول هى ذاتها إلى أمة.. وبقدر ما يتقلص استغلال الإنسان لأخيه الإنسان يتقلص استغلال الأمة على يد أمة أخرى. هكذا فإن نهاية صراع الطبقات داخل الأمة يقترن بنهاية العداوة بين الأمم». التوجه العام لا النظرية الدقيقة. لا يمكن أن تسلب أحلامًا لا يملكه، نعم. أفلا ترى فى هذا صدى للعبارة المأثورة فى مصر أيام الاحتلال البريطانى

فى عهد كرومر: «بلاد مصر خيرها لغيرها»؟ ألم يكن معنى فى ذلك الحركة الوطنية أن يعود خير مصر إلى بلاد مصر، أن تعود مصر إلى شعب مصر؟ وعندما يعود خير البلاد إلى شعب الوطن، أليس فى ذلك تحقيقًا لفكرة الوطن المستقل والقومية الثابتة والأمة الناهضة؟

ـ المحور الثانى الذى فى حاجة إلى التطوير الكبير إنما هو محور السياسة العالمية، وعلى وجه التحديد موضوع الچيوسياسة. مرة أخرى كتب المؤلفان «البيان» فى جو سادت فيه أوروپا العالم، ولم تندلع بعد الثورات الوطنية التحررية الكبرى، وكذا لم تظهر الولايات المتحدة الأمريكية على صورة دولة كبرى، بحيث إن موضوع الچيوسياسة لم يكن فى المقام الأول من الاهتمام. وبالفعل فقد تكونت الچيوسياسة فى الأساس منذ نهاية القرن التاسع عشر وازدهرت فى القرن العشرين، وتجلت بدءًا من صحوة شعوب الشرق، وبزوغ الولايات المتحدة، ثم انكسار الغرب إلى معسكر رأسمالى واشتراكى، حتى تحرير الصين، ربع الإنسانية.

ـ والمحور الثالث ـ وقد يكون الأهم ـ إنما هو المحور الروحى حيث تتواكب الإيمانية مع الحضارة. لم يدرك ماركس وإنجلز أهمية الديانات الكبرى بوصفها العمود الفقرى للدائرة الحضارية الأعم. وذلك لأنهما كانا من ورثة عصر الانتقال من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى، أى عصر القضاء على أيديولوچية العصر الإقطاعى، ألا وهى المسيحية بصيغتها الكاثوليكية والپروتستانتية، وإبدالها بأيديولوچية جديدة تواكب صعود الطبقة الجديدة الرأسمالية البرجوازية إلى الحكم، ألا وهى الفخر العلمى والعقلى. من هنا كان المأزق. من هنا كانت الثغرة التى لم يعالجها مؤلفا البيان، ومن هنا أيضًا نرى أن ذكر الدين لا يأتى عندهما إلا من حيث استعمال بعض التصورات الدعائية ذات الأساس الدينى فى المعركة السياسية ـ دون التعرض المباشر إلى الإيمانية، على الأقل فى «البيان» ـ بينما كان شأن الكتابات التالية الفلسفية التنكر للدين باسم العلم ـ وهو الأمر الذى قضى عليه الزمن بشكل واضح فى عصرنا، إذ امتزجت الرسائل السماوية ـ وخاصة الإسلام وكذا المسيحية ـ بحركات التحرر الوطنى والثورات الاجتماعية.

ـ ثم يأتى البعد الحضارى الغريب فى كتابات ماركس وإنجلز التاريخية أنهما ـ وقد

توغلا فى الأصول الأوروپية للأنظمة الاقتصادية ـ الاجتماعية الأوروپية الحديثة ـ نراهما لم يعتنيا بتاريخ الحضارات الكبرى السابقة على صعود أوروپا بدءًا من القرن الحادى عشر. هكذا كان الأمر بالنسبة للحضارات الإمبراطورية الكبرى التأسيسية فى تاريخ الإنسانية، مصر الفرعونية والدولة الفارسية والصين. وهكذا أيضًا، بعد الإمبراطورية الرومانية، الأمر أولاً فى إطار الإمبراطورية الكاثوليكية فى الأجيال الأولى بعد الميلاد، ثم وبشكل ساطع انطلاق الإسلام دينًا وحضارةً منذ القرن السابع إلى اليوم، بشكل غيَّر مسار التاريخ تمامًا، يدًا فى يد مع صحوة الحضارة الصينية وامتزاجها بمعانى التحرر الوطنى والاشتراكية فى عصرنا.

نخلص من هذه الملاحظات النقدية إلى أن ماركس وإنجلز كانا أبناء عصرهما. كان من المستحيل موضوعيًا أن يدخلا عناصر تمت إلى أجيال قادمة بشكل دقيق، وإن كان قد رمز إليها بإشارات ولمحات نافذة، وإن كانت غير كافية.

من شأن ثورة شعوب الشرق فى القرن العشرين، بدءًا من الثورات الأولى فى القرن التاسع عشر، أن فتحت الساحة واسعة أمام الشيوعية القومية فى مقابل الأمية المجردة، على أيدى «أمير سيد سلطان على» (سلطان جالييف).

ـ ثم الرئيس ماو تسى تونج. وقد رفع سلطان على، وهو من كبار أمراء التتر من الرعيل الأول لزعماء القيادة المركزية للحزب الشيوعى السوڤييتى شعارات ألهمت القيادة الثورية فى الهند وڤيتنام وإندونيسيا، وكان لها تأثير بعيد المدى ـ موضوعيًّا ـ فى مصر والجزائر فى عصرنا.. وقد رأى سلطان على «أن التوجه المحصور للثورة العالمية نحو الغرب يمثل خطأ» ثم: «إن الشعوب الإسلامية ـ هكذا قال عام ١٩٢٣ ـ هى فى الواقع أمم عمالية.. فهناك فارق كبير بين الحالة الاقتصادية للطبقة العاملة الإنجليزية والفرنسية من ناحية والطبقة العاملة فى المغرب وأفغانستان من ناحية أخرى. ومن ثم يمكن أن نؤكد أن الحركة الوطنية للبلاد الإسلامية لها طابع الثورة الاشتراكية». من هنا بدأ انتقال مركز الثورة العالمية لتغيير العالم تجاه صياغة عالم جديد إلى صحوة شعوب ودول وحضارات الشرق، خاصة الدائرة الآسيوية حول الصين، والدائرة الإسلامية الآسيوية ـ الإفريقية حول المحور الغربى ـ الإيرانى. من هنا أمكن للخبير المفكر الچيوسياسى الأمريكى «هنتنجتون» أن يعلن بأن الخطر القادم على الغرب ـ من

وجهة نظر الغرب ـ بطبيعة الأمر ـ يتمثل فى الجبهة الممكنة بين الصين والإسلام. من هنا بدأت الإستراتيچية الحضارية الجديدة للغرب فى عصرنا. حول مركز الهيمنة أحادى البعد الأمريكى ـ الصهيونى.

من هنا ـ أيضًا ـ كان لزامًا علينا أن نحدد إستراتيچيتنا الحضارية، تجديدًا لرسالة مؤتمر باندونج (أبريل ١٩٥٥)، أى وحدة شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفى قلبها أمتنا العربية والصين، لكن الانكسار، وصياغة عولمة ذات أقطاب متعددة تمارس فيها الشعوب والأمم دورها الكامل حول مراكزها الچيوثقافية الإقليمية الرئيسية موضوع كبير واسع، نشير إليه فى هذا اليوم الذى يصحو العالم فيدرك من جديد مغزى هذا الكتاب الضئيل ـ أقل من خمسين صفحة ـ الذى كان له الدور الأول، أو بدء الطريق فى تغيير العالم.

الذكاء الكبير يحتضن

فى هذا كله، قامت الأجيال المتعاقبة للحركة الثورية ذات التوجة الاشتراكى التقدمى فى قلب الحركة الوطنية المصرية بدور تاريخى لم يقدر حتى اليوم بشكل صادق ولكنها المدرسة التاريخية المصرية قدمت لنا ـ ولا تزال ـ التوثيق المطلوب، ومن الواجب أن يعنى شباب المؤرخين بتركيز الأمر وتقديم صورة واضحة لخصوصية الإسهام القومى الثورى للحركة الشيوعية والتقدمية المصرية فى قلب تنسيق عملية انتقال المبادرة التاريخية من إرادة الطبقات العاملة فى الغرب، بعد أن ترهلت، وصحوة شعوب الشرق المناضلة من أجل الاستقلال والعدالة الاجتماعية والنهضة الحضارية.

سوف يقول النقاد ـ وهم على حق ـ إن رؤية ماركس وإنجلز فى «البيان» لها طابع تعميمى تبشيرى واسع، غير متخصص، وهو أمر صحيح إلى حد معين، فليذكروا إذن معنا مقولة فيلسوف التاوية الصينية الكبير «لاوتزو» (القرن السادس عشر):

«الذكاء الكبير يحتضن، الذكاء الصغير يميز، الحديث الكبير يشرق. الحديث الصغير يسهب ويطيل..»

كيف ـ ترى ـ ينعيه اليوم أشد الخصوم إن كانوا شرفاء؟ إنهم يذكرون رثاء رفيق العمر «فريدريك إنجلز» يلقى خطبة الوداع فى مقبرة «هايجيت» فى لندن فى ربيع

١٨٨٣ : «الرجل الذى كان هدفًا لأشد الحقد وأكثر الافتراء فى عصره... والذى كان أيضًا محل محبة وتقديس ورثاء الملايين من زملائه العمال الثوريين».

هذا مثلاً «بيترا سبيدين» يكتب فى كبرى صحف أوروبا وأهم الصحف الحالية العالمية «فاينانشال تايمز» يوم ٢٨ مارس ١٩٩٨ يقول إذ يذكر أن ماركس اضطر أن يستدين النقود اللازمة لدفن ابنته: «اتصلت هاتفيًّا بالأستاذ «دينيس والتون» أستاذ العلوم السياسية بجامعة كولومبيا وكان قد ترك بطاقته على قبر كارل ماركس قال الرجل من نيويورك: إننى أحاول أن أحضر (إلى المقبرة) كلما استطعت ذلك. حضرت آخر مرة مع ستة من طلابى فى دراسة النظرية السياسية، قرأنا مختارات من كلمة إنجلز على قبر ماركس، ثم كانت مناقشة جديدة، إننا جامعة طليعية، أعتقد أن رسالة ماركس الأكثر جاذبية هى تلك التى تعنى بمفهوم العمل الذى فقد معناه (أى مفهوم الغيرية أو التشيىء) أكثر من كتاباته عن تفاوت الدخول بين الناس، إلى أن يقول كاتب المقال قبل أن تغرب الشمس يوم ٢٨ مارس ١٩٩٨: «وجدت فى هذا التعليق ما يلفت أنظارنا إلى أن ماركس لم يكن فقط داعية الغضب الثورى» ولكنه كان فى المقام الأول المحلل الذكى المرهف للمجتمع الرأسمالى. وعندما بدأ العصر يتوارى وجاءتنا برودة الغروب التفتُّ لألقى آخر نظرة إلى الرجل المسن الغاضب وإذا بى رحت أفكر: إن زمانه سوف يعود من جديد.

قال صاحبى: ألم نتفق أن الزمان لا يعود؟

لعلك تقصد: أن حركة التاريخ لم ولن تتوقف، وأن العمل الجاد والمعارك الواعية لتوسيع ساحة التحرر والحرية والعدالة بين الشعوب على أشدها.

ما رأيك فى مؤتمر الدول الـ ١٥ فى القاهرة حول رئيس مصر، ألم يؤكد زعماء الجنوب بوضوح وشجاعة أن المستقبل ملك للجميع؟

وماذا؟ ماذا؟ أراك تبتسم؟

إنه لا بد من توسيع الدائرة إلى مجموعة أوسع مثل جميع الدوائر والمراكز الفاعلة؟

خاصة فى آسيا الوسطى والشرقية والغربية، وكذا، ومحور النيل الإفريقى، ولم لا... أراك تبتسم...

ـ ٢٢ ـ

لماذا نتجاهل العالم .. وأنفسنا؟

إلى متى نظل فى حيرة، ولا أقول فى ضياع؟ إلى متى نصحو كل يوم على مفاجأة وأخبار معكوسة، وتطورات غير مرصودة، وعالم يتأرجح، ونحن على ثبات حول ثوابت لم تعد لها أركان؟

ربما بدأت ساعة تقديم كشف الحساب، تدريجيًّا، بحيث نصحو معًا من سباتنا العميق، ونهتدى معًا إلى ما فيه صالح الوطن والأمة، ونتحرك معًا ـ حول رئيس مصر ـ بين أمواج الزوابع الطاحنة والمفاجأة المذهلة.

والحق أن الذى يصدم المراقب بادئ ذى بدء هو: تجاهل العالم كما أصبح عليه. هذه مثلاً مسألة أوروپا، كلنا يعتز بأوروپا، قارة الفكر والأدب والعلم الحديث منذ القرن السادس عشر، حتى تقدمت عليها الولايات المتحدة الأمريكية فى مطلع القرن العشرين.

أية أوروپا نتحدث عنها؟ إن أكثر من تسعين فى المائة ممن يتناول هذه القارة والحضارة المهمة ينصب اهتمامه على الدولتين اللتين عرفناهما عبر تاريخنا الحديث والمعاصر، مرحلة الاستعمار والإمپريالية، ألا وهما إنجلترا وفرنسا، حسنا، ثم نتساءل: ماذا نعرف عن هذه الدول والأمم المعروفة؟ لو دققنا البحث لوجدنا شيئًا غريبًا: ليست هناك رسالة دكتوراه واحدة ولا كتاب بحثى جاد واحد ولا كتابات متصلة متعمقة تعنى بدراسة خصوصية هذه الأمم، مثلاً: الحديث عن التنوير على قدم وساق. ويتصور بعض المحدثين أن التنوير عملية تمت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر على أيدى رجال الموسوعة آنذاك، دالمبير، ديدرو ڤولتير، وصحبهم ـ وهو عمر صحيح إلى حد ما ـ ولكن مفهوم التنوير فى حد ذاته، أى تعبير Aufklarung جاءنا

من ألمانيا منذ المرحلة التالية على ثورة مارتن لوثر ضد كنيسة روما وصياغة المذهب البروتستانتى الأصولى ضد الهيمنة التى كان لا يراها فى الكنيسة الكاثوليكية، وقد واكب ظهور هذا المذهب بداية الثورة العلمية، وجعلها من إنجلترا على وجه التحديد ومعها فلسفة الطبيعة والليبرالية السياسية، ثم الفلسفة النقدية، وهى فى الأساس وفى الجوهر ألمانية بشكل متصل، إلى أن تداخلت هذه التيارات فأسهمت فى إثراء ثورة البرجوازية الفرنسية العلمانية ضد النظام الملكى والكنيسة فى نهاية القرن الثامن عشر بما حقق أول ثورة برحوازية ديمقراطية راديكالية فى التاريخ الحديث، كما قال بحق كارل ماركس فى كتاباته التاريخية، كان بعض من هذه المعانى ـ أو معظمها ـ واضحًا من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين فى مصر بفضل جامعة فؤاد الأول وما قدمته من فكر مصرى أصيل على أيدى الأعلام، وخاصة مصطفى عبد الرازق وعلى مصطفى مشرفة وطه حسين وحسين فوزى وعبد الرحمن الرافعى وعبد الرازق السنهورى وبولص غالى وجرجس متى وأحمد فخرى ومراد كامل وعلى إبراهيم وإبراهيم المنياوى وسامى جبرا ومحمد عوض محمود وجمال حمدان وحسن الساعاتى وأندادهم، ثم انتشرت هذه المعانى واتخذت بعدًا أكثر تدقيقًا فى نشاط الحركة الثورية المصرية حول الفكر الماركسى وتوجهه إلى الخصوصية المصرية بعناد فى الأربعينيات، مما جعل من مفاهيم الاشتراكية العلمية ـ بوجه عام ـ جزءًا من التراث الفكرى المصرى العام فى جميع الأحزاب والمدارس الفكرية، إيجابًا وسلبًا.

الديمقراطية والحرب

كل هذا تفتت تحت الضربات التالية ضد أهل الكفاءة بعد ١٩٥٤، بحيث أصبحنا أمام طلائع سياسية وإدارية تنفيذية تعيش على صورة العالم كما صاغتها الولايات المتحدة منذ الخمسينيات، وأكدتها بواسطة تسلط القوة اليهودية المالية العالمية على مختلف وسائل الإعلام والنشر، منذ هذا الحين لم يعد هناك مجال للتنفيس ولا للتساؤل ولا التريث ولو لحظة فى مسألة أوروپا، بجميع مكوناتها القومية والفكرية والمجتمعية المتشابكة. إن هذه الأوروپا ـ حتى فى حدودها المعترف بها فى عصر الاستعمار والإمپريالية ـ لا تمتد إلى جوهر أوروپا، ألا وهو ألمانيا، التى يكاد يجهلها العقل

المصرى العربى جهلاً شبه تام، لولا جهد بعض الفلاسفة الرواد الذين تتلمذوا على رسالة الفلسفة الألمانية من كانط وهيجل حتى هايدجر حول أستاذية عبد الرحمن بدوى، ثم قطاعات من الحركة المركسية، خاصة جناحها المعنى بالنظرية والفلسفة.

وحتى هؤلاء من الفريقين لا يتسع أفق ثقافتهم إلا نادرًا إلى إدراك الترابط العضوى بين التحليل النقدى الجذرى للنتائج الاقتصادية لسياسة الحلفاء الديمقراطيين ضد ألمانيا المنهزمة عام ١٩١٩ على ما نحياه اليوم، مَنْ منا تُرى؟ اللهم إلا نخبه معدودة، درس حقيقة هذا الكتاب الضئيل الحجم لعالم الاقتصاد السياسى البريطانى الاجتماعى چون ماينار كينز النتائج الاقتصادية للسلام (كمبردچ ١٩٢٣)؟ من منا يذكر أن كينز تنبأ بأن القومية الألمانية الجريحة سوف تثب وثبة الأسد مطالبة بحق عمالها فى العمل والخبز، ونبذ عنجهية الدول المنتصرة مؤقتًا وسياستها القهرية للصناعة ومناجم الفحم والحديد الألمانية، بحيث يؤدى كل هذا إلى أزمة عالمية جديدة يترتب عليها حرب عالمية جديدة، لم تكن فى واقع الأمر إلا المرحلة الثانية من الحرب الأوروپية فى القرن العشرين! وإذا كان كتاب كينز فى هذا المقام الهامشى، فكيف يمكن فهم صعود «هتلر» وكذا «موسولينى»، ورضوخ «بيتان» والعديد من قادة دول الغرب الديمقراطى فى الأربعينيات أمامها بعد أسابيع من المقاومة الهزيلة؟

ثم: ما القول عن روسيا فى قلب الاتحاد السوڤييتى؟ أين معرفتنا لروسيا أمة وثقافة ومنطقة حضارية تجمع بين القارتين الأوروپية والآسيوية (خاصة قطاعها الوسطى الإسلامى) من أوروپا الوسطى حتى المحيط الهادى؟ أين الدراسات عن تاريخ روسيا وسياستها الخارجية منذ القرن الحادى عشر؟ أين علاقتنا بالكنيسة الأرثوذوكسية التى صنعت اللغة الروسية نفسها؟ وأصحب مركزًا للخصوصية الثقافية الروسية حتى اليوم؟ ما هو قدر علم الرجل المثقف عندنا بتفوق جيوش روسيا تحت إمرة كوتوزوف على نابليون المظفر فى معارك حملة روسيا عام ١٨١١؟، وهل ترى قدم هؤلاء القادة شيئًا جديدًا فى علم الحرب والإستراتيچية؟ نسترسل فنساءل: كيف استطاعت أمة يقولون إنها بدائية أن تقيم مثل هذه الإمبراطورية العظمى فى العصر الحديث التى تجمع فى دائرتها سبعًا وثمانين قومية ومجموعة إثنية، ومن بينها قطاع واسع من المجتمعات الإسلامية فى آسيا الوسطى حول طريق الحرير؟ أين دراستنا عن الفلسفة والأدب

والفنون منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم؟ وما هو قدر فهمنا، من قريب أو بعيد، لما يجرى اليوم فى روسيا بعد أن اطمأن أنصار التبعية إلى أن ضربة اليهود العالمية للاتحاد السوڤييتى، ومن ورائها دول الغرب كلها بقيادة الولايات المتحدة إلى دوام ـ ورجالهم اليوم فى مرحلة المهانة والانحدار، ثم التفتت، ثم الانفجار ـ حتى تعود روسيا العظمى الفاعلة صديقة العرب والشرق، وحليفة الصين، إلى مكانتها.

وماذا نقول ترى عن تجاهلنا نحن العرب ورثة حضارة الأندلس اللامعة لكل ما يخص أسبانيا والبرتغال، ولعلها أقرب أمم أوروپا قاطبة إلينا حضاريًا ووجدانيًا، وكذا الأمر بالنسبة لإيطاليا التى أثرت على العمران والحياة اليومية والفن والتاريخ فى مصر إلى درجة نادرة، مع حد أدنى من التجنى على الشعب الليبى الصديق الجريح لفترة وجيزة من الزمن.

ودعنا مؤقتًا ـ إن جاز الأمر ـ من أوروپا الوسطى والشرقية، وما دمنا نعيش فى أجواء القرن التاسع عشر، عصر الاحتلال والاستعمار وانتهاك الكرامة وكسر الإرادة وفوضى الأنماط المفتعلة على وجداننا الوطنى والقومى، متناسين مأساة البوسنة وكوسوفا.

أمريكا.. أين أمريكا؟

أما لو نظرنا إلى الولايات المتحدة التى نعيش تحت مظلتها منذ ١٩٧٥، بداية من عصر كامپ ديڤيد الأسود، فإن الموضوع أدهى وأمر بكثير. ليس هناك رسالة دكتوراه مصرية واحدة تعنى بخصوصية المجتمع الأمريكى فى أى من نواحيه. نعم هناك العشرات من الدراسات عن الاقتصاد والمال والإعارات والتبادل الثقافى وغير ذلك من الأمور. ولكن المجتمع نفسه: كيف يمكن تفسير مهزلة هذا المدعى المستقل الذى يزلزل أركان رئيس أكبر دولة فى عصرنا؟ كيف يمكن تفسير انتشار الإجرام بين الأطفال والمراهقين والشباب إلى درجة لا مثيل لها فى تاريخ الإنسانية؟ كيف يمكن تفسير تفسخ الثقافة الوطنية فى والولايات المتحدة بين لغات مختلف مجتمعات المهاجرين وخاصة القادمين من أمريكا اللاتينية وآسيا؟ ما معنى السياسة الخارجية الخرقاء التى لا تدرك من قريب أو بعيد، بل وإنها لا تفهم عقلها وذهنها ـ ولا أقول فكريًا أو علميًا ـ مفهوم الأمة

والقومية؟ كيف يمكن تفسير العروة الوثقى بين الكنائس الپروتستانتية الأصولية الأمريكية من ناحية واليهودية العالمية من ناحية أخرى؟ ثم : من أين امتياز أمريكا الخارق فى الفتح والاستكشاف؟ هل درسنا نظرية تورنر عن الحدود (أى الامتداد اللامتناهى) وأثرها على السياسة المعاصرة؟ إنها أهم ما كتب فى خصوصية أمريكا فى عصرنا الذهبى ، وهى لا تزال ـ باعتقادنا ـ مفتاح الشخصية الأمريكية كلها. هل درسنا ـ معشر المثقفين ـ كتابات كبار الجيو ـ سياسيين والإستراتيجيين الأمريكان ، وخاصة (ماهان) فى مسألة القوة البحرية عبر التاريخ؟

نهضة آسيا: أين المفاتيح؟

ما علمنا بالتوجهات الفكرية والسياسية للمراكز البحثية الرئيسية بالنسبة للشرق ، وخاصة آسيا والإسلام؟ أقول التكوينات التوجيهية الرئيسية ـ ولا أقول أهم الدراسات المشهورة. كيف يمكن أن ندرك دور الجامعات الكبرى التابعة لهيئة اليسوعيين الكاثوليك فى أمريكا ـ مثل چورچ تاون ـ ولويولا ـ بالنسبة للجامعات الخاصة الأخرى؟ الخ.. الخ. نعيش فى عالم من السطحيات يجعلنا لا نفهم مع من نتحالف أو من يحاول إخضاعنا لإرادته وشل حركتنا. بل يكتفى البعض بالانبهار بتبادل الأسماء الأول (مثل العزيز هندى ، الداهية الباسم..).

كل شىء مسطح. كل شىء وضعى ، كل شىء آنى. كل شىء كما يبدو. وكل تحليل لتفسير الأمور عبر صياغتها التاريخية يدمغه العديد ممن يدعون المشاركة فى صياغة القرار منذ ربع قرن بأنه تفكير تآمرى ومنهم من لا يدرك ألف باء حركة المجتمعات وخصوصية الأمم ومحاور التحرك العميقة لأنهم ــ كلهم أو جلهم ــ من خريجى جامعات ومعاهد مرحلة الهيمنة الأمريكية ذات الفلسفة الوضعية والبنيوية وكذا الوظيفية فى العلوم الاجتماعية. الموضوع كبير ـ خصصنا له مكتبه كاملة ــ يدًا فى يد من زملائنا ، رايت ميلز وهندى ألوفيفر ولوسيان جولدمان ثم ألتوسير ، ما زالت بعيدة أو مبتعدة أو مهملة على أرضنا الطيبة. ولكنها ذات فعالية مركزية ، لدى نخبة من المفكرين الرواد على مستوى العالم ، وخاصة فى الغرب وأمريكا اللاتينية وآسيا. ننتقل بعد هذا إلى المناطق المجهولة تمامًا ـ قارات الجهالة إن جاز التعبير.

هـذه آسـيا ، وقـد بـدأنا نـدركها منـذ سـنوات قلائـل مـن المـدخل الاقتصـادى والتكنولوچى والمالى وتصورنا أن الرؤى الأمريكية لهذه العناصر تمثل واقع الأمر. فعندما ينطلق المجرم سوروس والدوائر الصهيونية من ورائه لزلزلة أركان البورصات المالية فى آسيا الشرقية نتصور أننا أمام أزمة آسيوية أنهت العصر الآسيوى. هذا فى الوقت الذى تجيئنا الأخبار يومًا بعد يوم من الصحافة الأمريكية نفسها تؤكد انحسار الصادرات الأمريكية ، وقدوم عصر التضخم والدوران وفقدان الاتجاه فى المراكز الصناعية والمالية الأمريكية الكبرى ، وكذا تدفق الصادرات الآسيوية بأثمان خفيضة على أسواق العالم ، وخاصة آسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط العربى الإسلامى. لا شىء من كل هذا يهز يقين المؤمنين بأنه لا فهم إلا بواسطة المنظار الأمريكى ، ولا تحليل إلا مثل الذى يقدمه الغرب ، ولا وجود إلا للتبعية دون الجدية فى السعى لما وراء السطح.

هنا أيضًا الموضوع طويل سنعود إليه بالتفصيل هذه المرة فى الأعماق. ولكن الغريب أننا حتى لو كنا نلم ببعض القشور الاقتصادية والمالية لآسيا الشرقية ، وننبهر بصعود الصين الخارق ، ورغم جراحنا الحالية فى عصر الفيضانات ، دعنا من الفلسفة الصينية ، أو تاريخ اليابان قديمًا وحديثًا أو مفاهيم البوذية دينيًّا وسياسيًّا ، لا نكاد نهتم أدنى أهمية بالمنطقة الهائلة بين جبال أوراس غربًا والمحيط الهادى شرقًا ، أى سيبيريا وآسيا الوسطى مركز احتياطى البترول والنفط الثانى فى العالم اليوم ، والأول فى القرن الحادى والعشرين. ثم نثور ، نعم نثور ، عندما نرى خبراء الدولة الصهيونية الاقتصاديين فى مجالات الاقتصاد والزراعة وكذا المجالات الإستراتيچية والنفطية ، ودعنا من الجهاز السياسى ذاته ، نثور عندما يذهبون إلى هناك ويركزون على تقديم المقابل المطلوب لحصولهم على المراكز والمعلومات التى تؤمن أمنهم القومى. أتساءل : ترى ، ماذا ننتظر؟ ماذا ننتظر من العدو؟ أن يبتعد عن تأمين أمنه القومى؟ أن يتنازل عن إمكانات التعاون والإفادة؟ وكذا تقديم ما هو مطلوب ونافع إلى حد ما للحصول على المفاتيح والأسرار والمنابع؟ لماذا نلوم العدو ، ولا نلوم أنفسنا؟

هذا هو بيت القصيد. ولو انتقلنا إلى التنظيمات الإقليمية ــ فى آسيا ــ الثلاثة الرئيسية : اتحاد الدول المستقلة ، أى جمهورية الاتحاد السوڤييتى فى آسيا الوسطى سابقًا الذى ذكرناه قبل سطور ، ثم آسيان أى اتحاد أمم جنوب شرق آسيا ، ثم اتحاد

جنوب آسيا الذى يشمل نصف القارة الهندية بأسره، وأخيرًا المنظمة الاقتصادية الوسطى التى تجمع عشر جمهوريات آسيوية حول إيران وتركيا، نرى أن تخلفنا فى هاتين المنطقتين الأليفتين ـ أى جنوب شرق آسيا وجنوبى آسيا ـ لا يقل عن شبه عدم تواجدنا فى آسيا الوسطى. هذه ـ مثلاً ـ منظمة آسيان تعقد اجتماعًا سنويًّا لتحديد سياساتها ومطالبها ومحاور تحركها فى المجال الآسيوى والهادى. وفى هذا الاجتماع نرى أن جميع الدول الأعضاء السبع ـ إندونيسيا، ڤيتنام، تايلاند، الفلبين، سنغافورة، ميانمار ـ تجتمع ومعها ممثلون من الصين والكوريتين واليابان وروسيا ثم وفد من الاتحاد الأوروپى. الاتحاد الأوروپى يدرك مصالحه، ونحن الذين نعتز بمكانتنا المركزية فى دائرة الحضارة الإسلامية لا نفكر أن نذهب إلى إخواننا فى إندونيسيا وماليزيا وهما أهم دولتين مؤثرتين فى مجموعة آسيان! أمر جدير بالاعتبار لا تفكير ولا عمل وكأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وكأن أخبار الصحافة الأمريكية ـ الصهيونية المتحكمة فى مجموعة آسيان تكفينا لمتابعة الأمور. وكذا الأمر بالنسبة لمنطقتى جنوب آسيا وآسيا الوسطى وجنوب آسيا وما تشمله من مصالح حيوية بالنسبة لأمننا القومى المقرب خاصة بعد التجارب النووية فى الهند وباكستان على صلة وثيقة بإيران والدائرة النفطية العربية حول السعودية.

أمريكا اللاتينية قبل وبعد المونديال

وبين الحين والآخر، تطالعنا الصحف على وثبة أمريكا اللاتينية من الناحية الاقتصادية ونقرأ عن أخبار منظمة ميركوسور التى تجمع البرازيل والأرجنتين وبوليڤيا وباراجوى، وكذا شيلى كعضو مشارك. ثم أحيانًا تأتينا أخبار غريبة عن منظمة دول منظمة سلسلة الأنديز. وأخيرًا مجموعة دول أمريكا الوسطى الكاريبية ومن بينها كوبا. هذا جنبًا إلى جنب مع منظمة نافتا التى تجمع بين المكسيك والولايات المتحدة وكندا.

ما معلوماتنا عن هذا كله؟ أعنى ما معلومات الشارع المصرى والفكر المصرى والأحزاب المصرية ورجال الفكر والعمل فى مختلف مدارسنا الفكرية؟ ما صدى هذا كله فى دوائر الاقتصاد والمال والثقافة والعلم والسياسة؟ نحمد الله أن اجتماعًا هامًا تم فى القاهرة أخيرًا يجمع بيننا وبين قطاع واسع من أمريكا اللاتينية. ولكن السؤال ـ أو

مجموعة التساؤلات ـ هو كما نراه بالنسبة للمناطق الأخرى. مثلاً : ما العلاقة بين خصوصية وقوة جيش شيلى وكذا اليسار حول الحزب الشيوعى الشيلى الذبيح وصعود الدكتاتور الچنرال بينوشيه إلى الحكم ، وبين تحول شيلى إلى أكثر دول أمريكا اللاتينية نموًا ، بل وإلى الدولة الوحيدة فى العالم التى تواكب النمو الخمس فى آسيا الشرقية؟ ثم ما معنى توجه شيلى الرئيسى إلى آسيا الشرقية؟

ثم ما معنى توجه شيلى الرئيسى إلى آسيا الشرقية بدلاً من أمريكا اللاتينية؟.. وكذا : كيف نتعامل مع مجموعة الرؤساء ذوى الأصول العربية فى أمريكا اللاتينية وعددهم لا يقل عن خمسة؟ أليس فى هذا مجال لفتح أبواب كثيرة ، خاصة باب هجرة مئات الآلاف من الفلاحين المصريين ذوى الخبرة الواسعة فى الزراعة ، ومعهم مجموعات من مهندسى الرى المتميزين لإثراء اقتصاديات هذه البلدان بتجاربنا ، والإفادة نحن من مئات الآلاف من فرص العمل الشريف الجاد المثمر كما يفعل غيرنا؟.. هذه اليابان مثلاً ، العملاق اليابانى نفسه ، يرسل مهاجرين إلى ولاية ريو جراندى سول فى جنوب البرازيل على حدود أورجواى منذ نصف قرن ، وإذا بهم يحولون الولاية إلى أكثر ولايات البرازيل إنتاجية من الناحيتين الزراعية والثروة الحيوانية ، وأكثرها رغدًا وأعلاها دخلاً ، مما يوطد العلاقة السياسية فى الأعماق بين البرازيل واليابان. لماذا لا نهتم نحن بوجود مئات الآلاف من الأفدنة الخصيبة فى البرازيل ونعرض مشاريع كبرى للتكامل الاقتصادى؟ ما هو قدر معلوماتنا عن خصوصية النظام السياسى فى المكسيك ونجاحه فى التعامل ـ حول رئيس بلدية العاصمة كاردبنياس ـ رغم الضغوط الهائلة من شريكه المهيمن فى الشمال الولايات المتحدة الأمريكية؟ وكذا بوجه عام : ما هى معلوماتنا عما يطلق عليه الديمقراطية فى أمريكا اللاتينية ، وهو مفهوم يمزج بين الحكم الأوتوقراطى وساحة واسعة من التنوع السياسى والفكرى والحزبى فى دائرة من الشرعية المقبولة يمكن أن نهتدى إليه كنموذج أكثر تطورًا مما عرفناه من ذى قبل؟

نقف هنا عند هذا الحد وإلا لاقتضى الأمر أن نراجع دول العالم الواحدة تلو الأخرى وجميع المناطق ، مثلاً منطقة أستراليا ـ أو نيوزيلندا التى لم نذكرها هنا رغم أهميتها الهائلة من الناحيتين الاقتصادية والزراعية وكذا الاستيعابية الممكنة للأيدى العاملة كما هو الحال فى أستراليا. موضوع طويل لا داعى له الآن.

obeikan.com

نتساءل: لماذا هذا كله؟ أين عقل مصر وإرادة مصر وعمل مصر فى هذه المجالات الهائلة المتحركة المتجددة؟

ما الذى يعوقنا؟ لماذا نتجاهل العالم؟ كيف نسمح لأنفسنا، ونحن الدولة ذات الخبرة السياسية الطويلة، وأولى دول الشرق التى نهضت بشكل خارق على أيدى محمد على باشا وإبراهيم باشا والطهطاوى فى مطلع القرن التاسع عشر، بنصف قرن قبل يابان ميجى، وقرن قبل ظهور الصين على صورتها العظيمة التى نشهدها، كيف نسمح لأنفسنا أن نغيب بهذه الصورة عن العالم المحيط؟

هل هناك ـ ترى ـ من إجابة؟

المدخل الأول، والسبب الأول يكمن فى أنفسنا، فبمجرد أن رضينا بالانطواء عن دور مصر وتحركها فى المجال العالمى على أسس مؤتمر باندونج (١٩٥٥)، أى الدوائر الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية، التى امتدت إلى آسيا كلها بفضل ريادة مصر فى عهد جمال عبد الناصر، وهو الذى قال عنه آنذاك رئيس وزراء الصين شو إنلاى إنه أذكى وأهم وأخطر المشاركين الجدد. أقول: ما إن رضينا بالابتعاد عن هذا الدور وتلك المكانة بدءًا من «كامپ ديڤيد» للانحسار فى حدودنا الجغرافية والاكتفاء على ما فُرض علينا من قيود حتى بدأ الانصراف عن دراسة أحوال العالم الجديد، والغريب أن هذا الانصراف عن متابعة العالم الجديد اقترن بظهور مؤسسات جامعية وعلمية وإعلامية كثيرة تبدو فى ظاهرها وكأنها تود أن تلحق بما قد فاتنا، وهنا أود أن أحيى الجهد العظيم حقيقة الذى بذلته هذه المؤسسات الجامعية والبحثية والإعلامية خاصة الصحفية فى رأب الصدع وتقديم ما تيسر فى مجالات مهمة بقدر ما هو متاح، والمتاح سياسيًا محدود ومحاصر. ولكنما الموضوع يقتضى أن نراجع المؤسسة العلمية والفكرية والبحثية مراجعة شاملة ـ بدءًا من الترسانة الهائلة الممتازة التى نمتلكها ونعتز بها ـ لكى ندرب جيلاً جديدًا من الخبراء المصريين فى شئون العالم، وخاصة العالم الجديد المتصاعد أمام العين والبصر يومًا بعد يوم، بدءًا من رؤية مصرية وخصوصية مصرية ومنهجية مصرية وقدرات مصرية وإرادة مصرية أولاً وقبل كل شىء مع الإلمام الكامل بطبيعة الأمر، مع ما تقدمه الرؤية والمصادر ومراكز المعلومات والبحث الأخرى.

الإلمام، التبعية، المشاركة، لا الانسياق الأعمى.

المدخل الثانى، البعد الغائب تمامًا الذى يفسر هذا التجاهل للعالم المتغير من حولنا إنما هو عدم وجود الأطر اللازمة لتعبئة جميع الطاقات والخبرات والرؤى والقدرات الوطنية ـ دون أدنى استثناء ـ للعمل معًا بشكل متصل وتفاعل جدلى صريح، ولا يخفى التناقضات، وإنما يسعى دومًا إلى صهرها فى حد أدنى من الوئام الوطنى والإرادة الفاعلة على أرضنا. الموضوع يبدو هنا أيضًا غريبًا، لقد تعددت المؤسسات والمجالس واللجان العليا منها والمتخصصة وغير ذلك من التسميات، والندوات والهيئات والاتحادات، وكل هذا يعمل فى توجهات وحول محاور واهتمامات لا يربط بينها الرابط القوى الذى لا بد منه لو أردنا أن نحقق ما بدأنا به كتاباتنا منذ سنوات على هذه الصفحات، ألا وهو التراكم الوطنى والتبعية الوطنية، الثقل الوطنى.

ثم بعد هذا وذاك نأتى إلى موضوع الإعلام والإبهام. وأعنى بذلك: أن السيل الجارف من الصور والابتسامات والعناق والإعلانات والانبهار الساحق الذى يتدفق علينا ليل نهار أشبه ما يكون بموجة لتخدير الأعصاب وحجب الرؤية وشل الإرادة، فلماذا ترى الرؤية والإرادة والفكر والتحليل النقدى إذا كان ليس فى الإمكان خير مما كان، وإذا كنا ليل نهار نرتفع لا أقول فى سماء الأمل وإنما فوق أجواء السماوات كلها، نحلق فى عصر أسطورى لا يعرف أحد كيف بدأ ولا كيف ينتهى، شىء غريب مذهل وكأنه لا هدف له، اللهم إلا أن هذا كله يعكس على وجداننا الوطنى وعقلنا القومى وإرادتنا الشعبية والرسمية معًا قوالب فكرية ودوائر تحرك، كلها تنبع من رؤى وخطط ليست من صنعنا، فنحن نفهم مثلاً أثر المال على الرياضة العالمية، والمونديال مثلاً من خلال قنوات تمثل مصالح عملية معينة فى مقابل مصالح سياسية أخرى، ونحن نتابع تطور تكنولوچيا الاختراق بواسطة الإنترنت وما واكبه من شبكات تجسس فوق سحاب الأوهام كما قلنا، وكأنها نمط من أنماط التقدم العلمى الذى لا بد أن نلحق به، ونحن نفهم الاقتصاد العالمى من خلال انطباعات المجموعة المتحكمة المهتزة فى نيويورك واشنطن. وليس من خلال التحليلات والمفاهيم والرؤى الآتية من مصادر الإنتاج والمقاومة والعمل والتجديد، كل هذا وراء ستار الألمعيات والتلميع والانبهار الهابط علينا من سماوات الإعلام المنبهر بنفسه وبإنجازاته.

obeikan.com

كل هذا مفهوم إلى حد ما. ولكن غير المفهوم ، وغير المعقول ، أن نتجاهل أنفسنا ، هنا يبدأ الحديث فى الأعماق.

قال صاحبى : حكايتك حكاية ! عالم إيه ؛ ألم نتفق أننا أصبحنا كلنا سكانًا لقرية واحدة؟ نعم : قرية واحدة. إذن ، خبرنى بالله عليك :

ما الداعى لتعود القرى؟ ما الداعى لما كنا نسميه الأوطان ، والأمم ، والقومية ، والدول ، والمناطق الثقافية ، والحضارات؟ بل ما الداعى إلى العالم ، ومشاق دراسة العالم ، والتعامل مع العالم ، والموقف من العالم ، وغير ذلك من المهاترات البالية؟

أخى.. صديقى : ألا أراك تفيق وتدير ظهرك لهذا الزمن كأن لك ولنا ــ وحتمًا ــ رسالة؟ ألا تريح ، وتستريح؟.. أراك تبتسم.

❁ ❁ ❁

obeikan.com

ـ ٢٣ ـ
وصية أكتوبر: أن تكون مصر الحضارة

اليوم يوم مصر. اليوم يوم نصر.

ربع قرن مضى على حرب رأى فيها العديد من الخبراء أنها غيرت معالم الخريطة السياسية العالمية، بينما اكتفى الآخرون بنقد الإستراتيچية المنقوصة، وكذا التركيز على الحصار السياسى التالى للعبور. أمور لها تاريخ، سوف يفصل فيها التاريخ.

أكرر بادئ ذى بدء أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى شنتها مصر وسوريا يدًا فى يد لم تكن هادفة فى الأساس إلى استرداد سيناء ولوضع حد لاحتلال الجولان، رغم أهمية هذين الهدفين القوميين الذى ما زال ثانيهما دون حل. وكذا لم يكن الهدف هو «حل قضية فلسطين»، ما دام المعنيون بالأمر لم يشاركوا بقواتهم المسلحة فى جبهة العمليات. وإنما كان الهدف ـ كما حددناه منذ البداية ـ هو: كسر الانكسار. كسر الانكسار، أى وضع حد لمرحلة الهوان وضعف القرار الوطنى والإرادة العامة، قوميًا، سياسيًا، فكريًا، بعد نكسة يونيو ١٩٦٧. وقد ترتب على هذه الأيام السوداء أن انتشر الشعور فى أوساط واسعة من «المجتمع والمشاركين فى صناعة القرار أن الحصار المضروب حول مصير مصر وسوريا لا مجال لفكه، أو على الأقل يصعب الإفلات من كماشاته. كان نظام القطبية الثنائية قائمًا. كان العدو الإمپريالى ـ بقيادة الولايات المتحدة، وحليفها على أرض الأمة المحتلة ـ أى الدولة الصهيونية التى وصفت نفسها فى عيدها الخمسين منذ شهور بأنها «الدولة اليهودية» ـ على أعلى مستوى من التربص. بينما كان المعسكر الاشتراكى بقيادة الاتحاد السوڤييتى غير راغب فى الدخول فى معارك جديدة تستنزف طاقاته التى أنهكها سباق التسلح النووى المفروض عليه منذ ١٩٤٧. أى أن القوتين العظميين كانتا على وفاق موضوعى بأن اللاحرب فى منطقتنا

أمر لا مفر منه. وفى الوقت نفسه، ظل الاتحاد السوڤييتى يدعم بأرقى أنظمة التسلح والتعاون فى تكوين كوادر قواتنا المسلحة دون توقف ـ بشرط «ألاَّ نتهور» وننطلق إلى حرب جديدة.

خلال عام ١٩٧٣، تراكمت عوامل الحصار علينا من كل مكان: إستراتيچيًّا، سياسيًّا، معنويًّا. وتأكد أن العدو الصهيونى لا يهدف إلا إلى تدمير وجودنا القومى الموحد، واستنزاف طاقاتنا التنموية، والسيطرة ـ فى كلمة ـ على مصائر الأمة والوطن. كان علينا أن نختار. وقد ظهر للكثيرين من رجال الرأى والثقافة والفكر والإعلام أن مجرد التفكير فى «حرب» هوس لا معنى له، لعله من أبواب «الأيديولوچية» كما كانوا يقولون آنذاك.

ولكن إرادة مصر ـ شعبًا ودولة، حول جيش الوطن ـ كانت على غير ذلك تمامًا.

كان الإعداد للحرب بدءًا مما خططه جمال عبد الناصر، على قدم وساق بفضل ريادة رئيس هيئة الأركان العامة الشهيد عبد المنعم رياض، ومن بعده سعد الدين الشاذلى ومن حولهم طاقم من أبرز القادة، فى هيئة الأركان والميدان، يحيط بها جيش من صفوة شباب مصر المتطوعين وقد انطلقوا إلى القتال للتدريب فى حرب الاستنزاف القاسية، انتظارًا ليوم التحرير.

لا داعى للإطالة، الأفلام والروايات، والمذكرات، والشهادات تكفى لسد فراغ ضعاف النفوس، ضعاف الذاكرة الذين يتمرغون فى حقبة جديدة من الاستسلام.

كسر الانكسار!

تمت الحرب، نجح العبور بشكل خارق وسريع بفضل تقنية المدفعية المائية وتفوق سلاحنا الجوى وبسالة فرقة الصاعقة والقوات المدرعة والمشاة، وروح التضحية العالية التى ترتب عليها أن واحدًا من كل ثلاثة من شهدائنا كان من الضباط (بينما النسبة فى الحرب الهجومية هى واحد من خمسة عشر). ثم كانت الثغرة التى أراد بها الچنرال شارون أن يشل الترابط بين الجيشين الثانى والثالث. وهو أمر لم تتضح بعد معالمه، وإن كنا على يقين أن الجسر الجوى الأمريكى هو الذى مكنه من هذا العمل المعطل. ثم جاء

قرار القيادة السياسية لوقف تقدم جيوشنا قبل المضايق ، وهو أمر ترتب عليه أن العدو استطاع أن يعيد ترتيب ما تبقى له من قوى دفاعية قوية ، بحيث كانت فرص فك الاشتباك الأول ، وفك الاشتباك الثانى ، رغم معارضات قوية من قطاع واسع من الرأى العام والقيادات ، أمر يمثل واقع ميزان القوى ، مرة أخرى بعد قرار وقف التقدم نحو المضايق الذى كان ممكنًا وواجبًا والذى كان من شأنه أن يغير معالم الحرب تمامًا.

بقى أن الهدف الرئيسى من الحرب هو كسر الانكسار ـ أى إمساك القرار الوطنى بين الأيدى المصرية العربية ـ تم وتحقق ميدانيًّا ، بل وكانت عملية العبور من أرقى مستوى عرفه تاريخ الحروب سواء فى التصور الإستراتيچى أو الإنجاز التكتيكى الميدانى. ارتفعت أسماء لامعة إلى السماء يهتز بها كل بيت مصرى وكل قلب مصرى ، بينما دخل مئات ، بل وآلاف من شبابنا فى قلوب الأمة من أوسع الأبواب ، كما تم تصويره بشكل بارع حصيف فى الفيلم الذى أتاه شادى عبد السلام ميدانيًّا أثناء العبور باسم « جيوش الشمس » ـ ليته يكون مقررًا فى جميع مراحل التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى ، وكذا البرامج الثابتة فى التلفزة على اختلاف قنواتها. ثم كان الاكتشاف التدريجى لدى الرأى العام المصرى والعربى. أن الغاية من إقامة الدولة اليهودية فى قلب أمتنا العربية ـ على أرض فلسطين ـ لم يكن بحال من الأحوال هو « إلغاء فلسطين » شعبًا وأمة ودولة.

ذلك أن الوجود المجتمعى الفلسطينى ، بعد مرحلة الوصاية البريطانية ، كان يمثل جزءًا لا يتجزأ من الشام أى سوريا الكبرى ، ويتميز فى داخلها بما له من خصوصية نعتز بها. كان الهدف والغاية ـ هكذا كان الدرس الثانى من حرب أكتوبر ـ إنما هو إقامة ترسانة إستراتيچية وسياسية ، سرعان ما تسلحت بالسلاح النووى التكتيكى والإستراتيچى ، لتحقيق هدفين أساسين :

ضرب مشروع قيام دولة عربية موحدة بقيادة مصر ، تمامًا كما فعلت كل دول أوروبا الغربية المتحضرة فى معاهدة لندن (١٨٤٠) للقضاء على مشروع محمد على العظيم. وكلنا يعرف ما تلاه من تغلغل رؤوس الأموال الاستعمارية فى عصر سعيد حتى معركة التل الكبير والاحتلال عام ١٨٨١ .

obeikan.com

أما الهدف الثانى فكان أقرب منالا لإدراك الطلائع التى قطعت الصلة بينها وبين طريق أمتنا بفضل تدهور برامج التاريخ الوطنى فى التعليم منذ ١٩٤٥ ألا وهو استنزاف الطاقة الاقتصادية والبشرية العلمية والتكنولوچية العربية، خاصة فى المنطقة المركزية ـ مصر، سوريا، العراق ـ بغية تأجيل ظهور قوة عربية، حتى وإن كانت متفرقة، ذات شأن فى مرحلة تحول البترول من سلعة رخيصة متاحة إلى سلاح معنوى ومادى فى نهاية أكتوبر ١٩٧٣، بفضل دماء شهداء مصر وسوريا.

أما الهدف الثالث ـ ولعله هدف الأهداف ـ فإنما كان يتمثل فى العودة إلى جو الانكسار الذى حاولت أمتنا العربية بفضل مصر وسوريا أن تفلت منه وتكسر كماشاته الدامية. كان الهدف من محاصرة عبور أكتوبر العظيم وفرض اتفاقية كامپ ديڤيد، وجوهرها، بعد استرداد سيناء منزوعة السلاح، ورغم عدم تحقيق الوعد بحق تقرير المصير لشعب فلسطين، كان هو التطبيع مع الدولة اليهودية، وبالتالى فرض التبعية الاقتصادية والتكنولوچية والعلمية والبشرية والسياسية على أمتنا العربية إلى أبد الآبدين.

أى أن الهدف المركب عميق الدلالة، بعيد النظر، للحرب المضادة لعبور أكتوبر، كان هدفًا حضاريًّا بكل معانى الكلمة، كما أوضحناه آنذاك فى بحثنا حول «المغزى الحضارى لحرب أكتوبر» المقدم إلى الندوة الدولية عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ المنعقدة فى القاهرة، فى رحاب وزارة الدفاع وقواتنا المسلحة (١٩٧٥).

الهجوم المضاد: «إلغاء» الأمة

المغزى، مغزى الحرب، مغزى العبور ثم محاصرة العبور، مغزى النصر ثم محاصرة النصر، كان فى المقام الأول مغزى حضاريًا بكل معانى الكلمة.

إن قيادة دولة عربية قوية شامخة حول مصر، فى قلب دائرة الحضارة الإسلامية الآسيوية الإفريقية الناهضة، بدءًا من مؤتمر باندونج (أبريل ١٩٥٥)، كان، ولا يزال، يمثل أكبر تهديد للإمپريالية الغربية واليهودية السياسية فى عصرنا، خاصة بعد صعود جمهورية الصين الشعبية إلى المقام الأول فى مجالات التنمية والتأثير المعنوى ومكانة ومستوى ونوعية القيادة السياسية فى عصرنا. فى هذا الجو كان لزامًا علينا أن نعيد حساباتنا، وأن ندرك أن الغرب ـ على تنوع قطاعاته ـ لا يمكن أن يرضى بالعودة إلى مثل

هذه العملية تهديدًا لمكانته التاريخية، خاصة بعد أن دب الضعف فى الاتحاد السوفييتى، وتم تفكيكه بفضل المؤامرة الأمريكية ـ اليهودية السياسية بين ١٩٨٩ و١٩٩١.

كان لا بد لنا أن ندرك أن الاعتماد على الولايات المتحدة، بل والتحالف الموضوعى معها، هو عكس المطلوب، ولن يؤدى بداية ونهاية إلا إلى تعطيل الإرادة الوطنية، وإضعاف العزيمة، ونشر روح الاستسلام من خلال الانفتاح الاستهلاكى وفئة الرأسمالية السمسارية غير المنتجة التى سادت مصر بين ١٩٧٥ وبداية التسعينيات، وما زال لها قوة هائلة وأثر أسود كما علمنا المفكر الكبير الدكتور جلال أمين فى كتابه العلم «ماذا جرى للمصريين؟» (١٩٩٧).

كانت هناك بعض الأعذار ولا شك. لم يعد هناك قطب ثان اشتراكى بعد ١٩٩١ ولا كتلة اشتراكية (أوروپية). وكذا ضعف الحركات الشيوعية والاشتراكية فى القارة الأوروپية جمعاء. كانت أمريكا سخية فى دعمها المالى السنوى بادئ الأمر. تظاهرت بأنها الوسيط، وظن البعض أنها الوسيط لحل القضية الفلسطينية، بينما كانت هى الوسيط الفاعل لتأكيد جبروت الدولة اليهودية النووى لتدمير المشروع العربى كله، وعلى وجهها ابتسامة. وكذا، فى مقابل هذا الوهم، رأى فريق آخر أنه لعل مجموعة دول أوروپا الغربية تمثل بديلاً معقولاً للتعامل مع الغرب، ما دامت الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن الاطمئنان إليها.

ومن هنا نشأ المشروعان: المشروع الأمريكى باسم «الشرق أوسطية» ثم المشروع الأوروپى باسم «المتوسطية».

وقد رأى كل فريق «طليعى» فى بلادنا أن يجنح إلى أحد من هذين الاتجاهين، بينما الرأى العام وعموم الطبقة السياسية وأجهزة الدولة الوطنية ما زالت على توجهها للإفلات من الانكسار، وتوطئة لكسر الانكسار من جديد.

مرحلة المناورات الكبرى، رفع شعارات وعبارات ومفاهيم لا تهدف إلا إلى التمويه والإطاحة بوحدة الإرادة والعمل، ما دامت «الكلمات فى زمن الحرب مثل غطاء السحاب هدفها التمويه والخداع» على حد تعبير رجل الدولة البريطانى العظيم ونستون تشرشل أثناء الحرب العالمية.

obeikan.com

وفى مقابل هذا الجو الرتيب، اتجه قطاع واسع من الطبقة السياسية والفكرية فى مصر والعالم العربى إلى روح باندونج، أى إلى التوجه الآسيوى - العربى - الإفريقى - ما نطلق عليه اليوم «الجنوب» بعد زوال تسمية العالم الثانى الفارغة، وقد رأوا فى هذا التوجه أنه سوف يوفر لنا ركائز ثابتة للتحالف والتعامل الفعال الصادق، على الأقل استعدادًا لما هو قادم من عمليات سياسية وإستراتيچية لا بد منها لكسر الانكسار من جديد.

وقد أحاط النبهاء فى بلادنا هذه الجهود الوطنية القومية الصادقة الصلبة بالازدراء والاتهامات والتجريح، إلى حد أن رواد «ريح الشرق» أصبحوا فى نظر العملاء الحضاريين وكأنهم دخلاء هبطوا على أرض الواقع من عالم الأحلام. عكس الواقع. الأمر المعكوس. مرة أخرى.

الحصار «الجنسى» إلى هاوية الحرب

هذه الاعتبارات كلها فى سماء يعتقد الجميع أنها على تقلبها ما زالت سماء سلام.

وفجأة تتفجر الحرب من أوسع الأبواب، أعلن متحدث باسم الكونجرس الأمريكى فى مساء الخميس ٢٣ سپتمبر ١٩٩٨ أن الكونجرس الموقر قرر - فجأة - تزويد الدولة اليهودية بترسانة هائلة من الأسلحة الهجومية قوامها ١٥ طائرة هجومية إف ١٦ وعدة أسراب طائرات هجومية - دفاعية إف ١٥، بالإضافة إلى نظام كامل من الصواريخ من جميع الأنواع قوة ضاربة تمثل ما يقرب ما تسلح به الحلفاء الغربيون لفتح الجبهة الثانية فى «نورماندى» شمال فرنسا عام ١٩٤٤ - معلنًا أن الكونجرس قرر أن الهدف هو «تمكين إسرائيل من التفوق الإستراتيچى على كافة جيرانها». وقد استغربت التلفزة والصحافة المصرية والعربية واستهجنت هذا الأمر: كيف تَدَّعى أمريكا أنها وسيط سلام، بينما هى الترسانة التى تعد للحرب القادمة.

ما تفسير هذا كله؟ كيف يكون هذا التهجم ونحن فى مرحلة «سلام»؟ بل إننا ما زلنا نسير فى «مسيرة» لا بداية لها ولا نهاية منذ البداية.

كان العرب يعيشون تحت القناعة بالتفوق النووى للدولة اليهودية حتى جاء

تصريح المشير حسين طنطاوى أمام مجلس الشعب فى أعياد يوليو يؤكد أن مصر تملك أسلحة الردع الكافية لتعطيل فعالية الترسانة النووية للعدو.

عندئذ، أصبح لزامًا على جبهة الأعداء أن ترفع مستوى القوى الهجومية ـ الإستراتيچية «التقليدية» إلى حد يشل فعالية القوة العربية، خاصة بعد نجاح إيران الثورة فى إعداد صواريخ مداها ١٣٠٠ كيلو متر، وبعد نجاح كوريا الشمالية فى إنتاج صواريخ مداها ٣٠٠٠ كم، وكذا التقارب ـ بل والتطبيع ـ بين إيران والسعودية من ناحية ثم سوريا والعراق من ناحية أخرى. وهذا صمود ليبيا والسودان. ولم يكن أمام الرئيس الأمريكى، فى هذا المأزق التاريخى الدنس الذى وضعته فيه أنظمة بلادة الديمقراطية، بينما هو لم يكن إلا خادمًا رفيع المقام للمصالح الأمريكية فى العالم، لم يكن أمامه إلا أن يتراجع والتراجع لا يمكن إلا أن يكون فى المنطقة العربية، منطقة الدول الرخوة، على حد تعبير الدكتور جلال أمين مرة أخرى. إن إعلان منح هذه الترسانة الهجومية الهائلة إلى الدولة اليهودية هدفه تهدئة الإعلام ودوائر المال اليهودية فى أمريكا. وكذا إقناع اليمين الجديد بأن منطقة البترول فى الشرق العربى ـ الإيرانى من ناحية، ثم غدًا فى منطقة القوقاز وآسيا الوسطى ستظل رهينة للتهديد النووى للدولة اليهودية.

ـ ومن هنا، وربما ترقبًا لهذا الأمر، أصبح لزامًا على مصر أن تعمل دون هوادة ولا تردد فى إشراك كافة القوى السياسية والمدارس الفكرية الوطنية فى مناقشة مفتوحة، جادة واسعة من أجل صياغة القرار ثم الرقابة على تنفيذ القرار وكذا الإفادة من ثمار تنفيذ القرار ـ وهى المعالم الثلاثة للديمقراطية الحقة. وقد تحدثنا فى العديد من الكتابات عن ضرورة إقامة الجبهة الوطنية المتحدة. ولعل الآن هو وقت اتخاذ الخطوات العملية لإقامتها، حول رئيس مصر وبقيادته، بحيث ندخل عهدًا جديدًا من التبعية والاستعداد ما دام الخطر يحيط بنا بشكل ساطع من القوى الإستراتيچية الهجومية. والترسانة الهجومية والنووية الهائلة للدولة اليهودية لا تهدف بحال من الأحوال إلى قمع المقاومة الفلسطينية وإنما محاصرة ـ وعند اللزوم تدمير ـ القوة الإستراتيچية الرئيسية للعالم العربى فى مصر وسوريا والعراق وليبيا، بينما يزداد التناحر المدبر من الخارج فى الجزائر والسودان وأجزاء من الخليج. وبهذا المعنى، وبهذه الروح، أود أن أحيى من الأعماق ما

شاهدته يوم ٢٢ يوليو ١٩٩٨، يوم تخرج الدفعة الجديدة من الكلية الحربية، عشية يوم الاحتفال بثورة يوليو ١٩٥٢. رأينا كتائب الخريجين يتقدمون نحو القائد الأعلى للقوات المسلحة كل كتيبة تحمل اسمًا رمزًا له دلالة عميقة فى هذه الظروف.

أولاها كتيبة «أحمد عرابى» ثم كتيبة «مصطفى كامل» ثم كتيبة «طلعت حرب». وقد تأثرت أبلغ الأثر عندما سمعت هذه الأسماء. إن شباب اليوم لا يعلم دور مصطفى كامل باشا، مؤسس الحزب الوطنى رافع شعار أنه «لو لم أكن مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا» وكذا فإن اسم طلعت حرب تحول إلى ميدان وعلى ضفتيه مكتبتى مدبولى والشروق. ومن المهم أن ندرك ونذكر دومًا أن محمد طلعت حرب باشا، الوفدى النزعة الإسلامى التوجه، هو الذى بنى صرح الاقتصاد الوطنى والصناعة الإنتاجية المصرية الحديثة بدءًا من تأسيس بنك مصر (١٩٢٣ ـ ١٩٢٣) إلى إقامة شبكة الشركات الإنتاجية الواسعة وقوامها ٢٦ مجموعة من الشركات فى أهم القطاعات الإنتاجية، هى الشبكة التى لولاها لما استطاعت مصر فيما بعد أن تقيم القطاع العام، ولما استطعنا اليوم أن نتباهى بالتنمية الاقتصادية التى بلغت ٦ ٪ كل عام. هذه الأسماء العزيزة، إذ ترفع فوق أعلام كتائب شباب خريجى الكلية الحربية، الملازمين الثوانى فى قواتنا المسلحة، دلالة عميقة فى تاريخنا الوطنى. وبهذه المناسبة، كم يسعدنا أن ترتفع أسماء جديدة فى سماء مصر ممتزجة بأعلامها: رفاعة الطهطاوى، إبراهيم باشا الكبير، عبد الله النديم، محمد عبيد، عبد الرحمن فهمى، سعد زغلول، أحمد حسين، مصطفى النحاس، عبد المنعم رياض، عزيز المصرى، محمد حمدى سيف النصر، مكرم عبيد، شهدى عطية الشافعى، جمال حمدان بين غيرها من الأسماء اللامعة. وقد آن الأوان حقيقة لكى تمتزج صفوف شعب مصر بجيش الوطن فى عروة وثقى لا يتمكن من النفاذ إليها أحد تارة باسم «التحديث والتخريب» وتارة أخرى باسم «الديمقراطية الليبرالية» أو «المجتمع المدنى».

ــ إن خصوصية أمتنا المصرية هى تلك العروة الوثقى التى دومًا ربطت ودومًا ستربط بين جماهير شعبنا العظيم جيش الوطن العزيز على قلوبنا أجمعين. إن جيش مصر ليس أداة قمع، اللهم إلا ضد أعداء الوطن. إن ألوية مصر لا ترتفع إلا لمعارك الدفاع عن أمننا القومى، معارك اقتحام صفوف العدو المعتدى، وفى نفس اليوم ــ أى

obeikan.com

يوم ٢٢ يوليو ١٩٩٨ ـ كم أسعدنا رئيس مصر إذ أمر بدعوة جميع أوائل خريجى كليات جامعات مصر جنبًا إلى جنب مع خريجى الكلية الحربية، تأكيدًا لهذا المعنى الجليل، وإعلانًا لأن طبقة الصفوة السياسية المصرية الوطنية لا تفرق بين المدنى والعسكريين، بين الضابط والمفكر، بين رجال الفكر ورجال السلاح.

أمور لها دلالتها، إعدادًا لما هو قادم، وهو إنجاز عظيم يعود إلى عبور أكتوبر، وفاء لرسالته، ألا وهى: أن الشعب والجيش ـ معًا ـ عبرا هذا اليوم ليستردا الشرف والأرض، الوجدان والتراب باسم مصر كلها، وإرادتها، وقوتها الذاتية، ومصالحها الملتحمة بمصالح الأمة العربية.

فى هذا الجو، لمواجهة الخطر القادم لا بد من مراجعة التوجهات الرئيسية لسياستنا الخارجية والدفاعية من نفس المنطقة الذى بدأ يتجلى فى قمة الدول. يجب أن ندرك أن رفع مستوى الاستعداد الإستراتيچى لجيش الوطن لن يتم إلا بالاستناد إلى الترسانة التصنيعية الحربية المتقدمة لروسيا والصين وكوريا الشمالية وكل القوى المعادية للاستعمار. إنها ـ وحدها ـ صاحبة المصلحة فى دعم قوتنا دون خداع ولا تشويش ولا شروط سياسية مذلة. وكذا بالنسبة للسياسة الخارجية يجب أن ندرك أن السياسة الخارجية شأن الطلائع السياسية المصرية كلها، من كافة الأحزاب والمدارس الفكرية والهيئات المهيمنة دون استثناء، أى أنها هى مهمة الكادر المصرى، خاصة الكادر السياسى والفكرى، جنبًا إلى جنب مع إخوانهم المرموقين الذين يحركون أدوات التنفيذ فى وزارة الخارجية التى نعتز بها. إن السياسة الخارجية شأن الوطن كله، وليست حكرًا لهيئة أيًّا كانت مكانتها. هذا هو منطق الاستعداد للمواجهة. هذا هو منطق التعبئة الوطنية فى مواجهة العدوان القادم.

الحضارات: من الصدام إلى الحوار

قلنا إن «المغزى الحضارى لحرب أكتوبر» يفوق بكثير إنجازاته العسكرية الميدانية، وأبعاده الإستراتيچية آنذاك وفيما بعد.

ـ وفى هذا الجو، جاءت خطبة السيد الرئيس محمد خاتمى ـ رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ أمام الجمعية العامى للأمم المتحدة، يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٩٨،

obeikan.com

نقطة تحول فى فلسفة العلاقات الدولية منذ إنشاء هيئة الدول المتحدة فى سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥.

إنها تستحق منا وقفة حول رسائلها الرئيسية:

(أ) «من أهم إنجازات هذا القرن أن الحوار أصبح مقبولاً وذا مغزى بعد نبذ القوة، وذلك للتقدم فى طريق التفاهم فى مجالات الثقافة والاقتصاد والسياسة، وكذا لدعم أركان الحرية والعدالة والحقوق الإنسانية.» ومعنى هذا، بادئ ذى بدء، أن سياسة «صدام الحضارات» سياسة إجرامية بدأ العالم يرفضها ـ رغم أنها تمثل السياسة الفعلية لدولة الهيمنة الإمپريالية والصهيونية.

(ب) كيف يمكن تحقيق هذا الهدف الجليل؟ «لو استطاعت الإنسانية، وهى على عتبة القرن الجديد والألفية الجديدة، أن تكرس كافة جهودها لتأسيس الحوار، وإبدال العداء والمواجهة بالحديث والتفاهم، فسوف تكون قد تركت تركة لا تُقَدَّر بثمن لفائدة الأجيال القادمة».

(ج) ثم حدد السيد محمد خاتمى مناطق الصراع التى لا بد أن تواجه بالحوار. أولها منطقة كوسوفا وما يتم فيها من إبادة لشعب كوسوفا الألبانى الإسلامى. ثم أفغانستان حيث تعمل القوى الإمپريالية عدوة الشعوب على إشعال الفتنة بين مختلف القوى وكذا الدول الإسلامية للسيطرة على دائرة آسيا المركزية، وهى نفس القوى التى سلحت ودفعت بحلفاء الأمس إلى الأمام، فتتظاهر اليوم بأنها لا ترضى عنهم. إن حل خطر «طالبان» لا يتم إلا بالتشاور والدبلوماسية الدولية المكثفة.

ثم ركز رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية هجومه على المؤامرة الإمپريالية الصهيونية الدولية التى تتنكر لحقوق شعب فلسطين وبالتالى تدمر فرص السلام فى الشرق الأوسط، وذلك بلهجة لم نلحظها من قبل فى العديد من الخطب العربية، مما يؤكد عمق التلاقى بين الوجدان العربى والفارسى فى الأعماق. رغم المظاهر.

(د) وهنا واجه الرئيس الإيرانى مباشرة مسألة الإرهاب.. «إن الإرهاب هو نتاج لليأس والعدمية، ونتاج لعالم يتخبط فى دائرة العنف والاضطهاد. إن النضال الجاد ضد الإرهاب لن يتقدم بعيدًا عن دائرة العبارات والشعارات. إن استئصال الإرهاب

يجب أن يتم يدًا فى يد مع السعى العالمى للعدالة. وعلينا أن ندرك أن هذه الفكرة لا تعنى بحال من الأحوال تبريرًا لأى نوع من أنواع الإرهاب.

إننا، بدءًا من قيمنا ومعاييرنا الدينية والأخلاقية والثقافية نعارض كافة أشكال وتجليات الإرهاب، وسوف نناضل ضدها بشكل جدى ومتصل. وفى رأينا أنه من أجل استئصال هذا التهديد، يجب أن ندخل فى عملية تعاون دولى جاد وشفاف من أجل استئصال الإرهاب، وفى نفس الوقت نضاعف جهودنا من أجل التوصل إلى هدف العدالة العالمية».

(هـ) وعند هذا الحد أكد الرئيس الإيرانى أهمية احترام البيئة والموارد الإنسانية. ثم اتجه بكلمات يجب تأملها إلى الفكر العدمى وتدمير معانى الترابط المجتمعى والقومى:
«إن الأسرة هى الإطار الأوحد للتقدم الإنسانى ولنمو الهوية الاجتماعية للأفراد. وإننا مع الأسف نلحظ اليوم ـ خاصة فى الدول الصناعية ـ أن أركان البيت والأسرة قد تم زلزالها، مما يهدد بالصحة الوجدانية والمادية والنفسية للحياة الإنسانية، لا بد له من جهد عالمى لمواجهة هذا الخطر، إذ أن نيران الأسرة ـ هذا المركز للدفء والعطف والتربية ـ سوف تطغى عليها الأجواء الباردة المنحطة لفترينات جذابة ومكاسب مادية ما لم نفعل ذلك.

أى أن الرئيس محمد خاتمى طرح القضية الدولية من الزاوية الحضارية فى المقام الأول. وذلك تمامًا ما رأيناه فى رسالة أكتوبر، وإن كان الأمر هذه المرة يرتفع إلى المستوى العالمى مباشرة.

عند هذا الحد بدأ الرئيس الإيرانى، وكذا اختتم حديثة بتقديم اقتراح رسمى إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة طالب فيه بأن تقرير الأمم المتحدة فى دورتها الحالية أن يكون عام ٢٠٠١ هو «عام الحوار بين الحضارات» مؤكدًا أن مثل هذا الحوار سوف يفتح الطريق أمام تحقيق العدالة والحرية العالمية.

بيت القصيد، فى هذا الاقتراح التاريخى الذى يعبر عن وجداننا العميق أجمعين إنما هو: لأن الحضارات الكبرى ـ وفى قلبها الدوائر الچيوثقافية المتنوعة والقوميات ـ هى التى تثير الصدام، وبالتالى هى التى يجب أن نتناولها ببناء جسور الحوار من أجل التفاهم، تأمينًا للعدالة السياسية والاجتماعية وحرية الشعوب والأفراد وحقوقها.

لقد آن الأوان ـ حقيقة ـ لكى تدخل مصر من أوسع الأبواب يدًا فى يد مع إيران الثورة، فى هذا الطريق المضىء.

ـ ولعل نقطة البدء أن تقرر مصر ـ حول رئيسها ـ إقامة «المجتمع العالمى لحوار الحضارات» على أرضنا المحروسة مهد الحضارات كلها، شريكة الحضارة الإيرانية ثم الصينية فى القدم، ونضال شعوبنا حتى اليوم ضد الهيمنة، من أجل العدالة، والتحرر، والنهضة الروحية والحضارية، بعيدًا عن الفكر العدمى السوقى الذى كاد يطغى.

البطارية الحضارية

كلمة أخيرة من باب الذكريات الحية

أثناء «ندوة أكتوبر العالمية» عام ١٩٧٥، تقرر أن يذهب المشاركون أفواجًا لزيارة ساحات المعارك فى سيناء بعد تحريرها. كان نصيبى آنذاك أن أوجد فى المجموعة الجنوبية التى دخلت إلى الضفة الشرقية فى مواجهة منطقة مدينة السويس. أشلاء الدبابات والمصفحات والمدافع الميدانية فى كل مكان، ومن حولها ومن ورائها آثار الحرائق.

ثم فجأة شىء غريب: قواعد من الأسمنت المسلح وكأنها مزروعة فى الأرض، محصنة من كل جانب. أهى ترى منازل؟ أم مبانى قيادة عسكرية للعدو؟ أم.. عندئذ جاء التفسير على لسان عقيد شاب كان رائدنا فى هذه الرحلة، ليتنى أذكر اسمه لأقبله بعد ربع قرن. قال: «ما ترونه حضراتكم قواعد لبطارية عيون موسى..» وبالفعل رأينا المدافع الثقيلة مدفونة بين جدران القواعد فى الأرض. لاحظت أن مجال تحركها إلى اليمين واليسار ـ حسب القاعدة المعمول بها ـ ضيق جدًا، يكاد يكون منعدمًا... ارتفع صوت رائدنا العقيد من جديد: «كل مدفع مدفون فى الأرض. المدافع الثقيلة الستة من عيار ١٥٨ مداها الأقصى ٢٦ كيلو متر. ترون حضراتكم، لو اقتربتم من الفتحة أمام المدفع أنها ـ أى الفتحة ـ تصب مباشرة على هدف واحد...» هدف واحد؟ اقتربنا دققنا النظر وإذا بـ«الهدف الواحد» هو: مدينة السويس، وخاصة المنطقة الصناعية والميناء، ارتفع صوت العقيد للمرة الأخيرة: «كل من هذه المدافع الثقيلة لبطارية عيون موسى ـ

هكذا كان اسمها ـ كما وصفناها من أجود نتاج مصانع فرنسا الحربية. كانت بين جيش الأعداء. ظلت تدك السويس ـ وخاصة الميناء والمنطقة الصناعية ـ ليل نهار سنوات خريف ١٩٦٧ حتى العبور...»

صاح بعضنا فى ذهول: لماذا، بأى هدف؟...

وهنا، صحنا معًا، الصديق السيد ياسين وكاتب هذه السطور: «لتدمير الحضارة. لتدمير حياة السويس، لا للحرب!...» وعلى الفور أطلقنا على بطارية عيون موسى أنها «البطارية الحضارية»، اسمها منذ هذا اليوم فى التاريخ.

قال صاحبى: «البطارية الحضارية... ونحن نقول حوار الحضارات... أليس كذلك؟

لماذا أراك ساهمًا؟ جريحًا، مصرًا، آمِلاً؟... أفلم نصبح حقيقة فى لحظة الخيار. لحظة المبادرة التاريخية من أجل إنقاذ حضارة الإنسان؟...»

۞ ۞ ۞

ـ ٢٤ ـ

حاجتنا إلى: « الجامعة المصرية للدراسات العالمية »

فى أسبوع واحد فقط (من شهر ديسمبر ١٩٩٨) بدأت تنقشع الغيوم. رئيس مصر يفتح الطريق المضىء إلى استرداد أواصر الإخاء التاريخى والشراكة المستقبلية بين مصر والأمة العربية وتركيا، وقلوب مصر كلها تحيط به، بينما إعلام الغرب الديمقراطى يتجاهل هذا العمل الفاتح بكل معانى الكلمة تجاهلاً تامًّا.

ــ تعود الانتفاضة وصحوة المقاومة الفلسطينية ضد زيف ونفاق اتفاقية مزرعة واى، فتتفتت مؤامرة عصابة التطبيع. وفى الوقت نفسه، تتحرك جبهة أقصى اليمين اليهودية الأمريكية لتدمير ما تبقى للرئاسة الأمريكية من مهابة ومصداقية.

ــ تصطدم الولايات المتحدة برفض اليابان فتح اقتصاده إلى التوغل الأمريكى ــ اليهودى، تقرر كوريا الجنوبية الاستمرار فى سياسة الانفتاح على أشقائها فى كوريا الشمالية، تتماسك الصين العظيمة بأدوات ضبط حركة التنمية الاقتصادية، وكذا التطور السياسى الواجب، يدًا فى يد مع رفع مستوى ترسانتها الإستراتيچية الدفاعية والهجومية بشكل خارق.

ــ تصمد ماليزيا وإندونيسيا وجنوب شرق آسيا أمام مؤامرات المجرم المفلس سوروس وأمثاله، فتندد مجلة «إكونميست» بانحطاط نظرية السياسة الجديدة فى صفحة ساخرة لإذاعة يوم ٣ ديسمبر ١٩٩٨، لنا عودة إليها فى المكان المناسب.

ــ ثم مفاجأة ألمانيا تنفجر كالقنبلة فى جو الغرب الرتيب. المستشار شرويدر الجديد يخصص زيارته الرسمية الأولى لموسكو، وبعد مصافحة «يلتسين» يعقِد جلسة نقاش وعمل مع الدكتور «زيوجانوف» زعيم الحزب الشيوعى الروسى، والچنرال

«ألكسندر ليبيد» أعدى أعداء الكرملين وخليفة «يلتسين» المرتقب. ثم يعلن وزير خارجية ألمانيا الجديد، زعيم حزب الخضر الدكتور «يوشكا فيشر» أنه لا بد من تعديل ميثاق حلف الأطلنطى بإلغاء منح الضربة الأولى، أى حق إطلاق القنبلة النووية الأولى لأى من الأطراف، وهو ما لم يجرؤ عليه أى مسئول سياسى رسمى فى دول الغرب الكبرى الديمقراطية.

ـ تزدهر سياسة مصر تجاه محور النيل الإفريقى، ويتم التقارب مع إثيوبيا وأوغندا، ويبدأ عزل الرئيس الأرتيرى «أفورقى» مرشح أمريكا المختار للسيطرة الحربية على منطقة البحيرات الوسطى.

ـ تعلن الصحف فى مطلع ديسمبر ١٩٩٨ القرار الأمريكى ببناء أكبر قاعدة حربية إستراتيچية فى العالم فى.. قطر بغية دق الإسفين الدامى بين العرب من ناحية وإيران وآسيا الوسطى والجنوبية من ناحية أخرى، وكذا الإعداد لاحتلال إفريقيا الوسطى وتقسيم السودان ومحاصرة مصر.

ـ ثم يرتفع الصوت المضىء للسيدة «مادلين» تنادى أتباعها فى حلف الأطلنطى أن يعيدوا صياغة ميثاق الحلف بحيث ينتشر من إفريقيا الوسطى إلى آسيا الوسطى! بينما تنشر الصحافة الأمريكية والآسيوية فى هونج كونج خطط وكذا خرائط الحرب القادمة ضد كوريا الشمالية.

ـ كل هذا بينما يمعن المجرم «ريتشارد بتلر» لإشعال فتيل الحرب المدمرة من جديد ضد العراق الشقيق الجريح.

ـ وكذا تفجير الهدنة السياسية فى شيلى، أقرب دول أمريكا اللاتينية إلى آسيا الشرقية، والعمل على إثارة الفتنة بين كوبا والمكسيك، ثم التوغل إلى دائرة تعامل وجيرانها مع عملية التسليح فى عالمنا العربىمنظرًا ملتهبًا لعالم تسوقه أمريكا فى جنون وعنجهية الهيمنة إلى حرب عالمية تتسم بكل معانى صدام الحضارات والأديان والثقافات باسم قيم السوق وتقويض أركان الأمم والدول الوطنية باسم حقوق الإنسان دون الواجبات، بلا ذكر لحقوق الشعوب، وعالمية القيم الغربية فى مرحلة انحدار الغرب.

كيف يمكن للإنسان العاقل والسياسى المسئول أن يجد طريقه إلى فهم أمواج التغيير وتخبط المخططات وكذا تصاعد وتفتت المؤسسات التقليدية ودعاوى التعالى ومنطق الاحتقار؟

ما العمل لفك الاشتباك مع تسميم العقول والوجدان وغسيل الدماغ بواسطة الإعلام الأمريكى ـ اليهودى؟

لا بد ـ مرة أخرى ـ أن نقيم العمل على أسس ثابتة رغم المصاعب. لا بد أن نتأثر ونعمق العمل رغم الضربات المضادة.

وفى كلمة: لا بد من رد الفعل مهتدين بقوله تعالى ونحن على أعتاب الشهر الكريم (شهر رمضان): ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]

فى هذا الجو، عدت بالذاكرة إلى حديث تفضل به السيد الأستاذ الدكتور مفيد شهاب، وزير التعليم العالى والدولة للبحث العلمى يوم ٢ أكتوبر ١٩٩٨ فى القاهرة، إذ عرضت عليه مشروع إنشاء جامعات للعلاقات الخارجية أو الدولية أو العالمية، فاهتم بالأمر بعد الشرح الأولى، وطالبنى بالمزيد من التفصيل. وقد رأيت أن المناسبة قد سنحت لعرض الأمر برمته على المسئولين وكذا على الشارع المصرى، بحيث نتقدم خطوة فى فك الاشتباك مع التبعية الفكرية التى نرى أنها أخطر بكثير من التبعية الاقتصادية، بل والسياسية، إذ أنها تصب فى جوهر قدرتنا على وعى الأمور، وبالتالى اتخاذ القرار.

مداخل إلى مشروع قومى حيوى

نقطة البدء أن وسائل إدراك العالم التى نملكها فى بلاد مصر على وجه التخصيص ـ وإن كان الحديث يشمل أيضًا عمومًا البلاد العربية، ولكنما التخصيص هنا لا بد منه ـ تتلخص فى ما يلى:

أولاً: كليات جامعية متخصصة حسب القطاعات العملية (علوم، آداب، طب، فنون جميلة، تجارة، اقتصاد وعلوم سياسية، إعلام، حقوق، إلخ) وهى تشمل أقسامًا تماثل الأقسام التقليدية الأوروبية والأمريكية، بدءًا من تخطيط الأستاذ العميد المرحوم الدكتور طه حسين الذى ترك بصماته المؤثرة على التعليم العالى.

وقد ظهرت تدريجيًّا أشياء غريبة على السطح : أفهذه مثلاً أقسام للدراسات أو الآداب أو اللغات الإنجليزية والفرنسية بجميع كليات الآداب ، وكأن العالم الخارجى ـ على الأقل فى مجال الآداب والعلوم الإنسانية ـ تلخص فى الدولتين الاستعماريتين التقليديتين فى عالمنا العربى ، أما دراسة بقية العالم الغربى وثقافاته ، فمتروك فى أغلب الأمر إلى المعاهد الثقافية لمختلف السفارات الأوروپية. إلى حد أننا لا نملك حتى الآن معهدًا واحدًا للدراسات الأمريكية رغم ثقل وزن الولايات المتحدة فى أعماق حياتنا العامة بكافة قطاعاتها ، ودعنا عن معهد مماثل للدراسات السوڤييتية والروسية المواكبة.

ثم إن هناك شيئًا غريبًا فى مصر أم الحضارات. ألا وهو قسم الدراسات الكلاسيكية ، وهو نسخة طبق الأصل من الأقسام المماثلة فى الجامعات الأوروپية والأمريكية ، حيث إن الدراسات الكلاسيكية تعنى بطبيعة الأمر باليونان وروما ، أصل الحضارة والثقافة الأوروپية والغربية. أما مصر ، فإن الدراسات الكلاسيكية اليونانية والرومانية لا تعنينا من قريب أو بعيد ، اللهم إلا من حيث تأثيرها لمدة ستة قرون من تاريخها السبع ألفى. إن الدراسات الكلاسيكية ، على وجه التدقيق وبالمفهوم العلمى ، فى جامعة مصرية يجب أن تعنى بالأساس بالجذور الحضارية لمصر المعاصرة ، أى بدراسة حضارة مصر الفرعونية الشامخة عبر خمسين قرنًا ، ومن بعدها حضارة مصر القبطية فى تمازجها مع مداخل المؤثرات اليونانية والرومانية ، ومن بعدها الحضارة العربية الإسلامية حتى العصر الحديث وبمعنى آخر :

إن الدراسات الكلاسيكية ، أى الجذور التاريخية للصين واليابان والهند وإيران ومصر والعالم العربى والإسلامى مغايرة تمامًا عن الجذور التاريخية للدرسات الكلاسيكية فى أوروپا وأمريكا ، أى فى العالم الغربى.

يدور كل هذا وكأن الأمور لا أثر لها على العقول. بينما نراها فى الواقع تؤثر على انتشار الجهل بجذورنا الحضارية جهلاً عميقًا ليس فقط بين خريجى الجامعات وإنما أيضًا بين قطاع واسع من المتعلمين والمثقفين والمشتغلين بالشأن العالم ؛ نتيجة للفجوات القائمة فى دراستنا لذاتنا الحضارية والقومية.

ثانيًا : وكذا ، فإن هناك كوكبة من الأقسام والمواد والدراسات المحدودة فى مستوى الليسانس والدراسات المتقدمة تعنى النواحى المتنافرة غير المنسقة ، للعالم ، دون أدنى

تخطيط ، وكأن أمر العلم بالعالم موكول للآخرين ، ما علينا إلا أن نتعلم منهم ، ولنفهم العالم من منظورهم ، أى ، بدءًا من مصالحهم وسياساتهم التى هى فى معظم الأحيان مغايرة تمامًا ، بل ومناهضة لرؤيتنا ومصالحنا.

العالم المقلوب حقيقة تمامًا لو تساءلنا ، أسوة بموضوع فشل أمريكا فى فرض سياساتها أثناء اجتماع الأبيك APEC فى كوالالمبور خلال شهر نوفمبر ١٩٩٨ : فشل مصر فى استيعاب القواعد الحربية البريطانية فى منطقة القنال فى مرحلة النضال الوطنى من أجل الاستقلال بين ١٨٨١ ـ ١٩٥٦.

مرة أخرى : من أين تكون ، ترى ، نقطة البدء؟

كيف يمكن أن نفهم العالم الجديد؟

وعندنا أن الهدف الرئيسى يجب أن يكون ، على وجه التحديد : بناء المؤسسات التى تستطيع أن تكون الكادر العلمى الجاد فى كافة قطاعات المعرفة وكافة الدوائر الثقافية ـ الجغرافية لعالم اليوم ، بشكل منتظم ، سنة بعد سنة ، ركيزة لإدراكنا الصحيح لتغيير العالم وصيانة العالم الجديد ، بدلاً من المتاهات التى نحياها فى كثير من الأحيان عن حسن نية بدون علم حقيقة الأمور.

وعلى وجه التحديد : يجب على مصر أن تتعجل فى إنشاء الجامعة المصرية للدراسات العالمية ، وهى مؤسسة يمكن أن تتعدد عددًا معقولاً نحو ثلاث أو أربع جامعات ـ على النحو الذى سنبينه فيما بعد.

إن المشروع ليس بدعة ، وليس فيه إبداع ، ولكنه مشروع قائم وناجح بالفعل على أرفع نطاق فى كل من الصين واليابان وكوريا ، وكذا المكسيك ، وهى البلاد التى أتيح لنا أن نتعامل مع هذه المؤسسات ميدانيًّا بها مع نخبة مختارة متميزة من شباب علماء مصر كما كان شأن الأستاذ الدكتور عبد المنعم تليمة فى جامعة أوزاكا. وعلى وجه التحديد أذكر هنا جامعات الدراسات الأجنبية فى طوكيو وأوزاكا وبكين وشانجهاى وبوزان وكذا كوليفيودى فى عاصمة المكسيك.

ماذا تعنى مثل هذه الجامعات؟ أو هذه الشبكة من الجامعات؟ ولماذا هذه التسمية الغريبة؟

أولاً : جامعة الدراسات العالمية تهدف إلى رأب الصدع بين فهم العالم كما فرضه علينا عصر الهيمنة الغربية منذ القرن السادس عشر حتى اليوم، بحيث تنفتح الأبواب أمام الأمم الناهضة لفهم العالم كما هو، بدءًا من رؤيتها الذاتية، وخدمة لمصالحها الذاتية، وذلك باستعمال المواد والمفاهيم والتحليلات والدراسات والرؤى التابعة من مختلف قطاعات العالم المحيط ـ بدلاً من المرور عبر رؤى وتفسيرات وتوجيهات مراكز الاستعمار والإمپريالية والهيمنة.

ثانيًا : وبدءًا من هذا الهدف المركزى، تتكون جامعات من نوع جديد هى جامعات الدراسات العالمية جنبًا إلى جنب مع الجامعة الشاملة التقليدية، يدًا فى يد على النحو الذى سوف نبينه فيما يلى: ولكن الموضوع أن خصوصية جامعات الدراسات العالمية هى كما حددناه، لها خصوصيتها التاريخية والسياسية والحضارية، وكذا تمثل تلبية حاجة عاجلة ومستمرة متزايدة لمجتمعاتنا الناهضة، خاصة فى مرحلة نفاذ الهيمنة إلى العقول والأفئدة عبر سيطرة مركز الهيمنة والصهيونية على العلوم والتكنولوچيا والإعلام والنفاذ إلى كل دار على الشاشة بالوسائل السمعية والمرئية حتى الإنترنت.

ثالثًا : تتشكل جامعة الدراسات العالمية ـ ونحن هنا نتحدث عن هذا المفهوم بالمفرد حتى وإن تعدد عدد هذه الجامعات فيما بعد ـ من نوعين من الأقسام:

١ ـ أقسام تمثل مختلف الدوائر الثقافية الجغرافية الرئيسية التى تراها لازمة لنا، أى التى نرى من الواجب أن يدرسها جيل تلو جيل من الكادر الشاب المصرى لخدمة أمتنا الناهضة وعالمنا العربى فى هذه المرحلة الحاسمة من تحول العالم.

وفى تقديرنا أن الصورة العامة لهذه المنطقة يمكن أن تكون كالتالى من حيث البداية، يتلوها تحديد الأولويات ـ حسب احتياجات مصر، وسياستها المستقبلية ـ بأن مشروع مصر من أجل النهضة فى شبكة من المعاهد المتخصصة:

ـ الصين

ـ اليابان

ـ آسيا الشرقية والجنوب شرقية

ـ نصف القارة الهندية

ـ آسيا الوسطى

ـ آسيا الغربية حول إيران وتركيا

ـ روسيا

ـ أوروپا الغربية مع التركيز على الدائرة غير المدروسة : ألمانيا ، إيطاليا ، أسبانيا خاصة.

ـ محور النيل فى إفريقيا

ـ إفريقيا الغربية

ـ إفريقيا الشرقية والجنوبية

ـ الولايات المتحدة الأمريكية وكندا

ـ أمريكا اللاتينية الوسطى

ـ البرازيل

ـ أمريكا اللاتينية الجنوبية

(على سبيل المثال ، لا الحصر).

٢ ـ وفى كل من هذه الجامعات تتشكل الدراسة حول محاور ثابتة كالآتى :

(أ) محاور علمية تمثل مختلف قطاعات المعرفة : الجغرافية ، التاريخ ، الاقتصاد ، المجتمع ، النظام السياسى الداخلى ، السياسة الخارجية ، الثقافة والفكر ، الدين ، البعد الحضارى.

(ب) تتم الدراسة على أساس الاختيار المرن الذى يتكون من دراسة دوائر جغرافية ـ ثقافية معينة حسب أولويات مصر ، مركز الطاقات المتاحة.

على أن تكون دراسة كافة النواحى المتخصصة بشكل أساسى ، مع إعطاء الأولوية إلى مادة على وجه التحديد ـ مثل الاقتصاد ـ أو الثقافة أو علاقات دولية ـ يليها مادة أو مادتان ثانويتان يختارهما الطالب. فمثلاً يمكن أن يختار دارس الصين بوصفها منطقة ثقافية جغرافية محددة مع اختيار مادة الفلسفة الصينية كمادة رئيسية ، ثم مادة الاقتصاد كمادة ثانوية ، بينما يمكن أن يختار اليابان باعتبار مادة الجغرافية كمادة تاريخية ومادة التكنولوچيا كمادة ثانوية ، إلى غير ذلك من الأمثلة.

إن هذه الشبكة الضيقة من الجامعات من النوع الجديد لا تشكل من فراغ. قلنا إن هناك أسسا لا بأس بها فى نظامنا الجامعى والبحثى الحالى. وكذا هناك أساس متقدم فى عدد من المراكز البحثية المرموقة المعروفة وافرة الإنتاج.

وعلى وجه التدقيق يمكن الإفادة من العناصر التالية :

١ ـ مراكز البحث المتخصصة المذكورة.

٢ ـ أعضاء هيئات تدريس الجامعات القائم الآن الذين تخصصوا فى بعض القطاعات الثقافية والجغرافية المعنية وهم. وإن كانوا ندرة، إلا أنهم يمثلون نخبة طليعية هامة فى هذه الظروف.

٣ ـ مجموعة من الخبراء الذين قضوا مدة لا تقل عن ٣ أو ٤ سنوات فى علاقات مستقرة دائمة مع البلاد الخارجية موضوع الدراسة فى أى من قطاعات النشاط العام : الاقتصادى، الدبلوماسى، السياسى، الصحافى، الثقافى، الخ. إن هذه المجموعة من الخبراء تعمل فى شبكة الجامعات الجديدة للدراسات العالمية يدًا فى يد من أعضاء هيئة التدريس النظاميين فى نفس المستوى وبنفس المسئوليات بوصفهم مدرسين مساعدين أو أساتذة مشاركين نظرًا لعدم انتمائهم الأصلى للجامعة. هذا وإن كان من الممكن أن ينضموا كمدرسين وأساتذة مساعدين أو أساتذة بكامل الصلاحيات الجامعية إلى زملائهم الجامعيين، كما هو الأمر فى العديد من الجامعات الخارجية، وخاصة فى الولايات المتحدة والصين والهند وأمريكا اللاتينية.

٤ ـ ومن حسن الحظ أننا نملك الآن، بدءًا من مبادرة بلدين آسيويين كبيرين، مؤسستين جامعيتين تعمل بشكل ناجح :

(أ) هناك أولا قسم اللغة اليابانية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وقد تخرج منه ما يزيد عن أربعمائة طالب منهم ١٢٠ ينخرطون الآن فى الدراسات العليا. وهناك قسم اللغة الصينية فى كلية الألسن بجامعة عين شمس، وقد بدأ يقدم عشرات الخريجين، ترتفع أعدادهم بسرعة منذ عام ١٩٩٦.

(ب) وكذلك فإننا نستطيع أن نستعين بالعديد من المراكز الثقافية لمختلف الدول التى منها تتشكل الدوائر الثقافية ـ الجغرافية المختلفة فى بدء الأمر.

٥ ـ ثم إن هناك بُعدًا آخر لابد أن ندرسه بعناية ألا وهو :

الشراكة بين مختلف جامعات الدراسات العالمية المصرية من ناحية ، والجامعات النظامية العاملة فى مختلف المناطق موضوع الدراسة عندنا ، فمثلاً : يمكن ، بل من الواجب أن تتم دراسة كل من المناطق والبلدان موضع البحث بالتعاون مع مؤسسات مواكبة : جامعات ، كليات ، أقسام ، مراكز بحثية ، وخبراء. على أن تتخذ الشراكة شكل تبادل الأساتذة وطلاب الدراسات العليا والخبراء ، وإن كان من المفهوم أننا سنكون المستوردين الرئيسيين فى المرحلة التكوينية الأولى التى لا تقل عن ٤ سنوات تتلوها ٤ سنوات تقريبًا من الدراسات العليا الأولية لمستوى الماجستير.

العلم أساس استقلال الإرادة

إن إقامة مثل هذه الترسانة التكوينية للكادر المصرى المستقبلى يبدو أنه ، ربما يمثل نوعًا من الخيال. لماذا مثل هذا الإرهاق؟ لماذا هذا الاجتهاد فى البحث عن مؤسسات من نوع جديد وإن كنا نؤكد هنا أنها وافرة الوجود فى عدد كبير من أكبر دول العالم؟ ولينظر الذين يستندون إلى مؤسسات معروفة لدى العاملين مثل مدرسة الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن ، ومعهد الدراسات العليا لأمريكا اللاتينية فى باريس ، مركز دراسات شرق آسيا فى هارفارد ، فضلاً عن عشرات المعاهد والدراسات المتخصصة فى جامعات الولايات المتحدة وأوروپا وكندا.

والحق أننا حتى الآن كنا فى سباق عميق ، نرتكز على ما تجلبه الرياح ، مما يمكن أن نطلق عليه السياحة العلمية أو الفكرية ، بدلاً من أخذ الأمور مأخذ الجد. كان العالم فى ركود نسبى ، خاصة أثناء مرحلة الاحتلال الأجنبى ، ثم مرحلة نظام القطبية الثنائية. كانت هناك دول عظمى مهيمنة مسيطرة على مصادر العالم. وكما نحن فى جهد متصل لفتح الثغرات ، وتحقيق الاستقلال ، وبناء القاعدة ، الأساسية للاقتصاد والحياة الاجتماعية والتعليم.

كل هذه الأمور مقبولة ومفهومه. لكنها لا تعنى بالأمر بحال من الأحوال.

هناك مداخل أخرى ، يمكن أن تهدينا إلى أهمية الموضوع ، من الناحية العملية :

١ ـ إن العديد من البلدان المتقدمة ، والدول النامية المتوسطة ، تملك الآن كادرًا

وافرًا فى بعثاتها الدبلوماسية يتقن لغة دول الإقامة، بل ويتكون من خريجى بعض جامعات هذه الدول، إلى حد أن هذه البعثات الدبلوماسية تستطيع أن تتعامل مع المجتمع الذى تقيم فيه تعاملاً طبيعيًّا بلا وساطة أجنبية ـ أى غربية ـ بينها. وعلى أقل تقدير. فإن إنتاج جامعات الدراسات العالمية يمكن أن يوفر عددًا هامًّا من الكادر المتخصص ـ مهنيًّا ـ علميًّا ـ لغويًّا ـ بحيث يؤكد ارتفاع مستوى الأداء والتحصيل، مما يختصر الأمر إلى حد هائل بالنسبة لمن من شأنهم صنع القرار على رأس الدولة.

إن هذا الموضوع لا يتصل بالعلاقات العامة، وإنما ينصب إلى جوهر القدرة على الحركة السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات ذات ثقافات وتراث وخصوصية مُغايرة لما نتصوره، أو لما يصوره لنا أساتذة ومراجع الدول المهيمنة، وكأنهم هم أصحاب الحقيقة ـ بينما هم علماء فى بعض الأحيان، ولكنهم علماء يخدمون دومًا مصالح دولهم، كما هو الواجب بالنسبة للكادر العامل فى الحياة العامة.

٢ ـ وكذا، فإن خريجى الجامعات للدراسات العالمية سوف يفتحون أمام الاقتصاد المصرى أبواب العالم واسعة من حيث تحصل واستيعاب التكنولوچيا والعلوم، من حيث دراسة الأسواق والقدرة على التسويق، من حيث اختيار مراكز تدريب الخبرات، من حيث التنقيب عن مناطق استيعاب القوى العاملة المصرية. وفى هذا المجال يعلم رجال الاقتصاد والأعمال كيف أن سيطرة المراكز العالمية وخاصة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى وكبرى الشركات متعددة الجنسيات تسد الطريق أمام الرؤية والمصالح المصرية والقومية وتدفع بها إلى قنوات ثانوية لا تمثل إعادة لتشكيل هيكل العلاقات الاقتصادية العالمية من ناحية، كما أنها لا تختصر الطريق للتنمية المستقلة والعاجلة الفاعلة على أرض الوطن.

ولعل الأثر الأبعد والأعمق بكثير إنما هو فى تغيير العقول أو العقلية كما نقول فى عاداتنا.

إن مسألة صياغة العقل المصرى، أى إخراجه من قوالب التبعية الفكرية للغرب المهيمن منذ مرحلة الاستعمار الأول حتى اليوم وإعادة إلى خصوصيته ونظرته المستقلة القادرة على فهم العالم وأمور الدنيا والظواهر الطبيعية والاجتماعية تعلو على أية

مهمة أخرى لو أردنا أن نحقق مستقبلاً يتسم بالنهضة وليس فقط بالتنمية الكمية، أو رفع مستوى المعيشة فى القطاعات المتقدمة فى المجتمع أو تقليد الدول الراقية فى الملبس والمظهر والهندام والأثاث.

إن خدمة المصالح اليومية الآتية تتم بوسائل أخرى. هناك وكالات الأنباء العالمية على تنوعها، وكذا وكالة أنباء الشرق الأوسط تنقل إلينا ليل نهار دون انقطاع كيلومترات تلو الكيلومترات من البرقيات والأخبار والأحاديث والتحليلات والآراء، وهى كافية لكى تغرق كافة مؤسسات الدول المجتمعية بما هى فى حاجة إليه من معلومات متناقضة متواكبة. هذه المهمة، مهمة توفير المعلومات، هى مهمة وكالات الأنباء فى المقام الأول، مع إضافات نوعية متخصصة لعدد المراسلين لوسائل الإعلام فى الخارج يسعون إلى إدراك ما وراء الأخبار بما يكمل الصورة الرسمية المنقولة عبر وسائل الأنباء والإعلام العالمية، ومرة أخرى على تنوعها وتناقضها وتواكبها.

ولكن مستقبل الأمة وإدارة شئونها لا يقوم إلا على أساس وفرة الكادر القادر على فهم حركة العالم، والتفاعل معها من منطلق النظرية الوطنية والصالح القومى والرؤية المستقبلية الذاتية المتخصصة ـ لا على أساس الدردشة فى الكواليس وتبادل الأخبار والقبلات وكذا تبادل المنافع والخدمات من أوسع الأبواب ـ وهو باب تزييف الرؤية الوطنية وبالتالى صرف القرار الصادق عن طريقه القويم بحيث يصب فى التخبط أو الإحباط، مما يعرقل تقدم الأمة ويعيق تقدمها الجاد المتصل.

الشباب ينتظرون

الكلام عن مشروع إنشاء «الجامعة المصرية للدراسات العالمية» لا يهدف إلى تجويد الأداء الجامعى وإنما هو وسيلة لبناء مستقبل مصر، بإضافة جهاز تكوين كادر قادر على التعامل مع العالم الجديد، بالإضافة إلى ما تملكه مصر من مؤسسات عاملة فى مختلف مجالات العالم والمعرفة والأداء المجتمعى.

ولست أدرى لماذا أشعُر إذ أتطرق لهذا الموضوع، تلبية لترحاب السيد وزير التعليم العالى والبحث العلمى، أننى إنما أتجاوب مع أحاسيس ومشاعر وآمال العديد من شبابنا

من الأجيال التالية، الذين هم اليوم على أعتاب الحياة العاملة. إننى كنت أصطدم معهم المرة تلو المرة لفجوة المعلومات. كان السؤال دومًا: من أين لك هذا؟ وكنت أطيل الحديث وأكرر المعانى وأسوق الأدلة.

يقينى أن دراسة مثل هذا المشروع على أيدى لجنة متخصصة تجمع بين طلائع الجامعة والبحث العلمى من ناحية والاقتصاد والسياسة الداخلية والخارجية والثقافية والإعلام والسياحة من ناحية أخرى، يمكن أن تقدم لنا قاعدة غير مرتقبة لتعبئة ما نملكه من طاقات وتجارب هائلة، يعرفها العدو جيدًا، ويدركها العالم أيضًا وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، إذ رآنا لا نسعى إلى رفع مستوى أدائنا بما نملك، بل نكتفى بما يقدمه هو متفضلاً جرعة جرعة، حسب ما يراه مناسبًا.

يقينى أن مستقبل مصر بين أيدى مصر، شعبًا ودولة. وأن واجب مصر تجاه مستقبلها أن تضع بين أيدى أجيال الشباب الصاعدة أرفع معانى وأجود معانى التكوين والفهم والتعامل مع كافة دوائر العالم وقطاعات النشاط، خاصة فى هذه المرحلة الحاسمة التى يتغير فيها النظام العالمى يومًا بعد يوم، ونحن فى قلبه، بشكل هائل يدوى فى كل مكان، يزلزل العقائد والمرتكزات والتحليلات.

هذا كله فى مؤسسات مصرية تتيح لنا الدخول فى أركان العالم المغاير؟ كيف نستطيع أن نتعامل مع هذا العالم الجديد إن كنا لا نملك مفاتيح الفهم هذه ـ يدًا فى يد مع إخواننا وشركائنا وحلفائنا فى المصير، فى قلب ريح الشرق الصاعد؟

قال صاحبى: لا داعى لإطالة الحديث.. متى نبدأ؟ وهل نسينا قول الشاعر: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك؟

۞ ۞ ۞

ـ ٢٥ ـ
لا أمة تعيش بالتوكيل

مصر كلها تفتح ذراعيها وقلوبها للترحاب بقائد ثورة الفاتح العظيمة العقيد معمر القذافى، رئيس الجماهيرية الليبية الشقيقة، إذ لبى دعوة رئيس مصر، باسم مصر شعبًا ودولة وحضارة، لمواصلة مسيرة العزة والإخاء على أرضنا المحروسة فى عصر أراد له الأعادى أن يكون عصر التبعية والهون.

أيام خصبة تلك التى نحياها هذه الأيام. ولعل أكثر الأمور فائدة فيما نراه حولنا من زوابع تحاصر وتنكسر، وتهديدات ترتفع وتهزل، إنما تجيب على سؤال محير طالما استمعت إليه من أعز إخواننا الشباب من أجيال الستينيات والسبعينيات والثمانينات: يسألون دومًا لماذ أراد التاريخ ألا يكونوا هم أيضًا على موعد معه، كما كان جيل الأربعينيات والخمسينيات؟ ومنهم من ذهب إلى أنه لولا الحرب العالمية آنذاك، لما استطاعت القوى الوطنية التحريرية التقدمية أن تقيم جبهة وطنية متحدة فى مصر زلزلت أركان الاستعمار بين ١٩٤٦ و١٩٥٦، رغم تشابك المسارات فى داخلنا. ثم ذهبوا يسألون: ما العمل إن كانت الأجيال الجديدة لا تستطيع أن تنتفع من ظروف دولية مواتية؟ والحمد لله ألف حمد: أن الظروف الدولية أصبحت الآن مواتية، بل وأحسن بكثير مما كانت عليه فى الأربعينيات. ذلك أننا نحيا ـ أراد دعاة الخبرة السطحيون أو لم يريدوا ـ فى قلب حرب عالمية شاملة، مرت بعدة مراحل منذ اندلاعها عام ١٩٧٨.

١ ـ محاصرة عبور أكتوبر ١٩٧٣ المجيد سياسيًّا، ثم اقتصاديًّا وثقافيًّا، بدءًا من ١٩٧٥ حتى كامپ ديڤيد وما ترتب عليها من انقسامات وثغرات واستسلام لليأس والأوهام فى عالمنا العربى.

obeikan.com

٢ ـ مرحلة كسر منطقة الوصل بين الدائرتين الآسيوية حول الصين من ناحية والإسلامية الحضارية حول محور مصر ـ إيران من ناحية أخرى وذلك بتفجير حرب الخليج الأولى (١٩٨٠ ـ ١٩٨٩) التى أنهكت قوى العراق وإيران بعد الثورة الإيرانية بقيادة «آية الله روح الله الخمينى». ثم حرب الخليج الثانية التى فجرتها الولايات المتحدة وحلفاؤها آنذاك عام ١٩٩١، وذلك باستدراج العراق إلى غزو الكويت بعد أن هدد رئيس العراق دولة الصهيونية بتدمير نصف قواها وأراضيها لو استمرت فى التنكر لحق الفلسطينيين فى دولتهم واحتلال الأراضى العربية ـ وهو السبب الرئيسى جذريًا لضرب العراق حتى اليوم.

٣ ـ وقد بلغت الحرب العالمية ذروتها بتفكيك حلف «وارسو» أى مجموعة الدول الاشتراكية فى أوروپا (١٩٨٩)، ثم تفجير الاتحاد السوڤييتى من الداخل (١٩٩١) على يد جورباتشوف ويلتسين، ومن ورائها المحرك الرئيسى «ألكسندر باكوفليڤ» والطاقم الصهيونى المتمركز فى قلب الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوڤييتى آنذاك، رغم جهود السكرتير العام السابق «أندروبوڤ».

٤ ـ ثم كانت مرحلة تحديد كماشات الحصار حول الدائرة المركزية الوسطى، مرة أخرى حول أوطاننا، كما عرضنا لها المرة تلو الأخرى أكد تولى أصحاب المصالح الحقيقية، حول قيادة «بنيامين نيتنياهو» الحكم والأوضاع عن حقيقة الدولة الصهيونية دون الغطاء الكاذب لما سمى بأنصار الحل السياسى أو الشرق الأوسط الجديد أو الشرق أوسطية أو المتوسطية وغير ذلك من الأكاذيب لتغطية الحرب ثم كانت بدايات تكوين الكتلة الإفريقية للسيطرة على منابع النيل فى وسط إفريقيا، وتفجير العمليات الحربية المتتالية فى أفغانستان لكسر الشراكة الإستراتيچية بين الصين وروسيا.

٥ ـ إلى أن كانت المرحلة الأخيرة وليست الآخرة بحال من الأحوال: حرب الخليج الثالثة التى بدأت بضرب العراق بالصواريخ فى نوفمبر ١٩٩٨ بعد ضرب أفغانستان والسودان، ثم استغلال الانقسام العربى للأسباب المعروفة للجميع لاستمرار ضرب العراق والدخول فى حرب يومية جديدة معه منذ عام ١٩٩٩ بحجة انتهاك العراق لأجوائه الوطنية كذا التى سيطرت عليها القوات الجوية الأمريكية والبريطانية، رغم عدم وجود أية ذريعة قانونية أو سياسية تمت إلى القانون الدولى

بأى معنى من معانيه، ولا إلى أى قرار من «هيئة الأمم المتحدة»، فى أية لحظة وبأية شكل.

٦ ـ وأخيرًا تكوين نواة الحلف الإستراتيچى، الذى ينتظرون أن يحل محل التدخل الأمريكى المباشر فى الشرق الأوسط، من تركيا ـ الدولة الصهيونية ـ الأردن ـ وكذا قطاع واسع من الخليج، على أن تكون قيادته للدولة الصهيونية. وقد جاء اختطاف عبد الله أوجلان ليؤكد عزم تركيا على قيادة هذه العملية، خاصة أن تفكيك المنطقة الكردية معناه السيطرة الكاملة على أغنى منابع المياه بواسطة سد أتاتورك الجبار، ومن ثم تهديد سوريا والعراق فى كل لحظة بقطع المياه لإخضاعها لرغبة الحلف الجديد ـ ولعل فى ذلك المغزى الأعمق لعملية خطف قائد الثورة الكردية عبد الله أوجلان.

٧ ـ وأخيرًا إفلاس القيادة الأمريكية بشكل ساطع ومخجل فى آن واحد فى حل مشكلة كوسوڤو، مما فتح الطريق أمام زلزال القيادة الأمريكية لحلف شمال الأطلنطى ـ موضوع كبير سيكون للمعلقين عودة إليه بعد أسبوع حتى نهاية أبريل ١٩٩٩.

٨ ـ فى هذه العناصر، بين العديد من العوامل الأخرى والعمليات الفاشلة على نطاق القارات الخمس والمحيطات الستة، يكمن جوهر الحرب العالمية الشاملة التى يشنها مركز الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية ـ فى كافة المجالات الإستراتيچية والسياسية والاقتصادية والمالية والإعلامية والتكنولوچية والمجتمعية والنفسية دون هوادة. فى هذا الجو نفسه ينفتح أمام شبابنا المصرى والعربى من أوسع الأبواب طريق اللقاء مع التحدى الحاسم، أى طريق ذلك الموعد مع القدر الذين لم يكن أحد يتصور أنه سوف يتفجر بهذه السرعة منذ ربع قرن.

انفتح الطريق. وفى الآونة نفسها، بدأ العمل فى كل مكان للتحرر عبر محاور غير مرتقبة، لشل الهيمنة، وفرض إرادة الشعوب، والحفاظ على الأمم، والسير تجاه عالمية الأمم، أى عولمة تقوم حول مراكز متعددة تمثل مختلف الحضارات والثقافات والقوميات الرئيسية.

وهنا يصبح لزامًا على من يتحدث عن إيجابية التاريخ ـ شأننا فى لقائنا على هذه الصفحات المرة تلو المرة ـ أن يقدم المداخل للأمل الصاعد والعمل المرتقب، باختصار

ودقة، بعيدًا عن الشعارات والتمويه الإعلامى ودردشة الكواليس والتفسيرات الأيديولوچية العاجزة ـ أى: بعيدًا عن المزاج الوضعى المسطح الذى لا يقود إلا إلى العجز، مادام أنه لا يملك الرؤية التاريخية ولا العزيمة على العمل فى إطارها للإفادة من إيجابياتها.

بيان شباب أرنون للعالم

دعنا من التسلسل الزمنى، ولنحيى معًا تحية الإجلال والاعتزاز والمشاركة القلبية من الأعماق تحرك شباب لبنان فى قيادة الشعب والدولة معًا لتحرير أرنون التى لم يسمع عنها العالم من قبل.

المهم فى العملية أنها جديدة من عدة نواح:

(أ) بدأ الأمر من قبل اتحاد الشباب الديمقراطية المتفرع من الحزب الشيوعى اللبنانى، بدعم قوى من فروعه المتنافرة فى الجامعة اليسوعية والجامعة اللبنانية وكذا الجامعة الأمريكية. وقد لحق بهذه الطليعة مختلف القوى وعلى رأسها حزب الله وكذا أمل وجماعات أخرى وطنية ترفض حصار البلدة وراء الأسلاك الشائكة.

(ب) ولعل أهم ما يلفت النظر أن الإعلام القريب من الدولة اللبنانية حول رئاسة العماد إميل لحود، هو الذى أوضح صدارة القيادة التقدمية الشبابية للعمل الحاسم فى هذا التحرك التحريرى الوطنى عظيم الدلالة. وبالتالى لم يكن مستغربًا أن تؤكد رئاسة الدولة والحكومة الجديدة تضامنها الكامل ودعمها غير المتردد لتحرك شباب لبنان، بحيث تم إقامة جبهة وطنية متحدة بالفعل بدءًا من هذه المعركة، تضم مختلف قوى الشعب والدولة فى بوتقة واحدة ـ وهو أمر عظيم الدلالة بالنسبة للعالم العربى كله، ما كان أحد يتصور أنه سوف يتفجر من أرض لبنان الشقيقة العزيزة الجريحة، التى طالما شوهتها تداخلات قوى أجنبية ومالية تمويهية أبعدتها بين اللحظة والأخرى من طلائع العمل السياسى العربى.

ثم كانت جريمة اختطاف عبد الله أوجلان. المسألة ليست مشاعر إنسانية. إن هذه العملية دلت بشكل ساطع، ليس فقط للأكراد وإنما لشعوب العالم العربى والشعوب

الإسلامية جمعاء وكذا الجنوب، أنه لا أمان لأى ممن يتحدى هيمنة الغرب المركزية على أرض الدول الغربية الديمقراطية: لقد رفضت معظمها، معظم الدول الأوروپية، الواحد تلو الأخرى، منح أوجلان اللجوء السياسى، رغم تأكدها من أن القانون التركى للأمن يحدد عقوبة الإعدام فى حالة عودته إلى قبضة تركيا ـ وفى هذا العمل خرق صارخ للاتفاقية الدولية الخاصة باللجوء السياسى. ويبدو أن اللجوء السياسى لا يشمل الشعوب العربية والإسلامية والشرقية ـ مادامت أنها خارج دائرة التبعية التقليدية.

ذكرنا سابقًا هدف العملية الحربية التركية ضد كردستان وعلاقتها بخنق سوريا والعراق من حيث موارد المياه. هنا يجب أن نضيف أخطر ما ترتب على هذا الأمر الجلل ألا وهو: ضياع تركيا فى نهاية هذا القرن. كان فى مقدور تركيا بعد حروب الاستقلال (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) ضد التدخل الأوروپى أن تجمع بين إرث الخلافة العثمانية من ناحية ومطالب التحديث، بل والوصول إلى صيغة وئام الحكم السياسى الديمقراطى العقلانى من ناحية والتحرك فى دائرة الإصلاح الإسلامى الحضارى من ناحية أخرى ـ وهو الأمر الذى حققه برنامج حزب الرفاه بقيادة رئيس الوزراء السابق نجم الدين أربكان، والذى يمثله اليوم حزب الفضيلة. ولكن تحول مصطفى كمال أتاتورك بعد سنوات قلائل إلى سياسة التغريب الكاملة، والعلمانية المتشددة وريثة تراث الماسونية العريقة فى دوائر عديدة من الإمبراطورية العثمانية السابقة والشرق الأوسط، وكذا العداء القاتل ضد القوى الاشتراكية فى تركيا أدت كل هذه العوامل إلى إبعاد تركيا عن العالم الإسلامى والعربى، إيمانًا من قيادتها بأن أوروپا سوف تلقاها بالأحضان وترفع من مقامها مادامت أنها أصبحت دولة غربية بالإرادة والعمل. وإذ بتركيا تصدم منذ أكثر من ربع قرن برفض أوروپا المتكرر المبدئى العنيد لمجرد دراسة طلب عضوية تركيا فى الاتحاد الأوروپى لأسباب واهية تتعلق بالنظام الداخلى فى تركيا، والكل فى هذه البلاد يعلم أن السبب الأساسى هو أن أوروپا غير مستعدة لقبول دولة تجمع شعبًا إسلامى التاريخ والشخصية والتوجه فى قلبها القيادة التركية الآن مرفوضة. وهى أيضًا فى تناقض شرس مع الوجدان العربى والإسلامى بعد اختطاف أوجلان. أى أنها فى لا مكان واضح وبدون هوية محددة، رغم قوتها الحربية والاقتصادية وكثافتها السكانية. وهكذا بالضبط ما كانت تسعى إليه الولايات المتحدة، وخاصة الحركة الصهيونية

العالمية ، لتوكيد مكانة الدول الصهيونية بوصفها قائدة النظام الشرق أوسطى الجديد مستغلة فى ذلك أزمة تركيا الحالية ، إذن الغرب الأمريكى ـ الصهيونى لا يمكن أن يطمئن بحال من الأحوال إلى تركيا ، أيًا كانت مسالكها الحالية ، لنفس الأسباب التى لا تزال أوروپا ترفض تركيا بين صفوفها حتى الآن.

ولعل فى الأجيال الشابة من الكادر التركى ، بعد الانتخابات القادمة ، أن تسعى إلى الخروج من هذا المأزق ، وخاصة لو تحققت نبوءات المراقبين بفوز حزب الفضيلة بأكبر نسبة من الأصوات فى الانتخابات القادمة. سوف يكون الأمر آنذاك بين قيادة الجيش التركى العلمانى والحزب الإسلامى الإصلاحى التحديثى الذى لا يكاد يبتعد عن العلمانية إلا فى مسألة متعلقة بدين تركيا التاريخى. وعندنا أن مشاركة رجل الدولة رئيس تركيا سليمان ديميريل فى المؤتمر الثانى لمجموعة الدول الإسلامية الثمانى فى داكا عاصمة بنجلاديش خلال شهر مارس ١٩٩٩ ما يشير إلى مستقبل ممكن...

من أوجلان إلى الألبان

ثم ها هى قضية كوسوڤو بكل ما يحيط بها من غموض.

لا شك أن من حق شعب كوسوڤو الألبانى المسلم أن يسعى إلى الحكم الذاتى صوب تحقيق استقلال دولته ، وذلك توكيدًا لشخصيته التاريخية وخصوصيته الحضارية.

ومن الواضح كذلك أن دولة يوغوسلاڤيا ، أى دولة الصرب فى الأساس ، ضئيلة النفوذ ، من حقها أن ترفض الاتحاد ، كما صاغها المارشال الراحل تيتو عام ١٩٤٥ ، لا يمكن تغييرها إلا بموافقة الشعوب المعنية وقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة. ومن الواضح كذلك أن محاولة حل القضية لم يكن جديًا من طرف الهيئات الدولية المعنية. وفى هذا الجو تحركت الولايات المتحدة بسذاجة تبلغ مستوى البلاهة ودفعت بقوة حربية ليس فقط من المشاة والمظليين ، وإنما من وحدات الصواريخ وأكثر من ٤٢٠ طائرة هجومية على حدود يوغوسلاڤيا بحجة أن حلف الأطلنطى من واجبه الأخلاقى والمعنوى أن يفرق بين جيش الصرب بقيادة ميلوسوڤتش والشعب الألبانى المطارد فى كل مكان من أرضه وقراه ومدنه ، مادام أن هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها لم يتحركا

فى الوقت المناسب، بالإضافة إلى أن مجلس الأمن لا يملك القوى الحربية الكافية لحماية الألبان فى هذا الظرف.

إلى هنا تمضى القصة الأخلاقية، إلى أن تصطدم بالعامل الوطنى القومى. ذلك أن دولة الصرب ترفض التنازل عن كوسوڤو، عنوان هزيمتها عام ١٣٨٩ أمام جيوش العثمانيين التى سيطرت على بلاد الصرب تمامًا عام ١٤٥٩.

ومن ناحية أخرى يصر شعب كوسوڤو الألبانى المسلم على استقلال دولته المرتقبة تحقيقًا لمبدأ تقرير المصير المعترف به دوليًّا. إن هناك قوميتين متصارعتين، لا شك أن إحداهما، أى القومية الصربية، هى المعتدية على الأخرى بكل المقاييس وبشكل شرس فيه معان الانتقام والعنصرية الواضحة. ولكن الموضوع بداية ونهاية هو موضوع صراع بين قوميات: حركة التحرر الوطنى فى كوسوڤو (وجيش كوسوڤو من ناحية والدولة الصربية المحتلة من ناحية أخرى. إن نزول قوات حلف الأطلنطى لفك الاشتباك بين الجانبين المتصارعين معناه أن كلاً منهما يقبل أن مفتاح العدل والنظام العالمى انتقل بالفعل من أيدى هيئة الأمم المتحدة إلى القيادة العسكرية لمنظمة حلف شمال الأطلنطى، أى من جمعية الأمم المتحدة إلى محور الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية ومن حوله دول الغرب المشاركة فى الحلف.

ومن أجل تحقيق هذه العملية، رأت وزيرة خارجية أمريكا أن تستدرج قيادة الشعب الألبانى إلى قبول نزع سلاح جيش تحرير كوسوڤو، فى مقابل وعد حلف الأطلنطى بضمان الاستقلال الذاتى الموسع، ورفض الاستقلال على كل حال وبطبيعة الأمر ارتفعت قيادة جيش تحرير كوسوڤو إلى المستوى السياسى التاريخى الواجب، وهو لم يكن على بال زعماء الولايات المتحدة. فقد رفض آدم ديماشى المسئول السياسى لجيش تحرير كوسوڤو حضور مؤتمر رامبو ييه بعد أن علم بالمناورة، وبعد ١٨ يومًا من المفاوضات الفارغة أصدر تعليماته إلى هاشم ثاقى رئيس وفد المفاوضات وهو فى التاسعة والعشرين من عمره أن يرفض الخطة الأمريكية. تم الرفض. فشل المؤتمر. وبعده تم تأليف حكومة كوسوڤو المؤقتة برئاسة الزعيم الشاب.

الفشل صب فى وجه الولايات المتحدة ودمر مصداقيتها فى أوروپا الغربية وشوه من جديد ادعاءها الزعامة العالمية الجديدة بدلاً من هيئة الأمم المتحدة.

إن شاب كوسوڤو الألبانى المسلم، مرة أخرى هو الذى قام بهذا العمل البطولى الخطير، مع العلم أن عليه الآن أن يواجه هجوم الفرق المدرعة للدولة الصربية بدون سند من الدول الإسلامية فى المرحلة الراهنة.

وقد حاولت الولايات المتحدة أن تدعم قوى عدم التدخل وهى قوى محاربة على أهبة الاستعداد، المتواجدة فى دولة مقدونيا بقرار من مجلس الآمن، وذلك لمحاصرة جيش تحرير كوسوڤو من الجنوب وفرض الحل الأمريكى عليه، أى إهدار حقه فى الاستقلال فى هذه اللحظة تحركت الصين ـ لأول مرة فى الدوائر البعيدة عن آسيا والمحيط الهادى ـ لتعلن أنها سوف تستعمل حق الڤيتو لوقف مشروع القرار الأمريكى المرتقب. أى أن العون الوحيد فى هذه الآونة لحركة تحرير شعب كوسوڤو الألبانى المسلم جاء من الصين التى يقولون عنها إنها بعيدة، وكأنها فى كوكب آخر، بينما لم تتحرك أية دولة فى العالم العربى الإسلامى، ودعنا عن أوروپا نصيرة الإنسان فى هذه الآونة الحاسمة فى حياة الشعب الألبانى فى كوسوڤو.

ولعل أهم الدوائر التى تتبدى فيها إفلاس قيادة مركز الهيمنة الأمريكية ــ الصهيونية أحادى القطب إنما هى القارة الآسيوية.

قائمة المشاكل والحلول الفاشلة تكاد تمتد إلى ما لا بداية ولا نهاية ـ من ماليزيا إلى كوريا الشمالية واليابان.

الصين ـ الهند ـ روسيا

ولكن من الواجب علينا أن نركز هذه المرة على نصف القارة الهندية وعلى التقارب بين الهند وباكستان كما تبدى فى إعلان لاهور الذى تعهد فيه رئيس وزراء كل من الهند وباكستان، فاجبايى وشريف باتباع سياسة سلام واستقرار بين البلدين وتقدم ورفاهية بالنسبة لشعبيهما.

وقد ذهل العديد من المراقبين لهذه الزيارة المفاجئة لرئيس وزراء الهند، ممثل الحزب الهندوسى القومى المعادى للإسلام فى الهند إلى جمهورية باكستان الإسلامية. بل وبلغت دهشتهم حد الذهول عندما ذهب رئيس وزراء الهند بنفسه لزيارة ضريح منار ـ

الأمر الذى لم يحدث من قبل على أيدى أى من زعماء حزب المؤتمر الوطنى العلمانى ولا أحزاب التحالف اليسارى التى جاءت إلى الحكم فى عام ١٩٩٨.

وقد ظن المعلقون، فى سطحية لافته للأنظار أن زيارة السفير تالبوت مندوب الرئيس كلينتون إلى الهند وباكستان هى التى اضطرت الدولتين إلى التقارب. كان هدف السياسة الأمريكية أن تجمع الدولتين على الانضمام إلى معاهدة عدم الانتشار النووى، وهو الأمر الذى لم يتعهد به أى من البلدين. كان الهدف هو إدخال الهند وباكستان إلى إطار الخضوع لهيمنة نادى الدول النووية بما فى ذلك الدولة الصهيونية، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما لم يحدث. وإنما حدث العكس: تعهدت الدولتان بالمصالحة والتنمية المشتركة، واتخاذ كافة الإجراءات لعدم إفلات زمام الرقابة حول التسلح النووى فى كل منهما ـ أى على عكس ما كانت تأمل به الولايات المتحدة تمامًا. ماذا حدث بالضبط، أين الحلقة الناقصة.

تخبرنا المجلة الاقتصادية للشرق الأقصى التى تصدرها مؤسسة داو المالية الأمريكية العملاقة فى هونج كونج فى عددها الصادر يوم ٤ مارس ١٩٩٩ بالصورة الدقيقة لما حدث: الشيء المضحك أنه بينما كان رئيس وزراء الهند «فاجبا يى» فى لاهور إذ بوزير الدفاع الصينى، الچنرال «شى هاو تيان» يتواجد فى نفس اللحظة فى إسلام آباد. ذلك أن باكستان كانت قد طلبت من الصين طاقمًا من الأسلحة المتقدمة التقليدية، وقد ظن البعض أن زيارة الچنرال «شى» ربما ترفع من مستوى التوتر فى الاجتماع الثنائى الهندى الباكستانى وعلى العكس من ذلك تمامًا، فإن رئيس وزراء باكستان «نواز شريف» دعا الهند إلى التطبيع مع الصين، بينما أخبره رئيس وزراء الهند «فاجبايى»: أن الهند سوف ترسل بعثة رفيعة المستوى إلى بكين فى شهر مارس ١٩٩٩ لمناقشات حول المسألة النووية ومعنى هذا أن الصين، ممثلة فى وزارة دفاعها، عضو المكتب السياسى الچنرال «شى هاو تيان»، هى التى تدخلت لتخفيض حدة التوتر بين الهند وباكستان، فى اللحظة التى كانت تأمل فيها الولايات المتحدة برفع هذا التناقض إلى حد الخضوع للحماية الأمريكية.

ومن وراء هذا الخبر بيت القصيد: فى يناير ١٩٩٩ عرض رئيس وزراء روسيا «بريماكوف» أثناء زيارته للهند قيام تقارب وتحالف إستراتيچى بين كل من روسيا

والصين والهند لمجابهة مركز الهيمنة الأمريكية. كانت الصعوبة أن الهند هى الحليفة التقليدية للاتحاد السوفييتى سابقًا وروسيا حاليًّا، بينما باكستان، وكذا إيران، هى حليفة الصين الأولى فى المنطقة. إذن كان لابد لإنقاذ الموقف من تهدئة النزاع بين الهند وباكستان، إلى حد التطبيع بينهما. وهذا ما فعله الچنرال «شى» بالضبط: إن إعلان لاهور معناه أن نصف القارة الهندية أصبحت جاهزة على طريق تحقيق التحالف الثلاثى بين الصين وروسيا والهند (أى بلاد الهند والسند، الهند وباكستان حاليًّا).

وفى هذا الجو، تتحرك السيدة السوداء إلى الصين، لمحاولة تصفية الخلافات. تبدأ الرحلة بشجب الصين باسم حقوق الإنسان، وذلك؛ من قبل وزير خارجية الدولة التى انتشرت فيها جرائم القتل والاغتصاب وظاهرة المخدرات لإفساد الشباب إلى أرفع مستوى عرفه تاريخ الإنسانية.

أنطونى ناتينج: رجل ولا كل الرجال

وفى هذه اللحظة التى ترتفع فيها أعلام الشرق والوطنية والرؤيا التاريخية الجادة الفاعلة، لابد من كلمة إجلال وتحية إلى رجل دولة ذهب وفاء لقسم الشرف والضمير والأصالة الأخلاقية، فى عالم النفاق.

أنه مسيو «أنطونى ناتينج» الذى رحل يوم الخميس ٢٥ فبراير ١٩٩٩ عن عمر يناهز ٧٩ عامًا. اسم ربما لا يعنى الكثير بالنسبة للأجيال الجديدة. ولكنه ذهب من أجل قضية تجمع بيننا ألا وهى (السويس). كان وزير الخارجية البريطانى الذى تفاوض مع الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤ لإنهاء الاحتلال البريطانى لقاعدة قناة السويس، وهى المفاوضات التى أدت إلى رفع العلم الوطنى على القناة والربط بين وادى النيل وسيناء. كان أصغر وزير فى آخر وزارة لـ«ونستون تشرشل» وألمع أعضاء مجلس الوزراء دون جدال. وشاءت الظروف أن يحضر اجتماعًا سريًا لقيادة حزب المحافظين الذى تولى رئاسته بعد تشرشل «أنطونى أيدن». وقد اجتمع الممثلون البريطانيون والفرنسيون على مستوى رفيع فى مقر رئيس الوزراء يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٦. وفى هذا الاجتماع تم الاتفاق على المؤامرة، تبدأ الدولة الصهيونية الهجوم تجاه قناة السويس. ثم تعلن الدولتان البريطانية والفرنسية بضرورة التدخل العسكرى للفصل

بين الجيش الصهيونى والمصرى، ظاهريًا، بينما الهدف الحقيق إنما هو العود لاحتلال منطقة السويس.

وعندما علم وزير الخارجية الشاب بتلك المؤامرة السرية، قرر التقدم بالاستقالة من منصبه كوزير لخارجية بريطانيا العظمى، وذلك رغم نصح «هارولد ماكميلان» الذى أصبح بعد ذلك رئيس الوزراء الذى قال له سوف تقود أنت الحزب فى يوم قريب. ولكن «أنطونى ناتينج» أصر على الاستقالة وكان وقت ذلك يبلغ السادسة والثلاثين من العمر.

ومنذ هذه الآونة، انتهت حياته السياسية، بينما كان الوجه الأول للسياسة البريطانية بعد الحرب العالمية الأخيرة. وبعد ذلك قد كرس «ناتينج» جهده وذكاءه وإرادته ومقامه الرفيع بين القيادة السياسية الغربية والعالمية إلى نصرة حقوق شعوب المستعمرات سابقًا، وعمل بدأب لم يعرف الكلل على تعميق الصداقة بين وطنه إنجلترا ووطننا المصرى.

قال صاحبى: أراك لم تلتفت، ربما، إلى صحوة الضمير أمام هذه الوثبة..

الصديق الدكتور كلوڤيس مقصود يعلن أن ما أعطاه طلاب لبنان فى عملية أرنون أنهم جعلوا الاستقالة من التفاؤل غير واردة.

الزميل الكبير صلاح الدين حافظ، الأمين العام لاتحاد الصحفيين العرب يؤكد موقف الاتحاد المبدئى من رفض التطبيع طالما لم يتحقق السلام الشامل والعادل، مطالبًا كل النقابات الأعضاء بتوقيع أقصى العقوبة على كل صحفى عضو يخرق هذا القرار ومدينًا عمليات التسرب إلى مسارات التطبيع بحجج سياسية أو مهنية أو ثقافية حتى رئيس جمهورية تركيا «سليمان ديميريل» يعلن يوم الأربعاء ٣ مارس ١٩٩٩ أن أنقره لا يمكن أن تقبل الضربات الأمريكية فى شمال العراق وهى التى منعت تدفق ١,٢ مليون برميل من النفط إلى تركيا يوميًّا أى ٥٧ ٪ مما يسمى برنامج النفط للغذاء، وقد تحول إلى خطة الحرب الإجرامية غير المعلنة لتدمير إرادة العراق شعبًا ودولة. هذا، يا أخى، صوت رئيس تركيا يتجاوب مع العديد من زملائه الوطنيين العرب. متى ـ ترى ـ يدرك الشامتون أنهم إلى ضياع؟...

ـ ٢٦ ـ

« ريح الشرق » لن تذهب مع الريح

تحية الاعتزاز والوفاء لرئيس مصر وقد أعاد «ريح الشرق» إلى أرضنا التى كانت، منذ باندونج حتى العبور (١٩٥٥ ـ ١٩٧٣) مربع انطلاق رئيسيًا لصحوة شعوب الشرق.

تحية القلب والوجدان، وكذا العقل والإرادة، لرئيس مصر وقد فتح من جديد «طريق الحرير» الذى كان جمال عبد الناصر رائدًا علمًا من ورائه.

الشارع المصرى ـ وكذا الإعلام ـ فى وئام نادر ـ عاش يومًا بعد يوم، بل ساعة تلو ساعة على إيقاع صعود مصر إلى الشرق من جديد فى رحلة الصين وكوريا الجنوبية واليابان، أولى الرحلات التى سوف تعيد مصر إلى دائرتها الحضارية الأصيلة، وكذا ربما العمل المصرى والإرادة والعمل إلى حلفائهم فى التاريخ والحضارة، وكذا المصلحة والمصير.

فى هذه الظروف ـ وتلك اللحظة التاريخية على وجه التحديد ـ تباينت التيارات وتوجه الإعلام والوجدان بشكل ملحوظ على الساحة العالمية يعبر عن تلاقى أركان مختلف الخصوصيات الحضارية والثقافية ـ القومية من ناحية، وكذا محاور تحركها المستقبلى المرتقب. بينما تحيى مصر ـ شعبًا ودولة ـ «ريح الشرق» القادم إلينا عبر «طريق الحرير» الجديد، إذ بأحدى المجلات الشهرية المتحضرة فى أوروپا، «ألموند الدبلوماسى» تنشر عنونًا رئيسيًّا فى صفحات عدد أبريل ١٩٩٩ كما يلى: «أيديولوچية عدم الاستقرار، أو العقاب الذى يهب علينا من أمريكا». وهو التباين الذى عبر عنه فى مقال مرموق وزير الحربية الأسبق الأستاذ أمين هويدى، محذرًا من العواصف القادمة ومنددًا بانقسام الصف العربى: «البلاد العربية مرشحة للمصائر المجهولة فى ظل تفكك عربى واضح يلعب فيه الأخوة أدوارًا على بعضهم البعض ...

وهذا يحتاج إلى أدمغة باردة وعواطف هادئة تهتدى بالحسابات الواقعية ؛ لأن الخطأ فى الحساب أو الاستمرار فى حال التفكك والضعف، أو البقاء على ما نحن عليه سيغرى الذئاب المتعطشة للدماء، أصبح بعضها وسط الدار، والبعض الآخر يعوى خارجها».

هذا الجو العاصف الذى يحاصر انطلاق مصر الواعدة، ما زال العديد من الوجهاء يرددون معانى «نهاية التاريخ» الذى يؤدى إلى ـ بل ويقتضى ـ استبعاد «وهم» العمل السياسى. وقد شاءت الظروف أن يجتمع كاتب هذه السطور بشخصية مرموقة، فما أن انحرفت إلى ذكريات الحركة الوطنية فى عبارة باسمة، رأيته ينطلق فى ابتسامة عريضة: «الكلام ده كان زمان يا دكتور... خلاص انتهى...».

«التعاون الإستراتيچى»: مبروك!

فإذا كان تجميد العمل السياسى منذ ربع قرن لأسباب طارئة يمثل واقعًا مرًا لدينا, بينما يقترن بإفساح ساحة واسعة لحرية التعبير والفكر لا تجد سبيلاً إلى التنفس, تعبيرًا عن منطق «الطناش» على حسب تعبير الروائى مع جمال الغيطانى , إذا كان الأمر كذلك عندنا وجب أن نتساءل بعد الرحلة التاريخية إلى آسيا: ماذا عند ضيوفنا؟

أولاً: أمامنا جميعًا نص «البيان الإستراتيچى المشترك» الذى وقعه رئيسا مصر والصين فى ختام مباحثاتهما يوم ٥ أبريل ١٩٩٩، وفيه العبارات والرسائل السياسية المركزية التالية:

تبادل الرئيسان الآراء بعمق حول القضايا الدولية الرئيسية على مشارف القرن الجديد، وتوصلا إلى إرادة مشتركة لزيادة تدعيم التعاون الثنائى، وإقامة علاقات التعاون الإستراتيچى الموجهة نحو القرن الحادى والعشرين للبلدين».

يؤكد الجانبان أن مصر والصين كدولتين ناميتين على استعداد لتكريس مواردهما لتعزيز التضامن والتعاون بين الدول النامية من ناحية، والعمل على تضييق الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتكنولوچية وغيرها من ناحية أخرى. كما عبَّر الجانبان عن اهتمامهما بما تتيحه العولمة الاقتصادية من الفرص أو تثيره من التحديات للدول النامية، داعين تلك الدول إلى

تعزيز التبادل والتعاون فيما بينها فى مجال الأمن الاقتصادى، والوقوف معًا لمقاومة المخاطر وغيرها من العوامل التى تؤثر على الاستقرار الاقتصادى الوطنى».

إلى أن يأتى جوهر البيان الإستراتيجى المشترك: «يولى الجانبان اهتمامًا للدور الذى تقوم به الأمم المتحدة فى صياغة الأمن والسلام الدوليين، ونظرًا للتغيرات التى طرأت على الوضع الدولى يوافق الجانبان على إصلاح مجلس الأمن، وضرورة أن يحظى التوازن الإقليمى والجغرافى بالمراعاة الكافية عند توسيع مجلس الأمن بما يضمن للدول النامية التمثيل العادل، حتى يتسنى لمجلس الأمن أن يؤدى مسئوليته الرئيسية لحفظ السلام والأمن العالميين على نحو أكثر فعالية. ويؤكد الجانبان أن جميع الدول والشعوب فى المنطقة لها حق الدفاع عن أمنها واستقلالها وسلامة أراضيها ومصالحها الوطنية، وأن من حق الشعب الفلسطينى تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة على أرضه...

يناشد الجانبان جميع دول منطقة الشرق الأوسط والأطراف المعنية بذل جهد مكثف وإجراء مفاوضات جادة لجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من السلاح النووى وأسلحة الدمار الشامل باعتبار أن ذلك هدف عاجل يتماشى مع جميع الاتجاهات العالمية التى عبرت عنها معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية وغيرها من الوثائق الدولية ذات الصلة.

ويرى الجانبان أن شمولية وفعالية النظام الدولى لحظر أسلحة الدمار الشامل ومنع انتشارها يجب أن تشمل شتى مناطق العالم دون استثناء أية دولة أو منطقة. وفى هذا الصدد عبر الجانبان عن سعادتهما للجهود المصرية التى أسفرت عن توقيع اتفاقية إعلان القارة الإفريقية خالية من الأسلحة النووية.

بالفعل لم تخطئ الصحافة الأمريكية مغزى منح الرئيس حسنى مبارك الدكتوراه الفخرية من جامعة بكين، إذ نشرت «إنترناشيونال هيرالد تريبيون» فى عددها الصادر يوم الأربعاء ٧ أبريل ١٩٩٩ صورة احتفال جامعة بكين وتحتها عبارة:

«تلاقى الأدمغة: عندما تنضم الصين إلى مصر فى المطالبة بإصلاحات فى نظام أمن منظمة الأمم المتحدة».

بل تستمر ـ بعد هذا التلاقى ـ فى التحليل بالقول بأن عصر العمل السياسى قد «انتهى» ؟ وأن المجال لم يعد مفتوحًا.

الاتفاقيات ــ المحمودة ــ فى مجال الاقتصاد بالمعنى السياسى، بالإضافة إلى التعاقدات بين جماعات رجال الأعمال. وربما يتساءل الخبراء هنا: كيف فاتنا أن نفيد من إعادة تنظيم القطاع العام الجبار فى الصين، بحيث يتم الإبقاء على المؤسسات الكبرى المستقرة مع مقتضيات التنمية المحلية، أى دائرة الاقتصاد الوطنى فى المقام الأول، مع التخلص من الوحدات غير المنتجة بدرجة كافية؟ هذا ما دام أن الدخول فى مجال المنافسة الاقتصادية فى الأسواق العالمية من اختصاص قطاع الاقتصاد المشترك، وخاصة قطاع المناطق الحرة المعنية بالتصدير من حيث المبدأ. كان علينا أن نضيف إلى الوفد الاقتصادى الكبير الذى صاحب الوفد الرسمى وفدًا لا يقل حجمًا وأهمية يمثل القطاع العام لاقتصادنا الوطنى، وذلك ضمانًا لتحديثه ورفع مستوى إنتاجيته، وضمان سيادة الأمة على المراكز الرئيسية للاقتصاد فى علاقته بالاستقرار المجتمعى على أرض الوطن. مجرد اقتراح من هوامش «الاقتصاد السياسى» بغية توسيع رقعة الانتفاع من وثبة آسيا الاقتصادية فى الرحلات القادمة.

ثانيًا: من ناحية أخرى ترسل الصين رئيس وزرائها «زو رونجى» إلى الولايات المتحدة فى رحلة شاقة لمواجهة تصاعد «العدوانية الإستراتيجية» والاتهامات بالتجسس والتنديد بالحماية الجمركية الصينية من قبل دولة هيمنة القطب الواحد. وقد بلغ من اهتمام الولايات المتحدة بهذا التحدى أن إذاعة شبكة «سى إن إن» برامجها التقليدية من الأخبار والتعليقات لتخصيص أمسية كاملة لتغطية المؤتمر الصحفى المشترك للرئيس كلينتون ورئيس الوزراء الصينى «زو رونجى». مؤتمر صحفى نادر لم يتوقعه الجمهور الأمريكى بعد ما تم من غسل أدمغة منذ ١٩٤٩، ورغم نجاح زيارة الرئيس «زيانج زيمين» للولايات المتحدة عام ١٩٩٨. التجسس على الأسرار النووية والتكنولوچية الأمريكية المتقدمة، أى تجسس؟ ألا تدرك أمريكا أن للصين علماء وخبراء تعتز بهم وهم الذين سوف يضعون علامة «مصنوع فى الصين» على أرقى أنظمة الصواريخ القارية والأسلحة النووية والأسلحة التقليدية الضاربة، وذلك يوم الاستعراض الكبير فى الذكرى الخمسين لتحرير الصين، وتأسيس جمهورية الصين

الشعبية بزعامة الرئيس «ماو تسى تونج» ورفاقه يوم الأول من أكتوبر ١٩٩٩ فى بكين العاصمة؟ إلى غير ذلك من عبارات الاختراق الألمعية لرئيس الوزراء الصينى فى السهرة التى لن ينساها الوجدان الأمريكى. ومن بينها الرد على سؤال صحفى أمريكى استفزازى ساذج، تساءل عن الحرب المرتقبة (فى الولايات المتحدة بالطبع) بين الصين وتايوان. إذ أعلن «زو رونجى» أن الصين مستعدة لقبول استمرار القوات المسلحة فى تايوان تحت سيادة السلطات هناك، وكذا تعيين رئيس تايوان نائبًا لرئيس الصين.. مما يقودنا إلى تلك الرسالة اللطيفة التى وجهها القارئ «چون راى» المقيم فى ضواحى باريس الخضراء إلى «هيرالد تريبيون» يوم ٨ أبريل ١٩٩٩ ردًا على افتتاحية حول هيمنة عصر المعلوماتية تم نشرها فى ١٦ مارس ١٩٩٩.

يكتب.. چون راى، بالحرف الواحد: «أن من يكتب أنه كان هناك من يدعى بشكل إرادة مقبولاً أثناء وصول عصر النهضة الأوروپية إلى قمته أنه قد قرأ كافة الكتب المهمة التى تم تأليفها قاطبة، إن مثل هذا الكلام يتجاهل الرقعة الشاسعة التى احتلتها آداب العرب والفرس، وكذا الكتابات الهندية التى لا حصر لها فى مجالات الدين والشعر والدراما والفلسفة.

أما فى الصين فقد كان أى مثقف ذى دخل معقول فى القرن الخامس عشر يملك مكتبة تفوق تعداد ١٩٩ كتابًا وهى مجمل ما كان فى حيازة كلية «كوينز» (أى الملكة) عام ١٤٧٢ (وكانت من كبرى كليات جامعة كمبردچ، ولا تزال)».

هذا ـ إذن ـ هو الأساس الركين لتشابك أيادى الصين ومصر فى العمل معًا يدًا فى يد مع قارات الشعوب والدول النامية من أجل صياغة عالم جديد، أى من أجل إقامة عالمية القوميات والأمم فى إطار تلاقى الحضارات، بدلاً من مهانة نظام هيمنة القطب الواحد الذى بلغ الطريق المسدود، إذ يتساءل شركاء حلف شمال الأطلنطى عن كيفية «الاحتفال» بذكراهم الخمسين ـ أيضًا ـ وكأنها مأتم.

من هنا وجب علينا أن ندرك ـ بدءًا من كل من يشارك فى صياغة القرار ـ أن «التعاون الإستراتيچى» ـ هو المرتبة السابقة لمرتبة «الشراكة الإستراتيچية» ـ يربط بين مصر والصين، مركز العالم الصاعد، التى يقول عنها المحللون فى حلف شمال الأطلنطى أن العلاقة بين الولايات المتحدة والصين انتقلت من «الشراكة الإستراتيچية»

إلى «التنافس الإستراتيچى» ، أى أن الصين الجديدة تهدد فى نموها وقوتها هيمنة أمريكا فى جميع الأصعدة : السياسية ، الإستراتيچية ، الاقتصادية ، العلمية ، التكنولوچية ، الثقافية ، وهو المعنى الذى يكرره العديد من أقطاب الكونجرس والإعلام الأمريكى منذ زيارة رئيس وزراء الصين «زو رونجى» .

وحدة كوريا ، رغم الحساد...

ثم انتقلت مصر إلى أولى زياراتها لجمهورية كوريا (أى كوريا الجنوبية) بينما علاقة مصر التاريخية فى العمق كانت لا تزال مع الجمهورية الديمقراطية الشعبية الكورية (أى كوريا الشمالية).

وفى سيول عاصمة كوريا الجنوبية ، لاحظ المراقبون أمورًا لم تكن فى الحسبان :

١ ــ أمريكا تندد بكوريا الشمالية بشكل متصاعد منذ ١٩٩٤ وتتهمها بتصنيع الصواريخ بعيدة المدى على مستوى الولايات المتحدة وروسيا والصين ، وهذا بالإضافة إلى السلاح النووى. ورغم هذا ، وقف رئيس جمهورية كوريا الجنوبية «كيم داى يونج» يعلن منذ توليه الحكم فى صيف ١٩٩٨ ما أطلق عليه «سياسة الشمس المشرقة» تجاه كوريا الشمالية ، مصرًّا ألا ينخرط فى سلك الاستفزاز والتصعيد الأمريكى. ذلك أن رئيس كوريا الجنوبية كان على رأس «المعارضين للدكتاتوريات العسكرية التى فرضتها الولايات المتحدة بعد أن أشعلت الحرب ضد الحكومة الشرعية ، حليفة الصين عام ١٩٤٩ . وقد دفع الرئيس «كيم داى يونج» ثمنًا باهظًا دفاعًا عن مبادئه ، إذ ظل خمسة عشر عامًا بين السجن والمنفى ، وقد حاولت الأجهزة الأمريكية ـ الكورية أن تغتاله ثلاث مرات.

هذا هو رجل الدولة الديمقراطى الأصيل الذى يبعد بلاده ــ يومًا بعد يوم ــ عن التبعية الأمريكية. وهو أيضًا رجل الدولة الذى وجه الإصلاح الاقتصادى لبلاده ، أى تصفية المؤسسات المدنية لكى يرفع من قوة وفعالية قبضة كبرى المؤسسات الاقتصادية والصناعية الجامعة (الشاميول ـ هيونداى ـ دايوو ـ سامسونج) بينما كان من المفروض أن «يفتح» كوريا الجنوبية إلى توغل رءوس الأموال الأمريكية ـ اليهودية العالمية.

٢ ــ ثم ارتفع مستوى الدهشة ، أو هكذا يقول الإعلاميون ، إذ وجه رئيس الجمهورية «كيم داى يونج» وكذا رئيس الوزراء «كيم يونج بيل» الدعوة إلى رئيس مصر لكى تقوم مصر بدور الوساطة فى عملية توحيد الكوريتين الشمالية والجنوبية ، وذلك المرة تلو المرة ، فى جميع اللقاءات الرسمية والمآدب والمؤتمرات الصحفية حتى آخر لحظة قبل إقلاع الطائرة المصرية من سيول متجهة إلى طوكيو.

كان من المنتظر أن تكون رحلة كوريا مناسبة لبروز جماعات رجال الأعمال فى الصف الأول. وقد أرادت كوريا الجنوبية أن ترفع مقام الزيارة اللائقة بمكانة مصر ، رائدة العالم العربى وإفريقيا ، فكانت هذه الدعوة الرسمية المتكررة التى أضفت طابعًا سياسيًّا إقليميًّا وعالميًّا على رحلة مصر إلى شمال شرق آسيا ، مما سوف يشجع دون شك تفعيل مجموعة الاتفاقات الاقتصادية والصناعية بين مصر وكوريا الجنوبية ، وعلى رأسها الترسانة البحرية فى بورسعيد ، مع العلم أن مؤسسة «هيونداى» تقوم صف شركات بناء السفن فى كوريا الجنوبية على المستوى العالمى.

مرحبًا بعمدة طوكيو: رمز الصحوة القومية «إيشيهارا»

إلى أن جاءت زيارة رئيس مصر إلى اليابان ثانى أكبر قوى العالم الاقتصادية والصناعية والمالية والتكنولوچية ، وذلك فى لحظة لم تكن هى أيضًا فى الحسبان: ألم يكن معظم المتعاملين مع اليابان ــ وغالبيتهم العظمى من المحدثين فى هذا المجال ــ يرددون المفاهيم الأمريكية بأن اليابان دولة تابعة طيعة للإمپريالية الأمريكية تعيش تحت مظلتها النووية.

١ ـ ظهر اليابان ـ تدريجيًّا ، الساعة تلو الساعة ـ خلال الأيام التاريخية الثلاثة لزيارة مصر التاريخية التى ألهبت العقول والوجدان فى دائرة المحيط الهادى كلها. ذلك أن العلاقات الاقتصادية المصرية اليابانية بلغت مستوى متقدمًا ، وهى بالتالى إلى تقدم قد يهدد المصالح الغربية فى مصر ، ومنذ قريب ، تحول حديث «الأزمة» إلى نبرة جديدة تجلت فى الدراسة الهامة لرئيس تحرير «إنترناشيونال» يومى ١٢ ، ١٣ أبريل ١٩٩٩ تحت عنوان «مواجهة التغيير: الصورة والمضمون فى صحوة آسيا. الآسيويون يسعون إلى روح تنافسية جديدة» وفيها يؤكد «چون فينوكيور» رئيس التحرير أن كلاً من

الصين واليابان ما زالتا وستظلان متمسكتين بدور الدولة الريادى فى المعركة الاقتصادية. هذا بينما عنونت كبرى مجلات اليابان الاقتصادية «نيهون كايزاى سشيمبون» مقالها الرئيسى فى منتصف مارس ١٩٩٩ «سونى تعلن الحرب ضد شركتى إنتل ومايكروسوفت» مؤكدة عزم «سونى» على الانتصار.

٢ ـ وفجأة، وفى آخر أيام زيارة رئيس مصر إلى اليابان، تفجرت الأمور، وذلك بانتخاب «مثينتارو إيشيهارا» محافظًا للعاصمة طوكيو، ليتساءل القارئ: ترى من هو هذا الرجل؟

وهنا أرجو السماح لكاتب هذه السطور بالعود إلى ثلاثين عامًا مضت. كنت قد قرأت آنذاك الترجمة الفرنسية لكتاب يابانى رومانسى وكذا وطنى إلى درجة الهيام عنوانه: «فصل الشمس» مؤلفه ـ المجهول آنذاك ـ «ميثنتارو إيشيهارا». ألهب الكتاب مخيلتى، فأسرعت بالجمع بينه وبين عدد مرموق من الكتاب اليابانيين، فى برنامج عنوانه: «الرواية اليابانية الحديثة» إخراج الفنان الكبير محمود مرسى وقد أذيع فى البرنامج الثانى لمدة ٧٥ دقيقة. وقد أرسلت إلى المؤلف معانى ما تم فى إذاعتنا الشباب.

دارت الأيام. علمت أن إيشيهارا» أصبح عضو مجلس النواب، ثم تولى وزارة المواصلات فى حكومة الحزب الليبرالى الديمقراطى عام ١٩٩٥، ثم فجأة، استقال من البرلمان بعد ٢٥ عامًا ليفسح المجال للشباب. ألم يكن هو من شباب مستقبل أمته؟ والحق أننى لم أفد من وجودى منسقًا لمشروعات جامعة الأمم المتحدة فى طوكيو آنذاك (١٩٧٦ ـ ١٩٨٦) للاتصال به، وكأنه رفيق ثابت لا داعى للتعجل. ثم، وبعد عام، أى فى ١٩٩٦، جاءنى فى القاهرة كتاب جديد من تأليفه بالمشاركة مع «أكيو موريتا» رئيس هيئة «سونى» العملاقة.

العنوان مذهل، كله شباب ورؤية مستقبلية: «اليابان الذى يقول لا!» التهمت الصفحات واستشعرت أن هذا ـ حقيقة ـ هو قلب الأمة اليابانية العظيمة التى تعلمت منها ما لا يحصى أثناء مسيرة بدأت عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٩٢ وما زالت. وعلى الفور قررت ترجمة الكتاب ونشره فى سلسلة «أفكار العالم الجديد» التى كنت أشرف عليها فى عصر تولى الدكتور ممدوح البلتاجى رئاسة الهيئة المصرية العامة للاستعلامات قبل

توليه وزارة السياحة، والكتاب موجود بالمناسبة فى طبعة أنيقة وبثمن زهيد تحت تصرف المواطنين أجمعين، حسب ما قيل لى آنذاك.

وإذ بالبيان الانتخابى للمرشح الجديد لمنصب محافظ طوكيو يحمل عنوان «طوكيو التى يمكن أن تقول لا: رحت أطالع أفكار المرشح، الكاتب الروائى، والنائب والوزير السابق «إيشيهارا»: سوف أسأل الحكومة الأمريكية: ماذا تفعل لو حدث هجوم ضد الأراضى اليابانية؟ فإذا أرادت الولايات المتحدة ألا تفعل شيئًا، فأقول ـ وهنا ـ إننا لسنا فى حاجة إلى معاهدة الأمن معها، وكذا فإننا نستطيع أن نسترد قاعدة «يوكونا» البحرية الجوية فى طوكيو لاستعمالها بطرق مغايرة، مثل استعمالها مطارًا دوليًا جديدًا، ثم أضاف بالنسبة للسياحة الخارجية ما يلى: «لسنا فى حاجة إلى إرسال قوات مسلحة إلى بلدان جنوب شرق آسيا وهى التى أصبحت مرتبطة مع اليابان بواسطة رأس المال والتكنولوچيا» ثم عن الطاقة والأسلحة النووية: «لا أعتقد أنه من الحكمة أن تنضم اليابان لاتفاق منع الانتشار النووى. ذلك أنه من المهم لليابان أن تتمكن من تطوير تكنولوچيا يمكن أن تستغلها لأغراض سلمية، وكذا يمكن أن تصلح لتطوير أسلحة نووية لو لزم الأمر». وفى ختام إحدى خطب هذه الكلمات: «إن شعبنا فى حاجه إلى رسالة قوية واضحة وصريحة، لقد شعرت أن جميع الأحزاب السياسية القائمة قد فقدت أسباب قيامها، بينما لم يلحظ الساسة عندنا واقع الأمر».

هذا هو الرجل السياسى الذى سيصبح الأهم بعد رئيس وزراء اليابان و«مبتسرين» السيد ساركيكابارا، إن تعامل مصر مع اليابان التى تقول لا، وطوكيو التى تقول ..لا.. للهيمنة الأمريكية يجب أن يدرك هذا التوجه المستقبلى المؤكد لليابان بوصفها دولة عظمى جديدة إلى جانب الصين، الدولة العظمى الكبرى القادمة، حتى تلحق بها كوريا الموحدة بعد حين.

أولويات جدول الأعمال

أما وقد عاد رئيس مصر إلى أرض الوطن، بعد أن رفع عاليًا وبكل وضوح توجه مصر المستقبلى، يصبح لزامًا علينا أن نضع بين يديه وقيادات أمتنا جمعاء مخططا أوليًا للعمل المستقبلى المشترك.

obeikan.com

ـ المهمة الأولى والأهم إنما هى : تكوين الجيل الأول من الكادر والخبراء المصريين الشباب الحاصلين على تكوين علمى وممارسة ميدانية متصلة ، بدراسة آسيا المعاصرة.

لا شىء يبدأ من فراغ فهناك عطاءات وإنجازات نافعة ينقصها التنسيق ومنها جمعيات الصداقة المصرية مع الصين واليابان وكوريا. وكذا مراكز الدراسات الآسيوية فى جامعتى القاهرة والزقازيق ، وكذا قسما اللغة اليابانية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، واللغة الصينية فى كلية الألسن بجامعة عين شمس ، بل وحتى سلسلة « مكتبة الشروق المعاصرة » فى الهيئة المصرية العامة للكتاب وقد نشرت ـ فيما نشر ـ مؤلفًا هامًّا عن « ثورة ميجى » فى اليابان ، تأليف الدكتور « ميشيو ناجاى » ، وزير التعليم والعلم والثقافة اليابانى ، الذى أشرف على إنشاء « جامعة الأمم المتحدة » فى طوكيو عام ١٩٧٥.

وعندنا ، أن تكوين الكادر العلمى من الخبراء المصريين الشباب يمكن أن يتم على النحو التالى :

١ ــ إنشاء عدة معاهد جامعية متخصصة تمنح دبلوم الدراسات العليا ، ثلاث سنوات بعد الحصول على درجة الليسانس أو البكالوريوس من مختلف الكليات ، على أن يتطور الدبلوم ـ فيما بعد ، ودون عجالة ـ إلى الماچستير والدكتوراه.

٢ ـ يعنى كل من هذه المعاهد بدراسة القطر أو المنطقة فى آسيا حسب ما يتحدد ، بحيث يشمل بالضرورة القطاعات التالية : الجغرافية والتاريخية ، الحضارة ، التاريخ الحديث والمعاصر ، الاقتصاد ، المجتمع ، العلاقات الاقتصادية الدولية ، النظام السياسى ، العلاقات السياسية الدولية ، الثقافة الوطنية والفنون ، السياحة ، وكذا وبطبيعة الأمر الدين والفلسفة المحيطة بهذا كله. هذا على أن يتخصص الطلاب فى السنة النهائية من الدبلوم فى قطاع أو قطاعين رئيسيين.

٣ ـ يمكن إقامة المعاهد التالية على وجه التحديد :

(أ) « معهد دراسة الصين المعاصرة » بجامعة عين شمس.

(ب) « معهد دراسة اليابان المعاصرة » بجامعة القاهرة.

(ج) « معهد دراسة كوريا وشمال شرق آسيا ».

(د) مركز دراسة الهند وجنوب آسيا.

(هـ) مركز دراسة آسيا الوسطى.

(و) مركز دراسة غرب وجنوب غرب آسيا.

على أن تقام المعاهد الأربعة الأخيرة فى مختلف الجامعات المصرية حسب التوجهات والإمكانات.

٤ ـ مسألة هيئة التدريس والميزانية يمكن تنظيمها على أساس تعاون كل معهد مع عدد من المعاهد الجامعية والمؤسسات العلمية والثقافية فى الأقاليم والمناطق الآسيوية المعنية، وكذا يمكن ـ بل ويجب ـ التعامل مع مختلف المنظمات الإقليمية الآسيوية، سياسية كانت مثل «آسيان»، أو اقتصادية مثل «النمور الآسيوية»، أو ثقافية فى الدوائر الكونفوشية ـ الصينية، والبوذية، والإسلامية، والإفادة بإمكاناتها واستعدادها لتمويل الدراسات الآسيوية فى دولة المركز للعالم العربى وإفريقيا ـ وكلها متجهة إلى تطوير ورفع مستوى كفاءة الأداء القومى فى الأعماق.

تأتى مسألة السياحة والمواصلات فى مقام رفيع من الأهمية بعد أن بدأ الالتفات إليه منذ سنوات قائلاً: هذه مثلاً إحصائية للسياحة الخارجية فى أكثر مقاطعتى الصين ثراء، أى مقاطعة «فوجيان»، ومقاطعة «جوانجزو» (وعاصمتها «كانتون»).

وقد بلغت عشرين مليون سائح عام ١٩٩٦. اتجه ٧٥ ٪ منهم إلى جهة شرق آسيا، و ١٥ ٪ إلى اليابان وأوروپا، بينما توزعت البقية بين الولايات المتحدة وأوروپا. أفلا يجب علينا ـ إذن ـ فتح مكاتب للسياحة فى كافة عواصم آسيا ومراكزها الاقتصادية؟

ثم، أفلا يجب علينا كذلك مضاعفة رحلات «مصر للطيران» إلى آسيا؟ على أن يكون هناك خط سياسى رئيسى على مسار القاهرة ـ طهران ـ دلهى ـ بكين ـ طوكيو، وخط اقتصادى رئيسى ثان مسار القاهرة ـ مومباى ـ كوالالمبور ـ شنجهاى ـ سيول ـ أوزاكا.

فى مجال تعميق العلاقات الاقتصادية ـ ولا نقول مجرد علاقات جماعة رجال الأعمال بطبيعة الأمر ـ يجب إنشاء مجلس العلاقات الاقتصادية المصرية ـ الآسيوية، يجمع بين الدولة والقطاع العام والقطاع الخاص وأساتذة الاقتصاد وخبراء الشئون الآسيوية.

لقطاع الأعلام دور حيوى فى هذا كله، فمن ناحية لا بد من تعيين شبكة من المراسلين الأكفاء، لمختلف المؤسسات الصحفية ووكالات الأنباء وكذا الإذاعة والقناة

obeikan.com

الفضائية. بحيث تصبح أخبار آسيا ـ أى ثلثى الإنسانية ـ جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية، إلى حد، لو جاز لنا أن نعلم أن نقرأ أسماء بكين وطوكيو ودلهى وسيول وكوالالمبور وبانكوك وإسلام آباد وطهران، جنبًا إلى جنب مع أسماء كبرى العواصم الغربية والقائمة الكاملة لمدن وموانئ شبه الجزيرة فى نشرة الأحوال الجوية، مثلاً، وكذا النشرة الاقتصادية (ولا أقول المالية) العالمية.

وأخيرًا وليس آخرًا فإنه لا بد من إقامة إطار جامع لكافة قطاعات وقنوات ومجالات ومداخل العلاقات المصرية ـ الآسيوية. إنها رسالة «المجتمع المصرى للشئون الآسيوية» تشارك فيه المؤسسات الحكومية المعنية والهيئات الاقتصادية والجامعية والثقافية والسياحية والشبابية النابعة من القطاع العام والخاص على السواء، جنبًا إلى جنب مع كبار خبراء الشئون الآسيوية فى مصر، على أن نختار نخبة من طلائع الخبراء الآسيويين من مختلف بلدان آسيا بوصفهم زملاء مشاركين للمجلس، ساحة النشاطات واسعة لعلها تتدرج من برنامج متنوع للندوات إلى مؤتمر سنوى مصرى ـ آسيوى شامل حول محور محدد لكل عام، تنشر أعماله ـ مثلاً ـ فى كتاب سنوى باللغات الرسمية الدولية الثلاث لهذه المنطقة: أى العربية والصينية والإنجليزية، إلى جانب سيل المطبوعات والبرامج الإذاعية والتلفزة.

قال صاحبى: «كفى بيانات، وتصريحات، وتحليلات وإحصائيات!... ألا تأتى وتلتفت معنا إلى شم النسيم العليل الذى يأتينا من بعيد؟

هم يقولون هناك ـ فى بلاد الصين واليابان والشرق البعيد القريب: «عزيز هو الضيف الذى يأتى من بعيد ليزورنا» وبالفعل، وبعد نهاية مأدبة العشاء الرسمية التى أقامها الرئيس الصينى «زيانج زيمين» تكريمًا لرئيس مصر والسيدة الفاضلة حرمه والوفد الرسمى. إذ بفرقة موسيقية تودع الضيف الكريم على أعتاب القصر، تردد أغنية ريفية اسمها «الخير الوفير» يغنيها الفلاحون فى مواسم الحصاد، تعبر عن الفرحة بالخير الوفير، وامتلاء الأنهار بالمياه.

هكذا يا أخى يحتفل الشرق، شرقنا، بجناحيه، بمطلع الربيع.

نعم، يحتفل من صميم القلب والوجدان، وعلى وجهه ابتسامة، أليس كذلك؟!

\- ٢٧ -

من الوفاق الوطنى إلى الوفاق التاريخى

الحديث عن الوفاق التاريخى قد يبدو جديدًا من حيث المصطلح والتوجه الفكرى ولكنه فى حقيقة الأمر من المعانى الراسخة فى الوجدان المصرى، مع أعماق الشخصية المصرية، أيًا كان تباين الآراء والمسالك والتوجهات - وإن كان الأمر، وكذا التسمية، لم يعرض على ساحة البحث والنقاش بشكل رتيب ومتكامل بقدر الطاقة. وإذا بمطلع ولاية حسنى مبارك لرئاسة مصر للمرحلة الثالثة ما يستحثنا إلى التوجه بهذا العرض على ساحة البحث، بغية التفكير والتحليل والتدقيق والإثراء بكل حرية وعلى أوسع نطاق. بداية المقام إنما هى فى تبيان مراتب الوفاق الوطنى.

أولاً : إن أولى أولويات ترتيب مراتب الوفاق الوطنى إنما هى فى الاعتراف بأن ما يرد دائمًا على ألسنة المصريين وكذا فى دوائر العالم المختلفة بأن مصر أم الحضارات وأن تاريخها السبع ألفى ينفرد جنبًا إلى جنب مع تاريخ حضارة الصين والحضارة الفارسية بالأصالة والاستمرارية، وكذا بإفراز ساحة واسعة من الثقافات المتنوعة فى ساحات إفريقيا وغرب آسيا وأوروبا حول المتوسط يقضى أن تدرك أن مثل هذه الساحة الطويلة، الساحة الهائلة، لابد وأن يكون لها مراتب ومراحل.

وقد اصطلح المصريون، وكذا العلماء والأمناء عالميًا على أن مصر مرت عبر حضارات ثلاث: حضارة مصر الفرعونية العظمى التى امتدت عبر خمسين قرنًا، وقد بدأنا ندرك أن من قبلها مرحلة أقدم بكثير يتم التنقيب عنها بريادة وشجاعة فى كلية الآثار والحمد لله، ثم مرحلة الحضارة القبطية الممتزجة بالمداخل اليونانية والرومانية الوافدة أو المهيمنة عبر سبعة أجيال، وأخيرًا حضارتنا الإسلامية العربية الشامخة منذ الفتح العربى.

إلى هنا والاتفاق موجود ومنتشر لا غبار عليه إلا فى النادر من الأحيان.

المهم أن نمعن النظر فى تاريخنا الحديث والمعاصر الذى يتحكم فى دائرة النشاط المجتمعى والعمل السياسى والإنتاج الفكرى، والذى يحدد موضوعيًا طروح مصر الغد.

هل نهدر إرثنا الوطنى؟

نقصد بذلك أن شباب اليوم لا يكاد يمسك بمعانى الاستمرارية المصرية وثراء التراكم الوطنى والإبداع الخلاق لأمتنا منذ منتصف القرن الثامن عشر. وكأن هذا الشباب من مواليد يوليو ١٩٥٢، وكأن مصر قبل ذلك ساحة غامضة، أو تاريخ هامشى، أو ربما حتى دائرة من الضباب. ولذا كانت دعوتنا إلى الاعتراف بمراحل الوفاق الوطنى خاصة فى تاريخنا الحديث وهى تشمل المراحل التالية:

١ ـ وثبة مصر فى نهاية العصر المملوكى من أجل الاستقلال حول وجه على بك الكبير رفيع المقام ومن حوله تجار وعلماء مصر، تبشيرًا بما كان سيأتى بعد عقود على أيدى محمد على.

٢ ـ انطلاق دولة محمد على منذ ١٨٠٥، بعد ثورات القاهرة والإسكندرية ضد الحملة الفرنسية حتى جلائها، وقد تم صعود محمد على لمنصب نائب والى مصر بفضل انتخابه على أيدى كبار القوم من العلماء والتجار والوجهاء، وليس بالاستيلاء عنوة على السلطة. وأقام دولة عصرية عظمى نجحت فى المزج بين التراث الإسلامى وما قبله من عصور من ناحية وبين احتياجات المعاصرة الوطنية المستقلة. دخل محمد على فى عملية استيعاب كل ما هو عالمى آنذاك لخدمة كل ما هو مصرى فى مجالات الاقتصاد والعلم والتكنولوچيا والمعرفة والحرب ثم اتجهت جيوش إبراهيم باشا فاتحة إلى الشرق والجنوب وفى الأساس إلى الشمال بغية إقناع الدولة العثمانية فى مرحلة انحدارها بالاعتماد على مصر ركيزة عصرية قوية لإعادة مجد الإسلام بشكل عصرى منفتح. وهو ما دفع جميع دول أوروپا إلى التحالف لكسر دولة محمد على بعد فرض نهاية الاحتكار، أى فتح أسواق مصر أمام تدفق السلع الأوروپية مما أضعف الاقتصاد وحاصر القوى الحربية. وانتهى الأمر بعده وبعد ولاية إبراهيم إلى ما أتاه سعيد من الاستدانة وتسليم دفة الأمور إلى الشركات صاحبة مشروع قناة

السويس ثم جاء عصر إسماعيل الخديوى المفترى عليه، محاولاً استعادة مسيرة محمد على ومؤسسًا لأول نظامًا نيابيًّا فى تاريخ الشرق. أما البقية فهى قريبة وإن كانت مازالت بعيدة. ثورة عرابى ثم الاحتلال ثم اندلاع الحركة الوطنية أولاً بقيادة الحزب الوطنى حول مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بقيادة الوفد المصرى، خاصة حول عبد الرحمن فهمى قائد «التنظيم السرى» قبل تولى سعد زغلول وقد تم هذا كله فى عصر الملك فؤاد، مؤسس الجامعة المصرية باسم جامعة فؤاد الأول ومن حولها كوكبة الجمعيات العلمية الزراعية والجغرافية والاقتصادية والإحصائية والتشريعية ثم المعهد المصرى ومجمع اللغة العربية، أى الصرح العظيم للثقافة الوطنية المصرية فى تفاعل خلاق من القرن العشرين بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وقد تلا ذلك دور حزب الوفد العظيم فى العشرينيات والثلاثينيات، فهو الذى أعاد تأسيس الجيش المصرى على أيدى حمدى سيف النصر وعزيز المصرى فى حلف غير معلن مع الحزب الوطنى ومصر الفتاة من ناحية واتحاد الصناعات المصرية الذى حماه برئاسة إسماعيل صدقى فى الثلاثينيات.

حروب وصراعات وخصام ونبذ بين هذه الأطراف ولكنها كلها عملت لبناء المرحلة الجديدة التى وجدت فى فاروق الملك الشاب، رمزًا لها قبل ٤ فبراير ١٩٤٢ ذلك اليوم الأسود الذى انكسَرت فيه شوكة الإرادة المصرية المستقلة واضطرت مصر إلى أن تدخل فى حلف لا يعنيها ضد عدو لم يهددها فكانت بداية طريق متخبط أدى إلى اندلاع الحركة الثورية الشعبية الجبارة فى الأربعينيات حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» ومن بعدها حركة «الضباط الأحرار» حتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ثانيًا: السرد السريع الذى قدمنا له فى الجزء السابق ليس مجرد تتالى مراحل، وإنما هو حركة تمثل عملية تراكم وطنى بكل معانى الكلمة لم ندركه حتى الآن، دعنا عن استيعاب دروسه، والاعتزاز به واعتباره مرجعًا للفكر والعمل والإبداع.

ما العلاقة بين ثورة المماليك وتأسيس دولة محمد على المركزية الكبرى؟ كيف ندرك صحوة الإسلام العصرى الحضارى وامتزاجه فى العلوم والصناعة والفنون الحربية الوافدة العصرية فى مطلع القرن التاسع عشر؟ من أين ولماذا إصرار إسماعيل على الاستمرار فى المسيرة وتأسيس النظام النيابى الذى دفع به إلى المنفى؟ ماذا نخلص به من

دور جيش مصر منذ على بك الكبير وإبراهيم حتى أحمد عرابى وعبد العال حلمى ومحمد عبيد فى التل الكبير ثم ظهور قيادات الجيش مركزًا للحركة السياسية من عبد الرحمن فهمى إلى عزيز المصرى حتى جمال عبد الناصر وصحبه؟ كيف نقيم النظام النيابى المصرى منذ بداياته على شكل الشورى فى مطلع القرن التاسع عشر حتى اليوم خاصة مرحلته الذهبية بين العشرينيات والأربعينيات؟ كيف كانت، وماذا كانت تعنى العلاقة بين هذا الإصرار على التمثيل النيابى لشعب مصر من ناحية وبين سلطة الدولة المركزية التى يتمسك بها كل مصرى يعى أمور وطنه وصالحه ثم: ما القول فى استمرار عمق الإيمانية المصرية، وتطورها إلى الوحدة الوطنية بشكل راسخ لا يقبل الجدال، فى وجه موجات تلو موجات من التشكيك والتفرقة والغزو الفكرى بأسماء مازالت تتنوع حتى عصرنا؟

أسئلة قلائل بين العديد من الدروس التى يجب أن نتمعنها ونعرضها بشكل دقيق أمام الشباب والأجيال الصاعدة، بحيث لا يتصور أحد منهم أن مصر دخيلة تتطفل على التقدم أو تسعى إلى لقمة العيش من موائد الدول النامية، وكأنها من التوابع والعاجزين. لا سبيل إلى توكيد مسيرتنا الوطنية المستقلة إلا برصد دقيق لما حققناه من إنجازات عظيمة، بل ورائدة، وكذا ما واجهناه من مصاعب وما قابلناه من تناقضات وما كابدناه من إجهاضات خلال مراحل استمرارية الوفاق الوطنى ـ وقد تحدثنا هنا عن مصر الحديثة وبقى أن يمتد هذا العمل التنقيبى عبر مختلف عصور حضارتنا المصرية الشامخة. لو فعلنا لكان بين يدينا مرشد لمواجهة محاولات اليأس والإحباط والقنوط وقبول الهيمنة والانكسار وكأنها أمور متحضرة عصرية لا يليق أن نتجاهلها.

ثالثًا: وأخيرًا وليس آخرًا، بعد الاعتراف بمراحل الوفاق الوطنى وإبراز الإسهامات الرئيسية لكل من هذه المراحل، يصبح لزامًا علينا أن نتدبر كيف نفيد من هذه الإسهامات.

فى مسألة الميراث والإبداع

والإجابة هنا على هذا التساؤل صريحة دون مواربة: علينا أن نقيم الهيئات والمؤسسات المناسبة لتقديم إيجابيات مراحل الوفاق التاريخى المصرى منذ القدم وما

قدمه من نتائج وإبداعات مبعثرة حتى الآن.. يجب مثلاً أن نقيم فى كل جامعة كلية للطب المصرى التقليدى جنبًا إلى جنب مع كلية الطب العصرية، وذلك للإفادة مما أنجزناه وكاد يضيع، هذا مثلاً بردى «أدوين سميث» الذى قدم له وترجمه المرحوم الدكتور كامل حسين فى كتابه النادر «متنوعات» والذى جاء فيه وصف دقيق لأول جراحات الجمجمة فى عصر بناء الأهرامات، لا شك أن هناك العشرات من الوثائق والبرديات والبحوث والمذكرات والوصفات ومعها مئات من الروايات الطبية عبر التاريخ السبع ألفى لا تزال فى وجدان قطاعات من الشعب فى الأحياء التقليدية أو مبعثرة فى كتابات غير منسقة. ألا يجدر بنا أن نقيم ولو كلية واحدة للطب المصرى الحضارى جنبًا إلى جنب مع العديد من كليات الطب العصرية؟ لماذا لا ندرس تجربة الصين العظيمة حيث كلية للطب التقليدى يدًا فى يد مع كلية الطب العصرى فى كل من الجامعات الصينية الكبرى؟ لماذا لا ندرس تجارب العديد من أفكار آسيا، من اليابان إلى ڤيتنام، من كوريا إلى الهند، من تايلاند إلى سيريلانكا، من منغوليا إلى إيران؟ وكلها تعنى عناية ملحوظة بهذا الميدان، ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة لم تصل بعد إلى المستوى المؤسسى الذى نشهده فى الصين.

وعندنا أنه من الواجب كذلك أن يكون المدخل الرئيسى لكل علم من العلوم وكل فرع فى جميع مجالات الدراسة الجامعية وكل تطبيقاتها التكنولوچية هو رصد لما خلصت إليه العلوم والتجربة المصرية فى هذا المجال سواء أكان الميكانيكا أو الكيمياء، التاريخ أو الفلك، المعمار أو علم الاجتماع. وبهذه المناسبة، أود أن أذكر هنا تجربة تعلمت منها الكثير، كان على أن أعد مادة تاريخ الفلسفة السياسية لطلاب كلية الدراسات الدولية بجامعة «ريتسوميكان» فى كيوتو (١٩٨٩ ــ ١٩٩٢)، وكان ذلك موضوعًا جديدًا تمامًا على الجامعة آنذاك. قررت أن أوسع رقعة التاريخ إلى عموم الفكر السياسى العالمى شرقًا وغربًا بدلا من البرنامج التقليدى الذى يبدأ بسقراط وأفلاطون وينتهى عند «جرامش» و«ماكسى فيبير» عادة، مرورًا بآدم سميث وكارل ماركس بطبيعة الأمر. ورحت أدرس ما جاء فى كتاب «الموتى» (أى كتاب الحياة) الفرعونى وكذا فى لوحات قوانين «حمورابى» فى حضارة ما بين النهرين العراقية، ثم انتقلت إلى بدايات الفلسفة الصينية، خاصة عند كونفوشيوس، ومدرسة التاو ثم القانونيسية،

إلى غير ذلك من القطاعات المتجاهلة تمامًا فيما يسمى بـ «تاريخ الفلسفة السياسى» فى الجامعات المرموقة وقد وجدت «فى كتاب الموتى» فصولاً ممتازة ودقيقة لمنظومة فكرية تقدم المعايير والقيم والمفاهيم والتصورات فى نسيج يفسر الكثير مما شاهدناه من إنجازات مصر الفرعونية ميدانيًا ومعماريًا.

وعندما عرضت هذا العمل على الطلاب الشباب، ساد الذهول. ثم انبرى عدد منهم وراحوا يذكرون كيف أن فى هذه الأسرة أو تلك، كان القدماء أى الأجداد عادة، يروون صفحات من الفكر القديم التى مازالت حية فى ضمير اليابان المعاصرة. مرشدة وموجهة الوثبة الكبرى التى شاهدناها منذ عصر ثورة «ميجى» (١٨٦٨).

أقصد بذلك: أن تاريخ العلوم والفكر لم يبدأ فى القرن السادس عشر فى أوروپا أثناء بدايات عصر نهضتها. تاريخ الفكر فى الحضارة القديمة فى مصر والصين وإيران أنجز وأبدع وقدم المرتبة تلو المرتبة من الأفكار والتجارب والفروض والتساؤلات والإنجازات الرائدة التى أزيلت تمامًا مما سمى بالعلم الحديث أو دولاب المعرفة الحديثة وعلينا إذا أردنا أن نعمق الوفاق الوطنى أن نعنى بهذه المرتبة الثالثة من مراتب ترتيب العمل. لا شك أنها بداية لن تكون متكاملة. لكن البداية سوف تستحث مشاعر وهيام عشرات ومئات من شباب الباحثين بحيث نتمكن من امتلاك ترسانتنا الوطنية وحصيلة تراكمنا الوطنى بكل جدارة ودون مبالغة أو انزواء، وهذا جنبًا إلى جنب مع تعاملنا المستمر والمتعمق مع دوائر العالمية المختفية دون تردد ولا هيبة.. لقد اتفقنا ولو بوجه مبدئى على ما سبق. ويصبح السؤال من أين نبدأ وكيف نكون؟

فى مسألة الأجيال الجديدة

مسألة الأولويات تمت فى حقيقة الأمر إلى التوجه التاريخى وبالتالى المهام السياسة كما تراها مختلف مدارس الفكر والعمل وكذا مختلف القوى والأحزاب السياسية على أرض الواقع.

ومن هنا كان اجتهادنا اليوم يعكس ما نؤمن به من توجه وطنى تقدمى حضارى بأوسع المعانى لا يتنكر لغيره من التوجهات، اللهم إلا القلة التى تصر أن تدير ظهرها لأولوية ما هو وطنى.

أولاً : إن التأمل فى العقبات التى تعترض طريق الإفادة من التراكم الوطنى عبر مختلف مراتب الوفاق الوطنى يقود المواطن الملتزم بمستقبل وطنه إلى حقيقة قد تبدو بعيدة نوعًا ما عن المجال الذى نعرض له ، إنها حقيقة الأجيال ، مشكلة الأجيال ، مهمة مشاركة الأجيال الجديدة فى العمق بالنسبة فى كل ما يتعلق بقرار مسيرة الوطن وتخطيط مستقبله وأعمال إمكاناته وتوجيه قواه ومراقبة تحرك وتعبئة إمكاناته.

وعندنا أن مشكلة الأجيال تسيطر بشكل مطلق على جميع الاعتبارات التى تمت إلى إنجاز مشروع مصر الوطنى الحضارى المرتقب.. ماذا نعنى بهذا القول.

المشاهد منذ مرحلة طال أمدها أن هناك نظامًا واسعًا متزايدًا من الطاقة الوطنية المصرية مازال بعيدًا عن تولى مسئولية القرار ومراقبة تنفيذ القرار والإفادة من إنجازات القرار الوطنى فى كل المجالات.

استقرار الوضع السياسى والمؤسسى فى مصر أمر محمود وكذا فإن انخراط الأجيال الصاعدة دون تردد فى مسيرة تولى المسؤولية على مختلف المراتب وفى جميع القطاعات أمر لا يقل أهمية ، بل إنه يفوق فى الأهمية أى أمر آخر. إن الأجيال الجديدة ، منذ جيل الستينيات حتى جيل الثمانينيات يجب أن تحظى بالمكانة اللائقة بها دون تردد ، فقد رأيناها تمارس الثورة والنكسة ، الأمل والأسى ، الحرب والسلام ، التوجه الاشتراكى والعود إلى الليبرالية ، الوطنية والعالمية (وليس فقط العولمة حول القطب الواحد). وخاضت أمامنا معارك التراث والمعاصرة ، الأصالة والتجديد ، الإيمانية والعلمانية ، الأصولية والسلفية ، الانكماش والانفتاح. رأيناها تغوص فى هذه الأركان فى اللحظة التى ارتفعت أمامها حواجز لا يستهان بها فى طريقها إلى الحياة الكريمة ، فى مجالات العمل والزواج والإسكان والانفتاح على المعاصرة ـ بينما تعددت والحق يقال الجهود للبناء للحاق بطوفان الشباب المتدفق إيمانًا منه بوطنه وحقه فى وطنه ودوره ومكانته فى تحديد مستقبل وطنه.

وربما قال قائل إن الأجيال الجديدة غير مستعدة ، لا تملك التكوين الكافى ولا الممارسة الضرورية. وعندنا أن هذا مغاير للحقيقة على وجه الإطلاق ، إن هذه الأجيال الجديدة ، كما شرفنا بمعرفتها والتعامل معها بكل ثقة ومحبة ، تملك كنوزًا من الرؤى والأفكار والتجارب والآمال الرائدة إلى درجة تجعل منها أجيالاً جديدة تتقدم بحق

وجدارة إلى أرفع مستوى قدمه جيل الحركة الوطنية الثورية وجيل بناء الدولة الوطنية المستقلة من الأربعينيات إلى السبعينيات. أكتب هذه السطور دون مجاملة ولا مزايدة، وإنما إيمانًا منى بتسجيل الحقيقة.

وإذا قيل إن استقرار الثبات الواجب لابد من ضمانه، نقول إنه قد يكون من الضرورى أن يحيط كل مسئول منذ المستوى الوسيط حتى قمة المؤسسات الحكومية طاقم من الأجيال الجديدة يتولى الوظائف فى مجالات البحث والاستثمار والإدارة والرقابة هكذا يتعلم الجيل الجديد، أو تتعلم الأجيال الجديدة، ممارسة المسئوليات من قلب المؤسسات والأجهزة من ناحية، بينما يتبنه المسئولون القائمون على أمور البلاد منذ المستوى الوسيط حتى أرفع المستويات إلى مطالب ورؤى وأطروحات الأجيال الجديدة وقد تكون مغايرة، أبعد نظرًا أو أكثر تمسكًا بنواحٍ غير مرتقبة، وعلى كل حال متجهة بشكل أكيد إلى مستقبل سيكون لها وهى أركانه.

لابد، هنا أيضًا من الجمع بين مختلف المراتب والمراحل والإفادة منها، تحقيقًا للوفاق التاريخى بين التراث العظيم والواقع الحى المركب والمستقبل الذى سوف يتحدى كل جمود.

وفى المقابل، نرى أنه من المفيد كل الفائدة أن ينشغل طاقم المسئولين، فى جميع القطاعات من مرتبة المسئولية التنفيذية الفعلية بعد قضاء دورتين أو ثلاث ممثلاً فى المناصب الكبرى إلى دور ومستوى المستشارية، من الممكن، مثلاً تكوين لجان ومجالس استشارية تجمع كبار المسئولين السابقين حول طاقم المسئولين الجدد من الأجيال الجديدة، بغية إثرائهم بتجارب العمر ـ بحيث تتصل المسئولية بين مستوياتها الثلاثة التى عرضنا لها هنا، الإعدادية. ثم التنفيذية، وأخيرًا الاستشارية.

فى مسألة الجبهة، مرة أخرى

وبينما تتم هذه العملية المجتمعية الحيوية فى رأينا، لابد وأن نتقدم فى نفس الوقت تجاه جمع شمل كل الفعاليات والقوى الوطنية فيما دعا له جيلنا المرة تلو المرة دون انقطاع منذ الأربعينيات، نعنى به الجبهة الوطنية المتحدة. لابد أن تشارك جميع القوى السياسية ممثلة فى أحزابها من ناحية، وكذا جميع المدارس الفكرية التكوينية لأمتنا

المصرية دون أدنى استثناء من ناحية أخرى من مجالس تتدرج من القاعدة إلى المستوى القومى، حول رئيس مصر، لكى تتمكن مصر من الحصول على أوسع ساحة من التجارب والاقتراحات والإيجابيات وكذا أن تتفادى القدر اللازم من السلبيات وتتخطى ما يواجهنا من عوائق. لا بدءًا من رؤية جزئية، بدءًا من وفاق وطنى يرتكز على أعماق الوفاق الوطنى. إن هذا الأمر أصبح اليوم حيويًا لا مفر منه، إذ تصاعدت التحديات على الساحة العالمية والإقليمية، وبدت أنماط وخطط وقوى غير مرتقبة لا تقبل التعامل إلا مع القوى الثابتة وبالتالى فإنه لا سبيل إلى إقامة القوة والثبات الوطنيين إلا على أساس هذه الركيزة الواسعة، قالوا عنها أحيانًا إنها من أحلام الشباب وتندر البعض بأنها مزيج من الأسطورة وأحلام اليقظة وإنما شعب مصر يعلم فى أعماقه، وكذا دولتنا المصرية العريقة، أن الساعة قد حانت لتوسيع رقعة التشاور قبل اتخاذ القرار صيانة لوجودنا واستقلالنا واستمرارنا وشخصيتنا فى عصر تمازج الحضارات والثقافات وتصاعد أنماط متشابكة من العالمية حول مراكز متنوعة، نحن منها وفى قلبها.

ولو شاء المترددون أو المتنكرون لفكرة الجبهة الوطنية المتحدة أن نسوق الحجج للطمأنة والإقناع. فلعلنا نشير إلى تاريخ الوفاق التاريخى فى بلادنا على النمط الذى نطلق عليه اليوم «الجبهة الوطنية المتحدة».

كان هذا هو نمط التكوين المجتمعى المصرى فى مصر الفرعونية، إذ أحاط بالفرعون «أى ساكن البيت البعيد» دوائر من الفقهاء والعلماء والمهندسين والعمال المهرة. وهى الصورة التى نقلها إلينا المخرج الراحل العبقرى شادى عبد السلام فى فيلم «الفلاح الفصيح»، إذ وقف فلاح بتواضع أمام موكب الفرعون وطالب بحقه بدءًا من أصول ومبادئ حضارة مصر فكان له ما طالب به وكان لفرعون بين الفلاحين من المقام والاحترام والهيبة ما ربما لم يخطر عليه قبل أن يتعامل هكذا مع البسطاء، أصحاب الأرض والوطن والمصير.

الأمثلة عديدة بدءًا من تاريخنا العريق. خذ مثلاً لو اقترينا نوعًا ما مما سمى بالعصر الوسيط تطوع أقباط مصر فى جيوش السلطان المسلم دفاعًا عن استقلال مصر وأرضها فى مواجهة حروب الفرنجة القادمة من شمال المتوسط، ألا نرى فى ذلك جبهة وطنية متحدة بكل معانى الكلمة ودون أدنى تردد؟

openiran.com

ثم ، ألم تكن العروة الوثقى بين طليعة علماء ومثقفى ومفكرى مصر العائدين من البعثات العلمية فى أوروبا حول رفاعة الطهطاوى من ناحية ودولة محمد على وجيش إبراهيم من ناحية أخرى لبناء صرح نهضة مصر العظيم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر؟

وهكذا ، ألا نرى فى سلوك الخديوى إسماعيل بعد خلعه وهجرته إلى إيطاليا وكيف أنه كان يمد أحمد عرابى وصحبه بالمرشدين والمدربين من أعضاء ثورة «كومون» باريس وذلك ضد عدوان الغرب والاستعمار العسكرى آنذاك؟

ماذا نقول عن تلاحم الحزب الوطنى فى نهاية عصره ببدايات الوفد؟ ثم تجاوب إرادة حزب الوفد وطلعت حرب ، بانى الصناعة الوطنية من ناحية ، مع عدو الوفد اللدود إسماعيل صدقى فى الثلاثينيات دفاعًا عن الاقتصاد الوطنى؟

أحوال مصر منذ هذه المرحلة حتى اليوم صفحات مضيئة لهذه الجبهة الوطنية المتحدة غير المعلنة التى تعبر عن الوفاق الوطنى نَعم ، وإنما الوفاق الوطنى القائم على أساس أركان الوفاق التاريخى لشخصية مصر عبر العصور ، الحركة الثورية فى الأربعينيات التى جمعت شباب الوفد بالشيوعيين. الضباط الأحرار بشباب الإخوان ، مصر الفتاة والحزب الوطنى بأبناء البيوتات «الوطنيين» إجماع مصر حول تأميم قناة السويس وبناء السد العالى وحرب مصر حتى الاحتلال مرة أخرى : الواقعية التاريخية ، بعيدًا عن الجمود وكذا أحلام اليقظة ، يجب أن تكون سنة لأمتنا وشعبنا.

إن مصر تملك طاقات هائلة تثير نقمة الأعداء والحاسدين ولكنها أيضًا ، أى هذه الطاقة تقيم ساحة من الاحترام والتأمل قبل المبالغة فى تحقير ما تمثله مصر.

من هنا كانت دعوتنا إلى الجميع بين الوفاق الوطنى حتى أبعد سواحل الوفاق التاريخى.

قال صاحبى : «من أعياد الصيف الساخن» الثائر ، إلى رحاب المستقبل.. وهل تردد أحد ، يا أخى ، فى إحياء ذاكرتنا التاريخية؟ ماذا ، ماذا تقول؟ الموضوع ليس حبًا للتاريخ ، وإنما توكيدًا لمعانى الأمل!

حقيقة أتساءل : وهل يتردد أحد على أرض مصر؟..».

ـ ٢٨ ـ

١٩٩٩.. مشروع مصرى لكل المصريين

تمتاز لحظة رأس السنة، عامًا بعد عام، بأنها مرحلة مراجعة وتأمل.. وكذا شروع فى الأمل، اللحظة هذه المرة مزيج من التطلعات الكبيرة بكل معانى الكلمة حقيقة، وفى مواجهتها تهديدات وخطط للحصار والتدمير. الجميع يكاد يجمع على خطورة الموقف، ويتساءل، كما فعل الزميل الأستاذ أحمد عز الدين فى دراسته الممتازة، «الاختراق مرة خامسة: لمن تدق الأجراس؟» (الدستور ٢٢ / ١١ / ١٩٩٨) أين تكون الضربة التالية، بعد فشل محاولات الفتنة مؤقتًا. وفى هذا الجو، لابد من شهادة. شاءت الظروف أن يتخرج فى سيمنار الدكتوراه الذى كنت أديره حول «النظرية الاجتماعية والسياسة» فى باريس سيدة ممتازة حقيقة تقدمت برسالة للدكتوراه كانت فى آنها من أهم الأطروحات عمقًا وتجديدًا وجدية. ثم ارتقت الدكتورة الجديدة سلم المسئوليات فى قطاع المنظمات غير الحكومية على نطاق أوروپى، ثم عالمى، إلى درجة أنها أصبحت الآن على قمة طاقم المستشارين الدائمين الذين يوجهون العملية كلها. انقطعت بيننا الصلة منذ سنوات، وكل فى طريقه وفجأة ـ ودون سابق إنذار ـ جاءتنى رسالة تحمل معانى الذكريات ودعوة للاجتماع وتناول العشاء والتشاور فى أمور الدنيا.

تساءلت: أمور الدنيا، فجأة؟.. تم اللقاء.. كانت الذكريات الخصبة، وكذا فإن مسار هذه الشخصية البارزة الجديدة كان محل إعجابى وانتباهى. وفى ختام الجلسة، بعد تناول الشاى والمرطبات، وكنت أتأهب للخروج فاجأتنى الطالبة السابقة، الزعيمة المرموقة حاليًا، بسؤال مذهل. قالت: «هل تجيبنى عن السؤال التالى؟ هل حقيقة أنك مؤمن بأن مصر لها مستقبل؟» نظرت لها ـ فى ذهول ـ أضافت: «أقصد: هل تتصور أن مصر تستطيع أن تستمر، فى مرحلة تراكم المشكلات. والهجمات ومحاولات

الحصار، من المياه إلى أحلاف الشرق الأوسط إلى الانفجار السكانى، الخ؟» كنت مذهولاً ـ أو هكذا تظاهرت ـ وبطبيعة الأمر عدت إلى المقولات المعروفة: أن مصر أم الدنيا، وأن تاريخها السبع ألفى لا ينكسر، وأن شعبها لا ينهزم، وأنا على كل حال أشكر لها هذا الاهتمام بمصير مصر. فلتطمئن: مصر بخير، وستظل.

ولكنما الحديث، بين مئات العلامات الأخرى يتلقاها المصريون فى كل مكان وقارة ومناسبة، يثير التساؤل حقيقة: «لمن تدق الأجراس؟».. وكذا سؤال آخر: «لماذا تدق الأجراس الآن ـ بهذه النبرة العالية التهديدية العدوانية رفيعة المستوى؟».

وبما أن خير الكلام ما قل ودل، رأيت أن أوجز فى رسائل معدودة ومحدودة ما أراه حيويًا بالنسبة لوطننا لمواجهة الزوابع القادمة من كل مكان.

أن تسترد مصر كامل تاريخها

فى هذا العام الاحتفالى الخصب الغريب، شاءت الظروف أن أواجه أثناء رحلة إلى أوروبا الغربية بمعرض عن جزء عزيز عن تاريخنا الحضارى كنت أجهله تمامًا. كنا نعرف، بل وهكذا تعلمنا بل وعلى هذا أجمع العلماء أن لمصر الحبيبة مسيرة طويلة عبر مرحلة الحضارة الفرعونية المجيدة التأسيسية للعالم أجمع، يدًا فى يد من الحضارة الفارسية، ثم الصينية، ثم مرحلة أخرى قصيرة هى مرحلة مصر القبطية، من تأسيس الكرازة المرقصية فى الإسكندرية فى نهاية القرن الأول الميلادى حتى الفتح العربى عام ٦٤٠م تلبية لدعوة كبير أقباط مصر المقوقس إلى إخوانه العرب القادمين من الجزيرة لكى يخلصوا مصر من الاحتلال الرومانى. ثم المرحلة التى نحياها منذ القرن السابع، مرحلة مصر الإسلامية العربية، وكذا الشرقية، منذ أن اتجهت قيادة الحركة الوطنية ثم «الضباط الأحرار» إلى تضامن شعوب آسيا وإفريقيا، ثم أمريكا اللاتينية، ضد الإمپريالية والهيمنة.

الغريب فى المعرض الغريب ـ الذى بلغ مستوى نادرًا من الذوق والجمال والتميز الفنى ـ أنه اتخذ لنفسه عنوان «مصر الرومانية». تساءلت: «مصر الرومانية؟» ما هذا؟ وإذ بكتالوج المعرض يقدم مرحلة مصر القبطية، بين الحضارة الفرعونية ومرحلة

الحضارة الإسلامية العربية، بأنها بغير لون، اللهم إلا باعتبار أن مصر كانت آنذاك ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية الغازية. بعد هذا فإن صور الفيوم التى كانت فخر مصر ولا تزال، إسهامًا من الفن القبطى المصرى الأصيل فى تاريخنا الفنى السبع ألفى، وإذ بهذا كله يتحول من الطابع «المصرى» إلى شىء يسمى «مصر الرومانية». راجعت نفسى. تساءلت: ماذا، مثلاً، لو نظم بعضهم معرضًا للفن، بل والثقافة كلها، فى المرحلة بين ١٨٤٠ (نهاية عصر محمد على) و١٩٥٢، خاصة منذ الاحتلال البريطانى عام ١٨٧١، تحت عنوان: «مصر الغربية» أو «مصر البريطانية»؟ ماذا لو تجرأ بعضهم، أو بعضنا، على هذا «الإبداع» فى فن المعارض، إن جاز التعبير؟ كنا معًا لفيفًا من الأصدقاء وأنا أعرض عليهم هذا التساؤل، فارتفعت القهقهة من كل جانب ورأى فيها واحد منهم أنها نكتة السَّنَة.

والحق أن «نكتة السنة» ليست نكتة بحال من الأحوال. وإنما تعبر عن خلاصة التوجه المتغرب الذى تأرجح تارة بين الشرق أوسطية التى تتفتت أمامنا يومًا بعد يوم، وصعود ما يسمى بالثقافة المتوسطية على أساس أنها مزيج من ثقافات أوروپا الجنوبية، وإشعاع الهيمنة الأمريكية حول الأسطول السادس فى قواعد بحرنا الأبيض المتوسط ثم الخليج، وكذا ما تبقى من لهجات وإسهامات عربية فى المغرب وليبيا ومصر وبلاد الشام، على شرط أن يكون للفكر الصهيونى وتراثه العنصرى الحى مكانة الصدارة والوجود فى كل لقاء وكل منشور وكل حديث وكل ندوة وكل حركة. فإذا كان العدو لم يستطع أن يدخل الديار حتى الآن بالسلاح، فعلى الأقل له أن يفيد من هذا التمهيد ليدخل علينا من أوسع الأبواب وأخطرها: باب الوجدان والعقل والإرادة، باب الفكر والثقافة.

ومن هنا كان لزامًا على مصر ـ شعبًا ودولة ـ أن تعمل فورًا ودون كلل لاسترداد كامل تاريخنا الحضارى دون أدنى تمييز. إن المقولة الداعية إلى تجاهل مصر الفرعونية ـ خمسين قرنًا من تاريخنا ـ مقولة ساذجة يرفضها العقل والجدان، وإن كانت من ثمار تاريخنا المعاصر منذ ١٩٥٢. وكذا فإن مقولة عدم وجود مصر القبطية مقولة يرفضها واقع الوطن والفكر الوطنى، خاصة منذ ثورة ١٩١٩ وما جاءنا فى الأعوام القليلة الماضية من دلائل الفتنة المُدَبَّرَة من الخارج. وكذا فإن التنكر لفكرة مصر الإسلامية

العربية، باسم الحداثة بطبيعة الأمر، فكرة كريهة بغيضة علينا جميعًا، تقطع رباطنا الحيوى بالأمة العربية التى كنا مركزًا لها، ودائرة الحضارة الإسلامية من المغرب إلى بحار الصين ونحن أحد المركزين الرئيسيين بها يدًا فى يد مع إيران ودائرة الإسلام فى آسيا وإفريقيا.

ولعل بعض من يتصور أنه يشغل بشئون الفكر يتأمل الدرس القادم من جيشنا المصرى وتراثه العتيد، فكرًا وعملاً وإنجازًا ألا وهو: اتصال فلسفة الأمن القومى المصرى منذ أقدم عصور إمبراطورية حضارة مصر الفرعونية حتى اليوم حول محاورها الثلاثة الجنوبية وهى محور النيل، والشمال غربية نحو ليبيا وفى مواجهة التصدى للعدوان القادم من شمال الدائرة المتوسطية خاصة الشمالية الشرقية منطقة الغزو منذ الهكسوس حتى الدولة الصهيونية. وهى الفلسفة التى اتسعت على أيدى على بك الكبير خاصة ومحمد على إلى الدائرة الإسلامية الآسيوية ـ الإفريقية العربية كلها، الأمر نفسه الذى تم على أيدى الحركة الوطنية وثورات مصر فى القرن العشرين، وفى هذا الإطار الفلسفى يتجلى دور قواتنا المسلحة فى رباط مقدس لا ينفصم مع شعب مصر ودولتنا الوطنية: كان هذا معنى انتصار رمسيس فى معركة «قادش» وائتلاف أقباط مصر بإخوانهم العرب المسلمين القادمين من الشرق فى القرن السابع، وعبقرية صلاح الدين الأيوبى، وصحوة المماليك حول على بك الكبير فى القرن الثامن عشر، وفوق هذا كله مقام محمد على وإبراهيم العظيم فى مطلع القرن التاسع عشر حتى ما عشناه فى ثورات القرن العشرين حول أعلام مصطفى كامل وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس وعزيز المصرى وجمال عبد الناصر وعبور أكتوبر المجيد.

شعب واحد، تاريخ واحد. إرادة واحدة. مصير واحد. يملى علينا، شعبًا ودولة، أن نسترد كامل تاريخنا الحضارى دون أدنى استثناء وبعزم لا يعرف الكلل.

أن تحدد مصر أولوياتها

ثم، بدءًا من هذا التاريخ الحضارى السبع ألفى الفريد، وفى ظروف العالم المعاصر، أى الانتقال من مرحلة تغيير العالم التى رأت انتصار الحركات الوطنية والقومية على الإمبريالية التقليدية إلى مرحلة صياغة العالم الجديد التى بدأت

منذ ١٩٩١ بظهور هيمنة القطب الإمپريالى الواحد المتآكل أمام الغزو اليهودى الصهيونى العالمى الذى يسعى إلى السيطرة على مفاتيح الغرب دون أدنى استثناء وفى كل قطاع من ناحية، ثم وبشكل أعظم بكثير أمام صحوة شعوب الشرق حول مركزية الصين فى نهاية القرن العشرين، وهو الأمر الذى يؤكده معظم الخبراء والعالمين بالأمر طابعًا للقرن الواحد والعشرين.

إن تحديد الأولويات لا يعنى تحديد دوائر الشخصية وهى معروفة ومفهومة تمامًا بأبعادها الحضارية الموضوعية التى ذكرناها آنفًا.

وإنما تحديد الأولويات يعنى: تحديد أولويات التحرك، وكذا نوعية هذا التحرك فى كل من القطاعات المختارة.

١ ــ ننظر أولاً إلى الدائرة العربية. لنتساءل: هل تكون أولوية يا ترى لاجتماع عربى أثبتت الظروف أنه ضعيف على أحسن تقدير، وقد دخل مرحلة التفكك بفضل خيارات لتكوينات أنظمة نفطية هامشية أو مرحلية يعرفها الجميع؟ وإن كان الأمر ليس على هذا النحو، إذا كان «بيت العرب» عاجزًا عن التحرك مادام يقوم على قاعدة الاجتماع، غير الموجود، ماذا يكون سلم الأولويات ترى فى سياسة التعبئة العربية الحيوية حقيقة لنا أجمعين؟ وعندنا أن الأولوية المطلقة إنما هى لنواة القوى التى واجهت فكرة وعملا، سياسة وحربا العدو الإمپريالى والصهيونى، أى: محور مصر ـ سوريا، يدًا فى يد مع العراق الجريح وليبيا والسودان. لا شك أن هناك مشكلات. ولكن لا شك أيضًا أنه من الواجب المطلق، الواجب الوطنى الحتمى المقدس أن يتم التغلب على هذه المشكلات فورًا، أو على الأقل فى أسرع وقت. ثم تمتد هذه النواة إلى كل من يتصدى الآن، ولو جزئيًّا، إلى المحور الأمريكى ــ الصهيونى، أى أنها تمتد إلى السعودية، واليمن، ودولة الإمارات ودول المغرب العربى كلها، خاصة بعدما تم من صحوة وطنية وجبهة من نوع جديد فى دولة المغرب الشقيقة.

٢ ـ وإذا قلنا بالدائرة الإفريقية، فماذا ترى، نعنى هنا فيما يتعلق بالأولويات؟

فى تقديرنا أن الأولوية المطلقة يجب أن تكون المحور النيلى الإفريقى، الذى يمتد من مصر عبر السودان الشقيق إلى دائرة البحيرات الكبرى فى قلب إفريقيا (الكونغو

وأوغندا خاصة) وكذا الرافد الشرقى العظيم فى إثيوبيا. ويحيط بها بالقوى صديقها فى زيمبابوى وموزمبيق وتنزانيا من ناحية وامتداد هذا كله بالتعانق مع نيچيريا العملاقة الإسلامية، كبرى دول القارة تعدادًا وأكثرها ثراء نفطيًا، رغم الصعاب الداخلية المرحلية تمتد إذن أولوية محور النيل الإفريقى غربًا إلى القطاع الوطنى الإسلامى فى إفريقيا، وعلى رأسه نيچيريا، وكذا السنغال، ثم ينظر إلى جنوب إفريقيا، يحاول أن يتبين ما بعد رجل التاريخ العملاق «نيلسون مانديلا»؟ وهنا يجب إدراك أن العمل قائم على قدم وساق لتفتيت جنوب إفريقيا بعد رحيل «مانديلا» مؤسسها، خاصة باستقلال منطقة «الكاب» حيث الأغلبية الغربية، وكذا تعميق الروابط العضوية الوثيقة بين نائب رئيس الجمهورية «تامومبيكى» الشقيق الروحى المختار لنائب رئيس الولايات المتحدة «آل جور» حليف الدولة اليهودية الأولى كى تتم الدولة الأمريكية العظمى. لا نستطيع أن نتحرك فى كل الدوائر الچيوثقافية فى إفريقيا. إنما الواجب أن نركز على الأولويات التى حددناها هنا، وأن نعمل يدًا فى يد مع «منظمة الوحدة الإفريقية» فى المقام الأول، على أن يكون التعاون مع التجمعات السياسية الأخرى: جنوب آسيا، أى الهند وباكستان وسيريلانكا فى علاقتها بعالمنا العربى والإفريقى، ثم أوروبا فى علاقتها الجدلية التاريخية من الصراع والتعاون مع القارة السوداء.

وفى هذا كله من المهم أن ندرك أن المحور القائم بين الإسلام والمسيحية، خاصة الكنيسة الكاثوليكية فى روما، وكذا مقام الكنيسة القبطية المصرية فى محور النيل الإفريقى تمثل عوامل مهمة يجب أن نعنى بالإفادة منها بشكل ذكى ثرى بعيد كل البعد عن الروتين والمجاملات والقبلات الباسمة الفارغة.

٣ ـ وإذ نقول بانتمائنا إلى قلب دائرة الحضارة الإسلامية، كيف تكون الأولويات؟ الأولوية المطلقة عندنا إنما هى العلاقة بين مصر وإيران. ومرة أخرى نقول: إن كلمة مصر هنا تعنى مصر قلبًا لدائرة التحرك العربى، أى مصر يدًا فى يد مع سوريا شقيقة السلاح. إن العلاقة بين مصر وطهران تحدد مستقبل مصير عالمنا العربى، وتدعم نهضة الحضارة الإسلامية العصرية المنفتحة فى العالم ـ وإن كانت هذه النهضة سوف تتم، أراد لها ذلك أو لا يريد الأعداء، وإنما العناق بين مصر وإيران سوف يعنى التعجيل منها بشكل عظيم، خاصة لو شارك فيه كل من القطاعين الجنوبى من أمتنا العربية حول

السعودية والشمال حول سوريا والعراق. ومن هنا تأتى الأهمية المتزايدة للتقارب التاريخى بين مصر وتركيا، الدولة الكبرى فى شمال شرق المتوسط.

ثم تأتى الأولوية الثانية، وهى التى لم ندركها بعد بوضوح، ألا وهى دور آسيا الوسطى الممتدة من حدود روسيا الشرقية ومنطقة القوقاز وبحر قزوين حتى مقاطعة «كازاخستان» شمال غرب الصين وكذا إلى أهم دول ومجتمعات جنوب شرق آسيا أى إندونيسيا وماليزيا. إن إدراك مغزى هذا الشريك التاريخى حيث تحيا الغالبية العظمى لشعوب أمتنا الإسلامية أمر حيوى بالنسبة لحماية تحرك الدائرة المركزية السنية ـ الشيعية حول قطبيها المصرى والإيرانى.

٤ ــ وإذا قلنا بنهضة شعوب الشرق، فلا شك أن الأولوية المطلقة، مبدئيًا واستمراريًا يجب أن تكون لتعميق العلاقة فى جميع القطاعات والمجالات ــ خاصة الاقتصاد والمجال الإستراتيچى فكرًا وعملاً ــ والظروف مع الصين، مركز العالم الصاعد، شريكة ثورتنا المصرية منذ القدم، خاصة منذ مؤتمر باندونج (١٩٥٥). إن هذا الأمر حيوى بكل معانى الكلمة بالنسبة لأمتنا العربية. ولا شك أنه يتصدر سلم الأولويات ويدعمه ويحيط به عنصر العلاقة الوطيدة متزايدة الأهمية مع اليابان، الدولة العظمى الصاعدة الجديدة فى آسيا، وكوريا بعد الاقتصادية والإستراتيچية ــ الدائرة الكونفوشية حول الصين.

٥ ــ هنا يأتى موضوع عالم الجنوب وقد تحدثنا عنه فى القطاعات الآسيوية ــ الإفريقية حتى الآن. بقى أن ندرك أن أمريكا اللاتينية هى الآن ثانى دائرة ناهضة فى العالم، بعد الصين وآسيا الشرقية وأن دولها الكبرى خاصة البرازيل والمكسيك والأرجنتين وشيلى تتجه، فى صحوتها القومية، إلى الابتعاد عن الهيمنة الأمريكية، وتسعى إلى شرق آسيا، بينما نتساءل عن موقفنا نحن. وعلينا أن ندرك أن فى هذه القارة العظيمة، أى أمريكا الوسطى والجنوبية التى نطلق عليها أمريكا اللاتينية، إمكانات هائلة للتعاون والتنسيق وقيام المشروعات الكبرى المشتركة فى جميع مجالات الصناعة دون استثناء والتبادل السكانى والألفة الفكرية والدينية: ألم نقل بحوار الأديان؟ وأليست قارة أمريكا اللاتينية هى كبرى قارات المسيحية الكاثوليكية فى عصرنا؟ نقطة مهمة مادام أهملناها وأصبح لابد أن نتدبر أمرها، دون إبطاء.

٦ ـ وإذ تحدثنا عن الغرب ، فإن لأوروپا مكانة الصدارة بطبيعة الأمر ، على أن نحدد أن الأولوية الموضوعية فى تاريخنا المعاصر كانت للعلاقة مع روسيا التى لولاها لما قام تسليح قواتنا المسلحة وبناء الصناعات الثقيلة والكادر العلمى رفيع المستوى من الخمسينيات إلى الثمانينيات ، بغض النظر عن النظام القائم هناك. وكذا فإن استمرار العلاقات بأوروپا الغربية أمر بالغ الأهمية على أن ندرك هنا أيضًا أن مكانة الدول الاستعمارية القديمة ذات المقعدين الدائمين فى مجلس الأمن الآن ، أى إنجلترا وفرنسا ، يلازمه الآن صعود ألمانيا الجديدة إلى المكانة المركزية من الناحية الاقتصادية ، خاصة بعد أن أكد المستشار «شرويدر» ووزير خارجيته «يوشكا فيشر» أن ألمانيا الجديدة ، بعد المستشار «كول» موحد الأمة ، لم تلتزم بحملات التجريم المستمرة التى قامت بها القوى الصهيونية واليهودية دون هوادة منذ ١٩٤٥ ، وكأن الأمة الألمانية العظيمة لم تقدم للعالم الفلسفة والعلوم والموسيقى وفن الحرب والصناعة والهندام. وكأنها اليوم لا تمثل ثالث قوة اقتصادية فى العالم بعد الولايات المتحدة واليابان ، وكانت أول شريك اقتصادى للصين وثانى أهم المستثمرين بها بعد «تايوان» ... ربما يجوز لغيرنا أن ينسى أو يتناسى. ولكننا نحن لا نستطيع أن نهدر هذا البعد بينما الحصار يأتينا من كل جانب.

٧ ـ ثم تأتى مسألة الولايات المتحدة الأمريكية. المناهج ، المواقف ، الأفكار هنا تختلف فى الأعماق بين القطاع الذى يقبل العولمة أحادية البعد على أنها العولمة الوحيدة الممكنة ، وبين السواد الأعظم من شعبنا المصرى وأمتنا العربية الذين يرفضون هذا الوضع المهين المرحلى ـ الذى ترفضه أيضًا بشدة الصين وروسيا ومعظم دول الجنوب وأوروپا بشكل متزايد وواضح ـ وذلك باختيار فكرة عالمية الأمم شعارًا للعولمة المقبولة المعقولة الواقعية. ولكن الأمر يتعلق هنا بالحاضر والمستقبل القريب : ما العمل؟ وكيف يكون التخطيط؟

لابد أن ندرك بالعين الباردة أن هناك صراعًا هائلاً يدور حول مفاتيح الحكم فى واشنطن ، بين طرفين ، فمن ناحية القوى الأمريكية صاحبة المصلحة الرئيسية ، أى المجمع الصناعى ـ العسكرى الذى يرتكز حول اليمين الأمريكى والحزب الجمهورى ، وكذا قطاع يمثل أقلية الحزب الديمقراطى. ثم إن هناك المركز اليهودى العالمى المهيمن على شرق الولايات المتحدة حول نيويورك ، والممسك بزمام المال والمصارف والصحافة

والإعلام ومعظم الحياة الجامعية ومركز البحوث. والصراع يقوم على الموضوع التالى: من يتولى قيادة الولايات المتحدة؟ هل هو شعب الولايات المتحدة ومراكز تمثيل المصالح الحقيقية الأمريكية به؟ أم أنه الدولة اليهودية، وشبكتها العالمية التى تسعى إلى الهيمنة على مصائر القوة العظمى الوحيدة الموجودة فى عالم اليوم؟

يجب أن نختار من هو أقل عدوانًا، وأكثر تشابكًا من حيث المصالح والرؤى. ولا شك أن المحور اليهودى ـ اليمينى المتطرف هو العدو. ولا شك أيضًا أن القوى الأمريكية المحافظة التقليدية والأقلية الديمقراطية الليبرالية هى الشريك الممكن فى البحث عن حلول وسطية معقولة وراقية فى آن واحد. ملف كبير نكتفى بمجرد الإشارة إليه هنا، من باب إكمال الصورة.

أن تنتقل مصر من «الموقف» إلى التحرك

نأتى إلى بيت القصيد ألا وهو الانتقال من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل. والحق أن مصر تحيا فى جو رد الفعل منذ اتفاقية كامب ديڤيد المشئومة وما تلاها من نتائج مدمرة عبر سياسة الانفتاح دون قيد أو شرط ـ وهو الأمر الذى بدأ تضبيطه الآن والحمد لله بفضل ريادة رئيس مصر ونخبة من المسئولين الجدد الأكفاء ومن حولهم وجدان مصر وإرادتها دون تردد.

والمطلوب هنا أن ننتقل من «اتخاذ المواقف» إلى جو التحرك السياسى. واتخاذ مصر المواقف فى مصرنا المعمورة أمر بالغ الإتقان فى كل مجال بحيث لا نكاد نجد مشكلة إلا ولنا فيها «موقف» معلن إيجابى ومعقول. ولكن المهم أن نتحرك. المهم أن ندرك أولوية البعد السياسى فى مرحلة صراع القوى وتغيير العالم. المهم أن ندرك أن التحرك السياسى لا يتأتى بحشد الموظفين، على أهمية أدائهم الإدارى، إنما بتعبئة الكادر السياسى الوظيفى كما هو معلوم للجميع. المهم هو أن تكون لنا سياسة واضحة المعالم تضطر العدو والغريم إلى ردود فعل بالنسبة لنا. والمثل الساطع هنا هو: مخطط الغرب الجديد فى الشرق الأوسط بالنسبة لأمتنا العربية وتفاعلها مع الدائرتين الإسلامية والآسيوية حول الصين. إن الإستراتيچية المعلنة لدولة الهيمنة الأمريكية فى شبكتها مع الصهيونية: إقامة حلف إستراتيچى مهيمن على منطقتنا يتكون من الولايات المتحدة ـ

الدولة الصهيونية ـ تركيا ـ مع السعى إلى ضم الأردن، بل حسب مزاعم وخرافات الإعلام اليهودى إيران، دعنا عن دائرة وويلات الخليج حيث القواعد الإستراتيچية فى كل مكان. ما هو الموقف من هذا المخطط الإستراتيچى المدمر لمستقبلنا؟ هل نفهم أن إنجاز مثل هذا الحلف معناه قطع الصله نهائيًا بين مصر وسوريا؟ أفلا نرى أن إنجاز هذا المخطط معناه تشتيت التقارب بين أمتنا العربية وإيران تقارب الحلفاء؟ أفلا ندرك أن معناه تعميق التفرقة بين مصر والأمة العربية من ناحية وتركيا الإسلامية من ناحية أخرى. وفى تقديرى أن التحرك هنا الذى بدأته مصر تجاه تركيا حكيم بمعنى الكلمة. الواجب أن يكون تحركنا السياسى متكاملاً ومعنى ذلك:

(أ) ضرورة تعبئة جميع القوى العربية لحماية العراق الشقيق ـ شعبًا ودولة ـ من الضربة القادمة [وقد حدثت] التى تهدف إلى تشتيته وتمزيق وحدته وفرقعة الاستقرار فى الشرق الأوسط. الموضوع هنا العراق شعبًا وأمة ودولة، وليس موضوع صدام حسين الذى هو من شأن شعب العراق السيادى دون أدنى حدود.

(ب) ويلى ذلك فى الأهمية، بل ولعله يتساوى معها تمامًا ضرورة إقامة العلاقات الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية والمشاركة الإستراتيچية الكاملة بين مصر وإيران، أهم دولتين قوميتين فى الشرق الأوسط وذلك دون أدنى إبطاء. الزمن هنا ليس فى مصلحتنا، بعد أن تحركت معظم دول الغرب بل وإمارات الخليج إلى طهران، ونحن مازلنا فى الطريق إليه. وسوف يسعد شعب مصر فى أعماقه عندما تقرر الدولة رفع العلم الإيرانى فوق سفارة إيران فى سماء مصر، تمامًا كما كان الأمر أيام العناق بين الرئيسين جمال عبد الناصر ومحمد مصدق.

(ج) العلاقة مع تركيا لابد أن تسعى ليس فقط إلى تحييد العدوان ضد سوريا الشقيقة، وإنما إلى وضع أسس لعلاقة سياسية واقتصادية، ولو أمكن إستراتيچية، مع هذا البلد الكبير. إن تركيا تملك ثانى قوى إستراتيچية فى حلف الأطلنطى قبل إنجلترا وفرنسا، من كونها قاعدة أساسية لحصار الاتحاد السوفييتى جنوبًا. يجب أن ندرك هذا بوضوح. ويجب أن ندرك أيضًا أن جيش تركيا، حول قيادة الچنرالات العلمانيين أعداء الإسلام، هو أيضًا جيش حروب الاستقلال بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، وبالتالى فإن له شرعية تاريخية يجب احترامها والتعامل معها بهدوء وواقعية لترشيد الأمور.

الكلام كثير، وإن كنا قد رأينا أن نركز على جوهر الموضوع.

نأتى هنا إلى الجوهر، إلى ترتيب عملية تعبئة جميع القوى الوطنية. أى إلى كيفية تكوين «الجبهة الوطنية المتحدة» ومنها إلى مسألة المسائل: كيف يكون التعامل مع مسألة الأجيال؟ كيف يمكن أن يشارك شباب مصر، بأجياله المتعاقبة من الستينيات إلى الثمانينيات، فى تولى أو صياغة مستقبل مصر؟

مسألة المسائل «مفتاح الغد» أداة لكسر الانكسار. طريق الإمساك بمفاتيح المبادرة الوطنية التاريخية. مسيرة النهضة التى تتبدى فى الأفق، رغم الحصار والعدوان القادمين.

كل سنة وأنت طيبة، يا حبيبتى يا مصر! مستقبل هذا الشعب العظيم أمانة فى قلوبنا أجمعين، مادامت «مصر ليست وطنًا نعيش فيه، وإنما مصر وطن يعيش فى قلوبنا!».

قال صاحبى: «بالله عليك: أعياد؟ أية أعياد هذه؟... ألا ترى النار والعار؟

ألا ترى الدماء والانحناء؟... أفلا تدق أجراس بغداد لنا أجمعين؟... أفليس أخواتنا وإخواننا شهداء العراق، حول الرئيس صدام حسين وجيش الوطن الباسل من لحمنا ودمنا؟... ماذا؟ ماذا تقول؟... تكلم!

أجبنى!. لا تهرب!...

رمضان كريم: أن يكون الشهر المعظم إذن مسيرة لتلاقى الهلال والصليب فى سبيل الوطن والأمة!...».

❁ ❁ ❁

ـ ٢٩ ـ
ما بعد « خيال الظل »

كيف يمكن أن نهتدى إلى حقائق الدنيا فى جو الإبهام الذى أصبح سائدًا فى معظم وسائل الإعلام وقطاعاته بشكل مذهل؟ نشهد الظاهرة ونقيضها، التصريح وعكسه، الإغراء وإلغاءه، الضرورة ونقيضها، إعلان الحتمية وإنكارها ـ ظواهر متناقضة وكأنها عضوية تجمع دون ترتيب ولا تفسير الساعة تلو الساعة، وكأن الوقت لا يسمح بالتفسير والتوضيح والتعقل ـ بل إنه زمن « خيال الظل » ..

الوقت أصبح « مسدودًا » ، أمام شعوبنا فى مصر والأمة العربية ـ هكذا يقولون ـ فالوقت « محسوب » للقبول والإنجاز والتوقيع واللحاق بالركب، وكأن المسألة مسألة حياة أو موت أو وجود أو فناء بالنسبة لشعوبنا ودولنا وأمتنا، بينما حقيقة الأمر عكس ذلك تمامًا : إن الوجود وألا وجود ينصب على الدولة اليهودية، كما يعلم الخبراء والرأى العام هناك بوضوح. إن دولة لا تستطيع أن تحارب ولا أن تصالح لا مستقبل لها. لا تستطيع أن تحارب : أى أنها لا تستطيع أن تقوم بحرب إستراتيچية هجومية شاملة تستعمل فيها ترسانتها النووية والهجومية المتقدمة للقضاء على سياج الدول والشعوب المحيطة. والسلام : فإن مقتضياته غير مقبولة ؛ لأنها تصطدم بجوهر الرسالة الصهيونية والفكر اليهودى والممارسة مساحة محدودة كانت بالأمس وعلى مدى أجيال وطنًا للفلسطينيين، وأصبحت الآن قلعة محاصرة فى بحر غالبيته العظمى من العرب المسلمين والمسيحيين الشرقيين.

لا يرضون بالهيمنة والتعالى والعدوان باسم التطبيع

ومن هنا كان لزامًا علينا أن نقف لنتساءل : ما هو جوهر القضية؟

أين مصلحة مصر، مكانتها ودورها؟ ثم ننتقل إلى دراسة المنهج الواقعى الذى يسود العلاقات الدولية فى مرحلة الصراع كما عرفتها الإنسانية، إلى أن نخلص إلى نقاط تحديد إستراتيچية مصر القومية، كما اجتمعت عليها جماهير الحركة الوطنية المصرية منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم، عند هذا الحد وبعد هذه الجولة بعدها فقط، نستطيع أن نمارس بكل تواضع الدخول إلى باب: ما العمل؟ ما العمل: بعد أن نفيق من غيبوية «خيال الظل»؟ المدخل لاختراق «خيال الظل» إنما هو فى العود لعرض عدد من البديهيات، أى العوامل التكوينية والمؤثرات الواقعية التى تحدد خصوصية مصر فى لعبة الأمم، مكانتها، مقامها، إمكاناتها.

١ ـ منذ نهاية عصر الحضارة، الإمبراطورية الفرعونية العظمى، عبرت مصر سلسلة من المراحل التاريخية احتلت فيها مكانة مغايرة: فبدلاً من الطرح والتأثير والإشعاع العالمى، أصبحت محلاً للهجوم والاختراق، بحيث استلزم وجودها رد الفعل الذكى واتصال التماسك القومى ـ حتى عبور الممكن.

ولعل المثل الساطع لتغيير المكانة التاريخية هذه ما نشهده خلال الصراعات الجبارة التى قامت على ضفتى حوض البحر الأبيض المتوسط منذ القرن التاسع حتى اليوم، وكانت حروب الفرنجة (أى الصليبية) رمزها الأول. وقد جاءت هذه الحروب من الشمال، أى من القارة الأوروپية هدفها كسر شوكة الغريم أو الند المتصاعد على الضفتين الجنوبية والشرقية من الدائرة المتوسطية تحت راية الإسلام، وقد استهدفت الجيوش الأوروپية الموجه تلو الموجه، عدة قرون محور مصر ـ الشام على وجه التخصيص على اعتبار أنه محور المجتمعات ذات الكثافة السكانية والثبات المجتمعى والموارد الطبيعية وكذا المكانة الجغرافية التى تجعل منها مفتاح هذه الدائرة المتوسطية الجنوبية الشرقية ـ كان، إذن، من الطبيعى أن توجه أوروپا قبل عصر النهضة ضرباتها ضد من ينافسها تجارة وإشعاعًا معنويًا، أى أن مصر استمرت فى نفس المكانة التى كانت عليها الحضارة الفرعونية أى مكانة مفتاح العالم الآخر ـ «الشرق» فيما بعد ـ رمزًا لقوة يجب تحجيمها وإزالتها لو أراد الغريم العدو القادم من الشمال غربًا وشرقًا أن يوسع دائرة نفوذه ورواج تجارته وسيادة فكريته وعقائده.

٢ ـ منذ القرن الخامس عشر تراكم « فائض القيمة التاريخية » بين أيدى النظم الرأسمالية المظفرة فى أوروپا الغربية ، فراحت تتجه إلى أسواق القارات البعيدة ، إلى آسيا الشاسعة شبه المجهولة ـ ومفتاحها الدائرة الجنوبية ، وخاصة الشرقية من حوض المتوسط ومركزها مصر ـ الشام وفى مقابل تقدم أوروپا منذ القرن السادس عشر دخلت الدائرة المركزية المصرية العربية ـ الفارسية للحضارة الإسلامية مرحلة الركود بعد أن تحولت طرق الملاحة البحرية والتجارة حول رأس رجاء الصالح ثم اتجه انتشار الإسلام إلى آسيا. من هنا بدأ « فقر الدم » يدب فى الدائرة المركزية ، خاصة فى مصر وسوريا تحت حكم العثمانيين. على هذه الأرضية وانطلاقًا منها يمكن أن تقدر إيجابيات محاولات على بك الكبير الثورية فى القرن الثامن عشر ، وكذا أسباب فشلها ، كانت مصر حقيقة على موعد مع القدر : دخول « الحملة الفرنسية » إلى مصر بقيادة بونابرت.

محمد على بعد « فقر الدم »

ثم توارت القاهرة والإسكندرية التى فتحت الطريق أمام تولى اليوزباشى محمد على ولاية مصر بفضل مبايعة التجار والأعيان له. بدأ عصر صيانة الوجود.

ثم وبعد تأمين الوجود بدأت وثبة عصر محمد على ، وهى بكل المعانى والمعايير أهم ظاهرة ثورية نهوضية فى الشرق الحضارى خارج دائرة أوروپا آنذاك ، فى عصر محمد على تحولت مصر فى ربع قرن وبعد أربعة أجيال من الانحدار إلى دولة قوية تقوم على أساس اقتصادى زراعى وصناعى متقدم ، ونظام إدارى سياسى مركزى فاعل ، وصناعات حربية على خير مستوى ، مما جعل من جيوشها حول لواء إبراهيم باشا الكبير أهم قوة تهدد النظام العالمى آنذاك خاصة بعد اتجاه محمد على مرارًا وتكرارًا إلى الباب العالى مطالبًا الحاكم ـ الخليفة فى إستنبول أن يتيح له ، أى لمحمد على ، مهمة دعم الخلافة العثمانية بكل ما يملك من قوة فى مصر ، بغية إعادة مجد الإسلام على أسس عصرية لصد العدوان ، وتأمين المستقبل.

لم تكن وثبة محمد على النهوضية مجرد عملية قومية أو إقليمية ، وإنما راحت تهدد النظام العالمى الحديث المتمركز حول أوروپا آنذاك فى الصميم ، إذ أنها صدت أمام الدول الاستعمارية الناشئة أبواب الاتصال القارى تجاه الهند وآسيا الوسطى ، احتمال

إلى «كاثاى» الأسطورية، أى الصين. كان الصراع بين إنجلترا وفرنسا للسيطرة على شبه جزيرة سيناء والطرق التجارية التى تربط بين شرق المتوسط وجنوب شرق آسيا على أشده، مما دفع أمير البحار الإنجليزى نلسون إلى نسف الأسطول الفرنسى فى معركة أبو قير، مما عجل من اضطرار الحملة الفرنسية إلى الانسحاب عام ١٨٠١.

ومن الواضح أن هذه العمليات السياسية ـ الحربية واسعة النطاق ما كانت لتهدأ بمجرد معركة أو مناورة أو إنجاز سياسى مرحلى. كان لابد من محاصرة العملاق الجديد الذى يتصاعد سنة بعد سنة انطلاقًا من أرض مصر ممتدًا إلى دائرة الإسلام الحضارى. صحوة ـ نهضة هائلة على أساس أساليب وأدوات ومناهج تمت من كل جانب إلى الحداثة المعروفة آنذاك المعتمدة الثورات الثلاث: العلمية، الفكرية العقلية، الصناعية. والحق أن المصريين اليوم، أو على الأقل معظمهم أو أجيال الشباب ينظرون إلى هذه المرحلة التاريخية الكبرى لتاريخ الشرق والإنسانية نظرة غير متكاملة، بعد أن انكب الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر لمحوها تمامًا من الذاكرة وتهميشها فى كتب تاريخ العالم، بل وتغييبها تمامًا فى معظم الكتابات المعاصرة. وقد ساعد نظام التعليم المصرى بعد ١٩٥٢ على ذلك بشكل مأساوى إذ ألغى كل ما يتصل من إنجازات «الأسرة الملكية الغابرة» وكأن محمد على والطهطاوى وإبراهيم وعلى مبارك والنديم وأمثالهم حتى ١٩٥٠ يمتون إلى مريخ بعيد ـ وهم من صلبنا، فى قلب فؤادنا وتفكيرنا وإنجازاتنا ووجودنا، والغريب أن المكتبة المصرية والحمد لله ذاخرة بالأعمال التكوينية المهمة، بل والرائدة، لفهم هذا العصر الذهبى المجيد والتى يقتضى الصالح الوطنى أن تصدر ضمن سلسلة «مكتبة الأسرة» فى أقرب وقت، خاصة بعد أن تم انتخاب الدكتور رءوف عباس رئيسًا لـ«الجمعية التاريخية المصرية» العريقة: أعمال محمد صبرى، عبد الرحمن الرافعى، جمال الدين الشيال، إبراهيم حلمى، محمد فهمى لهيطة، محمد أنيس، عبد اللطيف حمزة، إبراهيم عبدة، صالح مجدى، خليل صابات، على مبارك، جاك تاجر، عزيز سريال عطية، حسين فوزى، صبحى وحيدة، لويس عوض، حسام عيسى ـ القائمة تطول...

عند هذا الحد أى عندما أصبحت مصر فى عصر محمد على تصل إلى مقام الدول الكبرى آنذاك، قررت هذه الدول الأوروبية، بالإجماع، أن تحاصر محمد على لتدمير

شأنه، وذلك بواسطة معاهدة لندن (١٨٤٠). إلغاء الحماية الجمركية لاقتصاد الاكتفاء الذاتى تحت تهديد فرض العقوبات والحصار الاقتصادى، اضطر محمد على إلى الإذعان. بدأ ينزوى حتى نهاية عهده. والبقية معروفة حتى محاولة الخديو إسماعيل إعادة مسيرة محمد على وتشجيع رأس المال المصرى الوطنى، وتأمين حدود معقولة للأمن المصرى خاصة فى الجنوب، فى نفس الوقت الذى عمل فيه على إنشاء أول مجلس نيابى فى الشرق عام (١٨٧٩). مستجيبًا بذلك لمطالب الحركة الوطنية خاصة بين صفوف الجيش، مما أدى إلى خلعه على أيدى الدول الأوروپية الصديقة، والاتجاه إلى مقام الدول الكبرى - مقامها - فى مكانة چيو - سياسية أصبحت بوضوح همزة الوصل بين الدول الاستعمارية الجديدة ومستعمراتها فى الشرق خاصة فى آسيا.

٣ - إن تاريخ الاستعمار البريطانى فى مصر منذ ١٨٨٢ هو تاريخ العمل الدائب فى الأعماق لمحاصرة دور مصر الچيو - سياسى على المستوى الإقليمى وخاصة العالمى أى: بربطها بدائرة مصالح أوروپا. وإبعادها عن عمقها الحضارى والجغرافى النيلى فى إفريقيا وليبيا، والآسيوى مع الشعوب العربية فى الشام التاريخية فى متاخمة إيران وآسيا الوسطى والجنوبية.

إن تاريخ بلادنا فى مواجهة هذه الهجمة كان تاريخ كفاح الحركات الوطنية على أوسع جبهاتها ضد الاستعمار والإمپريالية والأحلاف العسكرية، من أجل التحرر الوطنى والاقتصاد الوطنى والثقافة الوطنية بواسطة إقامة نظم ديمقراطية محورها وأداتها الجبهة الوطنية المتحدة وفى قلبها العروة الوثقى بين الشعب والجيش. هذا كله فى مطلع عصر البترول، مفتاح الاقتصاد الصناعى - وتفوقه فى الغرب - خاصة بعد التأكيد من أن مركز الموارد الرئيسية منذ ١٩٢٠ حتى اليوم يكمن فى امتداد الشرق الأدنى إلى العمق الشرقى الآسيوى: فى العراق وإيران والخليج.

مغزى ١٥ مايو ١٩٤٨

كان لابد من عمل إستراتيچى من نوع جديد، يضمن اختراق صفوف الحركات الوطنية ومحاصرة الإرادة الوطنية وإضعاف الإرادة والقوة الوطنية خاصة الصناعة والتكنولوچيا، وكذا الجيوش.

وقد تمثلت هذه الضربة فى تواطؤ دول الغرب.

ـ على تنوع أنظمتها مع الحركة الصهيونية «العالمية» حول قرارات مؤتمر بازل (١٨٩٧) القائمة على أساس أفكار تيودور هيرتزل فى كتابه «الدولة اليهودية» (١٨٩٦) ومن بعده «الدولة القديمة ـ الجديدة» (١٩٠٢).

وذلك فى مشروع إقامة دولة يهودية فى قلب الشرق الأوسط هذه المرة، وليس كما كانت التصورات الأولية فى الأرجنتين أو أستراليا أو سيبيريا. إنه المخطط الذى يحقق عدة أهداف فى آن واحد: إقامة قاعدة إستراتيچية هائلة فى قلب العالم العربى تسيطر على مناطق البترول وتؤمن مسارها إلى الغرب من ناحية وتمنع الالتئام بين الحياة الوطنية المصرية وبين القومية العربية فى الشرق الأدنى من ناحية أخرى، وأخيرًا تقدم نوعًا من التعويض التاريخى الوجدانى ليهود العالم المضطهدين فى أوروپا.

عند هذا الحد أصبح تقسيم فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ هو السبب المباشر لمأساة الشعب الفلسطينى العربى العريق الذى ما كان أحد يتصور أنه سوف يوضع فى قلب الزوبعة فى مواجهة المؤامرة الإمپريالية الغربية ـ الصهيونية العالمية.

كان تقسيم فلسطين إنذارًا ببدء عصر من الحروب الغربية يجدر بالعرب أن يتأملوها بشكل موضوعى بعيدًا عن علامات «النكسة» أى بالعين الباردة ألفا حصة بميزان القوى الذى ـ وحده ـ يتحكم فى أرض المعارك.

١ ـ الحرب الأولى فى مايو ١٩٤٨ قام بها عدد من الأنظمة فى الدول العربية، لأسباب متباينة، متشابكة، كان من الطبيعى أن تبين ضعف الأنظمة القائمة وعجزها أمام التحدى الهائل الغربى ـ الصهيونى وكان الفشل فى الحفاظ على فلسطين بمثابة علامة إنذار للعرب لكى يدركوا طرح الإشكالية من أوسع الأبواب، بدلاً من السير وراء شعارات العدو للتضليل.

٢ ـ ثم جاءت الحروب المتزايدة الميدانية إذ راحت تزداد شراسة على التوالى. أولاً حرب السويس ضد العدوان الثلاثى الإسرائيلى ـ البريطانى ـ الفرنسى فى خريف ١٩٥٦ وقد بينت لمصر والشعوب العربية أن الغرب لن يقبل بحال من الأحوال أن تقوم لمصر قوة اقتصادية، وبالتالى سياسية، تجعل منها مركز إشعاع فى الدوائر العربية،

وبالتالى وفى الظروف الجديدة مركزًا للتوحد. كانت هذه مرحلة كشف ستار عن النفاق الدبلوماسى والعناق الثقافى، تعرية «خيال الظل» بشكل ساطع، كانت هذه مرحلة إقامة مفاعل «ديمونه» الذرى الإسرائيلى وكذا هيئة الموساد وتسليح الطيران الإسرائيلى بأسراب «الميراج»، الخ.

استفحل الأمر عندما استطاع جمال عبد الناصر أن يتقدم من عدوان السويس إلى مرحلة التأميم والتمصير وإقامة القطاع العام أساسًا للتنمية الاقتصادية المستقلة لمصر، وبعد ذلك التوجه إلى تحقيق حلم الوحدة العربية القادم من الشام.

٣ ـ وقد تلا هذا التفكك الحلم العربى للمرة الأولى مرحلة من التعبئة الداخلية فى مصر وسوريا فى اتجاه اتحاد قوى الشعب العامل والاشتراكية مما رفع مستوى الخطورة أكثر من اللازم، أى لمستوى أرفع بكثير من تحدى تأميم قناة السويس.

وكان هذا هو المسوغ للحرب العدوانية الإسرائيلية ضد العرب، خاصة مصر وسوريا فى ٥ يونيو ١٩٦٧، وهو الهجوم الغادر الذى دمر القوى الضاربة المصرية بشكل ساطع بهدف تقويض أركان الدولة التى لم يتمكن أن يستمر رئيسها إلا بفضل إرادة شعبنا المصرى وتلبية للحاسة المصرية يومى ٩ و١٠ يونيو الخالدين عام ١٩٦٧.

٤ ـ كان لابد لمصر أن تدرك التهديد وأن تستعد. من هنا كانت أهمية حرب الاستنزاف، ولعلها أهم حروب مصر من الناحية السياسية، وقد دفع مئات الجنود والعمال والفلاحين وكذا رئيس الأركان العامة الفريق أول عبد المنعم رياض بحياتهم رمزًا لها، بينما تدفق شباب مصر الجامعى لإعادة الجيش على القنال بقيادة محمد فوزى، أحمد إسماعيل، إبراهيم الرفاعى، عبد الغنى الجمسى، سعد الدين الشاذلى وزملائهم المرموقين.

٥ ـ كان لابد لهذا المسلسل من خاتمة، أو هكذا تصورنا، من هنا جاء قرار أنور السادات بالعبور يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ تحقيقًا لإرادة مصر الاجتماعية لكسر الانكسار. تم العبور. استردت مصر سيناء بشرف وجدارة، رغم التفاف شارون عبر الثغرة والجسر الجوى الأمريكى مما عجل من الهدنة وفك الاشتباك.

البقية معروفة تحياها شعوبنا، ولعل رمزها المذهل أن يرتفع فى سماء مصر علم

الدولة اليهودية الصهيونية فوق سفارتها، بينما انزوى علما العراق العربية وإيران الإسلامية منذ سنوات ـ حتى عودة قريبة للتآخى الحميم المنشود إن شاء الله.

العزة. الكرامة. التماسك. الوحدة ـ طريق التواصل لأداء رسالة مصر الحضارية.

ترى: كيف يرانا الجانب الآخر؟ كيف يرانا الراعى الموعود؟

« الاعتراف بالغير » فضيلة

الحق إن الرؤية مختلفة تمامًا على الجانب الآخر، وقد صاغ هذه الرؤية بأمانه ودقة كل من « دونالد دانيال » مدير قسم البحوث الإستراتيجية فى مركز دراسات الحرب البحرية فى كلية الحرب البحرية الأمريكية، وزميله «أندرو روث» أستاذ شئون الأمن القومى فى قسم اتخاذ قرار الأمن القومى فى كلية الحرب البحرية الأمريكية. جاء ذلك فى فصل التعليق النقدى الذى قدماه للكتاب المركزى الحديث «الدول المحورية: إطار جديد لسياسة الولايات المتحدة فى العالم النامى» (١٩٩٩) وهو خلاصة ما يعرف باسم مشروع جامعة «ييل» إشراف «روبرت شيز» و«إيمليى هيل» خاصة «بول كيندى» (مؤلف الكتاب المشهور «صعود وانحدار الدول الكبرى». يعلق الباحثان الكبيران بالنقد الدقيق على عدد من رسائل مشروع «ييل»، وبهذه المناسبة يعلنان الموقف الأمريكى بالنسبة لقضيتنا على نحو يتفق فى الجوهر مع رأى المشروع: «إن التزامنا لإسرائيل انتشر إلى حد دعم موقف مصر، وذلك لأن التسوية الإسرائيلية ـ المصرية دفعت الولايات المتحدة أن تنظر إلى مصر بوصفها «الحجر المركزى للجهد بالقيادة الأمريكية لإنجاز صلح متكامل فى الشرق الأوسط» (على حد تعبير الچنرال «باينفورد» القائد العام للقيادة المركزية الأمريكية، فى مارس (١٩٩٩) وبالإضافة فإن مصر، بوصفها زعيمة العالم العربى، أصبح تأييدها مهمًا فى قضايا أخرى مثل ضمان تأييد الجامعة العربية لدعم الكويت بعد احتلال العراق له. إن سقوط مصر أمام الأصولية المعادية لأمريكا، أو الإرهاب، أو الفوضى العامة سوف يمثل ضربة معنوية كبرى لسمعة الولايات المتحدة ومكانتها فى المنطقة. إن مصر تكافح على الصعيد الاقتصادى، وكذا نرى تماسكها الاجتماعى تحت الضغط مما يمكن أن يزلزل المنطقة وبشكل شبه أكيد ما سوف يؤثر ليس فقط على ثمن وإنما على مجرد استمرار مرور

البترول» (ص ٣٩٨) إلى أن يضيف مدراء المشروع نفسه هذا التعليق الختامى، بدءًا من هذا الجو الواجم الغريب بقولهم: «إن مصر هى ثانى أكبر الحاصلين على العون الأمريكى بعد إسرائيل. ولكن كما بين «رو چير أوين» (فى الفصل عن مصر فى هذا الكتاب) قليل من يقدم مصر كقصة نجاح لجهود المعونة الخارجية الأمريكية. ذلك أنه من الصعب تقديم سياسة أمريكية أكثر جودة لإنقاذ هذه الدولة من أجل أن تخرج من مستنقع التأخر فى النمو، وتبديد الموارد وعدم الاستقرار السياسى أكثر مما تم حتى الآن.» (ص ٤١٦).

أسوق هذه الأقوال الغريبة المتساقطة علينا من مراكز القرار السياسى والاقتصادى والإستراتيچى الأمريكى المهيمن على الغرب كى ندرك تباين النظرة ـ من باب «الاعتراف بالغير».

وقبل أن ننتفض مرة أخرى، ونثور ونخجل، وغير هذا من المشاعر اللطيفة، أرجو أن ننظر للحقيقة وجهًا لوجه.

نحن نسعى إلى النهضة وفى سبيل ذلك نرحب من أوسع الأبواب بكافة القوى السياسية والمدارس الفكرية دون استثناء فى رحاب الجبهة الوطنية المتحدة، توكيدًا لوحدة الوطن وصيانة لدولته الوطنية وتأمينًا لمستقبله.

وهم لا يرون لمصر إلا مكانة التابع المنكسر. تناقض مذهل حقيقة. فهل حقيقة ندركه؟ وإن أدركناه، وعندما ندركه: ما العمل؟

قال صاحبى: كنت أتمنى أن أسمع رأيك فى قمة الألفية للأمم المتحدة: حكاية «التدخل الإنسانى» وكيف فشلت رغم تحديد كوفى عنان الباسم لمصطلح التدليك والتطويع.

ماذا عن دعوة الرئيس محمد خاتمى إلى «حوار الحضارات» وقد تقرر أن يكون عنوانا لعام ٢٠٠١؟ ماذا عن رؤية رئيس الصين «زيانج زيمين» للنظام العالمى الجديد متعدد الأقطاب، ودعم «فيديل كاسترو» رئيس كوبا لهذه المعانى فى جو حميم؟.. تلتقى القلوب والعقول رويدًا رويدًا.. أليس كذلك؟..».

۞ ۞ ۞

ـ ٣٠ ـ

الفكر فى زمن الحرب

صفحات ناصعة من الاعتراف بالذات

ومن هنا عودتنا اليوم إلى مسألة الذكاء الاجتماعى وهو على وجه التحديد والتخصيص الذكاء الاجتماعى الوطنى ـ وكنا قد عرضنا له مرارا فى نفس هذا المكان. إلا أن ارتفاع نبرة التهديد تجعل لزاما علينا أن نجدد النظر فيما هو جار أو ممكن حولنا فى هذه الظروف الجديدة.

ـ الفكر فى زمن الحرب يفرض إيقاعه, الإيقاع المتصل أداة للفتح أو على أقل تقدير لحماية ما هو قائم. التوجه الغالب إنما هو حماية ما يمكن أن يكون, وبالتالى عدم التفريط فى الطاقات والموارد, حتى ولو كانت محدودة, مادام أن الهدف هو عبور مرحلة الحصار والإجهاض.

حديثنا عن هذه الدائرة ينبع من كماشات الضغوط المحيطة, وهى بينة معروفة لكل من يعنى بمستقبل مصر الوطن والأمة. وكذا فإن الاطلاع على المخططات المعَدَّة للمستقبل القريب والوسيط تدور حول مفهوم تدجين مصر, بعد عزلها من أقرب وبالتالى أهم الأشقاء والحلفاء.

إن مفهوم الذكاء الاجتماعى يعنى الناتج الإيجابى القادر على الثبات, وكذا الإبداع, لتعبئة كل موارد وطاقات الأمة. وهو عملية لا تنحصر فى دائرة الدولة أو نظام الأغلبية القائم فى مرحلة معينة, ولا فى مجرد النداء لجمع الكلمة. ذلك أن الذكاء الاجتماعى فى مراحل التهديد والأزمة يستوجب إنجاز عملية أكثر عمقًا تهدف إلى التعبئة وليس فقط إلى الجمع الوئامى. وعندنا أن خصوصية تحقيق الذكاء الاجتماعى فى مرحلة الحصار والتهديد والأزمة يجعل لزامًا علينا أن نسعى بخطى ثابتة نحو إقامة

الجبهة الوطنية المتحدة التي, وحدها, هى القادرة على بناء الجسور بين جميع القوى السياسية والمجتمعية وكذا جميع المدارس الفكرية الوطنية الأصيلة على أرض الوطن دون استثناء, ومعنى ذلك أن الجبهة الوطنية المتحدة ليست مجرد عملية سياسية أو تنظيمية وإنما حقيقة الطريق الأوحد لتعبئة الذكاء الاجتماعى على أرفع مستوى. ذلك أن الجبهة الوطنية المتحدة تعترف فى آن واحد, أو هكذا يجب أن تعترف بالآخر والذات على حد سواء, مادام أن الآخر هو أحد الروافد النابعة من الصياغة التاريخية لخصوصية الوطن والأمة. الاعتراف بالآخر هنا معناه أن الخلافات بين مختلف مكونات الوطن والأمة لا ينبغى أن تكون مبررا لاستبعاد هذا الغير الذى هو جزء تكوينى من الذات. عملية شاقة بلا جدال ولكنها تمثل الشرط الضرورى لإطلاق قدرات الذكاء الاجتماعي, التى لولاها لاستمر المجتمع الأوسع, الوطن ــ الأمة, عاجزا عن مستوى الأداء الضرورى للصمود, دعنا من الإبداع. من هنا كانت محاولاتنا لإبراز بعض معالم هذا التوجه الوطنى الحكيم.

فلنحتفل بمؤرخنا يونان لبيب رزق

من كان يتصور أن شعب مصر, الناس اللى تحت والناس اللى فوق, على السواء, سوف يتمتع فى يوم من الأيام بسجل مسيرتهم المصرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذلك فى عمل متصل شامل يستند بكل دقة على الوثائق والأحداث المثبتة؟ من كان يتصور أن هذه المسيرة التى واكبت عصر الثورات والحروب, والإنجاز والنكسة, العمل الجريح والرؤية الحضارية, سوف تنجح فى اختراق السدود وتخطى المصاعب لتكون إلى جانبنا أجمعين أسبوعا بعد أسبوع مرآة صادقة وذخيرة متاحة لجميع الوطنيين؟

حديثنا هنا معنى باحتفال الفكر المصرى بصدور الحلقة ٥٠٠ من الأهرام ــ ديوان الحياة المعاصرة, وهى الهدية التى يقدمها لشعب مصر منذ خمسمائة أسبوع المؤرخ الوطنى الرائد الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق. ويجدر بنا بهذه المناسبة الوطنية النيرة أن نقف عند مغزى هذا العمل الكبير: أهو مجرد تأريخ؟ أم أنه يهدف إلى فتح الطريق أمام تحقيق أهداف وطنية حيوية نحن فى أمس الحاجة إليها؟

١ ـ يعتز المؤرخ الكبير صاحب السلسلة بالعدالة الاجتماعية التى حققتها ثورة يوليو١٩٥٢. وهو يدرك ولاشك أن هذا الإنجاز الكبير الذى لن تنساه مصر كان فى حاجة إلى تأكيد اتصالية تاريخنا القومى شرطا لنجاح المشروع السياسى ووسيلة للانتقال إلى عتبة المشروع النهضوى, كان الأمر على غير ذلك كما نعلم. ارتفع شعار القومية العربية على صورة أدارت ظهرها إلى خصوصية مصر مؤقتا, بينما كان من الواجب والممكن الجمع بين المستويين الوطنى والقومى دون تعسف. ثم جاء إصرار بعض المسئولين فى هذه الحقبة على التنكر لمسيرة مصر وإنجازاتها قبل يوليو مدمرا للذكاء الاجتماعى فى الأعماق، اختفت الأسرة الغابرة من محمد على إلى فاروق, بينما انزوت مصر الحضارة الفرعونية العظمى وما تلاها فى المرحلتين القبطية والإسلامية وكأن التاريخ نزل على مصرنا فجأة فى ليلة من صيف ١٩٥٢, دون مقدمات أو سوابق ـ دعنا من السياق التاريخى السبع ألفي, إرثنا الحضارى الشامخ الذى لولاه لما كنا.

إن مسيرة الحلقات الخمسمائة تعنى فى المقام الأول بتقديم ديوان الحياة العصرية.

لكن كاتبها كان، ومازال، شديد العناية بالربط بين هذه الحياة العصرية وأركانها ودوافعها التاريخية فى الأعماق. وبالتالى فإن مجموعة مجلدات هذه الحلقات الخمسمائة هى حقيقة خير ما تملكه مصر فى مجال تأكيد وحدة مسيرتها, ليس بتأريخ الوقائع مادام أن الحياة العصرية هى تأكيد لخصوصيات مصر منذ العصور الأولى حتى اليوم.

٢ ـ ولعل المعنى الأهم للعمل الكبير الذى حققه الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق إنما هو إنقاذ تاريخ مصر المعاصرة من النسيان, بكل ما يحمله من إنجازات حاصرتها على الدوام قوى العدوان الخارجى بحيث ضعف قدرها فى الذاكرة الوطنية إلى حد أن البعض توهم أن مصر المعاصرة صفحة بيضاء فارغة بدأت تتواجد منذ نصف قرن وأصبحت اليوم رهينة للتأقلم مع قوى الهيمنة العالمية والإقليمية تحت ستار الاعتراف بالغير. مجلدات الأهرام ـ ديوان الحياة المعاصرة تقدم الدليل على حيوية المجتمع المصرى وإصراره على التقدم بل والريادة فى كل المجالات منذ عصر محمد على. هكذا الأمر بالنسبة لإنشاء أول جمعية تشريعية استشارية منتخبة عام ١٨٦٦ بقرار الخديوى إسماعيل, وما تلاه من تطور متصل للحياة النيابية فى مصر فى جو من سيادة القانون والديمقراطية والتعددية الحزبية حتى حريق القاهرة (٢٦ يناير١٩٥٢). ثم مسيرة التعليم

المصرى من على مبارك إلى طه حسين, وقد تمركزت حول إنشاء جامعة فؤاد الأول(جامعة القاهرة الآن) على مرحلتين بين عام ١٩٠٨ و١٩٢١. وهكذا الأمر بالنسبة لتاريخ الصحافة المصرية منذ رفاعة الطهطاوى حتى اليوم وكذا الأمر فيما يتعلق بتطوير الاقتصاد الرأسمالى الزراعى إلى الصناعة حول ريادة محمد طلعت حرب باشا وشبكة مؤسسات بنك مصر. الاستمرارية والتجديد فى كل مجال: تحرير المرأة, العدالة الاجتماعية, تطوير مؤسسة الدبلوماسية, وثبة تخصصات الطب والجراحة, تسارع خطى الإنتاج العصرى فى كل مجالات الفنون والآداب وكذا التوجه العصرى العقلانى لتعاليم التراث, ثم أخيرا وليس آخرا مسيرة تحديث قواتنا المسلحة منذ إبراهيم باشا حتى عبور أكتوبر ١٩٧٣.

وقد شاهدنا العديد من أبنائنا الشباب يتساءلون بعد قراءة حلقة تلو الأخرى من ديوان الحياة المعاصرة: لماذا لم يخبرنا أحد بما أنجزته مصر شعبا ودولة, وبهذه الصورة المتصلة حتى الآن؟ ثم، ما دمنا أننا نملك هذه الترسانة من إنجازات الذكاء الاجتماعي, لماذا لا نعنى بالاعتراف بالذات, فى عصر ترتفع فيه شعارات ضرورة الاعتراف بالغير؟ والحق أن مسيرة العلم الشامخ الذى يقدمه لنا المؤرخ الرائد صاحب مسلسل الأهرام ـ ديوان الحياة المعاصرة يجب أن نعتبره بكل جدارة ودون مجاملة ركنا تكوينيا حيويا من عملية الاعتراف بالذات وهى التى لولاها لما أمكن لمصر أن تتقدم نحو إقامة جبهة وطنية متحدة تعمل على تعبئة الذكاء الاجتماعى فى أرفع مستوى.

الحاضر المغيب: شعب مصر

كيف يمكن أن نفيد من هذا العمل الموسوعى؟

أو بعبارة أدق: ما هى المعانى التى يجب أن نستخلصها من هذه الموسوعة دعما لعملنا المتصل فى سبيل مصر؟

أولاً: فى كل صفحة وكل حلقة على مدى خمسمائة أسبوع نلقى الحاضر المغيب, صاحب الفكر والعمل, ألا وهو شعب مصر.

حلقات عديدة تعنى بالمناورات السياسية فى دهاليز الحكم وتقدم نظرة إلى الأعماق لم تكن متاحة حتى للمتخصصين ولا المشاركين فى أحيان كثيرة: الصراعات

Obeikan.com

بـين مراكـز السـلطة المختلفـة خاصـة المحتـل البريطـانى والسـراى والأحـزاب, وكـذا المفاوضات, جنبا إلى جنب مع تحرك فئات وقطاعات متنوعة من شعب مصر لتحقيق أهـدافنا الوطنيـة أو المطالبـة بـالحقوق المغيبـة أو المغتصـبة فـى مجـالات العمـل والسـكن والصحة والتعليم.

قائمة تحركات الشعب على المستويين الـوطنى والفئـوى هـى النسيج الشـامل الـذى يجمع بين صفحات هذه الموسوعة النيرة أمر طبيعى! نعم وبكـل تأكيـد. ولكنـه وإن كـان أمرا يمثـل الحقيقـة التاريخيـة إلا أن الملاحظ أن مكانته, أى مكانـة العمـل الشـعبي, بـدأت تضعف بشكل يكاد يكون مطردا يثير الاهتمام منذ عـدة عقـود. أفلـم يكـن عمـل شـعب مصر هـو أسـاس تحقيـق الاستقلال بعـد السـويس؟ ثـم عبـور أكتـوبر١٩٧٣ بعـد حـرب الاستنزاف؟ وما القول ترى فى ملحمة السد العالى؟

موسوعة ديوان الحياة المعاصرة تقدم مادة غزيرة من أعمال شعب مصر فـى سـبيل الوطن والنهضة فى تلاحم ـ فى أحيان حاسمة ــ مـع دور الدولـة.. وإنمـا الأولويـة علـى الدوام لشعب مصر صانع تاريخ وفاتح طريق مصر. وليست السياسة مجالا مغلقا يدخله من يصفون أنفسهم بأنهم المشاركون فى صناعة القرار.

ثانيًا: وفى هذا الجو العام الـذى يسـود الموسـوعة نتبين تـدريجيا وبشكل متصـل أن وجهى العمل الوطنى على علاقة عضوية فى الأعمـاق, علـى عكـس مـا يصـوره بعـض النبهاء فى أيامنا.

الوجه الأول فى كل بلد يرزح تحت احتلال الإمـبـريالية هـو بطبيعـة الأمر الكفـاح من أجـل استقلال الـوطن وتحقيق كامل سيادته شرطا للوجـود, دعنـا مـن التقـدم. أمـا الوجه الثانى فهو كما يعلم الجميع العمل الدءوب من أجـل ترسيخ دعامـات التحـديث والتنمية فى الداخل فى كافة المجالات خاصة الاقتصاد والمعرفة والعلاقات المجتمعية.

ومعنى ذلك أنه لا فاصل فى تاريخ مصر المعاصر بين الواجبين, وهـى الشـائعة التـى يقدمها بإصرار دعاة الانبطاح. حروب إبراهيم باشا فى عصر محمد على تواكب النهضة التعليمية والثقافية بريادة رفاعة الطهطاوى. أول جمعيـة تشـريعية مصرية ــ والأولى فـى العالم العربى وإلاسلامى ـ تجمع بين تحقيق الأهداف الوطنية من ناحية وتطوير المجتمـع المصـرى مـع الحـرص علـى العدالـة الاجتماعيـة بشـكل ملحـوظ. وهكـذا الأمـر فـى

ثورة ١٩١٩ وما تلاها التى جمعت بين المقاومة والمفاوضة وبناء جيش مصر من ناحية والإصرار على الديمقراطية وتحديث مؤسسات وقوالب العمل الاقتصادى والتعليمى والعلمى والثقافى من منظور تلبية احتياجات إقامة مجتمع عصرى يجمع بين الأصالة والمعاصرة دون إرهاق..

وكذا الأمر من يوليو ١٩٥٢ حتى كامپ ديڤيد (١٩٧٨) وهى المرحلة التى استمر فيها الجمع بين ناحيتى العمل الوطنى.

ومعنى ذلك أن الأسطورة القائلة فى أيامنا إن منح الأولوية المطلقة للتحرر الوطنى فى مصر المعاصرة كان على حساب تهميش العناية بالساحة الداخلية إنما هو ادعاء كاذب, إذ نرى أن أكثر فترات تاريخنا المعاصر تألُّقًا إنما كانت تلك التى انصهر فيها الكفاح من أجل التحرر الوطنى مع تحقيق الساحة الأوسع لمشاركة شعب مصر الديمقراطية فى تحريك دفة أمور وطنه ـ وليس العكس. بل إن الأمر على العكس من ذلك تماما : إذ أنه كلما انحسرت الديمقراطية فى مصر صاحب ذلك تعثر فى تحقيق أهدافنا الوطنية, مهما كانت الأسباب الرسمية المعلنة.

ثالثًا : مما يفتح أمام العقل المصري, بدءا من موسوعة ديوان الحياة المعاصرة, مجالا ظل مهمشا إلى حد التغييب, ألا وهو العمل الدءوب المثمر الذى تحقق فى رحاب الوطن لإقامة سيادة القانون وأنظمة الحكم التمثيلية والتشريع العصرى فى إطار دساتير تقدس حقوق الإنسان يدا فى يد مع حقوق الوطن.

نقول هذا بمناسبة الادعاءات الكاذبة التى تذهب إلى اتهام مصر الشعب والدولة منذ عصر محمد على بأنها تجاهلت المؤسسة الديمقراطية فى إطار حياة المؤسسات الرسمية ـ وكأن الغرض من هذا الادعاء الكاذب هو إقناع شبابنا المحروم فى كثير من الأحيان من وعى إرثه التاريخى بأن تاريخ مصر المعاصرة يتسم بالغيبوبة والتردد والفشل. وتسرى نفس هذه الدعوى الهدامة لتنال من إنجازات القطاع غير الرسمى الذى منه يتكون ما نطلق عليه اليوم تسمية المجتمع المدنى. مسيرة الإنجازات لا تنقطع فى مجالات العمل الخيرى وبناء شبكة التعليم والمعرفة, وكذا الثقافة والفنون, وقد تركز هذا الجهد فى مجالين رئيسيين : مشاركة الأحزاب والنقابات فى الحياة العامة التى تتمركز فى الدولة من أوسع الأبواب ، هذا من ناحية, ومن ناحية أخرى الموجة تلو الموجة من الصحافة والنشر, من

الجمعيات والأندية الثقافية والاجتماعية التى تميزت بها مصر بين ١٩٣٥, و١٩٥٤ وخاصة فى الأربعينيات وهل يمكن أن ننسى أو نتناسى كيف قامت نهضة مصر الاقتصادية وخاصة الصناعية والمصرفية المعاصرة على أكتاف كبار الرواد بالمجتمع المدنى الذين فتحوا الطريق أمام إنجازات الدولة فى مرحلة السد العالى بعد عقود؟ العناوين والمخططات تتكاتف تؤرخ كما الموسوعة التاريخية حتى الحرب العالمية الأخيرة, ولاشك عندنا أنها سوف تكمل المسيرة حتى اليوم فى الحلقات القادمة ـ السجل مشرق : الأهرام, الهلال, المقطم, اللواء, صوت الأمة, المصري, جنبا إلى جنب مع المعهد المصرى والجمعية الجغرافية الملكية (المصرية), جمعية محبى الفنون الجميلة, واتحاد الصناعات المصرية, بنك مصر وشركاته ومشروع القرش، اتحاد خريجى الجامعة ودار الأبحاث العلمية حتى جمعيات إحياء ذكرى إحسان عبد القدوس ويوسف إدريس وأحمد بهاء الدين. القائمة تشمل حقيقة عشرات الأسماء من الأعلام ومن حولها مئات الاجتهادات والمشروعات والإنجازات المواكبة فى أنحاء الوطن. وإن نسينا فهل ننسى ما قام به المجتمع المدنى المصرى لتحرير المرأة فى مسيرة نيرة بقيادة قاسم أمين وهدى شعراوى؟ خطوات على الطريق من واجبنا ألا ننساها وأن نرفعها فى وجه دعاة التغييب.

رابعًا : يزعم الأدعياء فى عصر النكسة أن الواجب يقتضى الاعتراف بالغير ـ وكأننا فى غيبوبة ولعل فى هذا الادعاء ما يثير ما يمكن أن نطلق عليه ما بعد الذهول. لاداعى للتذكير بتاريخ مصر السبع ألفى الذى فرض عليها عبقرية المكان : أن تكون على الدوام ملتقى القارات الثلاث إفريقيا وآسيا وأوروپا, وكذا الأديان السماوية بحيث أمكن للمؤرخين أن يذهبوا إلى أنها أيضا تمثل حدود التلاقى والتفاعل بين الحضارة الغربية من ناحية والحضارات الشرقية الكبرى من ناحية أخرى.

الذات والغير دوما

إن تاريخ مصر المعاصرة منذ حملة بونابرت وإقامة دولة محمد علي(١٨٠٥) إنما هو تاريخ التفاعل المتصل بين مواجهة الاحتلال والتحرر السياسي, الانفتاح العلمى والتكنولوچى على أوروپا من ناحية ومواصلة طريق الخصوصية الحضارية الشامخة بهدف تحقيق مجتمع عصرى عقلانى مؤمن قادر على احتلال مكانته بين الأمم, هكذا

عرفت مصر خداع الدبلوماسية الغربية التى حاصرت محمد على وفرضت علينا الديون, كما اهتزت لصحوة الرأى العام العالمى لنصرة عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر أيام السويس. مارست مصر المعاصرة التمسك بجذورها الإيمانية على نوعيها والتعامل مع التبشير والإرساليات. ثم كانت مسيرة المؤسسات السياسية الرسمية وكذا الشعبية فى تأمين الداخل وصيانته من محاولات اختراق العدو, بينما مارست الدبلوماسية المصرية من التفاوض والمناورات والتعدى وكذا التآخى مع كل جديد إيجابى بنجاح ملحوظ. والأمر كذلك بالنسبة للمؤسسات التأسيسية لاقتصادنا الوطنى قبل الانفتاح. وقد كانت قواتنا المسلحة ، ولا تزال ، على أرفع درجة من الاستعداد والتأهب والتعامل إيجابًا وسلبًا لصيانة أمننا القومى بعيدًا عن الانزواء. إذن : ماذا يقصدون بعبارة الاعتراف بالغير ترى؟ أفلم نعترف به على الدوام وفى كافة المجالات ـ وربما أكثر من اللازم؟ من هو هذا الآخر الذى لم نعترف به؟ أو أن الاعتراف فى رأى النبهاء يعنى الانبطاح والتبعية بعد التنازل عن السيادة الكاملة لشعب مصر ودولته فى القرار والعمل؟

فلنذكر هنا اعترافنا بالغير فى عوالم الحضارة الغربية دون تردد ولا استغناء أو تمييز فى عملية لم تنقطع من الجدلية التاريخية. وقد أصبح لزاما علينا اليوم أن نحتل مكانتنا فى قلب الحضارات والدوائر الثقافية للشرق الحضارى الذى يحيا فى رحابه أكثر من ثلثى البشرية ــ والذى نحن من أركانه ومراكزه تاريخيا وآنيا عبر تحديات التاريخ. أن نكمل إذن واجب الاعتراف بالآخر بالنسبة للشرق الحضارى يمثل واجبا وطنيًا مُلِحًّا حيويًّا بكل معانى الكلمة.

خامسًا : ماذا عن القيادات الوطنية فى مختلف القطاعات؟ تعلمنا موسوعة ديوان الحياة المعاصرة أن مستوى القيادات الوطنية فى كافة المجالات, وخاصة السياسية والاقتصادية والفكرية, كان يرتكز دومًا على عمق العلاقة بين العلم والعمل. إن تأهيل هذه القيادات, أو مجموعات الكادر, من النواحى العلمية والفكرية والثقافية من ناحية, وبذلها المتصل لتحقيق أهدافنا الوطنية من ناحية أخرى كانا على الدوام طريق الإسهام فى عملية القيادة على كافة مستوياتها. إن تميز الطلائع لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس قاعدة تعليمية وثقافية وعلمية وفكرية متقدمة تعم الشعب بأسره. ومن ثم يصبح

من غير المعقول وغير الممكن أن نتوقع من تردى مستوى المعرفة العام أن يتيح لمصر قالبا صالحا لتكوين الكادر والقيادات, أيا كانت التسميات والمزاعم المرحلية.

سادسًا: إلى أن نستخلص من هذه المسيرة مغزاها التأليفى إذ أن جميع هذه المداخل بما تعبر عنه من معان إنما تؤكد الدرس الأهم الأول لكل من يعنى بتاريخنا المعاصر ألا وهو واجب انصهار الوحدة الوطنية بشكل لا ينفصم فى الأعماق وذلك تحقيقا لأحسن إنجاز ممكن, أو بعبارة أخرى لرفع مستوى الذكاء الاجتماعى إلى خير ما يمكن أن يكون عليه فى ظروفنا الحالية وتطلعاتنا إلى مكانتنا المرتقبة.

نتساءل هنا ترى ما هى الصورة المثلى لتحقيق هذه الوحدة الوطنية فى كافة المجالات والمستويات بغية الارتقاء بالفكر والعمل المصرى إلى أرفع مستوى من الذكاء؟ تكاد موسوعة الأهرام ـ ديوان الحياة المعاصرة تدفع بنا دفعا إلى الإمساك بالمفتاح الذهبى الذى حقق لمصر أرفع مستوى من الإنجاز ولأطول مدة من الزمن.

تتنوع التسميات والأوصاف منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولكنها ترمز دوما إلى واجب تجميع كافة القوى السياسية والمجتمعية من ناحية ومعها كافة المدارس الفكرية الأصيلة على ساحة تؤمنها وحدة شعب مصر وجيش الوطن. هكذا تكون الجبهة الوطنية المتحدة التى أصبحت اليوم مطلبا ملحا للعقل والوجدان المصرى.

بقيت كلمة, بعد التعبير عن أصدق معانى العرفان والتقدير للمؤرخ الرائد الذى منح مصر, شعبا ودولة, نورًا ساطعًا من المعرفة, نعنى بذلك ضرورة تخصيص عدد من الدراسات المتقدمة على مستوى الماچستير والدكتوراه لدراسة هذه الموسوعة على أن يصاحب هذه الدراسة العلمية إعداد عدد من كتب المختارات لإضاءة معانى هذه الموسوعة الوطنية الرائدة.

وكنا نأمل فى أن تأتينا الحلقات المعاصرة من مسيرة مصر بما يضىء أركان وتحركات وأفكار الحركات الوطنية الثورية التى احتلت مكانة مرموقة منذ الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

قال صاحبى: إن الجمع بين الإنجازات المصرية من ناحية وثمار مسيرة الأمم المتقدمة ممكن!.. أو لعله واجب يضاعف من قدراتنا.. لماذا إذن يفتعل البعض تناقضات نجحنا منذ القدم فى تخطيها؟!

ـ ٣١ ـ
« التوهان » فى عصرنا

▪ لم نكن على موعد ـ كنت أتصور أنه لا يزال مبتعدًا عن القاهرة يحاول تلطيف البال على الشاطئ. دخل, فاجأنى وعلى وجهه ملامح الاضطراب وشىء ما لم أفهمه بوضوح على التو والحق أننى كنت أنا أيضا فى جو غير محدد, أتساءل, أتمنى أن يشاركنى قلب صديق صادق. وإذ بنا نلتقى ـ والحمد لله ـ وكأن اللقاء بلا موعد يعبر عن أجواء مرتبكة !

ـ **قال صاحبى** : «إيه الحكاية؟... ما معنى هذه التسميات الغريبة التى وردت إلينا من وراء البحار ؟ أو الستار, تخاطبنا بمفاهيم لم نعهدها من قبل. إيه حكاية الهيمنة؟ »

ولماذا يلتقى الناس حول حكاية «الاكتئاب» ثم يا أخى مفهوم يتردد على ساحة واسعة وإيقاع متزايد: يتحدث الناس عن «التوهان» : لماذا ومن أين هذا الضباب ؟ دلني, لو شئت أو استطعت...

ـ شدنى السؤال على الفور, وإن كنا على غير موعد وشعرت أنه يخاطبنى, وكأنه صوت يأتى من داخل وجدانه. هل أشاء ؟ أهذا سؤال ؟

وربما استطعت...

قلت : كان يمكننى أن أرد عليك بأننى أنا أيضا فى «توهان», بحيث يقتصر الحديث إلى تبادل الأجواء غير المحددة الملامح, مسألة «الهيمنة», بادئ ذى بدء. كنا نتعامل مع مفهومى «الاستعمار» و«الإمپريالية» وكأنها مألوفة فى تاريخ أجيالنا المتعاقبة.

دول تملك زمام المال وتسعى إلى التوسع ، وكذا تأمين خطوط مواصلاتها عبر العالم, أى السيطرة على دائرتها سواء أكانت طبيعية أو افتراضية, ما الذى كان يجمع

مثلا بين بريطانيا أيام عظمتها والهند ومصر والعراق وهونج كونج ؟ ثم لماذا صورت فرنسا مثلا أن الجزائر يمكن أن تكون جزءا منها ؟ وهذا بينما ذهبت كل من فرنسا والولايات المتحدة إلى أن ڤيتنام (الهند الصينية كما كانوا يسمونها آنذاك) : فى مدخل للقارة الآسيوية؟ هذا بالإضافة إلى إيطاليا فى إفريقيا وإسپانيا والبرتغال إلى أمريكا اللاتينية فى بقايا عصر الإمبراطورية, بالإضافة إلى روسيا الأوروپية التى رأت فى سيبيريا وآسيا الوسطى حتى المحيط الهادى مجالا حيويا لها ؟

عدد من القوى المؤثرة تتصارع على خيرات العالم, تسعى إلى الاستغلال والسيطرة. ولكنها على الدوام تتصارع فيما بينها لتغليب هذا القطب أو ذاك. وبطبيعة الأمر, رأت الشعوب المستعمرة أن فى هذه الصراعات فرصة للإفلات من سيطرة الدولة المتسلطة أو على الأقل لتحييد نفوذها وكذا توسيع رقعة حركات التحرر والاستقلال والسيادة.

هكذا كان تاريخ القرن العشرين بما فى ذلك الحربان العالميتان, تاريخ شهد انحسار قدرة الدول الكبرى على مواجهة الشعوب المقهورة, وذلك فى الوقت الذى ارتفع فيه إيقاع الحركات الوطنية والثورات التحررية. إلى أن كان العالم كما عرفناه منذ ١٩٤٥ : مجموعة من الدول الكبرى توزعت بين معسكرين حول قطبى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوڤييتي, ومن حولهما كوكبة تتسع تدريجيا من الدول والأمم التى تتمتع بدرجات متفاوتة من السيادة والتحكم فى مصائرها. أى أن النصف الثانى من القرن العشرين تبدى وكأنه شكل من التعايش بين الكبير والمتوسط ، بل والصغير, أو كما يقولون اليوم الاعتراف بالغير, وإن كان ذلك فى حدود ضيقة للغاية مادام أن القوة الفعلية مازالت تتمركز فى الدائرة المركزية فى الغرب.

إلى أن جاءت لحظة الانفجار ، نظام القطبية الثنائية الأمريكية ـ السوڤييتية ينهار بتفكك الاتحاد السوڤييتى وتفرد الولايات المتحدة وحلفائها بالقسط الأكبر من التأثير على عالم المستعمرات السابقة ، وقد أصبح معظمها دولا مستقلة. إلى هنا والصورة واضحة لا داعى لمراجعتها فى الأساس. ولكن الذى حدث بعد ١٩٩١ لم يكن فى حسبان معظم الدول والشعوب. فكيف يمكن أن نتفهم مثلا أن الدولة الأمريكية العظمى سوف تقرر تجاهل ـ ولا أقول استبعاد ـ حلفائها من صياغة القرار وبالتالى من

السيطرة على خيرات العالم، بينما كان من المفروض أن تكتفى بأن تكون القوة الأولى بين أندادها فى التمتع بالسيطرة على العالم، وإن كان ذلك باستثناء معظم قارة آسيا، وخاصة آسيا الشرقية حول الصين ؟

المؤمنون بالجمود

قاطعنى صاحبى مبتسما : «لا داعٍ : للإسهاب. وقد حدثتنا المرة تلو المرة عن خصوصية الولايات المتحدة ومسيرة صياغة نظرتها إلى العالم. فلنعتبر أن ما اتفقنا عليه مقبولاً يصلح ليكون بداية. ولكننى مازلت لا أفهم لماذا احتاجت القوى العظمى الوحيدة ـ بعد تفكك الاتحاد السوفييتى ـ إلى السيطرة الكاملة على القرار المركزى والقيادة المركزية لتنفيذ القرار والإفادة حسب تصورها من ثمار هذه العملية الجبارة التى لم يشهدها التاريخ من قبل.

قلت : وهذه بالضبط يا صديقى العزيز عملية السيطرة الكاملة التى نطلق عليها مصطلح «الهيمنة».

إنها عملية مفهومة منطقيا. ولكن : أهى عملية معقولة تملك معانى الاستمرارية؟ أنصار مركز الهيمنة لهم نظرتهم إلى الوجود، ومنهجهم فى تفسير أحوال الدنيا. إنهم يؤمنون إيمانا صادقا ـ لا افتعال فيه ـ بأن ما هو موجود واقع لا خلاف عليه، بل وإنه واقع ليس له صياغة تاريخية، وليس له تطور مرتقب أو بدائل. أى أن واقع العالم كما يرونه اليوم ظاهرة لا ماضى لها ولا مستقبل، وكأنها حقيقة مطلقة، وبالتالى لا يمكن أن تتغير، دعنا من أن تقوم بها تدريجيا مراكز قوى أخرى تنافسها فى الصميم، حتى ولو كانت هذه المراكز تعرض المشاركة بدلاً من المواجهة، يقول خبراء هذه الأجواء إنه لا داعى لفكرة «التاريخ» ولا «الجدلية».

حسنا. ولكن : ما العمل مع التاريخ المُغيب منذ ١٥ عاما؟ كانت دولة الهيمنة الأمريكية تتقاسم السلطان مع دولة عظمى ثانية زالت اليوم. وقبل ذلك ـ كما نعرف ـ كانت بريطانيا وفرنسا، وكذا روسيا وألمانيا، تسيطر على مستعمرات أو دوائر نفوذ واسعة حتى ١٩٤٥، وذلك منذ القرن الثامن عشر. أى أن هناك مرحلتين لتحكم الدول الكبرى فى مصائر الشعوب منذ القرن الثامن عشر : المرحلة الأولى هى مرحلة

الاستعمار التقليدى ثم الإمبريالية، ومن بعدها مرحلة القطبين المتصارعين. أى أن السيطرة لها تاريخ. وهو تاريخ ملىء بالصراعات الجدلية، الفتوحات والانتكاسات، الصعود والانكماش. لماذا إذن يتصور المؤمنون بالجمود أن التاريخ قد بلغ نهايته، بل وإنه حقيقة لم يكن تاريخيا بمعنى الكلمة مادام أن واقع الأمر اليوم ـ أى وجود دولة هيمنة واحدة مرحليا ـ يمثل قمة النظام العالمى لا بداية له ولا نهاية.

ومن هنا بالضبط يتسلط مفهوم الهيمنة على عقول الناس وأفئدتها، يخترق سياج المُسَلّمات، يزلزل القناعات، يحبط الأمل، كما يحجب الرؤية. إن كان الأمر كذلك لا ماضى له ولا مستقبل كيف إذن تتعجب أن تؤدى «الهيمنة» إلى «التوهان» والاكتئاب واليأس؟ فما دمنا نستبعد عملية التاريخ الجبارة، وهى عملية جدلية لا تنقطع ما دام أن التناقض هو جوهر الوجود، فكيف يكون للإنسان سبيل للأمل والعمل؟ وهذا هو بالضبط الجو الذى نلتقى فيه اليوم يا صديقى العزيز أنت وأنا والناس. إن الجو السائد يعبر عن صعود ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ.

وما دمنا نقول «صعود» فإننا نتحدث عن عملية جدلية تاريخية وليس عن كائن مطلق. وكذا فإننا نستطيع أن نتصور مستقبلات متنوعة لنظام ـ وبالأحرى لا نظام ـ لعالم أصابه الذهول أو التغيب بدرجات متفاوتة، وعالمنا العربى فى قلبه.

ـ انتفض صديقى مهللا: «أخيرًا يا أخى تعود إلى رشدك! الهيمنة بصيغة مطلقة؟ أية صيغة مطلقة؟ ألا ترى الفشل يحيط بدائرة الحرب؟...»

ـ قلت: «سبقتنى.. كنت أود أن أتحدث عن أثر إفلاس الهيمنة فى العراق على الساحة كلها. وها نحن نشهد كيف انقلب الرأى العام وتباعدت دول القرارات الخمس من إملاءات الهيمنة الأمريكية ـ بدءًا من فشلها فى العراق بطبيعة الأمر. هذا مثلا ما يكتبه بول كروجمان: مستشارو بوش متلهفون، وقد رأوا فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فرصة للحصول على كل ما يريدونه... أما الآن فكل الأشياء فى مأزق: عجز الميزانية ارتفع إلى أكثر من نصف ترليون دولار، الاقتصاد ما زال يشهد تقلص فرص العمل، الانتصار فى العراق تحول إلى غبار ورماد. وشعبية بوش انخفضت إلى مستوى ما كانت عليه قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أو ما يقل عن ذلك (هيرالد تريبيون) ١٣، ١٤ / ٩ / ٢٠٠٣، والإنصاف يقضى علينا أن نسجل ما أعلنته كبرى الصحف الأمريكية من تدهور مكانة الولايات

المتحدة فى العالم, وإن حاولت أن تحصر المسئولية فى قيادة بوش».

السوق والإعلام

ـ يتساءل صديقى واجما: «إن كان الأمر كذلك ما معنى هذا الشعور بالتوهان الذى يعم حياتنا الخاصة والعامة, المجالس, البيوت, الشارع والخاصة على السواء؟... مجرد مصادفة؟ أو ربما الصيف الملتهب؟»

ـ رأيته يزداد توهانا إن جاز التعبير وكأننا «فى الهوى سوا». رأيت أنه لا بد من أن نحاول معا أن نقول كلمة حق... قلت:

ـ أتصور أنك تتحدث عن سوء الأحوال الاقتصادية: ارتفاع الأسعار الجنوني, ارتفاع معدل البطالة, وكذا تردى حجم الصادرات. الغريب أن هذا كله يقولون عنه إنه مفاجئ. ولكنك تعلم, يا أخى الصديق, أن هذا كله من نتاج رؤية خاطئة إلى الانفتاح منذ عام ١٩٧٨. كان الانفتاح يجب أن يعنى أن نلتهم العلوم والتكنولوچيا والمعرفة من أوسع الأبواب, لكى نرفع من مستوى قدراتنا الإنتاجية بدءًا من قاعدة راسخة من خبراء الإنتاج المتقدم والتكنولوچيا المعاصرة بحيث نستطيع ليس فقط أن نفتح أبوابنا على مصراعيها وإنما أن نفتح لصادراتنا أسواق العالم المحيط. وهذا ما فعله عدد من الدول، خاصة الصين العملاقة أيضا منذ ١٩٧٨, وقد ارتفعت اليوم إلى مستوى المنافس الصاعد على ساحة الاقتصاد العالمى. وقد تم هذا على أساس الحفاظ بسيطرة الدولة على القطاعات الرئيسية للاقتصاد الوطنى من ناحيته, جنبا إلى جنب إلى تحديث القطاع العام وإصراره على الدخول فى ساحة السوق للتنافس, هذا بالإضافة إلى إقامة قطاع واسع عظيم الفعالية للمشروعات المشتركة مع الخارج, وذلك بشرط أن ينقل الشريك الخارجى مفاتيح تكنولوچيا الإنتاج إلى الدولة المضيفة, بحيث تستطيع أن تحصر تدريجيا تأثير شركاء الخارج دون استبعادهم على الإطلاق.

وأظن أنك توافقني, ومعنا الشارع المصرى والطلائع الوطنية, على أن حالنا اليوم له جذور عميقة، ولكنها معروفة جيدا دون غموض. بقى أن نتحرك معا, خاصة بعد أن تبدى أمام العالم ـ ونحن منه وفى قلبه ـ تأزم أحلام الهيمنة، ومعها أسطورة أن «العالم قرية واحدة».

obeikan.com

وإذ بالقرية الواحدة فى حقيقة الأمر عدة قرى متفاوتة الأحجام والقدرات لا تؤمن بحق القرية الأقوى إلى التفرد بتقرير مصير قرى العالم. أى أننا دخلنا بسرعة غير مرتقبة إلى ساحة الممكنات, بعد أن انكشفت أمامنا الحقيقة وراء زيف إعلام الهيمنة والعنصرية. العالم وحدة، نعم. ولكن العالم الأوحد يجمع بين عوالم متعددة, تمثل العديد من الخصوصيات الحضارية ـ الثقافية ـ القومية, وكذا تتمتع بدرجات متفاوتة من القدرة على الفعل والتأثير.. أى أن المستقبل ينفتح أمامنا ـ لو أردنا.

انتهت أسطورة المستحيل.. هذا مثلا مؤتمر منظمة التجارة الدولية منذ أسبوعين (سبتمبر ٢٠٠٣) المنعقد فى كانكون بالمكسيك، ٢١ دولة ـ ومن بينها الصين والهند والبرازيل وتايلاند والمكسيك والأرجنتين والفلبين وشيلى وباكستان وإفريقيا الجنوبية وأخيرا مصر, برئاسة وزير خارجية البرازيل ـ راحت تطالب بوضع حد لمظالم شروط التجارة الدولية، حيث يحصل مزارعو الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروپى على ٣٠٠ بليون دولار من المعونات سنويا من حكوماتهم, وذلك لمضاعفة إنتاج هذه الدول وإغراق أسواق الدول النامية التى لا تستطيع شعوبها أن تنافس بصادراتها, فينكمش الدخل وترتفع البطالة وتتأزم الحياة اليومية من كل ناحية. أى أننا بدأنا نشهد بداية تحرك ما زال محدود الفعالية وإن كان مؤشرا لصحوة لن يمكن إجهاضها ـ رغم فشل مؤتمر كانكون.

ـ قال صاحبى وكأنه يواصل حديثا مع نفسه: «بداية تحرك؟ أى تحرك؟ أقصد: هل يمكن التحرك فى هذا العصر؟... ترانى تائها, وأنت كذلك رغم ما تدعيه. فمن أين ترى هذه النظرة الوردية إلى المستقبل؟...».

ـ كنت أتوقع هذا السؤال, والصديق على حق. حاولت، قلت: يجب أولا ـ يا أخى الصديق ـ أن نخترق الحصار المضروب حولنا. إنه حصار معرفى وكذا إعلامى. الحصار المعرفى يأتى نتيجة لضعف إصرارنا على ضرورة بناء الجسور مع الغير المغاير، وأن نعتمد على ما يقدمه لنا أعلام الفكر والعمل فى مختلف دوائر العالم, وخاصة فى الدول المركزية والصاعدة, كما حاولت أن أعرض له فى لقائنا السابق، لو استطعنا ذلك لتغيرت الصورة القاتمة تدريجيًّا، أعنى بذلك: أن هذا الاجتهاد لمعرفة الغير المغاير سوف يفتح أمامنا إمكانيات متزايدة هائلة لرفع الحجاب عن تغيب الحركة العالمية

الحالية, وكذا الشراكة فى الأعماق مع أهم القوى التى تسعى إلى كسر جو الانكسار وإبراز معانى ومعالم ما هو ممكن بعد بداية تأزم الهيمنة. المعرفة يا أخى الصديق هى مفتاح السيادة فى عصرنا, وكذا مفتاح القوى فى كل عصر. والمعرفة هى أيضا المصباح المضىء الذى يفتح الطريق أمام العمل الجاد بعيدا عن الأوهام والخيال المختنق.

ثم تأتى حكاية الإعلام.. تعالَ نفتح أهم قنوات التلفزة فى العالم، بما فى ذلك دائرتنا العربية، إن اكتفينا بمتابعة هذه القنوات لدخل اليأس والخوف إلى قلوبنا, وتاهت أيضا قدرتنا على التحليل النقدى الجاد الذى وحده يكشف حركة التاريخ الجدلية ويتخطى الجمود والقناعة والاستسلام.

ـ تساءل صديقى: هل نحلم, أم أنك تتحدث عن إمكانات واقعية؟ ترى: كيف يمكن محاصرة موجات التخويف التى تثير عند الناس شعورا بالتوهان وكأن العالم مسرح بلا قواعد ولا ممثلين متنوعين؟...

ـ واصلت الحديث, أو حاولت، هل ننتقل إلى الشعر يا أخى الصديق؟ والشعر فى بلادنا كاشف لما يتجاهله التحليل النقدى وحده ـ وإن كنا سنعود إلى التحليل النقدى بعد قليل.

هذه مثلا قصيدة «توهة» لبهاء جاهين

«تليفون البيت اتغير/ وأنا عايز أكلم إبني/ عنوان البيت اتغير/ وأنا عايز اروَّح, سيبني/ يا عم حسن يا بتاع الزيت/ مش كنت زمان خولى جنينتنا/ مش كنت زمان حافض عنوان البيت/ ودقيقنا وزيتنا/ يا عم حسن يا بتاع الورد فين بيتنا جاوبنى!/ أنا عايز أروح بيتنا...».

أن نعتمد على أنفسنا أولا

ـ قال صاحبى: التحليل النقدى أم الشعر الرقيق؟ كيف يمكن أن نجمع بينهما إن أمكن ذلك؟..

ـ قلت: لا توجد وصفة سحرية. وإنما بيت القصيد هو أن نعتمد على أنفسنا. إن كان التوهان يعم ويطغى فإنه لا بد أن تجتمع، أيادينا مع «عم حسن» و«عم شتا» و«عم خميس» و«عم خفاجة».

نجتمع ليس لمجرد الاجتماع والمشاركة فى التوهان. وإنما نجتمع لكى نستمع إلى بعضنا بعضا، لو فعلنا ـ أى لو أصبحت ساحة الجماعة الوطنية ـ أى مصر الأمة هى البداية لكل نهاية ـ لاكتشفنا ما لا تراه العين فى عزلتها، لو رفضت أن تعترف بالأخوة فى الوطن, تنفتح عليهم بالعقل والوجدان. لو استطعنا أن نعبر جدران الأنانية والتفرقة, بحيث ننساق كلنا إلى ما يشوقنا فى الخارج والداخل, لاكتشفنا تدريجيا كنوزا لا تفنى للذكاء الاجتماعى بوصفه نتاج المسيرة التاريخية الطويلة التى نواصلها ـ لو أردنا ذلك.

سوف تسألنى: كيف يمكن أن ننجز هذا العمل ونحقق هذه الأولوية فى مواجهة المؤثرات الضوئية والصوتية التى تخترق المنازل والمجالس، بل وحتى تضفى لونها على أدق العلاقات الإنسانية؟

المسألة هنا لا تعنى استبعاد المؤثرات الصوتية والضوئية خارجية كانت أم داخلية ما دمنا نعيش على سطح كوكب واحد وفى عصر المجتمع التكنولوچى. لابد من متابعة الأمور, على أن يكون ذلك بإقامة مساحة بين هذه المؤثرات وبيننا، والمساحة هنا تعنى: اختيار لحظات الاستماع ونوعية البرامج, وكذا تنويعها لنستطيع المقارنة وإدراك الحدود. وكذا يجب أن نعتمد على الكلمة المكتوبة ـ الكتب والصحافة ـ التى تقدم وافر الزاد المعرفى لوضع أخبار اللحظة فى مكانتها المحدودة من مسيرة الزمن.

قال صاحبى: «أمر جميل... ولكن هل تدلنى على الطريق؟ كيف يمكن أن نحقق هذه المعانى؟ وهل ترى يمكن أن ننجز منها ما يكفى لكسر جو التوهان الذى يعم ويحاصر؟...»

ـ حاولت أن أجيب عن قائمة التساؤلات, وإن كان ذلك فى جو يسوده التوهان ولا يبدو فيه أننا اقتربنا من نهاية الطريق. المعانى تتواكب فى ذهنى وهى من باب التفكير العقلانى والتحليل العلمى لحركة مجتمعنا فى قلب أمواج هذا الزمن العاصف يشعر أن هذه الأفكار تمتزج بالمشاعر والآمال. تساءلت أين الحدود ترى؟ وهل يمكن أن نصل معا إلى بر الأمان؟.

اتفقنا على أنه لا بد لنا أن نواصل الحديث فى لقاء لاحق, دون انقطاع.

قال صاحبى : «افتح قلبك يا أخى : لماذا تحوم فى أرجاء المعمورة؟... من أين هذا التوهان فى بلادنا؟.. من أين نمسك الخيط, أو الخيوط؟...».

۞ ۞ ۞

■ لم تنته الجلسة من الوفاء بما يستحق موضوع التوهان من عناية, أعترف أننى خرجت من لقائى الأخير مع صاحبى فى حيرة, وقد أدركت أنه على حق : لماذا نحلق فى فضاء النظام العالمى العدوانى المتصاعد, ونهمل الداخل؟ وبالفعل ـ من حسن الحظ ـ أن صاحبى استعجل الأمر, وإذا به يدخل علىَّ فى اليوم التالى من باب اليمين لغرفة المكتب كالمعتاد وكأننا على موعد دون موعد ما دام أن الأمر جلل لا يحتمل التسويف ولا الشكليات.

قال صاحبى : نواصل التشاور «ماذا عن الداخل, وقد ألممنا بحجم الزلزال فى العالم المحيط؟ أم أن الداخل مجرد ناتج لما يأتينا من الخارج من ضغوط واختراق وتهديد؟»

لا داعٍ أن نسبح فى الخيال ما دام أن الواقع يستفزنا، هذا مثلاً ما سطره كاتبنا الأستاذ سلامه أحمد سلامة يوم ١ أكتوبر ٢٠٠٢ تعليقا على الجو السائد فى المؤتمر السنوى للحزب الحاكم : يمكن أن يوصف ما اتخذ من قرارات وتوصيات بأنها مجرد مشهيات ومتبلات تفتح الشهية, ولا تغنى عن الوجبة الرئيسية بعد فترة صيام طالت وامتدت وأزمنت بحيث إنه من الصعب مثلا إلغاء قانون الطوارئ إلا بالتقسيط.

وتبقى بعد ذلك ملاحظة أخيرة : «إننى شخصيا توقعت أن أرى مناقشات حامية حول عدد مهم من الموضوعات المطروحة يشارك فيها الشباب الذى قيل إن الحزب قد جدد كوادره ومنظماته بهم.. ولكننى لم أسمع ولم أر غير نفس الوجوه القديمة والأصوات القديمة ولم ألحظ وجود حوار ونقاش يكشف عن تعدد الأصوات والآراء, وكان أكثر ما أقلقنى أن تذهب مذيعة تليفزيونية لتأخذ رأى السفير الأمريكى بالذات فيما يجرى، وكأنه الحكم فى شئوننا الداخلية, هذا عيب وضعف لا يغتفر!»

وفى مقابل ذلك, يشير الكاتب بحق بذلك الاستثناء الوحيد وهو تلك القرارات التى أعلنها الرئيس مبارك فى الجلسة الختامية من قوانين منصفة وإلغاء بعض العوائق

الخارجية، أى أن الأمل هو أن يستطيع رئيس مصر أن يقيم الجسور مع مختلف القوى السياسية والمجتمع المدنى والمستقلين، وهو أمر بالغ الأهمية فى حد ذاته, لو أمكن تحقيقه.

من هذا التناقض بين إعلان الأمل المنشود وإدراك الواقع القائم تبدأ مسيرة الصدمة والإحباط، أى «التوهان» فى عالمنا وعلى أرضنا وفى عصرنا.

ـ قال صاحبى متسائلا: حسنا.. اتفقنا:

الواقع أبعد ما يكون من إعلانات «الريادة» فى العديد من المجالات التى تنزل علينا يوما بعد يوم عبر التلفزة والإذاعة.

ولكنك لم توضح لى الصورة إلى الآن.. الصورة, أى الأسباب, وقد ذكرت بعضها. وكذا العلاج أو المخرج فهو ما زال غائبا, أو على الأقل لم أسمع منك شيئا عنه.

مهلا, مهلا صاحبي, قدمت لك صورة صادقة لما هو قائم ويدفعنا إلى التوهان, وكيف ننسى ما قدمه فنان الكاريكاتير ناجى يوم ٤ أكتوبر ٢٠٠٢ بائع الفول واقف وأمامه عربة الفول يبشر الناس بالفرج القريب يعلن: «بالتقسيط بدون ضمانات» أى وأن الفول بالتقسيط.. وبدون ضمانات.

مرة أخرى تتداخل الدائرتان الداخلية، والخارجية ومما يلفت النظر حقيقه أن صفوة من المفكرين والخبراء العارفين بالأمر نشروا علينا خلال الأسبوعين الماضيين (سبتمبر ٢٠٠٣) مجموعة من المقالات الكاشفة تبين عمق التهديد وكذا التحدى. الكاتب المفكر أمين هويدى يدق ناقوس الخطر، يرسم صورة دقيقة للتهديدات المحيطة المقبلة إلينا، يتساءل: الخريطة تتكلم هل نسمعها؟ («الحياة» ١/ ١٠/ ٢٠٠٣). وقد أراد الدكتور مصطفى الفقى أن يلفت النظر إلى الهوة الساحقة بين الجو فى الداخل والعالم المختلف الذى يحتاج إلى مفاهيم جديدة (الحياة ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٣) إلى أن توج باتيرك سيل, الخبير البريطانى لشئون الشرق الأوسط, السلسلة إلى حد التساؤل هل مات النظام العربي (الحياة ٣/ ١٠/ ٢٠٠٣) ومعنى هذا أن تأزم الأمور فى الداخل يتشابك مع موجات التهديد والهدم من الخارج, فى المجالين الدولى والإقليمي, بحيث يمكن أن

نتلمس أسباب عمق الأزمة والتوهان السائد، بشكل أدق وأكثر إنصافا للقوى الفاعلة على أرضنا المصرية فى قلب العالم العربى.

ومن هنا على وجه التحديد كان نداؤنا المرة تلو المرة لتعبئة العقول والأفئدة والإرادات فى إطار الجبهة الوطنية المتحدة, وهو نفس التوجه الذى ندركه فى إعلان محاولة القيادة للانفتاح على مختلف القوى الوطنية, حتى ولو كان هذا الانفتاح لا يعنى بحال من الأحول إقامة جبهة وطنية متحدة تكون صاحبة القرار والمسئولية.

لا أملك يا صاحبى إجابة شافية ولا وصفة سحرية, ولكن المهم والأهم فى ظروفنا الحالية هو العمل على تعبئة أكبر نسبة من الطاقات الوطنية وهى التى وحدها سوف تقدم الأفكار والخطوات العملية لبدء العمل لإنعاش الوطن والأمة, وفى هذا التحرك ما سوف يساعد على انحسار «التوهان» بشكل ملحوظ أى أنه من العبث أن يتصور البعض أنهم قادرون على حل الأزمة الجذرية وتفتيت «التوهان» وكأن الأسماء الكبيرة مفاتيح سحرية لإنجاز لا يمكن أن يتم إلا على أيدى القوى السياسية والمدارس الفكرية التكوينية صاحبة المشروعية التاريخية وبالتالى السياسية.

« مدرسة المتحف المصرى للأطفال »

ـ صاحبى يكاد ينتفض, أو لعله يتساءل عن منطق هذا الكلام الذى يتدفق عليه, ابتسم وكأنه يتحدى: «هل هناك ترى خيط رفيع يهدينا إلى أعماق ما يملكه شعبنا من طاقات نريد تعبئتها كما تقول؟ أعنى: ما الطريق إلى المنابع؟»

ورأيتنى أحمد لصديقى التحدى، بدأت أتلمس الخيط الرفيع إلى المنابع الذى طالبنى به.

«أقول لك حكاية قد لا تصدقها, وقد أذهلتنى، فكانت الفرحة وكأنها نافورة مياه تحيط بالحضور، اسمع يا صاحبى حكاية أطفال مصر ينشدون نشيد الأمل والمحبة والتحضر, ذلك أن الظروف شاءت أن يستضيفنا الدكتور زاهى حواس, الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار إلى حفل تخرج من نوع لم أشهده من قبل».

كان ذلك مساء يوم الخميس ٢٥ سپتمبر ٢٠٠٣ للاحتفاء بتخرج دفعة «مدرسة

المتحف المصرى للأطفال» أمام ساحة المتحف المصرى, وحضر د. وفاء صديق ومن حوله لفيف من الأعوان الشباب علماء الغد. أخبرنا الدكتور زاهى حواس أن «مدرسة المتحف المصرى» حديثة العهد، وأنها الآن تتكون من حلقة دراسية للكبار وأخرى للأطفال.. المدرسة تجمع بين الدروس والمحاضرات الأساسية عن حضاراتنا المصرية الفرعونية، بالتوازى مع ورشة العمل, وفى هذا يقول الدكتور وفاء صديق «فى هذه الورشة يستطيع الأطفال ـ وكذلك الكبار ـ مزاولة فنون التصوير والرسم والتشكيل، ويرفض معظم التربويين المتحفيين فكرة أن يسود الجو المدرسى التقليدى فى المتحف, ويدعون إلى أن يحل الشعور بالسعادة والسرور والمتعة الفكرية أثناء تلقى المعلومات داخل المتحف، وهى تجربة مختلفة تماما عن الأسلوب المتبع فى المدارس».

لم يكن هذا جوا مألوفا لهذا الحضور, وفى مقدمتهم الفنانة المشرقة السيدة نادية لطفى. مجرد فكرة «مدرسة المتحف المصرى» ثم إنشاء هذا الفرع للأطفال بدا للجميع أنه خارج المألوف, وقد كان كذلك، ومما زاد من دهشتنا ما ذكره الدكتور زاهى حواس من أنه وهو يستمع إلى النشيد الختامى للمدرسة الذى وضع كلماته وكذا ألحانه جيل من الأطفال, أثناء البروفة النهائية صباح ذلك الخميس, سالت الدموع فى عينيه, استمعنا, وقد زادت دهشتنا نتساءل «إيه الحكاية»؟

فى هذه اللحظة تقدمت مجموعة الأطفال ترتدى ثيابا بيضاء محلاة ببعض الشارات التاريخية, وتصدروا مسرح الاحتفال, وقد راح أوائل المدرسة يشرحون لنا على التوالى نظام دراستهم وتدريبهم.

وقد لفت أنظار الجميع المزج بين عرض ما تم من دراسة وتدريب عملى بإشارات متكررة إلى الحضارة المصرية ــ الفرعونية إلى أن كان الجزء الرئيسى من الاحتفال, ألا وهو تمثيلية إيزيس وأوزيريس كما فهمها جيل الأطفال, تمزج بين معانى الهيام والضياع، وتتمحور حول خيط من الأمل والنور.

إلى هنا لم نفهم موضوع الدموع، ألسنا فى جو من التراجيديا المتفائلة؟ إلى أن جاء الجزء الأخير من حفل التخرج، وعند هذه اللحظة أنشد الجميع بصوت نقى أغنية هزت قلوبنا أجمعين, فكان الانبهار والدمع وثيقة أضعها أمامك يا صاحبي, أمامنا أجمعين, تهز الركود و«التوهان» باسم مسيرة حضارة مصر الغالية.

مدرسـة المتحـف بنحبـك وبنعـزك وبنقولـك عرفتينـا تـاريخ أجـدادنا وحضـارة مصرالغالية وحضارة مصر الغالية/ لو سألونا عن حضارتنا حنقول دايما/ إن حضارة مصر الغالية دى حضارة كل الدنيا, دى حضارة كل الدنيا/ إحنا إحنا, أبناء النيل, إحنا مستقبل جيل/ وحنبنى مصر الغالية, وهتبقى مصر الغالية/ مدرسة المتحف بنحبك وبنعزك وبنقولك/ عرفتينا تاريخ أجدادنا وحضارة مصر الغالية, وحضارة مصر الغالية.

وعند هذا الحد وقبل التصفيق والهتاف وقف طالب من الأوائل يعلق: «حضارة مصر الفرعونية العظيمة أقامت ونشرت العلم والمعرفة والمعمار والجمال, كانت حضارة بناء، أى حضارة بمعنى الكلمة، ولكنها أبدا لم تلجأ إلى نشر الدمار والغدر والخراب» هكذا أرادت الدفعة الأولى من خريجى مدرسة المتحف المصرى للأطفال أن يرفعوا عاليا لواء البناء والسلام والمحبة والجمال فى عصر الحروب العدوانية المدمرة المحيطة بنا.

استمرارية الشخصية المصرية

قاطعنى صاحبي, مؤكدًا أنه لا يريد المقاطعة, ولكنه حائر: بالله عليك لماذا تنتقل هكذا ـ فجأة ـ من تدقيق النظر فى المخاطر المحيطة من الخارج، وكذا العجز الواضح فى الداخل، وكلاهما مسئول عن جو «التوهان».

كيف لك أن تنتقل من هذا الجو إلى الانبهار؟ أهو مجرد الانبهار بأمسية نفذت إلى قلبك؟.. أم ماذا؟

الجو الخانق من حولنا والعجز البين فى ديارنا, كما تعلم يا صاحبي, ليس فقط تعبيرا عن «التوهان» فى عصرنا, وإنما هو ناتج لتصدع علاقتنا بحضارتنا المصرية العريقة وكأننا فى غنى عن تأكيد اتصالية الشخصية المصرية. وقد بلغ الأمر أن راح عدد من المفكرين المعنيين بالشأن العام إلى حد التساؤل عن حقيقة الشخصية المصرية.. وبودى أن يعود الجميع إلى تلك المعانى البسيطة مظهرا, العميقة التكوينية فى حقيقة الأمر، التى عبر عنها أطفال «مدرسة المتحف المصرى» يوم تخرجهم. لم يتساءلوا عن حقيقة أو جوهر الشخصية المصرية, وكلهم يتحدث بالعربية الفصحى لغتنا القومية, ومعنى ذلك أنهم لا يرون انكسارا فى مسيرة الحضارة التاريخية.

obeikan.com

لماذا يأتينا هذا الدرس البسيط الساطع من أطفال قد يكونون فى مرتبة الأحفاد, أفلم يتأثروا بجو «التوهان» المحيط؟ إنهم يشاهدون أبعاد المأساة على شاشات التلفزة.

وكذا يتابعون إرهاق من حولهم من الأقارب والجيران والأصدقاء من جراء تفاقم غلاء المعيشة، وكذا يستمعون من الكبار الكثير عن أمور البطالة ومصاريف التعليم الباهظة, دعنا من الدروس الخصوصية، أى أن هؤلاء الصغار ليسوا بمنأى عن الجو العام الذى يخترق الديار وينفذ إلى كل بيت.

لا بد أن هناك شيئًا ما يتحرك فى أعماقهم, أعماقنا.. أفلا يكون هذا الشيء عميق الأركان بالغ الأثر؟ إنما هو شعور الناس بأننا فقدنا خيط دراسة وتمعن منظومة التاريخ المصرى بحجة تحديث المناهج, مما أحدث جرحا عميقا فى اطمئنان الإنسان المصرى المعاصر إلى ذاته, ولكن, إن كان الأمر كذلك, يبقى السؤال: من أين لجيل الأطفال الأحفاد هذا اليقين بأن مصر فى أعماقها بخير؟ أفليست الإجابة على هذا التساؤل هى أن الاطمئنان المصرى إلى وطنه لا يأتى إلا بالغوص فى أعماق الوجدان؟

شادى: «جيوش الشمس»

أتصور أن مدرسة الأطفال الأحفاد كانت تستشعر معانى قرب الاحتفال بذكرى ٦ أكتوبر مما أشعل فى قلوبهم أملا لا ينهزم.

تحتفل مصر, شعبا ودولة, رجال السلاح والفكر, نساء ورجالا, الشباب والبنين والشيوخ بذكرى الأيام المجيدة التى عبرت فيها قواتنا المسلحة قناة السويس لتكسر الانكسار، وتحرر أرض الوطن، بعلم الجميع أن ظروفا قاهرة وكذا خيارات خاطئة أدت إلى خطوات دفعت بنا إلى مسلسل أزمات لم تكن فى الحسبان، ولكن الإصرار على اليقين ـ أى أولوية حب الوطن على معانى الحصار ـ كانت لها الغلبة.

فلنذكر هنا ـ يا صاحبي ـ مسيرة ورسالة شادى عبد السلام, السينمائى المبدع الرائد, وقد امتزجت بمسيرة مصر السبع ألفية، كانت حضارة مصر الفرعونية بداية المشوار بطبيعة الأمر. الفلاح الفصيح نشيد تحية لجرأة الإنسان البسيط فى ديار مصر الذى لا يتنازل عن المطالبة بحقه, فيخاطب فرعون ويقطع تجواله وهو يؤمن بأن العدل

أساس الملك, وبالفعل ـ هكذا كان نسيج القصة كما أوردتها النصوص القديمة ــ قامت أركان مجتمع الأمة المصرية على أساس العمل والعدالة والوحدة، ولعل هذا بالضبط ما استشعره تلاميذ «مدرسة المتحف المصرى» وهم ينشدون أغنيتهم,التى عبرت بشكل ناصع عن اطمئنان الشخصية المصرية فى أعماق وجدانها إلى أن مصر لا تنكسر, إذ أنها لا تحتاج إلى التسلط والعدوان، وقد اختارت طريق البناء والعقل والجمال والعطاء، طريق الحضارة الإنسانية رفيعة المقام، التى كانت ولا تزال الرائدة فى نسيج تاريخ الحضارات العريقة.

إلى أن كان زمن الفيلم الكبير الذى لا مثيل له فى تاريخ الفن المصرى المعاصر. مرة أخرى كان فيلم «المومياء» ينتمى إلى البعد الحضارى للشخصية المصرية, يجمع هذه المرة بين ما حققته حضارتنا الفرعونية وما حاولت قوى السطو الخارجية أن تهدمه,وقد خلص الفيلم الأسطورى حقيقة إلى أن شعب مصر المعاصر (ونحن فى نهاية القرن التاسع عشر) يدرك بالسليقة مغزى «المومياء» يدفع عنها عصابات السطو, ثم يهديها ومن حولها التراث المواكب إلى القاهرة عاصمة البلاد فى موكب جمع بين نساء ريفيات اصطففن على جانبى الطريق المؤدى إلى السفينة النهرية الحكومية حيث استقبلها العسكريون, ضباطا وجنودا وفى صدرهم أحمد كمال باشا الذى أصبح بعد ذلك أول مدير عام مصرى للآثار المصرية فى مرحلة تأجج للحركة الوطنية بعد ثورة ١٨٨١.

إلى أن كان الفيلم التسجيلى الأخير الذى أتاحت هذه الدنيا القاسية لشادى عبد السلام أن ينجزه, ألا وهو فيلم «جيوش الشمس».

وهى التسمية التى أطلقها رمسيس الثانى على جيوشه بعد معركة قادش, نفس الجيش الذى عبر القنال فى أكتوبر ١٩٧٣.

قال صاحبى: هل نذكر فى هذه الأيام الأبيات التى قدم بها شادى عبد السلام لفيلم «جيوش الشمس»:

«قف فلن تغنى ـ لقد نوديت باسمك ـ ولقد بعثت من جديد..».

obeikan.com

ـ ٣٢ ـ

مدخل إلى « علم » المنطق الراكد!!

من محاسن القاهرة المحروسة أن تقدم لشعوبنا ـ وكذا أحيانا وبدون مبالغة للفكر العالمى المقارن ـ فرصة نادرة عاما بعد عام للتوقف والرصد وتنقيب ما يمكن أن يكون. أقصد بذلك أن «معرض القاهرة الدولى للكتاب» أصبح بفضل رئيسه المثقف الأستاذ الدكتور سمير سرحان دائرة للتوقف والرصد وتنقيب ما يمكن أن يكون, وما دام شعور الناس على هذا النحو, فإنه يصبح لزاما علينا أن نضيف نوعا جديدا من الندوات الفكرية تعنى بما هو جديد ومغاير فى مناهج التفكير ورؤاه وتوجهاته غير المرتقبة, وعندنا أن جوهر ما يجب أن نكثف الأضواء لاختراق الإبهام المحيط به إنما هو أثر الحرب ضد المستقبل على نوعية الفكر فى المناطق المستهدفة, وهى فى المقام الأول المنطقة العربية قبل التوجه لحصار وإجهاض نهضة الصين المعاصرة فى قلب شرق آسيا.

التنقيب عما هو جديد فى التوجه الفكرى ومناهج التفكير يجب أن يكون جوهر جهدنا الفكرى المشترك ، وأولى أولوياته, عندنا أن معرض القاهرة الدولى للكتاب خير منصة لتركيز الأضواء واختراق الإبهام.

من قال « انبطاح »

نقول : هذا إسهام متواضع فى أعمال الأنشطة الثقافية المحيطة بالمعرض, تحت عنوان نقترح أن يكون : «الفكر الجديد فى زمن الحرب» .

وتشاء الظروف أن تلهب الحرب العالمية ضد المستقبل دوائر كانت حتى الآن راكدة أو حذرة, قد بدأت تنطلق بأعلى صوت وبشكل مكثف, تسعى ليس فقط إلى تجديد الفكر الوضعى الجامد, وإنما إلى زلزلة كوكبة المفاهيم والنظريات ومناهج الفكر التى عبرت عنها حركتنا الوطنية ومسيرتنا المجتمعية منذ الأربعينيات من القرن العشرين.

انزوت ـ بل وكادت تختفى ـ المفاهيم الفاعلة فى تاريخنا المعاصر, وظهرت كوكبة من المصطلحات الجديدة, هكذا أراد البعض أن ننتقل من «الاستعمار» و«الإمبريالية» و«الهيمنة» إلى «القرية الواحدة» و«العولمة» حول القطب الأمريكى الأوحد, بينما تحل تعبيرات جديدة مثل «التحديث» و«العلمانية» و«مجتمع المعلوماتية» مكان «التنمية المستقلة» و«النهضة الحضارية« و«العقلانية» و«الخصوصية» و«الإيمانية», كان السائد يندرج فى إطار التفاعل الجدلى بين المفاهيم والتصورات والنظريات النابعة من معارك التحرير وصراعات التغيير المجتمعى ونهضة شعوب الشرق ـ وكذا الجنوب ـ بعد أجيال من التبعية والتغييب, وفجأة ـ وقد يقول النبهاء «مصادفة» ـ يحل مفهوم ونظرية «الإرهاب» قمة الفكر وسلم القيم التى تطالب الشعوب والأمم بالانضباط على أساسها, وسرعان ما تمت عملية الصهر بين الإرهاب والإسلام, وذلك خلال ساعات قلائل بعد حرائق ١١ سپتمبر ٢٠٠١, وقبل أن تتحرك أجهزة الإطفاء والأمن والتحقيق والعدل, كما شاهدنا على شاشات التلفزة الأمريكية والأطلنطية فى اللحظات القلائل التابعة للحرائق فى إخراج رائع ذكرنا بأيام ملحمة «ذهب مع الريح».

انهال الاتهام من دائرة الهيمنة الإمپريالية على أوطاننا وشعوبنا, وكأنها هى أداة الإجرام أو على الأقل قاعدته, والسبب فى التخلف ومصدر المأساة التاريخية التى نحياها, أليس فى هذه المعانى الغامضة المتشابكة ما يشبه سحابة سوداء تنطلق من ورائها ضد صحوة الشرق الحضارى اتهامات الإرهاب والتخلف والسلفية؟

والملاحظ أن البعض يرى أن الانبطاح السياسى وانكسار الإرادة السيادية وتنكيس ألوية الخصوصية والعدالة الدولية رد فعل طبيعى للهجمة الشرسة التى يقودها ثنائى الهيمنة والعنصرية ضد ما هو مغاير وما هو ممكن وما هو آت على الرغم من المشاق والصعاب, وفى هذا الرأى بعض الصحة, ما دامت قسوة الهجوم لا بد وأن تحدث تصدعا فى الهيكل السياسى, أى وفى عبارة أكثر وضوحا: إن شراسة حرب محور هيمنة القطب الواحد وحليفه الصهيونى ضد الأمم والثقافات والحضارات المغايرة لا بد أن تحدث زلزالا فى الأوضاع القائمة, بحيث تتقدم أطقم جديدة من الطلائع والكوادر للترحاب بنتائج الزلزال, وذلك بإصرار لافت باسم الواقعية, وكأن «الواقعية»

اكتشاف، على الرغم من أن «الواقعية» كانت على الدوام وعند جميع التوجهات والأنظمة للحركات السياسية والمدارس الفكرية فى العالم أجمع عبر مسيرة تاريخ الإنسانية تمثل ـ أى الواقعية ـ المفهوم الرئيسى للصراعات والتقدم والثغرات، بل والانتكاسات الواقعية وليس الأحلام والأمانى والرؤى الهيامية التى اصطلح الناس على الجمع بينها فى مفهوم «الأيديولوچية»، أى أسبقية الخيال المجتمعى والسياسى على واقع التفاعلات الجدلية بين الأمم، وكذا داخل المجتمعات البشرية.

لذا كان طبيعيا أن يتجاوب قطاع من المثقفين حول كوكبة من المفكرين مع هذا الزلزال، وأن يُعبِّروا فى كتاباتهم عن الآثار المأساوية للحرب ضد المستقبل التى نحياها، ما دام أن ضعف النفوس وتصاعد الشهوات ثم ـ وعلى أحسن الفروض ـ قصر النظر المصحوب بالإصرار على إدراك المستقبل وكأنه حصيلة فكرية «مكانك سر»، نقول: إنه كان من الطبيعى أن يؤدى تلافى هذه المعانى إلى ساحة أوسع من التخبط الفكرى فى زمن الحرب ضد المستقبل.

وإنما أطلقت حقيقة أن تسابق جماعات التبعية بلغ فى القطاعات الواسعة من أوطان أمتنا العربية درجة الانبطاح، مما يثير التساؤل الجديد: ماذا حدث للمنطق فى عصرنا؟ ماذا بعد المنطق التقليدى الذى أطلقوا عليه تسمية «المنطق الصورى» الذى تمركز حول الهوية لكل شىء وظاهره؟

ثم ماذا بعد المنطق الجدلى الذى رأى أن الصراع بين مختلف مكونات الأشياء والظواهر هو جوهر الوجود، وأن هذا الصراع بين المتناقضات هو الذى يدفع الظهور بمستوى جديد من الأفكار والرؤى التركيبية الأكثر تقدما؟

وهنا لا بد من كلمة اعتذار لغير المختصين أو المعنيين بشئون الفلسفة، خاصة فى عصر «بلاش فلسفة» الذى نحياه، فإن هذه الإشارة السريعة إلى مكانة علم المنطق بفرعيه الصورى والجدلى الذى عرفته الإنسانية حتى الآن مجرد مدخل إلى ما نود أن نعنى به معا فى هذه اللحظة التاريخية المأساوية الحاسمة، ذلك أن «الفكر الجديد» الذى بدأ ينتشر ويسود، خاصة فى دوائر الإعلام على تنوع أدواتها، نقول إن هذا الفكر لا يمت إلى هذين النوعين التقليديين الراسخين، بل إنه لا يقتصر على مجرد التعامل مع الأمر الواقع وكأنه الحقيقة والوجهة دون غيره، وكذا لا يقف عند حد التقليد والتبعية،

لا يتصف بموقف رفض النتائج المنطقية التى تقدمها دراسة ما هو قائم، بل إنه على وجه التحديد يقدم وضعًا سالبًا يعبر عن مأزق الانبطاح السياسى والفكرى، وهو الموقف الذى يفتح الأبواب واسعة أمام كسر العزيمة وتضليل النفوس والضياع، ومن هنا كان اقتراحنا اليوم بأن نسمى هذا النوع العاجز من المنطق بأنه «المنطق الراكد» يدور فى حلبة العجز، لا يطرح بدائل مستقبلية، بل ولا يصل حتى إلى حد التضاد الواضح القاطع.

فلنقترب من الواقع معا.

الوجهاء الجدد

موقف قطاع واسع من المثقفين فى عصر توجيه تهمة الإرهاب الإسلامى إلى أمتنا وشعوبنا تثير حالة من الذهول.

عشرات الموائد المستديرة والندوات بل والمؤتمرات تنعقد تحت شعار الحوار، الحوار بين الإسلام والغرب، وكأن حضارة الشرق معنى بعيد غير مألوف، وكأن الفئات الحاكمة فى الدول الغربية لا تعرف حضاراتنا وثقافاتنا بعد أجيال من الحروب الصليبية والاستشراق والاستعمار والإمبريالية حتى عصر الهيمنة، وفى هذا يقول المفكر الكبير جلال أمين :

من عادة الضعيف أن يرى نفسه من خلال منظار عدوه، وأن يعتبر قوته فشلا وأخطاء الآخرين وكأنها حسنات، بل وأن المثقفين فى واقع الأمر أكثر ميلا إلى هذه العادة من غيرهم من القوم، خاصة لو تصوروا أنهم يلبون بهذا الموقف طلبا من الغرب يقدم لهم مكافأة سخية. وليس هناك حد لما يثب إليه المثقف العربى إذ يقرر العمل كلسان حال أجنبى.

سوف يقولون لنا : إن الإرهاب واقع لا ريب فيه، ثم إن الإرهاب له وجه عربى وإسلامي، ثم يضيف : إن العرب ليسوا فقراء فحسب، بل إنهم متخلفون، حتى نستمع إليهم يقولون : إن أعلى مراتب الحرية تلك التى نراها تتمثل فى أنظمة الغرب التقليدية («الأهرام ويكلى» ١ / ١ / ٢٠٠٣).

إنه منطق الانبطاح على وجه التحديد الذى يتبناه العملاء الحضاريون منذ زمن طويل، والمنطق الراكد هنا يقتضى أن يتحول المتهم من مجنى عليه إلى متهم بالجناية، وأن يزحف لتبرئة نفسه أمام جلاديه.

لم يتساءل طاقم الوجهاء الجدد أنصار فلسفة الانبطاح عن جذور ظاهرة الإرهاب الضاربة فى أركان دائرة الهيمنة الغربية منذ نحو عشرين قرنا عندما ارتفعت ممارسات محاكم التفتيش، وإعدام شعوب إفريقيا وأمريكا الهندية، حتى ضرب اليابان بالقنابل الذرية، ومذابح اليهود والجزائريين والفيتناميين, لم يفكروا لحظة فى التفرقة الجادة بين الحركات الوطنية والثورات التحريرية من ناحية وبين تفجيرات متفرقة تندلع بقدر ما ترتفع عمليات القمع والإجهاض والتغييب على الجماعات المضطهدة.

إنه فى الواقع نفس المنطق المفروض على العراق المتهم بامتلاك أسلحة الدمار الشامل, ثم تطالبه بتقديم الدليل على أنه لا يمتلكها, وأنه لو امتلكها فإنه يرفض الاعتراف بهذه الجريمة, أى أنه عليه أن يعترف بحق جلاديه بتدميره, سواء امتلك أسلحة دمار شامل أم عكس ذلك, ذلك أن الهدف من مسرحية التفتيش النابعة من قرار١٤٤١ هو منح الغطاء القانونى الشكلى تمهيدا للضربة العسكرية التى يراد لها أن تكون مدمرة.

«أسلحة الدمار الشامل» ثم ذكريات الحرب ضد الجيران (إيران ثم الكويت), وكأن سحق الأقليات العرقية (خاصة من الأكراد) هو بيت القصيد, وذلك دون الإشارة إلى ملف الغرب الأسود فى العراق: تسليحه المكثف بما فى ذلك أسلحة الدمار الشامل لإجهاض الثورة الإسلامية فى إيران, ثم استدراجه للسيطرة على بترول الكويت وكأنه مكافأة له بواسطة صمت السفيرة الأمريكية جلاسبى عام ١٩٩١ وكأنها تبارك غزوة العراق مقدما.

ولكن الأدهى هو إجماع إعلام الديمقراطيات الغربية على تغييب مغزى خطاب الرئيس صدام حسين الخطير بين الحربين ضد العراق والكويت الذى أعلن فيه أن العراق يمتلك السلاح الكافى للقضاء على نصف دولة إسرائيل لو لزم الأمر.

وعندما اندلع هذا التصريح كان يحمل فى طياته قرار سحق العراق وإعدام رئيسه, ما دامت الدولة العبرية الحليف الأول والركيزة المادية للهيمنة الأمريكية على أمتنا

العربية وبترول الشرق الأوسط كله من الخليج والجزيرة حتى إيران وجنوب غرب آسيا.

«هفوة» مقصودة تجاوبت معها معظم أنباء وتعليقات الإعلام المكتوب والمرئى فى العالم العربى.

المجنى عليه بوصفه مجرما

ثم هبت عاصفة معاداة السامية, وهى التهمة التى يعرف الجميع أنه لا يمكن توجيهها إلا إلى أوروبا فى أثناء صعودها إلى المركزة التاريخية بواسطة محاكم التفتيش وأحياء اليهود حتى التطهير العرقى, هذا بينما احتوى تسامح الإسلام جميع العقائد والقوميات والأقليات فى جو من التسامح والتآخى والتعايش يشهد له التاريخ دون تردد.

بين أحداث المسلسل التليفزيونى الرمضانى «فارس بلا جواد» هى المناسبة كما تصور النبهاء, والحق أن هذا المسلسل المؤثر المتخبط أراد أن يشيد بالحركة التحريرية المصرية ضد الاستعمار البريطاني, خاصة إن كان ذلك بشكل تآمرى فردى بعيدًا عن الصدق ومبالغ فيه من حيث الأهمية, وقد ظهر فيه الاستعمار البريطانى بوصفه شريكًا مع الخلافة العثمانية وأداة الحركة الصهيونية, بين ١٨٨٢ و١٩١٩, اتجه معظم النقاد إلى تقويم العمل وقصوره بدرجات متفاوتة أغلبها بالنقد السلبى أو اللاذع, ولكن دون المساس بنيات المخرج ولا الممثل الأول, هذا بينما انبرى نفر من المفكرين الجدد لإدانة تيار معاداة السامية المزعوم فى ثقافتنا الوطنية.

والغريب واللافت للأنظار فى هذا الملف الغريب المحزن أن عمليات القتل والتعذيب وتدمير المنازل والقرى والمؤسسات وسحق المزارع وحصار شعب فلسطين بأسره وفرض المذلة والتبعية عليه, نقول: إن الغريب واللافت للأنظار والمذهل حقيقة كأنه من عالم الغيب, وإلا لكانت الدولة الإجرامية والمجتمع العنصرى المساند لها هما المسئولان عن هذا المسلسل الدامى الوحشي, وكأن هذه المسئولية لا علاقة لها بدعوة الصهيونية إلى سحق القوة العربية من النيل إلى الفرات, وإلا لكانت هناك رابطة بين الدعوة فى بداياتها وجرائم اليوم, وذلك بغض النظر عن صحة وبطلان صدور كتاب

«البروتوكولات» مثار الجدل.

فهل يلتفت الوجهاء الجدد إلى خطاب إيهود باراك التاريخى بمناسبة العيد الخمسينى لدولة إسرائيل معلنا أن دولة إسرائيل دولة جميع يهود العالم, وهو إعلان صادق يقر بواقع الأمر وينادى بتعميق أركان الدولة اليهودية على أرض فلسطين.

إنها الرسالة التى كانت ـ ولا تزال ـ الركيزة الفكرية والنفسية الرئيسية لما ترتكبه هذه الدولة من جرائم يوما بعد يوم, إذ ترفض الاعتراف بحق فلسطين فى الوجود ولا بكون السلام بديلا للمجازر.

مرة أخرى المنطق الراكد, الدائرة المغلقة, صرف الاتهام من الجانى إلى المجنى عليه, كل هذا بمناسبة الجدل حول صدور أو عدم صدور كتاب أثار جدلا كبيرا ـ وما زال ـ وكأننا فى ندوة علمية لتحقيق المخطوطات, ولكن نهاية الأمر كما هو معروف ليست كذلك, فقد انهالت الاتهامات الأمريكية والإسرائيلية على هذا المسلسل وصاحبه, وأصبحت مصر وكأنها شريكة فى موجة معاداة السامية مرة أخرى, بينما يتصل مسلسل المذابح والهدم يوميا على أرض فلسطين, المهم أن نقبل أن نقف فى قفص الاتهام, نحن وليس المجرمون والعنصريون والصهينة والصهاينة, وأن ندافع عن كرامتنا وقيمنا على مسرح العالم.

ثم ينفتح الباب على مصراعيه «أمام المجتمع المدنى».

۞ ۞ ۞

ـ ٣٣ ـ

« التلاقى » خير من الحوار

تشاء الظروف ــ والظروف تشاء ــ أن أقف اليوم معكم فى مناسبة عزيزة علينا جميعًا، وعلى وطننا المصرى العزيز الحبيب.. المناسبة هى الاحتفال بذكرى التأسيس الـ١٢٥ لمدرسة العائلة المقدسة لهيئة الجيزويت فى قاهرة المعزّ وريثة عواصم حضارتنا المصرية السبع ألفية. وقد كانت هذه المدرسة الجليلة ــ وما زالت ــ ويقينى أنها ستظل بفضل الله تعالى وجهود وعطاءات والتزام روادها وأساتذتها وطلابها علاقة فى الصف الأول من التميز فى مسيرة مصر التعليمية والتآخى بين الإيمانيات والحضارة والثقافات التى تلتقى فى هذه الساحة النيرة.

تشاء الظروف ـ والظروف تشاء ـ أن يأتى هذا اللقاء العزيز والاحتفال الصادق فى زمن وساحة ارتفعت فيه معانى الإجرام والعنصرية والعدوانية إلى قمة لم تعتلها إلا فى النادر القليل فى التاريخ المعاصر. إن إبادة أخواتنا وإخواننا وأبنائنا وأجدادنا على أرض العراق وفلسطين تصيب فى الصميم منظومة القيم والآمال التى كانت تعتز بها شعوب الدنيا وأممها بعد حروب عالمية وتحريرية أبادت عشرات الملايين. وقد أعلن مفكرو ومخططو هذه الموجة البربرية الجيدة أنهم ــ نعم ــ يتجهون إلى صدام حضارات، وراء غلاف إعادة الحريات والديمقراطية، وراحوا يتهمون الإسلام دينًا وحضارة ـ وفى قلبه شعوب وأوطان أمتنا العربية ـ بالتخلف والبربرية وما أطلقوا عليه «الإرهاب» ــ بينما ينطلق الإرهاب ضد استقلال الدول وحريات الشعوب من المحور ثنائى العنصرية لدولتى الإرهاب منذ عقود، وقد بلغ أوجه منذ حرب العدوان لسحق العراق منذ ٢٠٠٣.

إن كانت هذه لحظتنا من التاريخ، فإنها تجعل لزامًا علينا ألا نتوارى وراء الأدبيات والقبلات باسم الواقعية والتدليك الدبلوماسى، بمعنى أن واجبنا الإنسانى والوطنى

والحضارى والإيمانى أن نواجه الإجرام والنفاق برفع مستوى إدراكنا للقيم والمعانى التى يجب أن تضىء طريق الإنسان فى عصر الزوابع والعنصرية والفكر العدمى، ما دام أن رسالة الإنسان أن يحمى ما قدر له من عمر لبناء عالم يسوده السلم والتعاون والتآخى، دعنا من المحبّة التى تبدو اليوم معنى بعيدًا مغيبًا.

ومن هنا يجب أن نتجه إلى جوهر الصراع، إلى بيت القصيد. إذا كانت دعوة قوى الشر إلى العدوانية والعدمية وصدام الحضارات والأديان، فما القول فى الموقف المبدئى والواقعى معًا المتاح وكذا الذى يجب أن نسلكه؟

العبارة الشائعة تدعو إلى «حوار حضارات»... تتعدد الندوات واللقاءات والمؤتمرات عن وحول هذا الموضوع، تستكشف الطريق وأبعاد الممكنات. وفى الوقت نفسه، يتزايد شعور الناس اللى تحت وكذا عزائم الناس اللى فوق، أى شعور جمهرة الشعب من ناحية والخبراء والقادة من ناحية أخرى بأن الكل يدور فى حلقة مفرغة. بل وأن العنف والعدوان فى تصاعد مستمر يؤدى تكاثر وارتفاع نبرة اللقاءات والنداءات المعنية بموضوع حوار الحضارات.

هل ترى هناك مشكلة فى هذا الشعار الحنون؟ وإن كانت هناك مشكلة: فأين تكمن ترى؟

مدخل أول إلى منهج دراسة العلاقة بين الحضارات من ناحية التناقص والتضاد اللذين يستوجبان المحاصرة أو الحوار. وبالفعل فإن جميع اللقاءات المعنية بهذا الحوار أو تكاد تؤكد من الحضارات المعنية بادئ ذى بدء، بينما يطالب كل جانب من الآخر أن يقبل الاستماع إليه «الاعتراف بالآخر» وأن يدرك أن لا تناقض فى الجوهر. هذا بينما أن مفهوم «الحوار» يعنى بادئ ذى بدء طرفين متناقضين يحاول كل منهما الحصول على رضاء أو قبول الآخر، أو على الأقل على حق الاستماع إلى عرض ماهيته بشكل مقبول للآخر. ومن هنا فإن مفهوم «الحوار» واتخاذه منهجًا ينتهى فى أغلب الأحيان إلى عرض حال جديد للأطراف المشاركة، مع تكرار معانى ضرورة التفاهم وقبول الآخر والعيش فى سلام. ثم يمضى كل إلى شأنه.

وعندنا أن هذا المنهج الثنائى الذى يفترض وجود التناقض ـ وليس فقط التمايز ـ

يقودنا إلى مأزق، خاصة لو اختص بساحة الديانات الإيمانية، وكأنه يسعى إلى إقناع الأطراف الأخرى بحسناته أو ريادته أو غير ذلك من معانى الجدل، والجدل هو الذى يفرض «الحوار» منهجًا.

وما دام أن العالم يحتفل هذا العام بالذكرى المئوية الثانية لأحد أعلام الفلسفة الغربية إيمانويل كانط، فربما يجدر بنا أن نفيد مما أقامة من تفرقة بين «العقل المجرد» و«العقل العملى».

الخبز أولاً. ساحة واسعة تجمع جميع أنشطة المجتمعات البشرية فى كافة الأنظمة والعصور لضمان القوت والغذاء والصحة، ثم تسلسل الأسر التى تجمع بين الأحفاد والأجداد، وذلك فى مجتمعات ثابتة من ساحات الإنتاج الزراعى والمراكز الصناعية والتجارية والعلمية والتكنولوچية والثقافية تدور حول ذلك، وعواصم الأمم والقوميات كما عرفها التاريخ، وهى تندرج فى المقام الأول فى دوائر ثقافية أو چيو ـ ثقافية إقليمية محددة، ثم تجتمع فى المقام الثانى فى عدد محدود من الدوائر الحضارية العالمية الكبرى. الخبز أولاً. لكنما الإنسان لا يعيش بالخبز وحده. ومن هنا تصاعدت أهمية منظومة الأفكار والقيم الأخلاقية والمبادئ والسياسة والمنظومات الفلسفية حتى مستوى الديانات الإيمانية والحضارات الكبرى.

إن سلكنا هذا المنهج ـ أى منهج «العقل العلمى» ـ لرأينا ساحات واسعة تنفتح أمامنا ما دمنا فى حاجة إلى نفس أركان الوجود والاستمرارية على ساحة المعمورة. ومعنى ذلك أن أسباب ومعانى وساحات التلاقى والمشاركة، بل والتعاون الواقعى الموضوعى سوف تزداد فى القطاعات الأساسية، أو البنية التحتية حسب مقولة الفكر الاشتراكى، ثم يتلوها إلى درجات متفاوتة تساؤل عن إمكان التلاقى فى الساحات القيمية، وهو بالتحديد ما تسعى إليه إرادة الشعوب فى منع الصدام بين الحضارات، ما دام أن الخروج من بؤرة الصراعات المحتومة متاح لو ركزنا الجهد والاجتهاد والإصرار على تشابك ما يجمع بين مختلف قوميات وأجناس البشر.

ومن هنا تنبع فكرة «التلاقى» بدلاً من «الحوار». ذلك أن التلاقى لا ينفى التمايز، بل ويؤكده، ما دام أن التلاقى لا يتم إلا بين كيانات متميزة بعضها عن البعض

الآخر. وإنما التلاقى يعنى فى الأساس والجوهر أن واجب الاستمرار على قيد الحياة يجعل لزامًا على جميع الأمم والشعوب أن تسعى إلى تكثيف المساعى للمشاركة فى ضمان معانى استمرار حياة الجنس البشرى فى سلام عبر قارات ومحيطات هذه المعمورة.

أما ما بعد ذلك فهو من باب الإيمان. تتعدد صيغه. ولكنها تلتقى فى الأساس، ما دمنا نعتبر أن إقامة ساحة تشابك الأيادى وتلاقى المصالح والعقول هى القاعدة الأولى للفكر والعمل فى رحلة صياغة عالم جديد.

obeikan.com